الدليل

إلى الزواج الناجح

والأسرة السعيدة

الفهرس

القسم التمهيدي: ١٥
مدخل إلى دراسة القضية الأسرية: النظرية والواقع..... ١٥
الباب الأول مقاربات نظرية وحقائق تأسيسية..... ١٦
الفصل الأول الأسرة بين المنظور الوضعي والمنظور الحضاري..... ١٧
أولًا – المنظور الاجتماعي الحضاري في الأسرة والزواج..... ١٩
الزواج: مقاصد وفوائد..... ٢٢
الأسرة في المنظور الاجتماعي الحضاري:..... ٢٤
مبادئ الأسرة معرفيًّا واجتماعيًّا: ٢٧
النمط الحضاري للأسرة: ٣١
ثلاثية الغريزة والفطرة والحدود: ٣٢
نظرية المقاصد الأسرية: ٣٣
نظرية القيم الأسرية والزواجية..... ٣٤
نظرية سنن الحياة الأسرية..... ٣٥
ثانيًا– المنظور الوضعي ونظرياته عن الأسرة..... ٣٦
نظرية الصراع: ٣٧
نظرية التبادل (الاختيار الاجتماعي): ٣٨
النظرية التوفيقية/التعويضية: ٣٩
النظرية التطورية[]:..... ٤٠
نظرية التفاعلية الرمزية/الاتصالية: ٤١
النظرية الوظيفية/ البنائية الوظيفية: ٤٣
آثار شيوع المنظور الوضعي على الأسرة وتصورات الزواج: ٤٤
سيولة العلاقات في ظل سيولة العصر:..... ٤٤
تغيير هوية الزواج: الأزواج شبه المنفصلين..... ٤٥

تغير النظر للمعاشرة الجنسية وعلاقتها بالزواج:..... ٤٥
انفصال ثلاثية الجنس والزواج والأمومة/الأبوة: ٤٦
أثر تبعية بعض الدراسات العربية للمنظور الوضعي: ٤٧
الفصل الثاني حقائق تأسيسية في الأُسرة المعاصرة..... ٤٨
أ) أشكال الأسرة المعاصرة:..... ٤٨
ب) مبادئ/شروط تحقق المعنى الأسري: ٤٩
ج) أساليب التنشئة الأسرية: ٥٢
■ أساليب التنشئة الأُسرية السوية:..... ٥٢
■ أساليب التنشئة الأسرية غير السوية:..... ٥٣
د) العلاقات الأُسرية كدالة للمناخ الأُسري:..... ٥٦
هـ) الاستهلاكية واستهلاك الأسرة..... ٥٩
الباب الثاني الواقع الأسري والثقافة الزواجية..... ٦٢
الفصل الأول نظرة في الواقع الأسري: البيئة الاجتماعية وأثرها على الأسرة..... ٦٤
أولًا- تأثير التنشئة الاجتماعية المتوارثة:..... ٦٤
أساليب التنشئة الأسرية في الواقع المصري:..... ٦٥
تحولات مفاهيم الذكورة والأنوثة: ٦٦
ثانيًا- التحديث وتأثيره على أوضاع الأسرة وتنشئة الأجيال:..... ٧٠
ثالثًا- أثر غياب الوالدية على التنشئة الأسرية:..... ٧٢
مشكلة تأنيث الأسرة: ٧٢
رابعًا: العنف الأسري في المجتمع المصري..... ٧٣
أسباب العنف الأسري في المجتمع المصري:..... ٧٣
الفصل الثاني في مصادر الثقافة الزواجية الحديثة..... ٧٥
الدراما والفضاء الإلكتروني نموذجًا..... ٧٥
أولا- الزواج وتكوين الأسرة في الدراما المصرية..... ٧٦
أ) أنماط الزواج ومفهومه والهدف منه: ٧٧

ب) أساليب وشروط الاختيار والعوامل التي تؤثر عليه: ٧٧
ج) أهم المشكلات التي تتعلق بالزواج في الدراما: ٧٨
د) أسباب الاستدامة أو الطلاق: ٧٩
هـ) أهم مفاتيح الحلول للمشكلات: ٨٠
ثانيا- الزواج وتكوين الأسرة في الفضاء الإلكتروني ٨١
فلسفة مواقع التواصل الاجتماعي ٨١
صور وقيم الزواج في الفيسبوك ٨٣
أبرز سمات محتوى الفيس بوك عن الزواج ٨٣
ظاهرة تعدد أنماط العلاقات قبل الزواج: ٨٥
* العلاقات الإلكترونية: ٨٨
* الزواج السري ٨٩
القسم الأول – مرحلة ما قبل الزواج (التأهل والاختيار واختبار الاختيار) ٩١
تمهيد: **٩٢**
الباب الأول محطة التأهل والتأهيل للإقدام على الزواج ٩٤
مقدمة: **٩٥**
الفصل الأول مراجعة ثقافة الشباب السائدة عن الزواج **٩٦**
١- مفهوم الزواج عند شبابنا: ٩٦
٢- النظرة إلى الآخر: ٩٩
٣- عوامل اختلال مفاهيم ما قبل الزواج: ١٠١
٤- قرار الإقدام على الزواج: ١٠٥
الفصل الثاني تأهل وتأهيل نفسي واجتماعي **١٠٨**
الأول- التحلي بالتوازن النفسي والفكري ١٠٨
الثاني- استيعاب الاختلافات بين الذكر والأنثى: ١١٠
الثالث- التعرف على دوافع الزواج والتجاوب معها: ١١١
١– الدافع الديني ١١١

٢– الدافع الاجتماعي ١١٢
٣– دافع الأبوة والأمومة ١١٢
٤– الدافع الجنسي ١١٢
٥– الدافع النفسي..... ١١٣
٦– الزواج لدوافع خاصة:..... ١١٣
الفصل الثالث تأهل وتأهيل شرعي لتدعيم ثقافة الزواج ١١٤
أولًا– بناء الأركان..... ١١٤
ثانيًا– أخلاق وقيم ما قبل الزواج..... ١١٥
ثالثًا– حقوق الزوجية..... ١١٦
رابعا – فنون الحياة الطيبة ١١٨
أ– تعلم ثقافة المسؤولية وقبول الاختلاف:..... ١١٨
ب– تعلم ثقافة جنسية صحيحة:..... ١١٩
الباب الثاني محطة اختيار شريك الحياة ١٢١
الفصل الأول مفهوم الاختيار الزواجي ومنظوراته..... ١٢٢
مفهوم اختيار شريك الحياة:..... ١٢٢
أ) نظريات الاختيار الوضعية:..... ١٢٣
1- نظرية التجانس/المجانسة:..... ١٢٣
2- نظرية تكامل الحاجات:..... ١٢٤
3- نظرية المعايير:..... ١٢٤
ب) النظرية التكاملية الاجتماعية في الاختيار:..... ١٢٥
١- أولوية البعد القيمي والأخلاقي في الاختيار:..... ١٢٥
٢- مراعاة البعد العاطفي في الاختيار:..... ١٢٦
٣- مراعاة البعد الجسدي في الاختيار:..... ١٢٦
٤- مراعاة البعد الاجتماعي الاختيار:..... ١٢٦
٥- مراعاة البعد الاقتصادي في الاختيار:..... ١٢٧

6- البعد الجمالي في الاختيار:..... ١٢٧
الفصل الثاني واقع الاختيار وأنماطه.....١٢٨
أ) واقع الاختيار في المجتمع ١٢٨
ب) أنماط الاختيار ١٣٠
ج) نحو تعارف جاد وهادف..... ١٣٣
في إجادة التعارف وتلافي مشكلاته..... ١٣٤
الفصل الثالث أسس ومعايير الاختيار ١٣٥
أولًا- الصلاح والأخلاق..... ١٣٥
ثانيًا- العائلة الطيبة أو ما يسمى بالحسب ١٣٦
ثالثًا- الجمال..... ١٣٦
رابعًا- التناسب أو ما يسمى الكفاءة أو التكافؤ..... ١٣٦
ويقصد بالكفاءة في الزواج: ١٣٧
خامسًا- الطاعة، وهي صفة في المرأة..... ١٣٧
سادسًا- استطاعة الباءة، وهي صفة في الرجال..... ١٣٧
مناقشة: الاختيار على أسس مادية..... ١٣٨
الفصل الرابع معادلة الاختيار نحو تطبيق لعملية الاختيار.....١٤١
بين المعايير العامة والمعايير الخاصة: معادلة الاختيار..... ١٤١
قضية: الحب قبل الخطبة وأثره في الاختيار..... ١٤٤
الباب الثالث محطة الخطبة (اختبار الاختيار) ١٤٦
الفصل الأول مفهوم الخطبة وعوامل نجاحها.....١٤٨
أولا- مفهوم الخطبة وأبعادها ١٤٨
التعريف النفسي القيمي لمرحلة الخطوبة:..... ١٤٨
التعريف الشرعي الاجتماعي لمرحلة الخطوبة:..... ١٥٠
ثانيا- الخطبة الناجحة..... ١٥١
من خرافات فترة الخطبة: تصديق الأبراج والعمل وفقا لها ١٥٤

الفصل الثاني الخطبة والزفاف من منظور اقتصادي ١٥٦

ثقافة الشباب عن تكاليف الزواج في الطبقات المختلفة ١٥٦

إلى أي مدى تؤثر الظروف الاقتصادية على فرص الزواج؟..... ١٥٧

الفصل الثالث الخطبة أم الفسخ؟ مشكلات وحلول..... ١٥٩

أولا- حلول مشكلات الخطبة المعتادة ١٥٩

ويكون هذا بسبب غلاء المعيشة أو الخوف من المسؤوليات المالية بعد الزواج. ١٦٢

ثانيا- الموقف من مشكلات خاصة..... ١٦٢

ثالثا- فسخ الخطبة: علاج التداعيات..... ١٦٨

التأهل النفسي/الاجتماعي بعد فسخ الخطبة: ١٦٨

القسم الثاني المرحلة الثانية: إدارة الحياة الزوجية (مقومات – مشكلات وحلول)..... ١٧١

الباب الأول مقومات إدارة الحياة الزوجية..... ١٧٢

الفصل الأول مقدمات مفاهيمية وواقعية عن الحياة الزوجية..... ١٧٤

أولًا – مفاهيم تأسيسية للحياة الزوجية ١٧٤

أ) الأسرة والزواج..... ١٧٤

١- النمو الفكري والعقلي:..... ١٧٦

٢- البلوغ الاجتماعي:..... ١٧٦

ب) أنماط الزواج/الحياة الزوجية..... ١٧٦

ج) مراحل الحياة الزوجية ١٧٧

1- مرحلة شهر العسل:..... ١٧٧

2- مرحلة السنوات الأولى في الحياة الزوجية:..... ١٧٩

3- مرحلة استمرار الزواج وتعمُّق معنى الحياة الزوجية:..... ١٨٠

د) مفهوم إدارة المنزل..... ١٨٠

هـ) العوامل التي تؤدي إلى نجاح العلاقة الزواجية ١٨١

و) سمات الزواج في المنظور الحضاري الاجتماعي التكاملي ١٨٤

١) الزواج مودة ورحمة..... ١٨٤

٢) الزواج سكن..... ١٨٤
٣) الإطار العام لأداء الحقوق..... ١٨٥
٤) حدود الله..... ١٨٥
٥) حق اللطف والمعاشرة بالمعروف..... ١٨٥
٦) الزواج والعرف والمعروف ١٨٥
٧) مفهوم القوامة ١٨٦
٩) الإفضاء والميثاق الغليظ..... ١٨٧
١٠) التوقعات المعقولة..... ١٨٧
ثانيا- ثقافة الحياة الزوجية في مصر..... ١٨٧
١) ثقافة المسئولية في الأسرة ١٨٨
مصادر تصورات الأزواج عن مسئوليات الزواج:..... ١٨٩
٢) ثقافة توزيع الأدوار بين الزوجين..... ١٩٠
ذكورية وأنثوية الأدوار:..... ١٩٠
نمط التربية وأثره على مسألة الأدوار:..... ١٩١
اقتراح لتعديل ميزان الأدوار:..... ١٩١
٣) ثقافات الوافد والموروث: ١٩٣
الفصل الثاني مقومات الاستقرار الأسري في الفترة الأولى ١٩٤
أولا- قاعدة الإيمان والقيم والأخلاق ١٩٥
صيانة الكرامة وعدم الإساءة..... ١٩٥
حضانة الأطفال وتربيتهم ١٩٦
تدبير شئون البيت ١٩٦
مشاركة الأزواج في أعمال المنزل ١٩٧
ثانيا- قاعدة الحقوق والواجبات المشتركة..... ١٩٨
(١) الاستمتاع: ١٩٩
(٢) التزين والتجمل..... ١٩٩

ضوابط زينة المرأة ٢٠٠
(٣) حسن المعاشرة (وعاشروهن بالمعروف) ٢٠٠
(٤) الحوار الزواجي الناجح ٢٠١
١- احتمال الخطأ والصواب ٢٠١
٢- إحسان الظن والاعتذار عند الخطأ ٢٠١
٣- تفهم نفسية الطرف الآخر وطبيعته ٢٠٢
٤- قيام الحوار على الرفق والرحمة والكلمة الطيبة ٢٠٢
٥- التواضع بالقول أو الفعل وتجنُّب العجب والغرور والكبرياء: ٢٠٢
٦- الإصغاء وحسن الإنصات لمن يتكلم: ٢٠٣
٧- احترام الطرف الآخر ٢٠٣
٨- الصدق والوضوح ٢٠٣
(٥) حق الترويح ٢٠٤
(٦) حق الإنجاب ٢٠٤
ثالثا- قاعدة الحقوق والواجبات لكل زوج على الآخر ٢٠٤
أ) حقوق الزوجة على زوجها ٢٠٤
١- المهر والنفقة: ٢٠٥
٢- تعليم الزوجة: ٢٠٥
٣- العدل بين الزوجات: ٢٠٥
ب) حقوق الزوج على زوجته: ٢٠٥
١- الطاعة بالمعروف ٢٠٦
٢- القرار في البيت ٢٠٦
٣- ألا تأذن الزوجة لأحد دخول البيت إلا بإذن زوجها ٢٠٧
٤- حفظ مال الزوج ٢٠٧
رابعا- ميزان الميزانية الأسرية ٢٠٨
إدارة الدخل المالي ٢٠٨

مراحل إدارة الدخل المالي: ٢٠٨
خامسا- جماع الإمتاع والاستمتاع (العلاقة الحميمية)..... ٢١٠
١- تقرير الشريعة لضعف الإنسان أمام شهوة الميل إلى الجنس الآخر..... ٢١٠
٢- فنون الاستمتاع الحلال وأساليبه..... ٢١٠
٣- من أساليب الإشباع الغريزي في الشرع..... ٢١١
٤- *محاذير ينبغي تجنبها والحذر منها*..... ٢١١
٥- عوامل مساعدة على كمال الاستمتاع()..... ٢١٣
٦- هل يجوز تعاطي المنشطات الجنسية؟..... ٢١٤
الفصل الثالث مقومات التوافق والسعادة الزوجية..... ٢١٥
مقدمة: ٢١٦
أولًا – التوافق الزوجي..... ٢١٦
العوامل المؤثرة على التوافق الزواجي:..... ٢١٧
1- خبرات طفولة الزوجين: ٢١٧
2- السن عند الزواج: ٢١٨
3- العوامل الاقتصادية: ٢١٨
4- سمات الشخصية: ٢١٨
5- المستوى التعليمي للزوجين:..... ٢١٩
6- تغير الأدوار الاجتماعية وصراع الأدوار:..... ٢١٩
7- التوافق الجنسي:..... ٢٢٠
٨- الجانب العاطفي:..... ٢٢٠
٩- الجانب الاجتماعي: ٢٢٠
١٠- الجانب الفكري والثقافي:..... ٢٢٠
ثانيا- التواصل الزواجي (الحوار) ٢٢١
أ) أنماط التواصل الزوجي بين الإيجابي والسلبي..... ٢٢١
ب) ثقافة (الحوار) الزوجي..... ٢٢٣

ج) معوقات الحوار الزوجي ٢٢٥
ثالثا – الرضا والسعادة الزوجية..... ٢٢٦
أ) مفهوم الرضا الزواجي وعوامل تحقيقه: ٢٢٧
ب) أنماط الرضا الزواجي: ٢٢٧
رابعا – مقوّمات دوام المحبة والتماسك الأسري:..... ٢٢٩
أ) الحب الزوجي: ٢٢٩
ب) التسامح الزوجي:..... ٢٣٠
وسائل لدوام المحبة الزوجية: ٢٣٠
أ) إظهار المشاعر واحترامها..... ٢٣١
ب) الغزل والإطراء وإظهار الامتنان..... ٢٣١
ج) تقديم الهدايا..... ٢٣٢
د) كتمان الخلاف داخل نطاق الأسرة ٢٣٢
هـ) الوفاء ٢٣٢
الباب الثاني مشكلات الحياة الزوجية واستراتيجيات التعامل ٢٣٤
الفصل الأول المشكلات الأسرية: المفاهيم والواقع والأسباب.....٢٣٥
أ) مفهوم الاختلال/الخلاف الزواجي والمشكلة الأسرية..... ٢٣٥
مستويات الاختلالات الزواجية..... ٢٣٦
مفهوم المشكلة الأسرية:..... ٢٣٧
مشكلات المتزوجين حديثًا:..... ٢٣٧
١- سوء التواصل: ٢٣٧
٢- العامل الديني والالتزام الخلقي ٢٣٧
٣- العامل النفسي..... ٢٣٨
٤- العامل الجنسي..... ٢٣٨
٥- العامل الاقتصادي..... ٢٣٨
6- التداخل مع الأهل والأقارب..... ٢٣٩

ج) مظاهر الاختلال الزواجي ٢٣٩
١) الصمت أو الخرس الزواجي..... ٢٣٩
٢) الانفصال العاطفي: ٢٤٠
مراحل الانفصال العاطفي والنفسي:..... ٢٤٠
٣) الطلاق الصامت:..... ٢٤٢
أعراض الطلاق الصامت:..... ٢٤٣
د) المشكلات الزوجية: مصادر وأسباب ومخارج..... ٢٤٤
بعض أهم آثار المشكلات الزوجية..... ٢٤٥
١) تأثير المشكلات الزوجية على الصحة النفسية للزوجين: ٢٤٥
٢) تأثير المشكلات الزواجية على الأبناء:..... ٢٤٥
الفصل الثاني استراتيجيات حل المشكلات الزواجية.....٢٤٧
قواعد عامة لحل الخلاف الأسري والمشكلات الزواجية..... ٢٤٧
أ) درجات الخلاف وطرق التعامل مع كل منها..... ٢٤٧
الدرجة الأولى من الخلاف الأسري ٢٤٧
الدرجة الثانية من الخلاف الأسري ٢٤٧
الدرجة الثالثة من الخلاف الأسري ٢٤٨
ب) قواعد عامة للتغلب على المشكلات والخلافات الزوجية..... ٢٤٩
(١) أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين زوجك..... ٢٤٩
(٢) ليست المشكلات الزوجية شرا كلها، بل ربما كان فيها خير ٢٤٩
(٣) في حال حدوث مشكلة لا يصح اللجوء إلى سبعة أمور ٢٤٩
(٤) يجب مواجهة المشكلات بجلسة نقاش..... ٢٤٩
(٥) الوقت كفيل بحل بعض المشكلات..... ٢٥٠
(٦) التعايش مع المشكلة أحد أنواع الحل..... ٢٥٠
(٧) استشر ثقة بعيدًا..... ٢٥٠
(٨) الخلاف على درجات، ولكل درجة منه طريق للحل والتغلُّب عليه..... ٢٥٠

مشكلة الغضب والعصبية..... ٢٥٠
القسم الثالث مرحلة الاستدامة أو التسريح بإحسان ٢٥٢
الباب الأول تحليل إشكالية الطلاق..... ٢٥٤
الفصل الأول مفاهيم الطلاق ومراحله..... ٢٥٥
مفاهيم الطلاق ٢٥٥
١) التفكك الأسري ٢٥٥
٢) الهجر ٢٥٦
٣) الطلاق العاطفي ٢٥٧
٤) الطلاق النهائي ٢٦١
الفصل الثاني تفسير وقوع الطلاق وآثاره ٢٦٢
أولا– التفسير التكاملي لوقوع الطلاق..... ٢٦٢
قيم وتصورات حول الطلاق: الواقع والمثال..... ٢٦٢
ثانيا– آثار الطلاق:..... ٢٦٧
أ) التحولات النفسية التي تحدُث في الطلاق ٢٦٧
ب) التأثيرات النفسية للطلاق على الزوجين ٢٦٩
ج) التقاضي للطلاق في مصر من منظور اقتصادي..... ٢٧٠
الباب الثاني من إدارة الأزمة إلى الطلاق بإحسان..... ٢٧٣
الفصل الأول نحو استراتيجية لإنقاذ الأسرة..... ٢٧٤
مقدمة: نحو وقاية للأُسرة من الطلاق أو الانفصال..... ٢٧٤
المقترح الأول برنامج إدارة الأزمات الأسرية: الإدارة الذاتية للأزمة (داخليًّا)..... ٢٧٦
المقترح الثاني بناء برنامج تدريبي لإدارة الأزمات الأسرية..... ٢٧٧
المقترح الثالث بناء برنامج لاستشراف الأنماط السلوكية المؤدِّية للطلاق..... ٢٨١
الفصل الثاني الطلاق بإحسان أو إحسان الطلاق..... ٢٨٤
الطلاق بإحسان من الناحية النفسية ٢٨٦
بعض التوصيات النفسية بعد المرور بخبرة الطلاق..... ٢٨٦

القسم التمهيدي:

مدخل إلى دراسة القضية الأسرية: النظرية والواقع

الباب الأول– مقاربات نظرية وحقائق تأسيسية

الباب الثاني– الواقع الأسري والثقافة الزواجية

الباب الأول

مقاربات نظرية وحقائق تأسيسية

الفصل الأول– الأسرة بين المنظور الوضعي والمنظور الحضاري

الفصل الثاني– حقائق تأسيسية في الأسرة المعاصرة

الفصل الأول

الأسرة بين المنظور الوضعي والمنظور الحضاري

مقدمة:

من المهم بداية أن نعي الصلة بين واقعنا وبين أفكارنا. فقد اختلف الفلاسفة والمفكرون عبر التاريخ في ضبط علاقة الفكر بالواقع؛ بين من رأى العقل ليس إلا مرآة عاكسة تعكس الواقع في قالب أفكار وصور ذهنية وليس للعقل من الأمر شيء بعد ذلك، وفي المقابل من يقول بأن الواقع هو نتاج أفكارنا و لا شيء غيرها، وبين هاتين الرؤيتين المادية والمثالية آراء مختلطة كثيرة منها ما يجعل أفعالنا رهينة تدافع بين العقل والواقع، وبين الإدراك والرغبات والقدرات وبين عقائدنا وتصوراتنا. ولكن المحصلة التي ينبغي أن نستفيدها من ذلك أن واقعنا لا ينفصل عن أفكارنا وطموحاتنا ولا العكس.

فوراء عمليات بناء الأسرة وإدارتها والحفاظ عليها، طرق تفكير متعددة، بعضها فكر منظم في صورة منهجية كالتي يتناولها العلماء والخبراء، وبعضها متقطع وربما فوضوي لا ضابط له. ولا شك أن فوضى التفكير لا تنتج إلا ضبابا وتناقضا في الفعل والواقع. وبناء على قاعدة (العلم قبل العمل) التي يأخذ بها العقلاء والجادون، فمن الضروري للمقبلين على الزواج، ولمديري الأسر من الرجال والنساء، وللمرشدين الأسريين، أن يمتلكوا قاعدة معرفية بالمفاهيم والعناصر التي تحكم وتشكل عمليات بناء الأسرة وإدارتها.

ويقوم مشروعنا هذا على تبني المنظور الحضاري الاجتماعي للأسرة السابق الإشارة إليه في المقدمة نظرا لتكامله وحرصه على النظرة الأوسع متعددة الأبعاد؛ ولكن بالمقارنة بالفلسفة الوضعية السائدة والنظريات المنبثقة منها؛ باعتبار أن النظرة المقارنة هي التي تصل بين واقعنا الذي نعيشه وأهدافنا التي ننشدها. وهذه الخلفية المعرفية من شأنها أن تمكّنّا من التعامل مع المتغيرات التي تشهدها الأسرة اليوم من ناحية، وتعزز قدرتنا على تصحيح أوضاع الأسرة وأدائها وإنجاحها.

يقوم **المنظور الحضاري الاجتماعي** على حقيقة أن الإنسان مُستخلَف ومُستأمَن لتزكية نفسه وعمران كونه الذي يسكنه؛ وتعمير بيته ومسكنه ومحل عيشه الأساسي؛

وليجعله كالجنّة التي له فيها ما يشاء (**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغدًا حَيثُ شِئْتُمَا**)-البقرة. وما لم تكن هذه **الرؤية الكلية العليا للإنسان والحياة والمجتمع** حية وواضحة لدى الإنسان، فإن تصوراته عن الأسرة وتكوينها وإدارتها -بل عن المجتمع بكليته الذي يعيش فيه- تُصبِح في أحسن الأحوال عرضة للتجريب بين الصواب والخطأ، وتفقد ثوابتها والثقة المسبقة فيها، أو ربما —كما يحدث كثيرا- تفتعل ثوابت مؤقتة لا تلبث أن تتقلب مع التغيرات بلا ضابط؛ وهذه هي حالة السيولة التي تفجرت في عصرنا الراهن: بحيث لم يعد ثابتا إلا التغير نفسه !

ولعل وجود الثوابت موصولة بالمتغيرات من أبرز ما يميّز المنظور الحضاري عن المنظور الوضعي، ومن ذلك تُبنى الأُسرة على مفاهيم: الرعاية، والمسئولية، والأمانة، والاستقامة، التي يتحملها الجميع: الرجل والمرأة والأبناء بل والأقارب؛ في ظلال الكلمة السامية: (**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيّته**)(١)، والمثال النموذجي لسفينة الأسرة والمجتمع والحياة التي يتوزع عليها الناس: (**فكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها، فكان في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا لو أننا خرقنا خرقا في موضعنا هذا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجو جميعا**)- الحديث، إشارة إلى أن التواصل والتعاون والتدافع بالتي هي أحسن يحمي الجميع من الهلاك، ويضمن النجاة للجميع!

هذا بينما يقوم **المنظور الوضعي المادي السائد في الفكر المعاصر** على أن "الواقع" هو أول الأمر ومنتهاه؛ وهو مصدر الأفكار؛ وهو معيار النجاح والفشل. وبالطبع من المهم جدًّا العناية بالواقع وتمحيص الأسباب المباشرة للمشكلات والظواهر المختلفة، ولكن اعتبار الواقع مصدر الواجب يحمل تناقضًا كبيرًا قد يصل إلى التسوية بين النجاح والفشل، ولا يميز بين الصواب والخطأ، بل قد يجعل الخطأ صوابًا طالما كان هو الأمر الواقع أو السائد والشائع. وقد نما **المنظور الوضعي ونظرياته** في الغرب (الأوروبي ثم الأمريكي) في القرنين الأخيرين حتى صار هو النهج العلمي والفكر العالمي عند الكثيرين.

ومن ناحية تفصيلية يتضمن هذا الفصل عرضا لمقتربات نظرية بين المنظور الوضعي السائد، والمنظور الحضاري المتأصل في بيئتنا وثقافتنا العربية والشرقية؛ من حيث نظرة كل منها لفكرة الأسرة ولقضية الزواج أساسًا، ثم لكيفية بناء العلاقات الأسرية على قاعدة سليمة. ونبدأ بالمنظور الوضعي ونظرياته.

(١) حديث نبوي كريم في الصحيحين، وذكر فيه: الرجل والمرأة والابن بل والخادم والخازن وكل قائم على أمر يتعلق بغيره.

أولًا – المنظور الاجتماعي الحضاري في الأسرة والزواج

الأسرة مكلَّفة بأداء وظيفة استخلافية عمرانية على الأرض. والمنظور **الحضاري** في تصوره للأسرة يقوم على مركزية مكانة الإنسان في الكون وتفرُّده في دوره ووظيفته العمرانية؛ وهذا المنظور يتضمَّن من التشريعات والأخلاق والأسس والقواعد ما يساعد على قيام الأسرة واستمرارها في أداء واجباتها وتحقيق فاعليَّتها.

وهذه النظرة للأسرة ملائمة للفطرة الإنسانية في إقرار العلاقة المعنوية والمادية بين الذكر والأنثى في صورة أسماها القرآن "**الميثاق الغليظ**"، والوجدان هو أساس هذه العلاقة التي تُسمَّى باسم "السكينة والمودة والرحمة"، كما تستوعب هذه النظرة الجانب الغريزي في الإنسان من جهة، وتضع حدودًا ذاتيَّة وموضوعية للعلاقات والتفاعلات الأسرية تضبط وتوازن بين الحقوق والحريات والواجبات والقدرات. والميل إلى الزواج غريزة في النفس البشرية، وطبيعة تحرِّك ميولًا متبادلة بين الذكر والأنثى ونزوعًا إلى البحث عن الآخر باعتباره مكملًا للذات.

وقد بيَّنت الرسالات السماوية أن المرأة الأولى مخلوقة من الرجل الأول، ثم إن الرجال والنساء –بعد ذلك– متوالدون (**من ذكر وأنثى**)، وهذا هو المشهود.. الذي لا ينكره الدين ولا العقل ولا الواقع ولا يتعارض مع أي من هذه المصادر.

ومن ثم يجب أن نلاحظ أن الزواج في الأمم المختلفة يرتبط بالدين أيًّا كان هذا الدين، وارتباط الزواج بالدين أوضح ما يكون في حالة الإسلام، وتعتبر الزيجات أو الارتباطات بين الجنسين خارج الإطار الديني غير مشروعة ومؤثَّمة في أغلب المجتمعات البشرية ومنذ عُرف التاريخ البشري، رغم الشذوذ الذي يظهر في بعض الأحيان.

فالزواج مشروع من الخالق مصدر الإنسان، وهو محل بركته ورعايته بحسب اتباع الإنسان للتعاليم التي أرسلها له. والمجتمع غير منفصل عن مصدر الإنسان وتشريعه.

والناظر في التوراة ثم في القرآن الكريم يجد مصداق هذه المعاني. ففي العهد القديم تحرَّكت نفس آدم عليه السلام بحثًا عن نظير مكمِّلٍ له يأنس به ويسكن إليه، فخلق الله تعالى من ضلع من جسده أول امرأة، وسماها آدم بحواء. وكذلك في القرآن يمتنُّ الله تعالى على الناس أن خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها، قال تعالى: (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**) [الأعراف: ١٨٩].

فالزواج من المنظور الحضاري الاجتماعي يرفض العلمانية الاجتماعية، بل يؤكِّد على الصلة الدينية الدنيوية المتكاملة. وقد ذهبت روح العصر الحاضر –خاصة من المنظور الغربي– بعيدًا عن جوهر الدين؛ ومن ثم شاع في كثير من دول الغرب –ومن بعده كثير من بقية العالم– مفهوم "**الزواج المدني**" القائم على

محاولة فصل الزواج والأسرة عن الدين، ولا تزال هذه الأفكار تلقى تحديًا واسعًا حتى في دائرة منشئها ورواجها.

والزواج آية من آيات الخالق تعالى، الدالة على حكمته البالغة، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) [الروم: ٢١]. فجعل كلًّا من الزوجين سندًا للآخر وسكنًا له، وخلق بينهما المودة والرحمة؛ بل وصفهما بأن كل واحد منهما هو ثوب الآخر وملبسه؛ كما قال تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) [البقرة: ١٨٧]؛ حيث ينصهر الزوجان في بوتقة الزوجية، فتتوحَّد روحاهما وتأتلف نفساهما، ويتقاسمان الآمال والأهداف، والأفراح والأتراح، ويصيران كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى.

والسكن نوعان: سكن نفسي، وسكن جسدي؛ وهما متوافران معا في الزواج، ولا يتوفران في غيره. أما السكن الجسدي فإن الزواج هو السبيل الوحيد إلى إشباع الغريزة البشرية المركبة في نفس الذكر والأنثى إشباعًا متَّصلًا منتظمًا متراكمًا متكاملًا. وأما السكن النفسي، فما أسعد حال من يجد من يشاركه الحياة يسرًا وعسرًا، يفرح بفرحه، ويتألَّم لألمه، ما أسعدَ رجل رزق بامرأة صالحة: إن نظر إليها سَرَّتْه، وإن أمرَها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرَّتْه، وإن غاب عنها حفظتْه في نفسه وماله. وما أسعدَ امرأة عاشت في ظلِّ رجل يحْنو عليها، ويشكر لها صنيعها، ويدلِّل أنوثتها، ويحميها من التعدِّي عليها ولو دفع روحه ثمنًا لذلك!

وبعقد الزواج الشرعي (الذي تعرفه سائر الديانات حتى الوضعية منها) تُحفظ الأحساب والأنساب، وتُصان الأعراض والحرمات، وبه تتوثَّق الصلات بين الأفراد والأسر والمجتمعات ضمن نظام اجتماعي إنساني كبير. وبه يستكمل الزوجان دينهما، فقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الزواج نصف الدين، أو يستكمل به المرء نصف دينه حيث قال: "إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي"(٢)، وقال –صلى الله عليه وسلم–: "مَنْ رزَقهُ اللهُ امْرأةً صالحةً؛ فقد أعانَهُ على شَطْرِ دينِه، فلْيَتقَّ الله في الشطرِ الباقي"(٣).

وفي الإسلام يتأكَّد أن الزواج سنة الأنبياء جميعًا من لدن آدم حتى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ فقد سجلت الكتب المقدسة زواج آدم ونوح وإبراهيم ولوط ويعقوب وموسى وأيوب وداوود وسليمان وزكريا وغيرهم عليهم السلام. وصح في الإسلام أن ثلاثة رجال جاءوا إلى بيوت أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) يسألون عن عبادة النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما أُخبروا (بها) كأنهم تقالَّوها –

(٢) صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب: محمد ناصر الدين الألباني، مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، وقال الألباني، حسن لغيره. (الترغيب في النكاح سيما بذات الدين الولود)، رقم: (١٩١٦)، (٢/ ٤٠٤). المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، رقم: (٧٦٤٧)، (٧/ ٣٣٢).

(٣) المستدرك على الصحيحين: الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: دار المعرفة – بيروت، الكتاب مصور عن الطبعة الهندية، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، رقم: (٢٦٧٩)، (٢/ ١٦١). وقال الألباني، حسن لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب، (الترغيب في النكاح سيما بذات الدين الولود)، رقم: (١٩١٦)، (٢/ ٤٠٤).

أي اعتبروها قليلة- فقالوا: وأين نحن من النبي (صلى الله عليه وسلم)، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، **وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا**. فجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، **وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)(٤).

وقد فهم علماء الإسلام من مجموع تعاليم الوحي أن الزواج عبادة كما أنه معاملة وعادة. ومن ثم فلا عجب أن نجد الفقيه الحنفي "ابن الهمام" يفتتح كتاب النكاح بقوله عنه: "**هو أقرب إلى العبادات، حتى إن الاشتغال به أفضل من التخلّي عنه لمحض العبادة... والجهاد -وإن كان عبادة- إلَّا أن النكاح سببٌ لما هو المقصود منه وزيادة؛ فإنه سبب لوجود المسلم والإسلام، والجهاد سبب لوجود الإسلام فقط**"(٥).

إذًا فقد رغَّبَ الإسلامُ في الزواج، وحَضَّ المسلمين على أن يبتغوا الذرية؛ من أجل المحافظة على الحياة وامتدادها إلى قيام الساعة. ولهذا الغرض أيضًا جاء رفض الإسلام للرهبانية! كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "**فإن حبل الحياة ينقطع عند الراهب أو الراهبة، ويبدأ شبح الفناء يلوح، فإذا شاعت هذه العبادة بين الناس، وأقبلوا على الرهبانية التي ابتدعوها؛ فمعنى ذلك أن الإنسانية تنتحر، والعالم يتفانى! فلا يستغربن أحد من الإسلام أن يجعل الزواج عبادة، وأن يجعل قضاء الوطر في ظِلِّه قُرْبَى يُؤْجَرُ المرء عليها، وفي الحديث: "من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا فليتزوَّج الحرائر**"(٦).

ومن معالم تصور الإسلام للزواج أيضًا أنه ليس ثمة طريق شرعي سواه لتحقيق منافعه: فالزواج هو الكهف الوحيد الذي يجمع بين رجل وامرأة، والمسكن الوحيد الذي يأويهما، والمسار الوحيد الذي يسمح فيه للغريزة الجنسية أن تنطلق، وما سواه منكر وعصيان لله تعالى واعتداء على حدوده وخروج عليها، حظرته شرائع الله في جميع الأديان. ولخَّصه القرآن الكريم في قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ • فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**) [المؤمنون: ٥ – ٧].

---

(٤) متفق عليه، واللفظ للبخاري، الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ – ١٩٨٧، تحقيق وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، باب الترغيب في النكاح رقم: (٤٧٧٦)، (٥/ ١٩٤٩). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج، مجموعة من المحققين، دار الجيل – بيروت، الطبعة: مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ، باب النكاح من سنته صلى الله عليه وسلم، رقم: (٣٣٨٤)، (٤/ ١٢٩).

(٥) شرح فتح القدير لابن الهمام، ط دار الفكر (٣/ ١٩٠).

(٦) سنن ابن ماجه: ابن ماجة - وماجة اسم أبيه يزيد - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللَّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، باب تزويج الحرائر والولود، رقم: (١٨٦٢)، (٣/ ٦٥) وقال محققه: إسناده ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بدون، رقم: (٥٣٨٨)، ص (٧٧٨).

لذا فهو في هذا المنظور يوصف بـ"الميثاق الغليظ"، والميثاق في ذاته: "العهد المحكم" وإضافة "الغليظ" إليه لإبراز قداسته وقوته إذا انعقد، ويتضمن الميثاق قيم الحق والعدل وقيم الإحسان والفضل؛ والتعهد ببناء الأسرة على السكن والمودة والرحمة، والعشرة بالمعروف. وعليه فالزواج أساسه علاقة بين الإنسان (الزوجين) وربّه الله تعالى؛ وليس مجرد علاقات بيولوجية على أهميتها. ومن هنا يتمايز المنظور الحضاري بركن: "الإيمان بالغيب" في تكوين الأسرة الإنسانية، ويؤثر هذا البُعد على أهداف الأسرة ووظائفها وأدوار أعضائها، كما يؤثر على نوعية الحياة المنشودة وشكلها، وطبيعة النظر إلى الوسائل المادية وعالم الأشياء الذي يرتبط به — حتمًا— وجود الأسرة واستمرارها. ومن ثم ترتبط الأسرة بالتوحيد والإيمان وتنبني على العمل بمقتضى ذلك(٧).

الزواج: مقاصد وفوائد

وإذا كان الأصل الشرعي في الزواج أنه سنة أو مندوب؛ أي مستحب (والمستحب درجة بين الواجب والجائز؛ وهو الأمر الذي يأمر به الشرع ولكن بغير جزم يعني لا يأثم تاركه وإن كان يثاب فاعله)، فإنه — على ما يظهر- يعتريه حالات أربع بحسب أحوال المقبل عليه:

الحالة الأولى: يكون النكاح واجبًا، لمن قدر على الباءة (وهي القدرة المادية أو المالية، والجسمية، ويضم إليه بعض المعاصرين القدرة النفسية)(٨)، وتيقَّن من نفسه الوقوع في الفاحشة إن لم يتزوَّج، وكذا من خشي على نفسه الوقوع فيها. فيجب على هذا الشخص أن يتزوج، ويأثم بتركه الزواج؛ لأن الزواج وسيلة العفاف عن الحرام، ومن مقاصد الشريعة تحقيق العفاف والطهر، وللوسائل أحكام المقاصد. كما أن القاعدة الفقهية تقرر: "أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

الحالة الثانية: يكون الزواج مندوبًا، في حق من ملك الباءة، لكنه يأمن على نفسه من الوقوع في الزنا. وهذه الحالة تسمى بحالة "الاعتدال". ومع هذا فقد تزوج النبي —صلى الله عليه وسلم- والأنبياء من قبله، وهم معصومون من الخطأ. ودرجة هذا المندوب هو أنه سُنَّة مؤكدة، لأن النبي —صلى الله عليه وسلم- فعله وحث عليه ورغَّب فيه.

الحالة الثالثة: يكون الزواج مكروهًا، في حق من خشي أنه لا يستطيع الإنفاق ولا يقدر عليه إن تزوَّج ولا تميل نفسه إلى النكاح، وكذلك من يظن من حاله قبل الزواج أفضل منه بعده.

الحالة الرابعة: يكون الزواج محرَّمًا، وذلك لمن ليس يحتاج إليه وأيقن —في الوقت نفسه- أنه لن يقوم بحق الزوجية؛ وذلك بأن عرف من نفسه أنه سيوقع ضررًا ماديًّا على زوجته أو عرفت المرأة أنها ستوقع ضررًا

---

(٧)إسماعيل الفاروقي: **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة السيد عمر، ٢٠١٧، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص:٢٨٨.
(٨) في حديث ابن مسعود في الصحيحين قال صلى الله عليه وآله وسلَّم: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"؛ أي: من استطاع منكم على أسباب الجماع ومؤن النكاح المادية من المهر والنفقة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم لقطع شهوته. شرح مسلم للنووي: (١٧٣/٩)، فتح الباري لابن حجر: (١٠٨/٩).

مادِّيًّا على زوجها، كمن يعجز عن الإنفاق عجزًا تامًّا (إلا أن يكون البيان والاتفاق)، أو لمن يتيقَّن أنه سيوقع بالآخر ضررًا معنويًّا كعجزه عن الجماع أو عجزه عن المعاشرة بالمعروف. لأن في هذا كله ضررًا بالزوج/ة، والضرر بالغير حرام منهيٌّ عنه، بقوله –صلى الله عليه وسلم-: "لا ضرر ولا ضرار"[٩]، وما يؤدِّي إلى الحرام حرام. ولأن الضرر والضرار نوع اعتداء ونوع ظلم حرمه الله تعالى بقوله تعالى: "**ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**".

ولهذا؛ فمن يقبل على الزواج عليه أن يراجع نفسه وينظر في حاله، ولا يتقدَّم إلى اختيار شريك الحياة هكذا بمجرد النظر في حال ذلك الشريك، فالحكمة تقول "**ابدأ بنفسك**"[١٠].

ومع هذا فالزواج كله فوائد لمن أحسنَ إدارته؛ حيث يتعلق بالزواج أنواع من المصالح الدينية والدنيوية[١١]، ومن تلك المصالح والفوائد، ما يلي:

المقصد الأول– تحصيل الاستمتاع، والتحصُّن من الفاحشة، ودفع غوائل الشهوة، وغضُّ البصر وحفظ الفرج[١٢]. وإلى تلك الفائدة أشار الرسول –صلى الله عليه وسلم- بقوله: "**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**" [١٣].

المقصد الثاني– فيه "ترويح النفس وإيناسها، وفيه إراحة للقلب وتقوية له على العبادة" كما يقول الإمام الغزالي. فمن أعظم دوافع النكاح أن يجد المرء شريكًا له في الحياة يعينه على طريق السير إلى الله – تعالى– فيتعفَّف به عن الحرام، ويأخذ بيده إلى طريق الرضوان، وينجب له الولد الصالح الذي يعمِّر الأرض بطاعة الرحمن. فهذا هو المقصد الأسمى من الزواج الذي ينبغي أن يجعله الإنسان نصب عينيه عند اختيار شريك حياته، ووالد(ة) أبنائه. وبهذا جاء الحديث: "**ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة مؤمنة، تعين أحدكم على أمر الآخرة**"[١٤].

---

(٩) المستدرك على الصحيحين: الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة - بيروت بإشراف: د. يوسف المرعشلي، الكتاب مصور عن الطبعة الهندية، رقم: (٢٣٤١)، (٢/ ٥٧).
وقال الألباني في الإرواء: صحيح، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، رقم: (٨٩٦)، (٣/ ٤٠٨).

(١٠) جزء من حديث رواه مسلم.

(١١) ينظر: المبسوط: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دراسة وتحقيق: خليل محي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، (٤/ ٣٤٩).

(١٢)إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة – بيروت، بدون،، (٢/ ٢٧). المبسوط للسرخسي، ط دار الفكر، (٤/ ٣٤٩).

(١٣) الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ٢ - باب قول النبي صلى الله عليه و سلم (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر أحصن للفرج) . وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح (أي لا حاجة له فيه ولا تتوق نفسه إليه)، رقم: (٤٧٧٨)، (٥/ ١٩٥٠). صحيح مسلم، واللفظ له، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم: (٣٣٨١)، (٤/ ١٢٨).

(١٤) سنن ابن ماجه: ابن ماجة - وماجة اسم أبيه يزيد - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، رقم: (١٨٥٦)، (٣/ ٦١). وقال الألباني: صحيح. ينظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني.

المقصد الثالث– حصول الولد؛ لإبقاء جنس الإنسان[١٥]. فهذا الولد المتخلِّق عن الزواج، كما يكون عمارة للحياة وزينة وسندًا لوالديه في الدنيا، فإنه يكون كذلك في الآخرة بصلاحه ودعائه الذي يوضع في ميزان حسنات والديه ويتجدَّد لهما ثوابه[١٦]، فقد قال الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم-: "**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**"[١٧].

ولا يعني ذلك ألَّا يكون للزواج سبب أو مقصد غير هذا، ففي الحديث: (**تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها**)[١٨]. فهذا إخبار منه –صلى الله عليه وسلم- بحال الناس عند الإقدام على الزواج من امرأة ما، ثم يوجه النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى ما فيه الخير كله فيقول: "**فاظفر بذات الدين تربت يداك**".

وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله تعالى-: "**يجب أن نعرف أن الزواج ليس التقاءً لمزيد من الإنتاج الحيواني، إن الأسرة في الإسلام امتداد للحياة والفضيلة معا! امتداد للإيمان والعمران على السواء. ليست الغاية إيجاد أجيال تحسن الأكل والشرب والمتاع، إنما الغاية إيجاد أجيال تحقق رسالة الوجود، ويتعاون الأبوان فيها على تربية ذرية سليمة الفكر والقلب.. شريفة السلوك والغاية**"[١٩].

الأسرة في المنظور الاجتماعي الحضاري:

الأُسرة هي الجماعة التي يقوى ويحتمي بها الإنسان، ويشعُر في كنفها بالقوة والأمان. وتشتمل الأُسرة –وفقًا لتعريفها اللغوي– على عدَّة معان؛ منها أنها جماعة أفراد يرتبطون بالزواج، وتشمل نمطيًّا الأب والأم والصغار، أو هي مجموعة أشخاص يعيشون معًا في بيت مُنفرِد. وتختلف حدود الأُسرة من ثقافة لأخرى، لكن تشمل في أساسها الأم والأب وأطفالهما[٢٠].

---

(١٥) إحياء علوم الدين: مرجع سابق، (٢/ ٢٤ وما بعدها بتصرف).
(١٦) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢، (١١/ ٨٥).
(١٧) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، مجموعة من المحققين، دار الجيل – بيروت، مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ، ٤- باب إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ، رقم: (٤٢٣٢)، (٥/ ٧٣).
(١٨) صحيح البخاري، باب الأكفاء في الدين، رقم: (٢٤٠٢)، (٥/ ١٩٥٨). صحيح مسلم، باب فاظفر بذات الدين، رقم: (٣٦٢٥)، (٤/ ١٧٥).
(١٩) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: الشيخ/ محمد الغزالي: ص ١٠٢ وما بعدها.
(٢٠) كمال دسوقي(١)، ١٩٩٠.

والأُسرة –في المنظور الاجتماعي– هي وحدة المجتمع الأولى، وهي حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، أو الوسيط بين الثقافة والشخصية. والأُسرة هي الوسط الإنساني الأول الذي ينشأ فيه الطفل، ويكتسب في نطاقها أول أساليبه السلوكية التي تُمكِّنه من إشباع حاجاته وتحقيق إمكانيَّاته والتوافق مع المجتمع.

وبناء عليه؛ فالزواج وسيلة لغاية، أو بالأحرى غاية لغاية أعلى، هي بناء البيت أو الأسرة. والوظيفة الأولى والأعظم للبيت هي الحفاظ على إنسانية الإنسان وإيمانه وخلقه أو تلك العناصر التي هي مقومات إنسانيَّته حتى قبل جسده! والأبوان شركاء في أداء هذه الوظيفة؛ وحيث يعلم الزوجان أنهما شريكان في إدارة سفينة يريدان أن يعبُرَا بها إلى بَرِّ الأمان **(سعادة الدارين)**، فعند ذلك لن تقوم العلاقة بينهما على مفهوم الصراع، أو الحقوق المتصارعة، وإنما على التعاون والبذْل من أجل بعضهما البعض. وأهم ما يساعد على ذلك التربية والتعليم اللذان يزيلان الجهل ويعالجان الأنانية ويمحوان من البداية تلك السمات السلبية التي أدَّتْ في أغلبها إلى فشلٍ ذريعٍ للحياة الأسرية، وفي الوقت نفسه يغرسان التصورات الأصيلة والقيم النبيلة.

ومن النظر في الواقع وفي التجربة الإنسانية الواسعة عبر التاريخ والأمم، ندرك بادئ ذي بدء أن الأسرة –حتى في حدِّها الأدنى من الوجود– تقوم بوظائف عديدة متداخلة ومترابطة من أهمها ما يلي:

١. **تنظيم الدوافع الجنسية والأبوية وإشباعهما:** فالوظيفة الحيوية الرئيسية للأسرة هي إتاحة الفرصة المشروعة للزوجين "طرفي الأُسرة" للإشباع الجنسي من جانب، ولإنجاب الأطفال إنجابًا شرعيًّا من جانب آخر باعتبار مطلب الإنجاب مكملا للإشباع الجنسي، فالأسرة هي الوسط الذي يُسمح فيه بإشباع الغرائز والاستجابة للدوافع الإنسانية[٢١].

٢. **إشباع حاجات أفراد الأسرة:** فكل أسرة مسؤولة عن إشباع حاجات أفرادها الصغار والكبار سواء حاجات مادية من مسكن ومأكل وملبس ومشرب وغيرها، أو حاجات نفسية منها الأمن والمحبة والانتماء، أو حاجات اجتماعية كالحاجة للحب وللانتماء والتقبل والرضا، والحاجات الروحية وهي ترتبط بالبُعد الروحي الديني فى الإنسان الذي يدفعه إلى عبادة الله وصلة الرحم، وكذلك الحاجات الترفيهية والتكميلية[٢٢].

٣. **الرعاية والحماية والعلاج:** فعلى الأسرة رعاية أفرادها حيث توفِّر لأبنائها الرعاية والحماية حتى يكبروا ويحصلوا على عمل ويتزوجوا ويكون لهم أُسر، كما عليها أن توفِّر لكبار السنِّ من الأجداد والآباء الرعاية والعلاج والاهتمام والرحمة بضعفهم. ومن ذلك **التعليم والتأهيل:** حيث تُساعد

(٢١) ناهد شريف، وحنان خليل، مرجع سابق.
(٢٢) كمال إبراهيم، ٢٠٠٨.

الأسرة أفرادها في تعلُّم الخبرات والمهارات والمعلومات والمعارف التى تُناسب قدراتهم وميولهم؛ حتى يكونوا صالحين لأنفسهم ومجتمعهم.

٤. **المساندة الاجتماعية الأسرية**: ويُقصد بها مساندة الأسرة لأفرادها وتوفير الأمن والمحبة والصحبة الطيبة، ومُشاركة الأسرة أفرادها في السَّرَّاء والضَّرَّاء[٢٣]. تلك المساندة التي من شأنها أن تدعم قدرة كلِّ عضو من أعضاء الأُسرة على تحمُّل الضغوط، والتخفيف من الشعور بالإجهاد؛ ممَّا يجعل الأُسرة أقل عرضة للأمراض النفسية وخاصَّة الاكتئاب[٢٤]. وتبدأ هذه المساندة منذ حمل الأُم، حيث تؤثر نوعية الدعم والمساندة التي تتلقَّاها أثناء الحمل على صحتها وصحة الوليد؛ ممَّا يجعلها قادرة على التعامل مع الإجهاد والأعراض الجسمية التابعة للولادة بشكل إيجابي[٢٥]. وهذا من معاني "السكن" والسكينة التي تتأسَّس عليها الأسرة في المنظور الحضاري. **وتقدِّم الأسرة المساندة الاجتماعية بثلاثة أشكال رئيسية هي:**

- **المساندة الوجدانية**: فتكون الأسرة هي المكان الذي يشعر فيه الإنسان بالأمن والطمأنينة والتقبُّل من أهله. وهذا الجزء عنوانه "المحبة أو المودة" التي هي رباط وجداني خاص يشعُّ تعاطفًا ورغبة في تحقيق منافع وغايات الآخر، ولا شك أنه طاقة خاصة تمنح الإنسان طاقة جبارة على العيش والتعايش والسير في الحياة ومواجهة الصعاب.
- **المساندة المعنوية**: وهي التي يجدها الفرد في كلمات التهاني والثناء والمديح التي يسمعها فى مواقف السَّرَّاء، وعبارات المواساة والشفقة والتشجيع والدعاء له فى مواقف الضَّرَّاء. وهي قريبة من السابقة لكنها من باب "الرحمة" وخاصة عند مواجهة المشكلات.
- **المساندة المادية**: وتتمثَّل في مساعدة الأسرة أفرادها بالمال والوقت والجهد فى مواقف السَّرَّاء والضَّرَّاء. والمثال الأجمع للثلاثة ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة من حب ورحمة ومواساة، استمرَّت خمسة عشر عاما من الزوجية ثم سنوات أخرى بعد وفاته وحتى وفاته هو صلى الله عليه وسلم.

فعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا ذَكَرَ خَديجةَ أَثْنى عليها، فأحسَنَ الثناءَ، قالت: فغِرْتُ يومًا، فقُلْتُ: ما أكثرَ ما تذكُرُها حَمراءَ الشِّدْقِ، قد أبدَلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها خَيرًا منها، قال: ما أبدَلَني اللهُ عزَّ وجلَّ خَيرًا منها، قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ، ورزَقَني اللهُ عزَّ وجلَّ ولَدَها إذ حرَمَني أولادَ النِّساءِ"(٢٦).

---

(٢٣) كمال إبراهيم، ٢٠٠٨.

) 24(Walen & Lachman، 2000.

) 25(Abdollahpour & Keramat، 2016.

(٢٦) الحديث عن عائشة أم المؤمنين، مسند أحمد بن حنبل: 24864، قال المحدث:شعيب الأرناؤوط: صحيح، وأخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧) بنحوه مختصراً، واللفظ لأحمد.

٥. **تحديد المكانة الاجتماعية وإعطاء الحياة معنى أو قيمة:** حيث يكتسب الفرد مكانته الاجتماعية من مكانة الأسرة التي ينشأ فيها. كما أن انتماء الفرد لأُسرة يعطي حياته معنى وقيمة، فحب الأهل وحرصهم عليه يجعله يُدرك أهميته وقيمته ويُدرك قيمة أهله فيجد لحياته معنًى[٢٧].

مبادئ الأسرة معرفيًّا واجتماعيًّا:

من الناحية المعرفية الاجتماعية، يقوم المنظور الاجتماعي الحضاري للأسرة على المبادئ والأسس التالية:

١. **من الإنسان إلى الأسرة إلى الإنسانية الواسعة:** وأساس ذلك مبدئية فكرة «**الاستخلاف**»؛ أي استخلاف الإنسان في الأرض ليقوم بمسؤوليات ومهام حدَّدها مستخلِفُه –وهو الله تعالى– وهي عمران هذا الكون (**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**) [هود: ٦١]، وتحقيق وظيفة العبودية في الكون لله تعالى (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) [الذاريات: ٥٦]، وتزكية النفوس (**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**) [الشمس: ٧]، (**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**) [الشمس: ٩]. ومن ثم؛ فإن تكوين الأسرة هو أول خطوة لتحقيق هذا العمران وفقًا للمنهج الإلهي، الذي يتربَّى عليه الفرد داخل الأسرة، وتمثِّل الأسرة لهذا الإنسان المحضن الأساسي والمؤسَّسة الأكثر فعالية لتعليم واجبات الاستخلاف، ولهذا أكَّدت جميع الشرائع السماوية على مشروعية تكوين الأسرة، بل وضرورتها للوجود الإنساني الذي لا يستقيم في أدائه لوظائفه على الأرض دون هذا التكوين. إن وظيفة الأسرة في رعاية أفرادها وتكامل أدوارهم هو الأساس الفطري والحيوي والنفسي لعلاقات أفراد المجتمع خاصة و"الأسرة الإنسانية" عامة.

٢. **مساواة لا تسوية:** ينظر المنظور الحضاري إلى الرجل والمرأة نظرة مساواة لا تسوية؛ مساواة تامة من حيث المبدأ: مساواة في الخِلقة والنشأة: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**) [النساء: ١]، ومساواة في التكاليف العبادية وما يتبعها من مساواة في الجزاء والحساب[٢٨]، ومساواة في التكاليف الاجتماعية، كذلك المساواة في الأهلية وحق التملك والتصرُّف والنشاط الاقتصادي[٢٩]. ومن ثم **تمارس المرأة –على وجه الخصوص– حقوقها كاملة** في هذا المنظور، وقد فعلت عبر التاريخ خاصة عندما جرى تطبيق هذا المنظور في الواقع الاجتماعي، فمارست حقَّها في التملُّك والتعلُّم والتعليم والإنفاق والتجارة وعقد العقود والجهاد والنشاط السياسي، والخبرة التاريخية توضِّح ذلك بصورة مكثفة وواضحة. وكذلك الرجل يستوفي حقوقه تامة؛ لأن حقوق الزوجية لا تتنافى ولا ينقص بعضها بعضًا.

---

(٢٧) كمال إبراهيم، ٢٠٠٨.
(٢٨) {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ...} [آل عمران: ١٩٥].
(٢٩) {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١]

أما الشقُّ الآخر المكمِّل للمساواة وحتى لا تتحوَّل إلى مفاصلة ومنازلة فهو التأمل القائم على حقيقة مشهودة هي التمايز بين الرجل والمرأة –سواء في الشكل أو الجنس أي الذكر والأنثى. فهذا في جوهر هذا المنظور يعني التكامل لا الصراع، والتساند لا المنافسة ذات المخاطر؛ تلك المنافسة التي تشجع عليها بعض الاتجاهات النسوية المعاصرة. فالمرأة والرجل هنا خُلقا لتحقيق وظيفتين مختلفتين ولكن متكاملتين: **(وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)** [النساء: ٣٢]، فوظائف الأمومة المتمثلة في رعاية أفراد الأسرة وتربية الأطفال، ثم إتيان ما تطيقه من الأعمال وما يحتاجها من المهام الأخرى، ووظائف الأبوة المتمثلة في حماية البيت وتزويده بمتطلبات المعيشة والقوامة العامة داخل البيت وخارجه، استدعت اختلاف الرجل عن المرأة في البنية الجسدية والنفسية والعاطفية. ودور كلٍّ من الزوجين في الأسرة خاضع –على قدم المساواة– للموازين العادلة من الأحكام الدينية والأعراف الأخلاقية، ويستدعي استخدام كل منهما كلَّ ما أوتي من الذكاء والموهبة والطاقة والقدرة على العطاء من أجل القيام به.

ومن هذه الرؤية تأتي قاعدة "التكامل لا التماثل": ومن الأخطاء المعرفية في إدراك أدوار الأسرة هو تصور "التماثل" في الأدوار على أطراف العلاقة الأسرية؛ لأن ذلك منطلق خاطئ من ناحية الحقيقة الفطرية المحسوسة والحقيقة الواقعية المشهودة، وفيه تشويه للوظيفة الأسرية، وجور على حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم؛ مما يسيء إليهم، ودون فهم سليم لدور الفطرة في بناء الأسرة، والتي تكمن في تكوين الأسرة الإنسانية وحاجاتها الوظيفية(٣٠).

ومن جهة أخرى؛ فإن هذا التمايز في الأدوار لا يتعلق بمجالات النشاط الإنساني التي يتشابك فيها دور كل من الرجل والمرأة، ولا بالمجالات الأخرى التي لا تتشابك فيها أدوارهما، ومن الممكن أن تقوم المرأة بأنشطة ذكورية في الأصل أو العكس في أحوال معينة، وأن يعبُر كلٌّ منهما إلى فضاء نشاط الآخر فيما لو توفَّرت قابليات فطرية وواقعية تجعل ذلك أمرًا ممكنًا، أو طرأت ضرورةٌ تجعله مفيدًا أو واجبًا؛ شريطة عدم الإخلال بالتمايز الرئيس الذي أودعه الله تعالى فيهما بفطرة خلقهما(٣١).

٣. **الرعاية والمسئولية:** ومن ثم تظهر فكرة "**الرعاية**" كمفهوم مركزي للوظائف التي ينبغي أن تقوم بها الأسرة تجاه أعضائها، ومبدأ "**الرعاية**" مفهوم ممتد يتَّسع لكلِّ مناحي الحياة ومتطلباتها: العقيدية والاجتماعية والثقافية، وفي كافَّة أزمان ومراحل الأسرة، فالرعاية مفهوم شامل يتضمَّن احتياجات الإنسان الأساسية والطارئة والمتغيرة، الآنية والممتدة، وهو مأخوذ من الشعار العظيم (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**). ويرتكز هذا المبدأ على عدَّة أسس، هي:

---

(٣٠) عبد الحميد أبو سليمان: **أزمة الإرادة والوجدان المسلم**، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤، ص: ٢٣٦.
(٣١) المرجع السابق، (ص:٢٩٢).

أ- **الترابط**: فالأسرة كيان مترابط المراحل والتكوين مثل الكائن الحي، الذي يكون في حالة نمو وحركة دائمين.

ب- **التكامل بين الفرد والأسرة**؛ فهذه النظرة للأسرة تقوم –أيضًا– على أنه لا حياة للجزء فيها (الفرد) من غير الكل (الأسرة) والكل (الأسرة) يكوِّن شيئًا أكبر من مجموع أجزائه، وهذا الكل (الأسرة) هو الذي يتاح فيه للأجزاء (الأفراد) المناخ السوي الذي يهيئ حالة النمو الراشد النافع. وتدعم هذه النظرة للأسرة، فكرة مجتمع البنيان المرصوص أي **المتماسك** الذي يشد بعضه بعضًا.

ج- **الصلاحية الاجتماعية**: يتولَّد أيضًا عن هذه النظرة للأسرة فكرة صالحية المخرج الإنساني الناتج عنها؛ أي الإنسان الصالح اجتماعيًّا المناسب لحركة **وتطوُّر المجتمع والقادر** على الفعل / التفاعل / التعاون الإيجابي داخل المجتمع الأكبر.

د- ويطرح المنظور الحضاري نظرته لشكل **الأسرة** الذي يراه من الامتداد والاتِّساع ليشمل حالة اجتماعية أوسع من المفاهيم الوضعية الضيقة التي تطرح المفهوم مقتصرًا على شخصين (زوج وزوجة) وأبناء.. فيضم إليها علاقات وأطرافا: (الأخ) و(الأخت)، (العم) و(العمة)، و(الجد) و(الجدة)، و(الخال) و(الخالة)، في إشارة إلى أن الأسرة هي نواة تكوين "شبكة علاقات اجتماعية" مترامية الأطراف في المجتمع. وهذا يتجاوز إشكالية أسرة نووية أم ممتدَّة؟ إذ لا مانع من هذه أو تلك طالما تحقَّقت شروط الترابط والتماسك والتكامل والصالحية الاجتماعية.

٤. **الفطرية الأسرية**: ومن الوظائف الأساسية التي تقوم بها الأسرة –في المنظور الحضاري– تنمية ما يسمى بـ"**القابليات الفطرية**" لدى الإنسان؛ بمعنى تهيئة أفراد الأسرة لتحقيق وظيفة "الإنسان" في الأرض في كافَّة معانيها الظاهرة والباطنة، ومن هذه القابليات الأولية: الدفع إلى تكوين الأسرة نفسها والحفز على الزواج[٣٢]، ثم الأسرة تقوم بدور التهيئة للأبناء على ممارسة هذا الدور من خلال القدوة الصالحة والنموذج الصالح الذي يقدم فيها.

٥. **الحقوق والواجبات من المبادئ المؤسسة في بناء وتكوين الأسرة**: ويقوم هذا المبدأ على مقولة تأسيسية لها بعدها الاجتماعي؛ وهي: «**أن كل حق يجب أن يقابله واجب**»؛ فمبدأ / حق "القوامة" – على سبيل المثال– يقابله واجب الرعاية والمسؤولية المادية والاجتماعية عن كل شأن الأسرة، وحق النفقة والرعاية يقابله واجب المرأة الطاعة وحسن التبعُّل.. وهكذا حقوق الزوج والزوجة وحقوق الآباء والأبناء. أما المثل الأعلى فهو "الإحسان"، ويقوم "الإحسان" على التقوى في أداء "الحقوق والواجبات" بين أعضاء الأسرة (سواء من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى)؛ فيوفِّي كلٌّ منهم الحقَّ الذي عليه دون رقيب

(٣٢) "أيها الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج" الحديث، سبق تخريجه.

من الآخر، ويرعى الأب والأم الأبناء صغارًا وهم غير قادرين على المطالبة بحق، وذلك مراقبة لله وتبعًا لدافع الفطرة. وفي هذا المنظور الإيماني يمتد الإحسان إلى عالم الغيب مثل بِرِّ الأبناء للوالدين حتى بعد مماتهما بالذكرى الصالحة وإتمام أعمالهما الخيرة.

٦. يؤكد المنظور الحضاري في طبيعة العلاقات الزوجية على مركزية (**حسن العشرة**) وحسن المعاملة بين الزوجين باعتباره عماد استقرار الأسرة، الَّذي نَصَّ عليه قول الله تعالى: (**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**) [النساء: ١٩]، ومضمون هذه العشرة بالمعروف: احترام المشاعر، والتعاون على تحقيق الأُلْفة والمودَّة. ويرتبط مفهوم حسن العشرة في العلاقات القائمة بمبدئية المعروف (**بِالْمَعْرُوفِ**) الذي يبلغ مرتبة الإحسان في هذه العلاقة القائمة، وحتى حال إنهاء العلاقة ينبغي أيضًا أن يلتزم هذا المبدأ (**أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**).

٧. **الإشباع والإمتاع الجنسي**: والمنظور التكاملي يرى في الإشباع الجنسي بين الزوجين **أساسًا مهما في الحياة الزوجية، لكنه ليس كافيًا لأن يحقق بمفرده الهدف من بناء الأسرة**؛ ويقر بالزواج القائم على الحب لكن ليس العارض، وعلى الرغبة الجنسية لكن ليست النزوة المؤقَّتة. فالزواج ينشئ شبكة واسعة من العلاقات الإنسانية، **يدور عليها** جزء كبير من الفعل الأخلاقي، وعائل الأسرة هو المسؤول الأول تجاه أفراد أسرته عن واجبات الإنجاب، والحب، والتراحم، والشورى، والتوجيه، والتربية، والتعاون، والمودة[٣٣]، كما يحتل (أولو القربى) مكانة رفيعة في التصور الاجتماعي للأسرة؛ ما يعرف بوشيجة العصب، وصلة الأرحام.

٨. **ترافق الأجيال**: ومن أهم خصائص هذا النمط من الناحية الاجتماعية تجاوز الفجوة بين الأجيال؛ الأمر الذي يجعل تنشئة الصغار وانتقال الثقافة بين الأجيال فعَّالًا على الدوام، على نحو يكفل انتقال القيم بعيدًا قدرَ الإمكان عن الانحراف، ويوفِّر نوعًا من الضبط الذاتي والعطاء المتبادل بين الأفراد. وقد يَحُدُّ تقارب الأسرة نوعًا من بعض خصوصيات الأفراد في الظاهر، ولكن الواقع يشهد أنه يوازن بين الذات والآخر، وبين الرغبات والحقوق والمصالح، ويوفر قدرًا من الانضباط الذاتي، وأن يتحلَّى المرء بالإيثار والاستعداد للتضحية من أجل الآخرين، ومن الأفضل أن نتعلَّم ذلك على أيدي أحباء لنا في بيوتنا وليس على أيدي غرباء.

٩. **نبذ الشقاق وإصلاح ذات البين**: طرح المنظور الحضاري بعض الآليات لحلِّ النزاعات الزوجية ولتجنُّب الشقاق وانفكاك الأسرة؛ منها الموعظة بين الزوجين والاعتزال، ثم التحكيم بين الزوجين (**وإن خِفتُمْ شِقاقَ بينهِما فابعثوا حَكَمًا من أهلهِ وحَكَمًا من أهلها إن يُريدا إصلاحًا يُوفِّقِ الله بينَهُما إنَّ**

(٣٣)إسماعيل الفاروقي: **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، (ص:٢٨٦).

الله كان عليمًا خبيرًا) [النساء: ٣٤- ٣٥]. وهي حالات من التدرج لحل الخلافات التي قد تنشأ بحكم الطبيعة البشرية، أو العوامل الاجتماعية في الأسرة أو خارجها.

١٠. **دوام المعروف والإحسان:** فكما أن الإحسان والمعروف في العلاقات الاجتماعية القائمة في الأسرة، فإنهما كذلك –بحسب المنظور الحضاري– لا بدَّ أن يكونا قائميْن حال إنهاء هذه العلاقات من الوجهة الشرعية، فمن عجائب القرآن أنه ذكر الإحسان في الفراق في مقابل "المعروف" في الاستمرار الزواجي: **(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)** [البقرة: ٢٢٩]، والإحسان أعلى مرتبة من المعروف. ومن ثم يحذر من إمساك الأزواج لزوجاتهم لغاية الضرر بهن ويعتبره استهزاءً بآيات الله ومقدساته أي ميثاقه: **(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا)** [البقرة: ٢٣١]. ما يشير إلى منظومية وتكاملية القيم الحاكمة للقضية الزواجية من قبل الزواج إلى غايته أو حال انتهائه بطلاق أو غيره.

هذه باختصار أهم مبادئ المنظور الحضاري الاجتماعي للأسرة، والتي قد تتقاطع مع بعض مبادئ المنظورات الوضعية كما في بعض جوانب النظرية التبادلية والعضوية مثلا، وتختلف اختلافًا فاصلًا مع تلك النظريات التي تنظر إلى الأسرة من منطلق الصراع، إلا أن المنظور الحضاري يظل متمايزًا ومتميزًا عن المنظورات الوضعية –مهما كانت درجة اقترابها– ببُعدِ الوحي والتشريع ومقاصده وقيمه التي تربط الأسرة وتكوينها بالغيب؛ وهو ما يعطي الأسرة هذه المكانة المقدسة التي لا تضاهيها مكانة في أي من النظريات الوضعية النفعية المادية.

ويتَّضح ممَّا سبق أهمية الاستناد إلى المنظور الحضاري ومبادئه مع الانفتاح على مزايا المنظور الوضعي ونظرياته، من التركيز على حالة "العلاقات الأسريَّة" وعلاقتها بالمناخ الاجتماعي الذي تُبحر فيه سفينة الأسرة وينشأ فيه الجيل القادم الذي سيكوِّن أسرة المستقبل.

النمط الحضاري للأسرة:

نقصِد بالنمط الحضاري للأسرة اختلاف النظرة إلى الأسرة –مقاصدها وقيمها ومرجعيَّتها وصلاتها بمجتمعها والعالم من حولها– بناء على منطق الحضارة أو الثقافة التي تنتسب إليها. فالحضارة الغربية في طورها الأخير تقدِّم الفردَ على الأسرة، بينما الحضارات الشرقية على تنوُّعها تجعل لحقوق الأسرة مكانة متقدِّمة قد تسبق حقوق الفرد وقد تتوازن معه. وفي المنظور الحضاري الإسلامي تكتسب فكرة "الميزان" وأن الأصل عدم تعارض مصالح الفرد مع مصالح الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، أهمية كبيرة. وبصفة عامة يقترب النمط الحضاري الإسلامي من منظورات القيم الآسيوية والشرقية عامة أكثر منه إلى الغرب،

لكن النمطين الإسلامي والغربي يبدوان متقاربين في العناية بفكرة الحقوق المتبادلة فقهًا وقانونًا على نحو ما أكَّدت دراسات عدة [٣٤].

ومن ثم، فمن المهم في التعرف على قواعد تأسيس الأسرة دراسة البيئة الثقافية والاجتماعية وقيمها السائدة ومبادئها التي لا شك تمثل الإطار المعنوي لتكوين الأسرة وإدارة علاقاتها وتفاعلاتها. فالأسرة الغربية تتأسَّس على مفاهيم الحقوق المتبادلة وتعظيم الحرية الفردية والتربية المدنية والتسوية الجنسية والمرجعية القانونية العلمانية، والأسرة الآسيوية قائمة على تقديس الأسرة والروح الجماعية وتقديس الزوج والأب وتنظيم العمل الأسري والبحث عن الانسجام والتناسق وتوحيد الطباع وتقديم الواجبات على الحقوق.

وفي الحضارة الإسلامية وخاصة في نسختها الحديثة، تنوَّعت أنماط الأسرة ما بين الأقرب للنمط الشرقي والأقرب للنمط الغربي لكن ثمة ثوابت بثَّها الإسلام وصارت مميِّزة للأسرة المسلمة؛ وعلى رأسها: مرجعية الشريعة في تأسيس الأسرة وتسييرها وحل مشكلاتها؛ فالدين ركن أساس للأسرة، وتكامل الزوجين الجامع بين المساواة الأصلية والتنوُّع في الأعمال واحترام الجميع: الزوج والزوجة والأولاد، وتقديم الرعاية والمسئولية والقوامة والأمانة على الحقوق الفردية داخل الأسرة أو الموازنة بينها بميزان فقهي دقيق، والتشديد على عدم تعدِّي الحدود وتأكيد قيم العدل والإحسان في مقابل الظلم والشُّحِّ.

ولكن النمط الحضاري للأسرة لا يقتصر على ما يجب أن يكون حتى يضم إليه تغيُّرات الواقع وإشكاليَّاته. فالنمط الحضاري للأسرة يقع بين الواجب والواقع؛ وبين ما هو كائن وما يجب أن يكون. والحضارات المستقرة تقارب بين هذيْن القطبيْن، والحضارات المضطربة تتَّسع الفجوة بينهما. ولا شك أن الأمة العربية والإسلامية تعاني فجوة كبيرة بين نموذجها المعرفي والحضاري وبين واقعها المعيش؛ ولذا فدراسة الأسرة في مثل هذه المجتمعات تحتاج لمنهج يتعلق بالتجديد والإصلاح الاجتماعيين، وبالتسديد والمقاربة بين الواقع والواجب؛ بحيث يقف وسطًا بين مناهج الاستلاب الحضاري التغريبية ومناهج الإفراط في المطالب خارج طوق الواقع.

ثلاثية الغريزة والفطرة والحدود:

إن التدافع بين مقتضيات الفطرة السوية ومطالب الغريزة الهوجاء هو مناط الاختبار الإنساني الفردي والجماعي؛ وعلى أساسه يأتي نمط الأسرة. ولذا فالنفس تارة (أمارة بالسوء) ذات الشهوة والهوى، وتارة هي (النفس اللوامة) التي لا تكف عن تذكير الإنسان بحدوده وعدم تجاوزه لها وتلومه على الخطأ وتحضُّه على المسارعة في أداء الواجب.

(٣٤) مثل: كتاب الشرق والغرب لرينيه جينو (عبد الواحد يحيى).

ويضيف الإسلام إلى هذه الثنائية ضلعًا ثالثًا يتمثَّل في معطيات الوحي عن الطبيعة البشرية وتعاليم الشريعة عن الحقوق والواجبات المتبادلة في الأسرة وحولها؛ بما يسمى "حدود الله". فيتكرر في آيات الزوجية وإبرام الميثاق والاتفاق ومواضع الخلاف والشقاق وصولا إلى الطلاق التذكير بأن هذه التعاليم هي حدود الله التي ينبغي للنفوس والممارسات أن تقف عندها ولا تتعداها؛ لأن تعديها ظلم والظلم ظلمات على الظالمين: (**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)-الآية، (**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَّعَدَّ حُدُودُ اللهِ فَقَد ظَلَمَ نَفسَهُ**)-الآية.

نظرية المقاصد الأسرية:

مما يرشد إليه المنظور الحضاري الاجتماعي قاعدة أن "الزواج بمقاصده" وأن "بناء الأسرة بحسب مقاصد هذا البناء". ويقدم المدخل المقاصدي تصورًا لأسرة —هي وأركانها- وحدة ضمن مجتمع أو أمة تسعى لحفظ عقيدتها الوجودية، وحفظ نفوس وصحة ونفسية أعضائها، ثم تحفظ الأسرة كرامتهم وشرفهم بين الناس، وتصون صحتهم الذهنية وسلامتهم الفكرية، وتحمي معاشهم وممتلكاتهم وأعمالهم. وتسمَّى هذه المهام بالمقاصد الخمس العليا الواجب حفظها: الدين، والنفس، والعِرض، والعقل، والمال؛ بأوسع معانيها في الفهم ودلالاتها في الواقع.

وخارج هذه الدائرة المقاصدية الشرعية، تتعدَّد مقاصد الناس والشباب من الزواج وتكوين الأسرة؛ بعضها يبدو محددًا ومنظمًا وكثير منه عشوائي متضارب أو غامض. ولعل أخطر أحوال الإقدام على الزواج -في ظلِّ تراجع الوعي الاجتماعي المعاصر- هو الحال العشوائي الذي يفضي إلى مقاصد أو أهداف متضاربة لدى الشخص الواحد؛ وتتشكل به زيجة صراعية متناقضة الخطوات؛ تنقض كل خطوة فيها الخطوة الأخرى، وكثير من المشكلات الأسرية المشهودة تنتمي إلى هذا النمط الذي كثيرًا ما يستعصي على الفهم المنظَّم أو العلاج والتوجيه.

بعض الحالات الزواجية تكون أهدافُ الطرفين منها -أو أحدهما- غامضة وتفتقد إلى الوضوح؛ سواء أمام النفس أو أمام الآخر والآخرين. ويفتح الغموض باب التأويلات المتعددة والمتضاربة، ويحول دون التأسيس الناجح للأسرة. وكثير من الأزواج يشكو بأنه لم يحقق أهدافه من الزواج، ولكن من المراجعة الاجتماعية والنفسية لشكواه يتضح أن العلة ليست في الممارسة والتفاعلات التي يشير إليها إنما العلة في عملية التأسيس وخاصة مرحلة تفكيره في الزواج وفق مقاصد غير واضحة. ومثال ذلك تضارب كثير من الفتيات ما بين الرغبة في السعادة الذاتية وما بين سرعة الإنجاب والاستمتاع بالأمومة، وكذلك اختلاط الرغبة في المتعة بالرغبة في التشارك الاجتماعي مع الأهل أو العائلة الكبيرة بين كثير من الأزواج. والمخالط للمشكلات الزواجية المعاصرة يجد أن واحدًا من أهم ما يحتاجه الشباب هو إعادة تنظيم وتوضيح مقاصده

من الزواج وتكوين الأسرة. وكثير من المقاصد تتداخل بلا ناظم، مع أنه من الممكن الجمع بينها وفق ترتيب فكري معين يفتقده للأسف الكثيرون من الأجيال الصاعدة.

فلا بد من عناية الشاب والفتاة المقدمين على الزواج بسؤال: "لماذا أتزوج"؟ ولا بد أن تكون الإجابة عليه مبكرة وواضحة ووفق ميزان يساعد على إيجاده الحوار مع الكبار من ذوي الخبرات؛ ما يستلزم جهدًا كبيرًا في التنشئة الاجتماعية الأسرية والتعليمية، وبرامج خاصة للإعداد والتأهيل للجنسين قبل الإقدام على الزواج.

نظرية القيم الأسرية والزواجية

القيم هي معايير للسلوك التي تحدد ما يصح وما لا يصح؛ ومنها قيم فكرية وقيم أخلاقية؛ ما يعني أن مفهوم القيم أوسع من مفهوم الأخلاق.

وبحسب الموقف من القيم تتأسس أنماط من الأسر؛ ما بين الأسر القيمية والأسر اللاقيمية.

- فالأسرة المؤسسة على قيم معينة مهما كانت نوعية أو مرجعية هذه القيم تكون أمورها منتظمة وتفاعلاتها واضحة المعالم؛ بحيث يمكن التقدم بها، أو اكتشاف موطن الخلل حال تعرضها لمشكلة. ومن ذلك الأسرة القائمة على قيم دينية، أو القائمة على قيم عرفية مستقاة من المجتمع، ومنها أسر صاعدة تتأسس على قيم الحياة العصرية توافقت مع الدين والعرف أو لم تتوافق.

- المشكل والمتزايد هو نمط الأسر فاقدة القيم أو غير المعتنية بالأساس القيمي لتكوينها منذ الاختيار وحتى بعد الزواج. فتغلب عليها المعايير المادية أو الحسية أو المظهرية أو الاجتماعية السطحية أو ما شابه؛ وتنتقل هذه النزعة إلى الأبناء من بعد. ولا يعني بالضرورة أن الأسر اللاقيمية هي أسر لا أخلاقية، لكنها في كل الأحوال تفتقد إلى معايير واضحة يتم التحاكم إليها عند الخلاف. ونتيجة تراجع الوازع الديني وتخلخل الأعراف الاجتماعية في كثير من المجتمعات، أصبح المعول عليه هو "الاتفاق الصريح" و"حسن الاختيار"؛ ومن ثم يمكن عزو أكثر مشكلات الزواج لمرحلة الاختيار واختبار الاختيار عبر الخطبة.

ولا يستحب بالطبع لمن يتحلَّى بمعايير قيمية واضحة أن يرتبط بنموذج لاقيمي أو غير مبال قيميا، على نحو ما نشهد في كثير من الحالات. ولا يعني ذلك ضرورة التطابق القيمي، ولكن على الأقل أن يقوم بناء الأسرة على قدر من المشترك القيمي بين الطرفين.

نظرية سنن الحياة الأسرية

يقدم المنظور الحضاري مفهومًا مهمًّا عن قوانين حركة الأسرة عبر مراحل بنائها المختلفة؛ هو مفهوم "السنن الإلهية". والسُّنة هي القانون والنمط الساري والعادة الجارية والقاعدة المطردة، ومنها سنن كونية، وسنن تاريخية، وسنن نفسية، وسنن اجتماعية. وتقوم السنن الاجتماعية —ومنها سنن الأسرة– على المعادلة الشرطية التي تشتمل على (فعل ونتيجة)؛ بحيث إنه إذا فعل الشخص أو الجمع (كذا) فينتظر أن يقع عليه أو له (كذا)؛ مثل قوله تعالى: (**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**)–الآية.

ولذا فعامة أحوال الزواج أن الطيور على أشكالها تقع، وأن الناس أزواج أي متشابهون ومتناسبون، والأزواج أخلاء على ذات المنهاج: (**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)–الحديث. وحواء كانت شريكة آدم في الإحسان وكذلك في الخطأ ثم في التوبة والتصحيح، وامرأة أبي لهب شاركته وجهته وتشاركه نهايته، وأيوب لم يصبر وحده فيما نعرفه بصبر أيوب إنما كانت معه زوجة صابرة نعم الصبر، ولا إبراهيم صبر وحده في ترك زوجه وولده بواد غير ذي زرع، ولا النبي محمد صلى الله عليه وسلم صبر وحده على متاعب الدعوة في مكة حيث كانت معه خديجة التي آمنت به حين كفر به الناس، وصدقته إذ كذبه الناس، وواسته بمالها إذ حرمه الناس[٣٥].

وهذه الأمثال المتنوعة تدل على أن السنة الاساسية في الزواج أن من زرع حصد؛ والإنسان يختار من هو على شاكلته أو يختاره القدر له؛ لذا فصلاح المآل من صلاح الحال، وصلاح الزوجة من صلاح زوجها، وكذلك صلاحه يكون جائزة لها على صلاحها، والعكس بالعكس: الفساد بالفساد.

وفي إنشاء الأسرة تنطبق سنن الإنشاء والابتداء العامة التي عمادها قوله تعالى: (**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين**)–الآية. وهي تعني أن بقاء الأسرة مرتبط بما تأسَّست عليه والعكس صحيح. ومن ثم حرَّم الإسلام نكاح المؤمن والمؤمنة من مشركة أو مشرك، وحض على نكاح المحصنات أي العفيفات حتى لو كنَّ من أهل الكتاب، وعدم تزويج النساء إلا من المحصنين الأعفاء من الرجال الذين لا يعرفون السفاح ولا المخادنة، وأن يكون طلب الزواج بالمعروف والنظام الشرعي (**وأتوا البيوت من أبوابها**)، (**فانكحوهن بإذن أهلهن**)، وأن هذا من التقوى وهي أساس البيت العامر، فإذا سقط أساس التقوى تأسَّست الأسرة على شفا جرف هار وانهارت.

---

(٣٥) عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء. قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكر حمراء الشدقين، قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها. قال: ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدا إذ حرمني أولاد النساء. رواه أحمد وحسنه الهيثمي في المجمع.

ويفيد الفهم السُّنني نوعًا من التفكير المنطقي، ليس الحسابي الصرف الخالي من الحضور المعنوي القيمي، ولكن المعتني بالأسباب والنتائج، والذي يرتِّب فيه المرء ما يريده على ما يفعله ولا يفصل بين فعله وبين حاله. وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة لمثل هذا المنحى الفكري لا سيما إذا كان مكنوفًا بالإيمان بالله تعالى والالتزام بهُداه.

ثانيًا– المنظور الوضعي ونظرياته عن الأسرة

كما تقدَّم، يتأسس المنظور الوضعي على فلسفة مُحدَثة في شكلها، قديمة في مضمونها؛ مفادها أن الفكر والفعل الإنسانيين يجب أن ينبعا" مما هو واقع" كما تنبع القوانين العلمية(!) من المادة والطبيعة، وأن معرفة الطريقة التي تتشكَّل بها الظواهر الإنسانية والقوانين الاجتماعية هي التي تفرض علينا ما يجب أن نفعله. وبما أنه لا يوجد مصدر غير الطبيعة والواقع المشهود فإن ما يجب علينا أن نفعله هو أن نتابع ذلك التطور الطبيعي الملحوظ وألا نخالف سنن الطبيعة الاجتماعية كما يصورها هذا المنهج الظاهري المادي.

تأثرت هذه الفلسفة بنتائج العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وبالأجواء العَلمانية التي ظلَّلَتْ أوروبا بعد الثورة الفرنسية ١٨٨٩م. فنهضت شعارات لإعادة بناء المجتمعات بعيدًا عن الدين بل عن سائر الفلسفات النظرية والمثالية السابقة؛ بالسعي نحو بناء **"فيزياء اجتماعية"** تقوم على مفهوم "القوة" ومعادلاته المقابل لمفهوم "الطاقة" وقوانينه في الفيزياء، وبناء "كيمياء اجتماعية" تقوم على التفاعل بين عناصر ذات طبيعة حتمية تتصرف أو تتفاعل بطريقة محددة حاسمة. وكذلك تعاظم تأثر الوضعيِّين بالفلسفة الداروينية عن التطور الطبيعي (غير الإلهي) للحياة؛ والتي رفعت شعار البقاء للأصلح وأن الأصلح هو الأقوى والأقدر على التكيُّف مع المتغيِّرات.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تسلمت العلوم الاجتماعية والإنسانية هذه الفلسفات وأسَّسَت عليها نظرتَها إلى الإنسان: الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والعالم، وبرزت نظريات في علوم الاجتماع والنفس والاقتصاد والإدارة والسياسة واللغة والتاريخ؛ أساسها تلك الفلسفة الوضعية، الباحثة عن القوة والحريصة على البقاء والخائفة من الفناء. سمَّى سيجموند فرويد تلك الحالة بعنوانٍ لكتاب له: **"قلق في الحضارة"**، وأطلق عليها فريدريك نيتشه مرحلة **"موت الإله وظهور السوبرمان"**، وروَّج من قبلهما أوجست كونت ثم إيميل دوركايم لـ**"موت الدين"**، أعقبها أصحاب الفلسفة الوجودية بإعلان **"موت الإنسان"**؛ بمعنى الإنسان الرومانطيقي لصالح إنسان الطبيعة الخاضع لقوانين المادة الصماء، التي لا تكترث بالروح ولا بالمشاعر الجوانية، فضلا عن عدم إيمانها بالإيمان بأزلية جاء منها الإنسان، أو أبدية يصير إليها.

وواضحٌ ما ترتب على هذه الفلسفة وتلك العلوم وتدريسها في الجامعات ثم المدارس وإشاعتها عبر وسائل الإعلام والتثقيف الحديثة، من انتشار لأفكار مثل: الصراع من أجل البقاء، وشيوع أنفاس البحث

عن القوة والمكانة، والتسابق على المادة، وتأخير أهمية المشاعر والقيم والأخلاق... وذلك في عموم مجالات الحياة؛ **وفي القلب منها: الأسرة والزواج.**

ويتيح لنا التمييز بين إيجابيات هذه النظريات وسلبياتها الاستفادة من كثير منها وإن وضعت أساسًا في إطار وضعي ظاهري.

وقد تعدَّدت المقتربات النظرية التي تناولت الأسرة ضمن المنظور الوضعي، كل مقترب منها يحاول التركيز على متغير معين يرى الأسرة من خلاله، ويرسم دورها وشكل تفاعلاتها الاجتماعية والداخلية. ويمكن أن نرصد أهم هذه المقتربات في مجموعة نظريات أساسية هي: نظرية الصراع – نظرية التبادل – النظرية التوفيقية – النظرية التطورية – نظرية التفاعلية الرمزية – النظرية الوظيفية – ونتناول أهم المفاهيم والمرتكزات المعرفية لهذه النظريات فما يلي[٣٦].

نظرية الصراع:

تقوم نظرية الصراع على عدَّة فرضيَّات منها؛ أن المصالح المتصارعة والمتضاربة هي أهم ما يحكم العلاقات الاجتماعية، فكل النظم الاجتماعية —وفق هذه النظرية— تتميَّز بعلاقات استغلال بين أصحاب القوة وبين الضعفاء الذين لا قوَّة لهم، والنظام العائلي أحد هذه النظم الذي يتميَّز بتقسيم واضح ومميَّز للأدوار الاجتماعية؛ وهو تقسيم مبنيٌّ على أساس النوع أو الجنس؛ لذلك يركز القائلون بهذه النظرية على دراسة المشكلات الأسرية وتغييرها الدائم وليس على بنائها ونجاحها[٣٧].

ويشير أنصار نظرية الصراع إلى عنصر التغيير –وربما التغيير الثوري (كثير منهم من خلفية ماركسية)– وذلك لأنهم يرون أن الصراع عامل رئيسي في العلاقات الإنسانية، ويولد هذا الصراع حتمية التغيير؛ فالأسرة تمثِّل —وفقًا لهم– مؤسسة كبيرة للسيطرة والهيمنة بسبب نظامها الترتيبي؛ تبعًا للجنس والسن؛ وهو النظام الذي يؤجِّج الصراعات بين أفرادها؛ بهدف الوصول إلى مصادر القوة والسيطرة.

ويرى أصحاب هذه النظرية أنَّ أعضاء **الأسرة** يدخلون في عمليات صراعية متعدِّدة بسبب مصالحهم وأهدافهم الخاصة، وأنَّ عدم ظهور الصراع للآخرين فيما بينهم لا يعني عدم وجوده، ولكن –بالرغم من ذلك– فإنَّ لأعضاء الأسرة أهدافهم العامة والمشتركة التي يمكن استغلالها للمحافظة على وحدة الأسرة، وحينئذ لا يهدف الصراع بينهم إلى التدمير أو قضاء طرف على آخر؛ إنما إعادة ترتيب الأوضاع نحو نظام عادل أو يقوم على المساواة. لذلك ينبغي التفرقة بين ثلاثة مستويات: تحاشي الصراع، وحل الصراع،

(٣٦) مهدي محمد القصاص: **علم الاجتماع العائلي**، القاهرة، كلية الآداب جامعة المنصورة، ٢٠٠٨م، ص: ٥٦.
(٣٧) طلعت إبراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزيات، **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، (القاهرة، دار غريب للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م)، (ص: ١٠٤-١٠٥).

وتنظيم الصراع. فأنصار نظرية الصراع يرون أنه لا جدوى من تحاشي الصراع أو محاولة منعه أو تقديم حل نهائي له، ولكن ثمة ضرورة لحسن إدراته وتنظيمه لتحقيق أهداف **الأسرة** المشتركة.

وبالطبع، تعرَّضت نظرية الصراع هذه للعديد من الانتقادات؛ فالطريقة التي عُرضت بها نظرية الصراع تصور الأسرة في صورة أقرب إلى الغابة أو ميدان الحرب منها إلى الاجتماع البشري السويّ أو التعاوني، ومن ثغرات هذه النظرية أنها لا تكترث ببقاء الأسرة أو تفكُّكها طالما أن منطق الصراع نفسه هو الثابت؛ سواء داخلها أو خارجها!

نظرية التبادل (الاختيار الاجتماعي):

هذه من أحدث النظريات استعمالًا في دراسة الأسرة، ولحداثتها لم يُستقر على اسم لها، فالبعض يسمِّيها نظرية التبادل، والبعض الآخر يطلق عليها **نظرية الاختيار الاجتماعي**. تستخدِم هذه النظرية مفهومَ "التكلفة/العائد" في تحليلها للتفاعلات التي تحدث خلال العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ويقصد **بالتكاليف** في التبادل **الجوانب المادية** مثل: الأموال والمسكن والمأكل والعمل المادي وغيرها، **والجوانب غير المادية** مثل: المراكز الاجتماعية، وجذب الانتباه، والانزعاج، والحب، والاعتراف الاجتماعي وغيرها، وترى أن الأفراد لا يتوقَّعون الاستجابة الآنية لكلِّ **العوائد/الفوائد** الاجتماعية المرجوة من العلاقات الاجتماعية.

ويستخدم العديد من الباحثين مفاهيم نظرية التبادل في تفسير العلاقات الزوجية والعائلية؛ فقد وفرت هذه النظرية عدَّة تفسيرات لكيفية بداية العلاقات بين الزوجين، وكيفية اختيار شريك الحياة، بل قد تفسِّر النظرية حالات الطلاق طبقًا لفكرة "التبادل" في أنَّ السبب في الطلاق يرجع إلى خلل في عمليات التبادل وعدم العدالة في توزيع الأعباء/العوائد، فإذا شعر أحد الزوجين مثلًا بأنَّه يعطي الكثير للزواج (العبء)، وأنَّ تكاليف هذا العطاء تفوق بكثير الفوائد المتوقعة (العائد)؛ فإنَّ هذا الطرف قد يقرِّر إنهاء العلاقة.

فالتصور الذي تقوم عليه نظرية التبادل هو اعتبار الإنسان كائنًا عقلانيًّا يقوم بإجراء دائم لحسابات التكلفة والمكاسب قبل الإقدام على إجراء أي فعل، أو الدخول في أي علاقة إنسانية، أو في تعاملاته الاجتماعية عامة؛ وبالتالي فالزواج مؤسسة قائمة على المنفعة والتكلفة، وحسابات الخسارة والنفع بشكل رئيسي.

وتُنتقد هذه النظرية في أن مفاهيم النفع/الفائدة أو التكلفة/الأعباء مفاهيم واسعة وغير واضحة ولا يمكن تحديدها على وجه الدقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها مفاهيم تتَّسم بالفردانية ويغيب عنها مفهوم المصلحة المشتركة أو العامة أو يعتقد أنصار التبادل أن هذه المصلحة تأتي تلقائيًّا بتحرير عملية

التبادل[٣٨]. ومن ثم يظهر الكامن في النظرية؛ وهو أن وراءها منطقا "ليبراليًّا" فردانيًّا يقوم على الاستعارة من منطق "السوق الحر"، يجعل التبادل عرضة للموازين المختلفة من القدرات بغير معيار ثابت قيمي حاكم؛ فلا يوفِّر ضمانة لأن يكون التبادل الأسري عادلًا أو موزونًا بميزان يتجاوز أغراض أو أهواء أفراد الأسرة أنفسهم.

النظرية التوفيقية/التعويضية:

تنطلق النظرية التوفيقية في شأن الأسرة من نقطة شديدة الخصوصية؛ هي: أن المجتمع لا يستطيع القيام بمهامه الحيوية ما لم ينشئ نظامًا خاصًّا لتعويض الخسائر الاجتماعية التي تحصل نتيجة فناء وموت أفراده؛ ولذا فلا بدَّ من نظام عائلي؛ فالنظام العائلي هو الذي يحفظ الحياة الإنسانية من الانقراض، والأسرة هي التي تزوِّد المجتمع بالأفراد المنتجين جيلًا بعد جيل، فتسدَّ الأدوار الشاغرة في النظام الاجتماعي؛ تلك الأدوار التي يتركها مثلًا من يغادرون الدنيا أو يكبرون في السن.

وتقوم الأسرة بحماية أفرادها ورعايتهم من خلال توفير الملجأ والمطعم، والعناية الشخصية والعاطفية، وتركِّز على الإشباع العاطفي والاحتياجات المعنوية للأفراد على وجه التحديد؛ وذلك حتى يصبحوا مؤهلين للعمل والإنتاج، ويصبح الفرد المنتج في الأسرة الواحدة هو المسؤول عن الآخرين الذين لا يستطيعون القيام بعمل منتج؛ بسبب السن أو المرض أو العجز الطبيعي، وذلك ضمن إطار نفس الأسرة. **إذًا الأسرة هي حلقة اتصال تقوم على التوفيق بين الفرد والمجتمع: إمكانيات واحتياجات كل منهما من الآخر.**

وحيث إن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه ويسعى إلى الانخراط في الأنشطة الاجتماعية؛ فيتعلم اللغة، والقيم، والدين، والعادات الاجتماعية التي يقرُّها النظام الاجتماعي، فالأسرة –وفقًا للنظرية التوفيقية– هي التي تسهم في تحقيق طموح الإنسان في التفوق والنجاح عن طريق الاختلاط الاجتماعي، والمؤسسة العائلية هي اللبنة التي ينطلق منها الإنسان لبناء حياته الاجتماعية والاقتصادية. فالأفراد يُنسَبون إلى عائلاتهم من الناحية العرقية، والدينية، والمذهبية، والاقتصادية، والطبقية الاجتماعية؛ أي إن هوية الفرد المذهبية والعرقية تحدِّدها –أولا– الأُسرة التي ينتمي إليها أكثر ممَّا يحدِّدها الفرد لنفسه، هذه الهُوية التي تؤثِّر بدورها في تحديد أدوار الأفراد الاجتماعية فيما بعد.

وينتقد البعض النظرية التوفيقية بأنها ركَّزت –في معالجتها لدور المؤسسة العائلية في حفظ المجتمع الإنساني– على الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها تلك المؤسسة دونما اهتمام بدراسة الأدوار الداخلية فيها كدور الرجل والمرأة وأثر العرف الاجتماعي في صناعة هذه الأدوار. ولم تتطرَّق النظرية التوفيقية إلى الحقوق

(٣٨) غني ناصر حسين القرشي، **مرجع سابق**، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/301nRFV.

التي تترتَّب على انتساب الأفراد لأسرة بعينها؛ كحقوق الإرث أو النفقة أو التملُّك، كما أنها تجاهلت ظاهرة العنف والاعتداء الأسري[٣٩].

وخلاصة هذه الانتقادات أن التوفيقية تفسر جزءًا من بناء الأسرة ووظائفها لكنها تترك مساحات أخرى غاية في الأهمية دون تفسير أو استيعاب.

النظرية التطورية[٤٠]:

تركِّز النظرية التطورية على دورة حياة الأسرة والمراحل التي تمرُّ بها، وينصبُّ اهتمامها على دراسة تفصيلات العمليات الداخلية في دورة حياة الأسرة الكبيرة والصغيرة، وتفترض النظرية أنَّ النسق العائلي يتغيَّر مع الوقت وفق التكوين العمري لأعضائه، وتحدِّد في أربع مراحل رئيسية تطور الأسرة وهي: **التكوين، والتوسع، والتقلص، والانتهاء.**

وبالرغم من عدم اتفاق أصحاب النظرية التطورية على مراحل دورة حياة الأسرة؛ إلَّا أنَّ هناك شبه اتفاق بين أغلبهم حول بعض الفروض التي أُسِّسَتْ عليها هذه النظرية؛ ومن أهمها: ارتكازها على **دراسة الأسر النووية** الحديثة المكونة من أم وأب وأطفال فحسْب. وعلى الرغم من أنَّ هناك تشابهًا بين الأسر المختلفة في نفس مرحلة التطور فإنَّ كل أسرة لها طريقة منفردة ومختلفة في بناء الأدوار والمراكز فيها.

كما أن المفهوم الرئيس لنظرية التطور **هو الواجبات المتعين على الفرد أداؤها وإنجازها**، ولذا فالفشل في إنجاز هذه المهام يعني تعاسة الفرد ورفض المجتمع له ومواجهته صعوبات في مهامه التالية، وتنشأ هذه المهام أو الواجبات عند توفر عاملين رئيسين هما: النضج الجسماني، والضغوط الثقافية. ويرى أنصار نظرية التطور أن نجاح الأسرة في واجباتها يعتمد على التفاعل المكثف بين أفرادها عند قيامهم بمتطلباتهم التنموية.

ويرون كذلك أنَّ الأسرة لا توجد في فراغ اجتماعي؛ وبالتالي فهي تتأثَّر بنظم المجتمع؛ سواء في بيئة العمل، أو المدرسة، أو من خلال الاحتكاك بالجماعات والمؤسسات المختلفة التي تتواجد في سياقهم الاجتماعي، ورغم عدم تحكُّم هذه النظم الخارجية في الأسرة تحكُّمًا تامًا إلا أنه لا يمكن تجاهل تأثيرها.

وقد وُجِّهَتْ عدَّة انتقادات إلى هذه النظرية لعلَّ أهمها: تركيزها الكبير على الأسرة النووية الحديثة (لاسيما في بيئة الولايات المتحدة الأمريكية)، ومن ثم فقد لا تنطبق مفاهيمها على العائلات الأخرى التي لها مراحل حياة ومهام تنموية تطورية مختلفة. كما أنها تعطي أهمية مركزية لمراحل إنجاب ونمو الأطفال، وقد وُضعت مراحل النمو أو التطور على أساس عمر الأطفال، وبذلك فإن دراسة الأسرة التي ليس لها أطفال

---

(٣٩) زهير الأعرجي، **النظام العائلى ودور الأسرة في البناء الاجتماعي الاسلامى**، مكتبة مدرسة الفقاهة، تاريخ التصفح: ١٠ ديسمبر ٢٠١٧، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/39uhf5N.

(٤٠) لمزيد من التفصيل حول جذور هذه النظرية يتم الإطلاع على: حمدي عبد الحميد أحمد مصطفى، **النظريات المعاصرة والمفسرة للتغير الاجتماعي والثقافي**، تاريخ التصفح: ٩ ديسمبر ٢٠١٧، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/2WYRCoS.

قد وردت كأمثلة على المراحل الأولى لتطور الأسرة[٤١]، كما أن تفاعلات الزوجين نفسيهما تتضاءل أهميتها.

نظرية التفاعلية الرمزية/الاتصالية:

تعدُّ هذه النظرية المنطلق الفكري والنظري لكثير من رواد علم الاجتماع في دراسة الأسرة، وتفترض تلك النظرية أن الأسرة نظام يتضمَّن العديد من العلاقات والتشابكات سواء الداخلية مثل علاقة الزوج بزوجته، أو الآباء بالأبناء، أو خارجية كعلاقة الأسرة بالأسر الأخرى والمجتمع خارجها أو حولها. وهذه العلاقات تعبر عنها سلوكيات مختلفة، لكل سلوك منها رموزه الخاصة، وهذه الرموز هي الناقلة للثقافة، وتقوم بتسهيل عملية التنشئة الاجتماعية.

تساعد هذه النظرية في تفسير وبيان كيفية تنمية أعضاء الأسرة للفهم المشترك لأفعالهم، فهي تهتم بدراسة آليات التواصل والاتصال المختلفة سواء اللفظية أو غير اللفظية في علاقات الأسرة، كما أنها تعكس الاختلافات بين أعضاء الأسرة في الثروة والقوة والنفوذ.

ويلاحظ أن أصحاب القوة والنفوذ هم من يسيطرون على عملية التفاعل ويقومون بتوجيه مسارها؛ وبالتالي فعادة ما نلاحظ سيطرة الآباء على عملية التفاعل ومسار الاتصال مقارنة بالأبناء داخل الأسرة، وتركز النظرية التفاعلية الرمزية على دلالات ذلك من خلال رموز تفصيلية؛ كمقاطعة الحديث، استخدام جهاز التحكم بالتلفاز (الريموت).. إلخ، فهذه الرموز وغيرها تشير –بشكل غير مباشر– إلى الأطراف التي تملك السلطة وتؤثر في عملية اتخاذ القرار في الأسرة.

ويؤكِّد أصحاب هذه النظرية على أهمية عملية التنشئة الاجتماعية، فهي عملية مستمرة مدى الحياة من خلال مؤسسات التنشئة الاجتماعية، ويهتمون بتوضيح كيفية هذه التنشئة التي تربط الفرد بالمجتمع، وتأثير العالم الخارجي بما فيه من أشخاصٍ ومعانٍ وأفكارٍ على التنشئة الاجتماعية ونمو الطفل، وتطوُّر سماته الشخصية حتى مرحلة متأخِّرة من الحياة.

ويقوم الافتراض الرئيسي للنظرية التفاعلية الرمزية على أن فهم أنماط التنظيم الاجتماعي يكون بمعرفة العمليات الرمزية التواصلية بين الأفراد، فتلك الرموز –كاللغة على سبيل المثال– تعد المحرك الأساسي والجوهري في عملية صياغة الإنسان لواقعه الاجتماعي الذي يعيش فيه، وهي أساس البناء الاجتماعي والحفاظ عليه. كما تفترض تلك النظرية أن الفرد –من خلال عملية التفاعل والتواصل الاجتماعي– يمتلك القدرة على تعلُّم معانٍ وقيم عدَّة ومشاركتها مع غيره.

(٤١) غني ناصر حسين القريشي، **مرجع سابق**، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/301nRFV.

وترى التفاعلية الرمزية أن المجتمع نسق متفاعل، ولا يوجد شيء في المجتمع خارج إطار التفاعل؛ أي إن المجتمع كيان متجدِّد باستمرار، والتفاعل بين الفرد والمجتمع هو الذي يحدِّد هُوية كلٍّ من الفرد والمجتمع على السواء.

ففهم سلوك الإنسان الاجتماعي –بحسب التفاعلية الرمزية– يتم من خلال **تحليل المجتمع**، ومن خلال المحيط الاجتماعي والثقافة الكلية والفرعية التي يكون جزءًا منها، فمن الممكن فهم سلوك الزوج أو الزوجة والطفل والأسرة ككل من خلال دراسة وتحليل المجتمع الذي يعيشون فيه، ومن خلال دراسة اللغة والقيم والمعايير والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية.. إلخ؛ لأنَّ كل هذه المتغيرات لها تأثير كبير على نشاط الإنسان وسلوكه[٤٢].

من مزايا النظرية التفاعلية اهتمامها بدراسة الوحدات الصغرى التي لم يؤكد عليها أصحاب النظريات الكبرى من بنائية أو صراعية، فأدرجت مفاهيم أكثر شمولًا من النظريات الأخرى يمكن أن تشمل مدى أوسع من العلاقات الإنسانية؛ كالصراع والتعاون والخضوع، فالتفاعلية الرمزية تجعل صياغة نظريات فرعية متباينة تدرس كل نمط من العلاقات الإنسانية أمرًا لا مفرَّ منه.

مع ذلك وجِّهت للنظرية التفاعلية الرمزية عدَّة انتقادات؛ من أبرزها: أنها تجاهلت أنماط الظروف المؤثِّرة في عملية التفاعل الاجتماعي؛ وهو ما يؤثِّر بشكل جوهري في مستقبل العلاقات الاجتماعية سواء بالاستقرار أو بالتغير، كما تُعاني تلك النظرية من بعض الغموض في أطروحاتها، خاصة فيما يتعلَّق بكيفية تشكيل التنظيم الاجتماعي وتغييره، فهناك غموض بين عملية التفاعل ونتائجها، ولم تقدَّم براهين كافية حول كيف تعمل عمليات التفاعل على تكوين واستمرار وتغيير أنماط التنظيم الاجتماعي المتنوعة والمتباينة، بالإضافة إلى تقليلها من شأن **الأبنية** الاجتماعية؛ بحيث تجعلها موضوعات ناتجة عن اتجاهات الفاعلين أو الأشياء؛ أي تتشكَّل كنتيجة للتفاعل، ولم تقم بالربط بين الأبنية الاجتماعية والعمليات الاجتماعية، إنما اقتصرت على تأكيد وجود كل منها على حدة.

لقد جذبت التفاعلية الرمزية انتباه الباحثين إلى أهمية دراسة تفاصيل الحياة الاجتماعية، ولكنها استبعدت النظام الاجتماعي العام والسياسي والاقتصادي؛ فالتفسير الاجتماعي لا ينحصر في التغير النفسي للأفراد دونما إيلاء اهتمام للتغير في الأنساق والوحدات الاجتماعية الكبرى[٤٣].

---

٤٢ غني ناصر حسين القريشي، مرجع سابق، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/301nRFV.
(٤٣) لطفي والزيات، مرجع سابق، (ص: ١٣١).

النظرية الوظيفية/ البنائية الوظيفية:

تعد النظرية الوظيفية الأكثر انتشارًا في دراسة الأسرة خاصة في الدراسات التي ركَّزت على علاقة الأسرة بغيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى الموجودة في المجتمع، وعلى الوظائف التي تؤديها الأسرة لأفرادها وللمجتمع الكبير ككل، وذلك لمرونتها في تفسير العديد من الظواهر الاجتماعية.

تشبِّه هذه النظرية المجتمعَ بالكائن الحي **من حيث البنية/البناء والوظائف التي يقوم بها أعضاؤه**، فكما يتكوَّن الكائن الحي من أعضاء، ولكلِّ عضو وظيفته المحدَّدة؛ فإن المجتمع يتكوَّن من أفراد وجماعات لكلٍّ منها وظيفة ودور، والبناء هو مجموعة العلاقات بين أفراد المجتمع وجماعاته المختلفة، وما يقوم به الجزء (الفرد) له وظيفة اجتماعية تتمثَّل في إسهامه في بقاء المجتمع واستمراريَّته، لهذا عرفت هذه النظرية بالبنائية–الوظيفية.

حدَّدت النظرية الوظائف التي تقوم بها الأسرة في ثلاثة أنواع من الوظائف: **وظائف الأسرة للمجتمع**؛ كالمحافظة على النوع، وتنظيم السلوك الجنسي، ونقل التراث الثقافي من جيل لآخر، **ووظائف الأسرة لنفسها**؛ كتقسيم العمل بحسب الجنس، **ووظائف الأسرة لأفرادها** باعتبارهم أعضاء فيها؛ كالرعاية والحماية والتنشئة الاجتماعية، ويمكننا القول إن النظرية الوظيفية في دارسة الأسرة تركِّز على العلاقة بين الأسرة وبين الوحدات الاجتماعية الأخرى، والعلاقة بين الأسرة وبين الشخصية، والعلاقة بين الأسرة وبين الأنساق الفرعية الأخرى المتضمَّنة فيها(٤٤).

وينتقد البعض المقترب الوظيفي لتركيزه على الوظيفة والبناء وإهماله التفاعل الاجتماعي نفسه داخل الأسرة، واهتمامه بعملية التوازن والتكامل والاستقرار دون تركيز على الصراع أو التغيير وديناميكيَّته داخل الأسرة وكيف يؤثِّر عليها، ودفعت هذه الرغبة في الحفاظ على توازن الأسرة أنصار هذه النظرية إلى قبول الوضع القائم وإعادة إنتاجه، فضلًا عن عدم القدرة على تحديد ما هو وظيفي وما هو ليس ضروريًّا لبقاء المجتمع(٤٥)، فعلى سبيل المثال: كيف يرون ظاهرة الطلاق؛ هل كوسيلة بناء أم خلل وظيفي؟

وخلاصة القول في هذه النظريات الست ضمن المنظور الوضعي أنها اجتهادات مهمَّة في توصيف طبيعة الأسرة ما بين التبادل والتوفيق الاجتماعي والتفاعل العملي والرمزي، وتكييف أشكالها المختلفة ومراحل تطورها وأحوالها المتغيرة ما بين التعاون والصراع؛ وبما تتضمَّنه من هياكل وعلاقات وتفاعلات ووظائف وإمكانيات. وقد كشفت هذه الاجتهادات عن جوانب مهمة من ذلك كله، لكنها اتَّسمت

(٤٤) غني ناصر حسين القريشي، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/301nRFV.
(٤٥) طلعت، والزيات، **مرجع سابق**، ص ص ٣٤–٤٠.

جميعها بالجزئية وافتقاد النظرة الشاملة العامة في كل واحدة منها على حدة، والأهم أنها عبَّرت عن نظرة الفكر الغربي للإنسان والمجتمع الإنساني والأسرة، والتي غلبت عليها —كما تقدَّم– المادية والظاهرية.

آثار شيوع المنظور الوضعي على الأسرة وتصورات الزواج:

ثمة مخاوف حقيقية من مآلات هذه الفلسفات ومجمل مشروع الحداثة الغربي على مجتمعات العالم وخاصة في ظل التطورات الاتصالية والإعلامية وتقنياتها وأثر ذلك على العلاقات الإنسانية والاجتماعية وفي قلبها تصورات وعلاقات الأسرة؛ فالشواهد الكبرى تصرخ عبر القرن العشرين والحالي بأن المجتمع في الغرب عرضة —إن لم يكن وصل– لتحلُّل عريض؛ فأشكال العلاقات الجنسية –غير القائمة على الزواج المعروف بين ذكر وأنثى– يُرَوَّجُ لها من قبيل زواج المثليين وتقاليع الأسر المتعدِّدة والعلاقات المتداخلة، بل يتمُّ تقنين ذلك، فضلًا عن اتِّساع استحلال الزنا بأشكاله التي بعضها أخبث من بعض وبأسماء أخرى عديدة، والنضال من أجل تقليل أو تنحية نموذج الأسرة الفطرية المعروفة في العالمين وعبر العصور... هذه الحالة التي أثَّرت على الصحة الإنجابية وواقع الإنجاب في الغرب –ومن ثم على هيكل المجتمع وأجياله نحو "شيخوخة مجتمعية عقيمة"– تقرع أجراس الإنذار بالخطر من جهات عديدة.

وبدخول التقنية الاتصالية الحديثة على الخط يتعاظم الخطر لينتقل من نكاح الإنسان والحيوان إلى نكاح المادة انبثاقا من منظور مادية النكاح لا إنسانيته. فمن الدراسات التي تنتمي لما يعرف **بالذكاء الصناعي** ما يتنبأ بأن رجل الألفية الثالثة يمكن أن يخترع "إنسانا آليا" يمارس الجنس معه.

هذه الاتجاهات تطرح التساؤل والتخوف –ليس على مصير الأسرة وحسب– بل على مصير الإنسان نفسه في عصر يتواجد به مثل هذه الخيارات المنبثقة عن عقيدة "التجريب المطلق"، وتسيطر الآلة فيه على تفاعلات الإنسان الحياتية، ويبحث فيه الإنسان بنفسه عن "بديل له"!

لقد أدَّت الحداثة وما بعدها إلى تحولات خطيرة في الشأن الأسري لعل من أهمها:

سيولة العلاقات في ظل سيولة العصر:

إن تصورات الأفراد عن الزواج والعلاقة بالوالدين والأصدقاء والجيران صارت تفيض بآمال وتوقعات ليس بوسع هذه العلاقات تحقيقها، كما أن هذه العلاقات ذاتها فقدت البنية التحتية والأسس التي يقوم بنيانها عليها مكتملًا، وأصبحت أكثر هشاشة. وتلك الهشاشة المخيفة التي تعانيها الروابط الإنسانية، والإحساس بعدم الأمان التي تبثه تلك الهشاشة، والرغبات المتصارعة؛ يدفع الأفراد للشعور بالاحتياج إلى إحكام هذه الروابط، مع إبقائها في الآن نفسه فضفاضة، مما يزيدها تناقضًا. فالرجال والنساء يائسون بعدما تُركوا لحيلتهم الكليلة ومهارتهم الخاصة، متوجِّسون من نبذهم واستبدالهم بغيرهم، ومشتاقون إلى الأمن

الذي ينقل لهم التضامن وقت الشدَّة، ومستمرون في طلب الارتباط، ولكنهم حذرون من الارتباط الدائم، فيخشون ما يجلبه الارتباط من أعباء وضغوط، ولديهم رغبة في عدم التقيد والبحث عن الحرية دومًا(٤٦).

والمشكل الخاص بالنسبة لنا أن التحول في تصورات الزواج في المجتمع الغربي قد أصاب بعضًا من تصورات مجتمعاتنا التي عانت –ولا تزال تعاني– من حداثة مشوهة منقوصة، ونرى ذلك التأثر في أمثلة عدة منها ما سوف يلي.

تغيير هوية الزواج: الأزواج شبه المنفصلين

فنموذج العيش كالأزواج شبه المنفصلين يتم التعامل معه وكأن أفراده "ثوار العلاقات الزوجية"، الذين فجَّروا فقاعة العلاقة الزوجية الخانقة وتحلَّلوا من قيودها، فهم يبغضون الحياة في بيت واحد، فيتم الترويج لهذا النمط من الزواج وكأنه يحقِّق السعادة المطلقة ويجمع ما بين مطلبي الصورة الاجتماعية والتحرُّر الفردي؛ حيث يتحقَّق الأخذ والعطاء من دون فقدان الاستقلال.

وهذا التصور على العكس من السعي نحو تأسيس رابطة المصاهرة الذي يكشف عن مقصدٍ لجعل هذه الرابطة مثل القرابة، وينطوي على الاستعداد لدفع ثمن تجسيده، وما **يتطلَّبه من كدح أو مسئولية**، وهذا أمر لا يطيقه أهل العالم الحديث السائل الذي يبغض كل شيء معمِّر أو صُلب يتعدَّى استخدامه الاستخدام الفوري. ويتجلَّى ذلك في التعامل الشبابي مع الموجات والموضات في الملابس واللوازم الشخصية، فمتابعة الموضات صارت نظام حياة حتى ولو على حساب الوظيفة والقدرة المالية وما شابه.

إن الخطاب الذي يتمُّ التركيز عليه في عصر سيولة الحداثة هو إعلاء قيم الفردانية التي بدورها تشجِّع الاستقلالية، وتعلي قيم الخصوصية، وتقدِّس المساحات الذاتية؛ لدرجة لا تبقِ معها التشارك ودفء العلاقات الأسرية القائمة على المشاركة.

تغير النظر للمعاشرة الجنسية وعلاقتها بالزواج:

في ظلِّ الهشاشة الجديدة التي ضربت الأبنية الأسرية، وفي ظل تناقص العمر المتوقع للأسرة، فثمة تصور للانفصال بين الجنس والتكاثر مدفوع بقوة، فقد تم اختزال الزواج أو العلاقات الأسرية في الرغبة في الحصول على الجنس؛ ليصبح الجنس هو الغاية في ذاته، يتم البحث عن إشباعها بأقل قدر من التكلفة أو القيود أو مسؤوليات إلزامية(٤٧).

ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة إلى دور النزعة الاستهلاكية في تشويه العلاقات الإنسانية، لعبت سياسات النيوليبرالية دورًا سلبيًّا في بناء تصورات الأفراد عن الزواج، ففي مرحلة النيوليبرالية واقتصاد السوق الرأسمالية تشكِّل الصورة المثالية للمواطن باعتباره مُستقلًّا بذاته، ومُستغنيًا عن غيره، فهو المواطن المثالي

(٤٦) نجوى حافظ وآخرون (مشرفون)، ص٢٧. وانظر: زيجمونت باومان،...
(٤٧) المرجع السابق، ص٨٠ -٨٢.

المعتني بنفسه، الذي لا يتوقَّع أن يرعاه الآخرون، وهذا يتناقض مع الفطرة الإنسانية، فنحن مفطورون على الاحتياج للرعاية منذ الصغر حتى الهِرَم، **وقد انعكس ذلك على رؤية وتصور الأفراد عن الزواج**؛ فقد تحوَّل عند كثيرين إلى مجرد نوع من إمتاع النفس المؤقت والمتقطع والمتنقل كولع الفرد بمذاق طعام جديد، وأصبح الحبُّ نفسه نمطًا استهلاكيا من المقبول تمامًا تغييره بشيء آخر حين يبلى.

فالمصاهرة جسر يؤدي إلى برّ الأمان الذي تمثله القرابة، أما المعاشرة بدون زواج فليست جسرًا ولا محاولة لبناء جسر، فالأفراد في عصر السيولة يستسيغون الخيارات الأقل كلفة في ظاهرها أو في لحظتها، وليس لديهم استعداد لمواجهة ما يعدونه من الصعاب التي تنطوي عليها خياراتهم بالضرورة.

انفصال ثلاثية الجنس والزواج والأمومة/الأبوة:

امتدَّت الأفكار السابقة لتشمل أيضًا الفصل بين الظواهر الإنسانية الثلاث التي اعتادت البشرية اتصالها: الجنس والزواج والأمومة (والأبوة)، فهذه الظواهر وجدت واستمرت عبر التاريخ مترابطة؛ والجنس الأصل فيه أن يحصل بالزواج، والأمومة حاصلة معهما تبعًا، لكن في الزمن الحديث يتم فصل هذه الظواهر الثلاث بعضها عن بعض؛ ليصبح من الممكن الحصول على الجنس من دون زواج، أو التمتع بالأمومة – أكثر من الأبوة– من دون زواج، أو قيام الزواج لكن من دون أمومة؛ **مما يعني أن الزواج لم يعد يعني بناء أسرة تلقائيًّا كما عهدنا**.

ولم يعد هذا الاتجاه مقتصرًا على الغرب فقط بل ينتقل تدريجا إلى الشرق أيضًا منذ عقود؛ حيث أصبح من المقبول في بعض البيئات أن يتزوج شخصان ويعيشان زمنًا طويلًا دون أولاد باتفاق بينهما؛ الأمر الذي لم يكن مقبولًا قبل وقت قريب من الزمن إلا مشفوعًا بأسباب قهرية قد تقنع المحيط الاجتماعي الممتد، أما الآن فأصبح من الممكن تأجيل الإنجاب من دون أسباب أو لأسباب عادية جدًّا، وهي ظاهرة يتَّسع نطاقها يومًا بعد يوم، وإن كانت تحْظى بانتقاد جيل الآباء. ومؤخَّرًا بَدَتْ ميول لنصيحة واضحة بسنة أو سنتين بدون إنجاب خوف الطلاق أو عدم الاستمرار، وتصدُر –حتى عن الآباء والأمهات لا سيما من قبل الزوجة– من باب ألا تتوتر العلاقة الزوجية بسبب وجود المواليد مبكرًا، وحتى لا تقل فرص إعادة زواج الشابة إذا طُلقت بعدما صارت أمًّا في وقت مبكر.

وبخروج المرأة إلى سوق العمل الاقتصادي، انعكس ذلك على القيام بوظائفها التربوية والنفسية خاصَّة دور الأمومة. فقد أدَّى خروج المرأة إلى العمل غالبًا إلى تخلِّيها عن عملية الرضاعة الطبيعية وما يصاحبها من إشباع نفسي للطفل، وكذلك الحرمان الجزئي من الأم ورعايتها لأبنائها في مرحلة هم أكثر ما يحتاجون فيها لرعايتهم لإشباع دافع البنوة.

ونجد بعض النساء التي تدعو الأمهات إلى الحذر البالغ من تعريف أنفسهن كأم أو كزوجة، فهذا لم ولن يكون مصدر فخر لا لها ولا لأولادها مستقبلًا، فالأعمال المنزلية اليومية لن تلقى تقديرًا لدى الأبناء

مستقبلًا، فالأفضل أن تُعرف نفسها بوظيفة أخرى، وتستنكر بعض الفتيات اختزال دور المرأة في كونها أمًّا، مما يستبعد وجودها كشخص له كينونته الخاصة، فدومًا ترى من يطرحن وجهة النظر هذه أن ثمة تناقضًا بين الأمومة والمكانة الاجتماعية الوظيفية التي يتم تقديرها بشكلٍ مادِّيٍّ ملموس.

أثر تبعية بعض الدراسات العربية للمنظور الوضعي:

تنطلق رؤية كثير من الدراسات العربية للعلاقات الأسرية من رؤى ونظريات وليدة سياقات غربية غريبة عن سياق مجتمعنا، مثل توظيف نظريات "فرويد" حول علاقة الأب بابنه وصراعهما حول اكتساب "الأم"، وتوظيف النظرة العدائية والصراعية لتفسير العلاقات داخل الأسرة العربية عند دراستها بطرق لم تعزز من فهمها أو تفسيرها بقدر ما تعيد إنتاج الصراع وتقوم بشرعنته تحت دعوى أن هذا هو الواقع وهذا ما أثبته "العلم"!!

فنجد مصطلحات يتم إشاعتها مثل (المجتمع الأبوي، والمجتمع الذكوري، والسلطة الأبوية، واضطهاد/استعباد الأنثى، ونموذج سي السيد، والتمييز ضد المرأة، وتدخل الأسرة في شئون الأبناء، والمساواة/التسوية الجندرية أي المتعلقة بالنوع الاجتماعي، واستقلال المرأة، وتمكين المرأة، في مقابل تأنيث المجتمع والتمركز حول الأنثى وتسليط المرأة (woman empowerment تتصدَّر الدراسات الأكاديمية العربية حول مشكلات الأسرة، لا لتعبر عن تلك المشكلات بشكل واقعي وإنما هي جزء من خطاب الحركات النسوية في الغرب؛ وبالتالي لا تعكس جوانب الواقع الأسري والاجتماعي في بلادنا بقدر ما تسقط واقع الغير علينا أو تُأَوِّل واقعنا ليناسب مفاهيم الغير عن الأسرة والزواج. فعلى سبيل المثال، تمثِّل دعاوى دراسات النوع الاجتماعي ودعوتها إلى المساواة الكاملة وقبول الشذوذ ذروة القلق الذي ينظر به الغرب لهوية الإنسان، فكيف يمكن الاستعانة بها كمنظور لتحليل مشكلات الأسرة في مجتمعنا الذي لا يعاني هذه المشكلة بذات الدرجة ولا بنفس الطريقة؟!

الفصل الثاني
حقائق تأسيسية في الأُسرة المعاصرة

تتعرَّض الأسرة اليوم لتحولات كبرى ويدخل الزواج غمار واقع عالمي شديد التغير. لذا من المهم الوقوف على الأشكال المعاصرة للتكوين الأسري ودلالة تنوعها، والمبادئ التي يقوم عليها بناء الأسرة السوي وغير السوي، وقضية المناخ الأسري الذي يتشكَّل من خلال العلاقات الأسرية ويتلوَّن بلونها؛ بين المناخ السوي والمناخ السيء وأنماط الأسر العليلة التي تنتج عن سوء التواصل، بالإضافة إلى قضية اقتصاد الأسرة أو البُعد الاقتصادي لتكوين الأسرة في عالم تغلب عليه المادية الاستهلاكية والتي ربما تستهلك هي جوهر الأسرة نفسه. ولا شكَّ أن لذلك كله مردوده على التنشئة الأسرية "Family Socialization"؛ التي هي منطلق تكوين الفتى والفتاة: طرفي الأسرة والحياة القادمة.

ونحن في هذا الجزء نُعنى بالأسرة التي سيأتي منها الشاب والفتاة اللذان سيكونان نواة الأسرة المعنية في هذا المشروع، فما لم يأتِ كلٌّ واحد منهما من مناخ أسري سوي فإن كثيرًا من العلل سوف تنتظر منا تنبهًا ومواجهةً خاصَّةً. وكلما عملنا على توفير مرحلة صحيحة وصالحة كما أمكننا تيسير سبل السلام لشباب وأسر الغد إن شاء الله تعالى.

أ) أشكال الأسرة المعاصرة:

وفق ملاحظات علماء الاجتماع والنفس، تأخذ الأسرة المعاصرة أشكالًا مختلفة بناء على معايير متعددة؛ وأهمها:

الأسرة النووية (المركزية/الصغيرة) – والأسرة الممتدة (المجتمعة/الكبيرة): تتكوَّن الأولى من أب وأم وأطفالهما؛ وهي الأكثر شيوعًا في زيادة مطَّردة في العالم وخاصة المدن. أما الثانية فهي التي تتكوَّن من أب وأم وأطفال ووالد أو والدة أحد الزوجين على الأقل، أو أقارب في الدم، وينتشر هذا الشكل من الأُسر في القرى الريفية والبدو.

وهناك الأسر أولية البناء – والأسر معادة البناء: في الأولى يكون الزواج للمرة الأولى سواء وجد بها أبناء أو لا، أما النوع الثاني فيكون الزواج لمرة أخرى مع وجود الأبناء بعد انفصال.

وهناك أسرة الوالدين – والأسرة مفردة الوالدية: فالأولى هي المعتادة حيث يوجد الوالدان معا ومعهما الأطفال، أما الثانية فهي الأسرة التي يغيب عنها أحد الوالدين، ويزداد هذا النوع نتيجة ارتفاع نسب الطلاق.

وهناك أسر ذات أطفال – وأسر بلا أطفال، كما أن هناك الأسر المتبنّية: وهي الأسر التي يكون أحد أبنائها متبنًّى بسبب عدم إنجاب الزوجة أو موت جميع أهل الابن المتبنَّى(٤٨). وفي الفقه الإسلامي تسمى هذه الأسرة "**الأسرة الكافلة**"؛ حيث يكفل الزوجان –خاصة غير القادرين على الإنجاب– طفلا يتيما أو أكثر ويعيش معهما عيش الابن غير أنه لا يحمل اسمهما مراعاة لعدم خلط الأنساب.

وتنوُّع أشكال الأُسر منه الطبيعي أو التقليدي الموروث عن العهود السابقة ومنه المحدث الذي أفرزتْه تطوُّرات فكرية واجتماعية حديثة؛ حتى أنتجت أشكالًا من الأُسر غير الأُسرية أو غير الزوجية، نأبى أن ندرجها ضمن الأسر الطبيعية، إنما نخصص لها موضعا ضمن الأنماط غير السوية للأسرة.

ب) مبادئ/شروط تحقق المعنى الأسري:

لا يتضمَّن النسق الأُسري "Family System" قدرة الفرد على الارتقاء والتزاوج والتعرف على هويته الشخصية فحسب، وإنما يعكِس أيضًا الثقافة والقيم والتوقعات العامة وقواعد المجتمع. وتؤدِّي التجارب والنماذج التي تضعها الأُسرة للطفل دورًا مُهِمًّا في ارتقاء سلوكياته وقيمه(٤٩). فالأُسرة هي إحدى المؤسسات التربوية المهمة، والتي من شأنها أن تكون عماد التربية؛ فهي المؤسسة الأولى التي يقع على عاتقها تربية الأبناء وغرس القيم والتقاليد العريقة فيهم، والتي يتلقَّى فيها الفرد دروس الحياة. فلا بدَّ أن تكون الأُسرة نموذجًا طيبًا حتى تُخرج طفلًا وراشدًا يمتلك سلوكيات وقيم اجتماعية وأُسرية إيجابية.

ويمكن إجمال المبادئ الموضوعية للنسق الأسري فيما يلي:

١. **مبدأ الوحدة والتكامل:** يُعد نسق الأسرة كيانًا كليًّا منظَّمًا يختلف عن مجموع أجزائه؛ فلا يمكن دراسة خصائصه بمجرد دراسة مكوناته الفردية، وإنما يجب أن تُدرس الأسرة كوحدة كلية متفاعلة؛ أي المكونات والعلاقات والتفاعلات بينها. ومن ثم فالأسر غير المتكاملة تكون منقوصة الوصف الأسري؛ اسمًا على غير مسمى؛ كحالات الطلاق الصامت والانفصال العاطفي والأزواج المنفصلين أشباه المطلقين.
٢. **مبدأ التنظيم:** يُشكِل التنظيم الداخلي للأسر أنماطًا من العلاقات والأدوار الوظيفية، وتتشكَّل تلك الأدوار وفقًا للعمر والنوع؛ حيث يكون الراشدون أقوى وأكثر تحمُّلًا للمسئولية مقارنةً بالأطفال، وحيث تقوم الأمهات برعاية الأطفال، ويقوم الأب بدور العائل الاقتصادي " Economic Provider"، وتتغيَّر الأدوار والمواقع مع الزمن حيث يضعف القوي ويقوى الضعيف. والأسر الفوضوية التي لا يعرف فيها أحد حقه ولا مسئوليته تكاد لا تستحق وصف الأسرة.

---

(٤٨) عبدالله يوسف، ٢٠١٦.

)49(Gunindi, Sahin & .Demircioglu, 2012.

٣. **مبدأ الاعتماد المتبادل أو دائرية التأثير**: حيث يُعد نمط التأثير داخل نسق الأُسرة دائريًّا، وليس خطيًّا؛ إذ يؤثِّر كل عضو في الأعضاء الآخرين ويتأثَّر بهم. فهناك اعتماد متبادل بين كل أعضاء الأسرة.

٤. **مبدأ التوازن الداخلي**: حيث تستطيع الأُسرة أن تُحقِّق نوعًا من التوازن في نمط أدائها. ويهتم هذا المبدأ بالحفاظ على سلوك الأسرة وضبط سلوكها حتى تبقى فى حالة توازن، كما تستطيع من خلال هذا المبدأ مقاومة القوى التي يُمكن أن تُخل بهذا التوازن. فالأسرة تحافظ على توازنها عندما ينجح كل أعضائها بالقيام بالمهام المطلوبة منهم. وهذا المبدأ هو واحد من أكثر المبادئ الأسرية عرضة للانتهاك والإهدار في الواقع المعيش.

٥. **مبدأ الحدود وقابليتها للثبات والتغير**: هناك حدود للأسر تتباين فى قابليتها للنفاذ، وقابليتها للتأثر بالمؤثرات الخارجية. فهناك أسر ذات حدود صلبة قوية يصعب على أعضائها الانفصال عنها وإن كانت الظروف تتطلَّب ذلك كالالتحاق بالجامعة أو الزواج، بل ربما يجد أعضاؤها صعوبة فى الاستفادة من الموارد والفرص المتاحة خارج نطاق الأسرة. وعلى جانب آخر، توجد أُسر تكاد أن تكون بلا حدود، فهي تتَّسم بدرجة مرتفعة من المسامية أو القابلية للنَّفاذ؛ ممَّا يجعلها سريعة التأثُّر بالاضطرابات التى تُحدِثها بعض المؤثرات الخارجية غير السوية، وكذلك سرعان من تخرج تفاعلاتها وإشكالياتها إلى خارجها.

٦. **مبدأ التشكُّل مع أحداث البيئة (التغيير)**: يشير هذا المبدأ إلى مدى تكيُّف الأسرة مع التغييرات التى تطرأ عليها سواء كانت داخل الأسرة أو خارجها(٥٠). فثمة أسر ضعيفة لا مرونة لها تجاه مؤثِّرات الواقع تعيش منكفئة على ذاتها، وأكثر الأسر اليوم رهينة الأجواء المحيطة وتعاني تدافعًا كبيرًا بين ثوابتها ومتغيرات البيئة المحلية والعالمية لا سيما في ظل هيمنة التأثير التكنولوجي والاتصالي عالميًّا.

هذه المبادئ توصف بالمبادئ الموضوعية؛ حيث تشير إلى عناصر تعريف ما يمكن أن نسميه "أسرة" من حيث الوجود، ولكن ثمَّة مبادئ أو قيم تتعلَّق بالصحة الأسرية يمكن إجمالها فيما يلي:

١- **السكينة**: وهي من مفاهيم المنظور الحضاري الاجتماعي المستقاة من الفطرة والدين والواقع معًا؛ وتعني الحال الاستقرارية للإنسان حين تهدأ أنفاسه وتستروح نفسه من داخلها وتنسجم مع ما حولها من متغيِّرات. وسكينة الأسرة هي أن يسكن الزوجان أحدهما إلى الآخر، فالرجل سكينة المرأة والمرأة سكينة الرجل (**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**)، بداية من الحاجة الغريزية ووصولًا إلى الحاجة الاجتماعية والتشاركية. والأسرة بغير السكينة أقرب إلى العدم وربما تحوَّلت إلى ضدها من: قَلَق واضْطرَاب ومُحاذرة.

(٥٠) آمال دسوقى عطيتو، ٢٠٠٣.

٢- **المحبة والإرادة التأسيسية:** فلا معنى لكيان يقوم على إكراه أو لامبالاة وجدانية، وبالأخص الأسرة لما لعلاقاتها من خصوصية (حميمية الزوجين – التشارك المعيشي – التناسل)، والتي لا توجد في أي كيان جمعي آخر. فأي أسرة لا تقوم على المودة والمحبة والميل المنساب بين أفرادها فهي فاقدة لروحها، ولا تأسَّسَتْ أسرة على غير المودَّة والحبِّ والتجاذُب الطبيعيِّ إلَّا كانت فرصُ بقائها ضئيلة جدًّا. وكلما زاد قدرُ ونوع المحبَّة داخل الأسرة كلما كانت مجالاً خصبًا لنمو إنسانية أفرادها وإيمانهم وإقبالهم على الحياة التي يعيشونها.

٣- **الرعاية والمسئولية:** وهذا المبدأ الثالث بمثابة العمود الفقري الذي تقوم به الأسرة في حركتها الداخلية وعلاقتها الخارجية مع بيئتها، وأهم ما يؤكِّد عليه هو فكرة "توزيع وتوسيع المسئولية والصلاحية"؛ فكل من في الأسرة مؤتمن على مساحة منها وعليه أن يؤدّي أمانته فيها، وتفريط أي فردٍ في مساحة مسئوليته يعدُّ بمثابة خرقٍ في سفينة الأسرة لا تعود عاقبته على الفرد وحده إنما على الأُسرة برُمَّتها.

٤- **مراعاة الحدود:** وهي حدود داخلية وحدود خارجية تكمل معنى الرعاية والمسئولية، بما تتضمَّنه من حقوق الزوجية وحقوق الأبوة والأمومة والبنوة والأخوة، ويضيف مبدأ الحدود فكرة الخصوصيات داخل النسق الجامع للأسرة. فللزوجة ذمتها المالية وحقوقها الذاتية التي لا يصح الجور عليها، وكذلك زوجها ليس كلاً مباحا إلا بالفضل والمعروف، بالإضافة إلى ما بينهما من مشترك حياتي كبير. وكذلك ليس حق الوالد على ولده أو ابنته مطلقا؛ إنما هو منوط بمصالح الأبناء، ولا العكس فليس مراد الأولاد من أبيهم وأمهم هوى مطلقًا يجب عليهم تحقيقه.. ومن ثم تكمل فكرة الحدود مبدأ الحقوق والواجبات؛ **(فالحقوق توجب المسئولية والحدود تحفظ الحرية)**، وبهذين الساقين تمضي الأسرة إلى مقاصدها من السكينة.

٥- **العدل:** وهو قيمة عظمى ومبدأ عام يسري في كل شيء وعلى كل أحد من البشر في كل حال. وتتأسَّس الأسرة على أساس العدل بين أفرادها؛ وهو قد يعني من وجه مساواة أصلية في كون كلِّ أعضائها بشرًا متساوين في الكرامة الأصلية، ولكن العدل لا يعني التسوية العمياء بين المختلفين في طبائعهم أو خصائصهم أو قدراتهم أو رغباتهم أو مصالحهم.

٦- **الرحمة والإحسان:** مبدأ مؤسِّس ومكمِّل في الوقت نفسه؛ حيث يدخل في السكينة والمودة لتأسيس العلاقة الزوجية من أولها ولاستقبال الأبناء كأعضاء جدد في جسد الأسرة، ولكن الرحمة التكميلية تعني أنه عند الإخلال بعناصر الأسرة السابقة من المودة أو الرعاية والمسئولية أو رعاية الحدود أو العجز عنها، تأتي الرحمة لتسدَّ هذه الثغرات، جبرًا لكسر العاجز، وللعفو عن المسيء.

هذه المبادئ جديرة ببناء وإدارة أسرة طيبة تحقق مقاصد الأسرة إنسانيًّا ومادِّيًّا، وفرديًّا وجمعيًّا، ودينيًّا ودنيويًّا، وهي تحتاج إلى تفاصيل يتم التطرق إليها في القسم الثاني من هذا المشروع، ولعل أهم ما تحقِّقه هذه المبادئ هو بناء علاقات متوازنة ومتراحمة وفعَّالة بين أفراد الأسرة لاسيما الزوجين، ومن ناحية أخرى تهيئة مناخ أسري إيجابي وسوي يحقق السكينة والنجاح الأسري.

ج) أساليب التنشئة الأسرية:

بشكل عام، تعني عملية التنشئة الاجتماعية: ماذا يتعلم الفرد؟ ومتى؟ وكيف؟ وما نتائج هذه العملية بالنسبة له؟ كما تعني بأنها العملية التي تُساعد على بناء الشخصية الإنسانية التي بمقتضاها يتحوَّل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي يكتسب خبرات ممَّن سبقوه إلى الحياة، ويؤثِّر ويتأثَّر بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه(٥١).

وتعتبر الأُسرة أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية، حيث تبدأ عملية التنشئة فيها منذ اللحظات الأولى لولادة الطفل بل وهو جنين في بطن أمه، وتستمر عبر مراحل متتابعة.

ونظرًا لأن العلاقة بين الطفل ووالديه تعتبر مُهمة وحاسمة في تحديد وبلورة سمات الأبناء الشخصية التي تتكون فيما بعد، فقد عُنيت العديد من الدراسات النفسية بالكشف عن أنواع الأساليب التي ينبغي أن يتبعها الوالدان مع الأطفال. ويُمكن تصنيف أهم أساليب التنشئة الاجتماعية الأُسرية التي يُمارسها الوالدان مع الأبناء إلى نوعين من الأساليب(٥٢):

■ أساليب التنشئة الأُسرية السوية:

١- الأسلوب الحواري:

يعتمد هذا الأسلوب على الحوار المتبادل بين أفراد الأسرة، والذي يسمح لكلِّ فرد بالتعبير عن رأيه وبإعطائه مساحة من التواصل الاجتماعي في الأسرة، ويؤثِّر في نقل الثقافة والقيم إليهم مما يؤثِّر في سلوكهم الاجتماعي. كما يتَّسم هذا الأسلوب بأن الأمور بين الوالدين والأبناء تسير بشكل تعاوني، بحيث يتعلم الأبناء أنهم مطالبون ببعض الواجبات بانتظام، وأن يتَّخذوا بعض القرارات بأنفسهم. قد تقع الخلافات بين أفراد الأسرة التي تطبِّق هذا الأسلوب، لكنها لا تدوم طويلًا حيث تُعالج بالمناقشة الصريحة، وبروح التعاون والمحبة. كما يتَّصف الأطفال الذين ينتمون إلى أُسر ديمقراطية بالنشاط، والمشاركة الإيجابية، والمنافسة، والانطلاق، والقيادة(٥٣).

(٥١) عائشة محمود بهلول، ٢٠١٠.
(٥٢) فادية علوان، ٢٠٠٦.
(٥٣) دينا علم أحمد الشربيني، ٢٠١٥.

٢- أسلوب الضبط الموجَّه:

يتميَّز أسلوب الضبط الموجَّه[٥٤] بمراقبة سلوك الأبناء دون تقيُّد، والحزم معهم وإيقاع العقاب بهدف تصحيح السلوك، والتشجيع على التعاون، والحثّ على الانضباط، والحرص على الطاعة للوالدين، وتوجيه سلوك الأبناء، وإعطاء تفسيرات للقواعد التي ينبغي اتباعها[٥٥].

٣- أسلوب الدفء والتقبُّل:

يعدُّ أسلوب التقبُّل أحد الأساليب السوية في التنشئة الاجتماعية للأبناء، ويعبر عن مدى الحب الذى يُبديه الوالدان للطفل من خلال تصرفاته في مختلف المواقف اليومية. كما أن تقبل الوالدين لأبنائهم يجعلهم أكثر قدرة على تكوين علاقات إيجابية داخل المنزل وخارجه عند اتصالهم بالآخرين، كما يجعلهم قادرين على الأخذ والعطاء بعيدًا عن الشعور بالتهديد والخوف والقلق[٥٦].

٤- أسلوب الحزم:

الحزم هو وضع الأمور فى نصابها، فلا يتساهل الوالدان فى ظروف تستوجب الشدَّة، ولا يتشدَّدون فيما هو مستوجب اللين واللطف. وهو مرتبط ارتباطًا إيجابيًّا بالثقة بالنفس، والقدرة على تحمل المسئولية، والقدرة على الإبداع، والعلاقات الإيجابية، وضبط الذات. وفي هذا الأسلوب يستخدم الوالدان الثواب أكثر من العقاب، كما يقومان على توصيل توقُّعاتهم للأبناء بشكل واضح وينصتون إليهم ويشجعونهم على الحوار والنقاش[٥٧].

■ أساليب التنشئة الأسرية غير السوية:

١. الأسلوب التسلطي:

يتَّسم هذا الأسلوب بفرض رأي الوالدين على الطفل، وربما الوقوف ضدَّ رغباته، أو اللجوء إلى الضرب أو الحرمان أو التهديد، أو التدخُّل المستمر في خصوصيَّاته. وعادةً ما يؤدِّي هذا الأسلوب **الديكتاتوري** إلى نشأة طفل يخاف من السُلطة، ويشعر بالدونية وعدم الكفاءة، وقد تؤدِّي كثرة الإحباطات التي يتعرَّض لها الطفل إلى ظهور شخصية عدوانية تميل إلى التخريب وإتلاف ممتلكات الآخرين[٥٨]. وهذا النوع من التربية يُنتج شبابًا تابعين حَرْفِيِّين غير مبدعين خوفًا من الخطأ ومن ثم للعقاب.

٢. أسلوب الحماية الزائدة:

(17) The Authoritative Parenting Style.
(55) Takeuchi & Takeuchi، 2009.

(٥٦) دينا أحمد الشربينى، ٢٠١٥.
(٥٧) عزى حسين، ٢٠١٣.
(٥٨) فادية علوان، ٢٠٠٦.

ومن هذه الأساليب أو الأنماط السلبية في التربية، **الحماية الزائدة** من فرط حب الوالدين لطفلهم وحرصهم الزائد عليه، ليس بهدف التسلُّط ولكن بهدف الحماية والخوف المبالغ؛ مما يترتَّب عليه شخصية تبحث عن القوة لكي تحتمي بها كلَّما تعرَّضت إلى موقفٍ جديدٍ، والخوف الشديد من العالم المحيط.

٣. أسلوب الإهمال:

يتَّسم أسلوب الإهمال "Carelessness" بعدم إعطاء الوالدين للطفل أي عائد عن سلوكياته الجيدة أو السيئة، أو عدم مشاركته أحزانه وأفراحه، أو ترك الطفل دون تشجيع على السلوك المرغوب فيه، وعدم محاسبته على أي خطأ فى السلوك. وهذا من شأنه أن يُولِّد لدى الطفل الشكَّ في أيِّ سلوك يقوم به، ويرتبط هذا الأسلوب بنمو شخصية مهزوزة للطفل؛ حيث يفقد القدرة على التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ، ويفقد شعوره بالانتماء إلى أُسرته الصغيرة ومجتمعه الكبير(٥٩)؛ ممَّا قد يجعل هذا الأسلوب من الابن عند الرُّشد باحثًا عن الحبِّ في أشخاص آخرين يقدِّمون له الحبَّ بدون شروط؛ الأمر الذي يترتَّب عليه الانجراف لأي شخص يبادله الحُبَّ حتى وإن كان غير مناسب لشخصيته وأسلوبه ومعتقداته؛ من أجل الحصول عليه ومن أجل الشعور بكونه محبوبًا وذا تقدير واعتراف من قِبل الآخر.

٤. أسلوب التذبذب أو عدم الاتِّساق:

يُعدُّ هذا الأسلوب من أشدِّ الأساليب خطورة على الطفل وصحته النفسية، ويتضمَّن التذبذب في معاملة الطفل بين اللين والشدَّة، يُثاب مرة على العمل، ويُعاقب عليه مرة أخرى دون توضيح معايير الصواب والخطأ. وهذا التأرجح بين الثواب والعقاب، والمدح والذم، أو اللين والقسوة يجعل الطفل في حيرة من أمره، دائم القلق، وغير مستقر(٦٠).

٥. أسلوب التدليل والتسامح المُفرِط:

يقصد بأسلوب التدليل "Permissiveness" تشجيع الطفل على تلبية رغباته مهما كانت بالشكل الذي يريده بكُل سهولة ويُسر، كالدفاع عن أخطائه، وعدم معاقبته على هذه الأخطاء. ومن مظاهر هذا الأسلوب أن الطفل عندما يسبُّ أبويه يضحكان له، وعندما يخطئ لا يشعرانه بخطئه؛ بل قد تحضنه الأم دون أن تردعه أو تنصحه.

وغالبًا ما يؤدِّي هذا الأسلوب إلى انحراف الأبناء؛ حيث يأتي الطفل بكثير من السلوكيات التي تؤذي الآخرين أو يرتكب كثيرًا من الحوادث والجرائم؛ نظرًا لعدم وجود أي ضوابط تحكُم سلوكه. كما يُكَوِّنُ هذا الأسلوب شخصية قلقة مُستهتِرة لا تتحمَّل المسئولية ولا تستطيع مواجهة المشكلات، معتمدًا على الأقارب

(٥٩) فادية علوان، مرجع سابق، ٢٠٠٦؛ دنيا جليل إسماعيل، ٢٠١٥.
(٦٠) عادل عبد الله محمد، مرجع سابق، ٢٠٠٥.

والمعارف، ويجعل هذا الأسلوب الطفل أكثر عُرضة للاضطراب النفسي عندما تقف في طريقه عقبة أو مشكلة(٦١).

٦.أسلوب التفرقة:

وهو عدم المساواة بين الأبناء على أساس الجنس أو ترتيب الطفل أو السنِّ، فما يُسمح به للذكور قد لا يُسمح به للإناث أو ما يُسمح به للطفل الأكبر قد لا يُسمح به للأصغر؛ مما ينتج عنه البغضاء والكراهية والعداوة بين الأبناء. هذه التفرقة قد يترتَّب عليها شخصيات مليئة بالغيرة كما تُولِد الأنانية بين الإخوة(٦٢).

٧.أسلوب النبذ:

يعرف النَّبذ بأنه سلوك ظاهر يُبَيِّنُ للطفل أنه غير محبوب وليس مرغوبًا فيه وربما أنه ليس له قيمة؛ وذلك من شأنه أن يهدِّد أمان الطفل ويجعله عرضة للشكِّ والشعور بالوحدة. ومن مظاهر هذا الأسلوب: السخرية من الطفل، والعقاب الشديد، وإظهار الاستجابات السلبية من قبيل: الاحتقار والتهديد، ومحاولة الابتعاد عنه، ومعايرة الطفل بأخطائه، والتشهير بأنه يكذب أو يسرق أو يتبوَّل لا إراديًّا (على نفسه) أو أنه مهمل... إلخ. ويترتَّب على هذا الأسلوب شخصية توجِّه عدوانها نحو ذاتها، وقد يصبح عدوانيًّا مع آخرين من نفس السنِّ، وقد يكون منطويًا ومتمركزًا حول ذاته. وقد تؤدِّي أيضًا إلى شخصية سيكوباتية (مضادة للمجتمع)(٦٣).

وعليه فيُمكن توضيح **أثر أساليب التنشئة الاجتماعية وأنماط القدوة الوالدية على بعض الخصال الشخصية للأبناء**، حيث تؤثِّر أساليب التنشئة الاجتماعية الأُسرية في كثير من نواحي ارتقاء الطفل العقلية والنفسية والاجتماعية، وترتبط بالأنماط السوية من هذه الأساليب –كالتقبل والتسامح والحب والودّ والعطف والديموقراطية وغيرها من الأساليب السليمة– ترتبط بها خصال الأبناء الإيجابية مثل: الإيثار "Altruism"، والتعاون، والصدق وغيرها من الخصال الإيجابية السوية، كما يرتبط بها السواء النفسي للأبناء وشعورهم بالأمن والثقة بالنفس والتوافق في علاقاتهم الاجتماعية. في حين أن الأنماط غير السوية كالقسوة، أو التدليل المفرط والإهمال، والتذبذب في المعاملة، والتفرقة والعقاب الشديد وغيرها من الأساليب غير السليمة ترتبط بها خصال الأبناء السلبية كالكذب، والعدوان، والكراهية وغيرها(٦٤).

وبشكل أكثر خصوصية، تُعد **"صورة الأب"** الإيجابية في التربية من أساسيات التنشئة الاجتماعية السليمة، أما تأثير الصورة السلبية للأب على التنشئة الاجتماعية للأبناء فتنعكس على مستقبلهم

(٦١) فادية علوان، ٢٠٠٦؛ إبراهيم جابر السيد، ٢٠١٣.
(٦٢) إبراهيم جابر السيد، ٢٠١٣
(٦٣) دينا أحمد الشربيني، ٢٠١٥.
(٦٤) فايزة يوسف، ٢٠٠٤.

الاجتماعي خلال مسيرة حياتهم المنتظرة. فدور الوالدين –وخاصَّةً الآباء– في تشكيل شخصية الأبناء – باعتبارهم يملكون إمكانات أكثر تأثيرًا على النمو النفسي والشخصي للأبناء– يعتبر الدور القدوة والنموذج الذي يحتذِي به الأبناء —لا سيما الذكور– ويتوحَّدون معه محاولين تقليده(٦٥).

ومن أنماط هذه القدوة الوالدية: الأب الغيور، والأب غير المبالي أو المتهاون، والأب العاطفي، والأب الأناني، والأب المفرط في الحذر، والأب الطموح لأبنائه، والأب القاسي.

د) العلاقات الأُسرية كدالة للمناخ الأُسري:

يجب في هذا التأسيس أن نُعطي اهتماما خاصًّا بالعلاقات داخل الأُسرة؛ تلك التي تتمثَّل في العلاقة بين الوالدين، والعلاقة بين الإخوة، والعلاقة بين الوالدين والأبناء(٦٦).

ويوجد نوعان من التفاعلات بين الزوجين (الوالدين)؛ وهي التفاعلات الإيجابية حين يصدر من الطرفين سلوكيات جيدة يسودها مشاعر الحب والرضا والإيثار. والأخرى هي التفاعلات السلبية وذلك عندما ينتج عن هذا التفاعل سلوكيات مُزعجة وغير سارَّة للطرفين؛ مما يُنشيء مشاعر الغضب والكُره والنفور.

وقيام العلاقات السويَّة بين الوالدين وتحقيق التوافق بينهما يؤدِّي إلى تماسك الأُسرة، ويساعد على إشباع حاجات الأبناء النفسية وإحساسهم بالأمان والطمأنينة. ومن ثَمَّ فإن الخلافات بين الوالديْن كثيرًا ما تخلِق نوعًا من التوتُّر الذي يشيع في جوِّ الأُسرة؛ ممَّا يؤدِّي إلى أنماط السلوك المُضطرب لديهما ثم لدى الأبناء كالشجار والأنانية والخوف، وقد يؤدِّي سوءُ التوافق بين الزوجين إلى حدوث الطلاق الذي يكون له تأثير سيئ على شخصية أبنائهما وعلى نموهم فيما بعد(٦٧).

وهناك مجموعة من العوامل التي تؤثِّر في قوة التواصل الأسري بشكل عام، والتواصل بين الزوجين بشكل خاص؛ وهي:

١. **المستوى الثقافي والاجتماعي**: فعملية التواصل تتأثَّر بحجم الرصيد الثقافي والمعرفي الذي يتمتَّع به كلٌّ من الزوجين، كما أن التغيُّر الثقافي الحاصل في المجتمع والعالم من حولنا من شأنه أن يزوِّد الأبناء بخبرات قد لا تكون متوفِّرة لدى الآباء مما قد يعمِّق الهُوَّة بين الجيلين. ولا يتعلق المستوى الثقافي بدرجة التعليم فحسب، بل يتأثَّر بالبيئات والطبقات الاجتماعية ونوعية الأعمال والأشغال والتعامل مع التقنية الحديثة ودرجات التواصل خارج الأسرة.

(٦٥) ضامن هابيل حمايه، ٢٠١٢
(٦٦) فايزة يوسف عبد المجيد، مرجع سابق، ٢٠٠٤.
٦٧ - فادية علوان، ٢٠٠٦.

٢. **تبنِّي أحد الأنماط غير السوية** والتي من شأنها أن تُصعِّب عملية التواصل؛ منها أسلوب التذبذب في معاملة الزوجين أحدهما للآخر ثم للأطفال. كما أن هناك الكثير من أساليب التربية الخاطئة في تربية الوالدين لأبنائهم، فبعض الآباء يستخدمون العقاب البدني دائمًا ويتَّسم سلوكهم بالقسوة، فينشأ الطفل كارهًا للسُلطة وتخلق منه فردًا عديم الثقة في ذاته، في مقابل من يدلِّلون أبناءهم ويمنحونهم توقُّعات فوق الطاقة وحقوقًا ليست لهم فيكبرون بتكوين مختلٍّ يتحوَّل إلى اضطراب شديد عند مواجهة الواقع.

٣. **تبنِّي أحكام مسبقة** تجعل الفرد يبني تصورات واتجاهات خاطئة حول الطرف الآخر؛ وبالتالي تكون استجاباته تبعًا لهذه الأحكام المسبقة. والتربية على الأحكام المسبقة داخل الأسرة تطبع أبناءها على سرعة الحكم على الأشياء وسبق الانطباع للاطلاع؛ وهذه آفة شديدة الخطورة على منهج التفكير، وتتسبَّب في الكثير من المشكلات في تكوين الأسرة.

٤. **حجم الأسرة**: فالدراسات الاجتماعية والنفسية تميل إلى أن الأسرة صغيرة الحجم من شأنها منح فرص أكبر للتواصل فيما بين أفرادها، بينما الأسر كبيرة الحجم قد تكثُر خلافاتها بوجود عدد كبير من الأبناء[٦٨]. وهذا أمر خلافي حيث يتبنَّى تيار آخر أن العلاقة بين حجم الأسرة والتواصل طردية في كمِّ العلاقات وليس بالضرورة في نوعها وأن الأسرة الكبيرة تعطي الفرصة لأفرادها لتكوين علاقات متعدِّدة ومتنوِّعة وربما تكوين أُسر فرعية داخل الأسرة حيث يمثِّل الأخ الأكبر دور الأب لبعض إخوته ويتعدَّد نواب الأب، كما تلعب الأخت الكبيرة دور الأم لبعض إخوتها وتنوب عنها في بعض الأمور أو يصبح هناك درجات من الأبوة والأمومة والبنوة، وأنماط مختلفة من صداقات الإخوة. لكن القدرة على الإدارة تقل مع زيادة حجم الأسرة، ولا يدير الأسرة الكبيرة بنجاح إلا قلة من الأكفاء.

٥. **العلاقة بين الزوجين**: فلا شك أن العلاقة الزوجية التي تتَّسم بالانسجام والتوافق تُيسر من تفاعل الوالدين مع الأبناء، وتُسهِل من تكيُّفهم مع أدوارهم الوالدية؛ مما يؤثر على علاقاتهم مع أبنائهم والتي بدورها سوف تنعكس على شخصياتهم. فالعلاقة الأُسرية الإيجابية المتمثلة في السعادة الزوجية والتوافق الزواجي تؤدِّي إلى تماسك الأُسرة مما يخلق جوًّا يساعد على نمو طفل يتمتع بشخصية متزنة.

٦. **ارتفاع مستوى طموح الأبناء**: وكما تقدَّم فعندما لا تستطيع الأسرة تحقيقه فإن نوعًا من الإحباط وخيبة الأمل تصيب الأبناء، وإن تقليد الأبناء بشكل واضح لأقرانهم في الجوانب المادية غالبًا ما يُمثِّل عبئًا على كاهل الأسرة ويؤدِّي إلى كثير من الخلافات الأسرية. ويدخل في ذلك حالة الحراك الاجتماعي التي تحدث لكثير من الأسر في الطبقة المتوسطة بين أدناها وأعلاها؛ حيث يجري

٦٨- وجدي سمير عياد، ٢٠١٥؛ نادية بلعباس، ٢٠١٥.

تغيير البيئة السكنية والأوضاع المادية والبيئة التعليمية ويجري معها رفع مستوى الطموح المادي والاجتماعي وقد لا تتحمَّله الأسرة أو تتعثَّر دونه.

٧. **انشغال أفراد الأسرة** بأمور خارج الأسرة: فالتوازن بين داخل الأسرة وخارجها من الأهمية بمكان، وتخندق الأفراد داخلها يثقلها بالتفاعلات الكثيفة التي غالبًا ما تتحوَّل إلى احتكاكات حادَّة ومشكلات كثيرة، وكذلك الانشغال بالعلاقات والحركة خارجها زيادة عن الحدِّ وبما يقلِّل العناية بالأسرة.. غالبًا ما يوهن العلاقات داخلها ويتسبَّب في اغترابات نفسية واجتماعية لا سيما للأبناء. وقد أضحى كثير من البيوت أشبه بأفرع للشركات والمؤسسات خارجها من خلال العمل عبر الإنترنت، وأتى ذلك كله على حساب مساحات الوقت الأُسريّ والتفاعلات الأُسرية.

٨. **الاستخفاف بأهمية التواصل** والحوار وفعاليته في حلِّ الكثير من المشكلات الأُسرية: فالأسرة واحدة من أهم النماذج الاتصالية والتواصلية، والتواصل هو العلامة الأساسية على حياة الأسرة وتزداد حيويتها بزيادته وتقل بتراجعه. ولا شكَّ أن التواصل الحياتي خارج الأسرة وعبر المنزل قد أثَّر على التواصل داخل الأسرة تأثيرًا سلبيًّا، وينذر بإعادة تشكيل التصورات حول مفهوم الأسرة نفسه ومقاصدها وأصول التفاعل داخلها.

٩. **الاهتمامات الترويحية وتأثيرها على الترابط الأُسري**: فنظرًا لأن سلوك الفرد يتأثَّر إلى حدٍّ كبيرٍ بالبيئة المحيطة به، فإن وجود البيئة المشجِّعة على الترويح في مجال الأُسرة يُعدُّ من أهمِّ العوامل المساعدة على الاستمتاع بقضاء وقت الفراغ مع الأُسرة؛ ولذلك يجب على الأُسرة توفير البيئة المشجعة على تكوين الميل والاتجاه نحو أنشطة الترويح لأبنائها وذلك مع ضرورة إلمام الوالدين بطرق الكشف عن الميول لدى أبنائهم نحو اللعب وأنشطة وقت الفراغ[٦٩].

١٠. **نقص الوعي لدى الوالدين بالتربية السليمة**: إن جهل كثير من الآباء –وخاصَّة الأُمَّهات– بمطالب النمو وإشباع حاجات الطفولة وعدم معرفتهم الأساليب السليمة في تربية الأطفال يوقعهم –عن غير قصد في كثير– من الأخطاء التي تؤثِّر على أطفالهم أسوأ الأثر من ناحية صحتهم الجسمية والنفسية، فتتسبَّب في إصابتهم بالأمراض أو سوء توافقهم، ومعاناتهم لكثير من مشكلات السلوك التي تعوقهم عن التواصل ممَّا يؤثِّر على عملية التفاعل والتواصل الأُسري الجيد[٧٠].

٦٩ فريدة أحمد حرزاوي، ٢٠٠٩.
٧٠ إيمان جابر عبد الحليم، ٢٠١٢.

١١. **نمط القدوة الوالدي الذي يتبعه الأبناء:** فغياب دور الأب في الطفولة من شأنه أن يؤثر على التفاعلات الاجتماعية للأبناء وتواصلهم مع الآخرين؛ حيث يقلل من درجة التفاعل حتى داخل الأُسرة[٧١].

وبعد الحديث عن أشكال العلاقات والتفاعلات بين أعضاء الأُسرة يُمكننا أن نعرض للجوِّ أو **المناخ الأُسري** الذي يسود الأُسرة طبقًا لنوعية شبكة العلاقات التي تربط بين أفراد الأُسرة؛ سواء كان هذا المناخ الأُسري سويًّا ينتُج عن اتباع أساليب صحية سليمة في التفاعلات بين أفراد الأُسرة بغرض ضبط سلوك الأبناء من أجل تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي، أو كان غير سويٍّ من شأنه أن يُولِّد الاضطراب النفسيّ لدى الجميع أو بعضهم[٧٢].

هـ) الاستهلاكية واستهلاك الأسرة

الاقتصاد في اللغة من القصد؛ بمعنى الاعتدال، وما نطلق عليه اليوم الحياة الاقتصادية يكاد يخلو من الاعتدال، ويقع بين الإفراط والتفريط بسبب سيادة المادية وتفرُّعها ما بين تفريط الاستهلاكية، وإفراط السعي وراء الكسب والتراكم الرأسمالي، بغير ميزان إنساني رشيد.

ومن هنا فثمة زاوية نظر أخرى للأسرة –تتجاوز الأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية المذكورة عاليا– وتركز على البعد الاقتصادي (المالي/المادي) للأسرة وللزواج بصفة عامة. وقد عرفت المجتمعات القديمة المختلفة هذا الجانب، بأشكال ومفاهيم مختلفة، لكنه يتجدد اليوم ضمن عالم جديد يهيمن عليه البعد المادي والاقتصادي.

ففي إطار المنظور الوضعي برز مصطلح "**الاقتصاد الأسري**" ليدل على البنية الأساسية (للإنتاج والاستهلاك) داخل الأسرة؛ فقد اعتبرت الأسرة في التاريخ الحديث للحضارة الغربية وحدة اقتصادية؛ إنتاجية بدايةً واستهلاكية نهايةً؛ وبناءً على ذلك برز فرع علمي باسم "**اقتصاد الأسرة**" محور اهتمامه الجوانب الاقتصادية الخاصة بالأسرة؛ سواء كوحدة إنتاجية أو **كوحدة استهلاكية**؛ ويتعامل مع سلوك الرجل والمرأة والأبناء وعموم الأسرة فيما يتعلَّق بعدد من القضايا مثل: الاستهلاك، والتسوق، ونمط الإنفاق الأسري والقرار الاقتصادي داخل المنزل... إلخ، سعيًا وراء ترشيد استخدام الموارد المتاحة لتحقيق أقصى منفعة ممكنة بطريقة سليمة.

---

٧١ ماجد محمود محمد، ٢٠٠١.
(٨) سيتم توضيح المُناخ الأُسري السوي من خلال أساليب التنشئة الأُسرية السوية في فقرات تالية.

وقد تحولت الأسرة اليوم إلى وحدة استهلاكية بشكل أدَّى لتجاوز المصروفات الإيرادات **ووقوع الأسرة فيما يسمّيه البعض فخ الاقتراض والتقسيط**؛ بفوائد مرتفعة بما أوقع الكثير من الأسر في مشكلات خانقة[٧٣]. وتنبع هذه المشكلات من **العقلية الاستهلاكية** التي تصيب الفرد والأسرة والمجتمع.

ويتطلب معالجة هذا الخلل: ضرورة نشر ما يسمى **الوعي الاستهلاكي** عبر مراحل التعليم المختلفة ووسائل الإعلام والندوات التوعوية وضبط السلوك الاستهلاكي عبر التوقف عن الشراء غير الضروري[٧٤]. ويمكن بل ينبغي للتربية العامة الخاصة بسلوك المستهلك أن تقوم بدور أساسي في هذا الصدد؛ حيث يباح **–في المنظور الحضاري الاجتماعي–** الانتفاع بمتاع الحياة والإنفاق عليه، ويُذَمُّ البخل ويُنكر تحريم الطيبات، لكنه لا يجعل من هذا الاستهلاك غاية في حدِّ ذاته، كما أن ثمة ضوابط منظمة للإنفاق تقوم على ميزان **"لا إسراف ولا تقتير، ولا بخل ولا تبذير"**. فتحْت شعار "**الرشد الاستهلاكي**" في كافة الأحوال يَسِيرها وعَسِيرها؛ يمتنع الفرد عن الخضوع للشهوات الدافعة للشراء دون سبب أو حاجة؛ بما يضمنه ذلك من الموازنة بين الإيرادات والنفقات، وما يتطلَّبه ذلك من تخطيط وموازنات. هذا مع الدعوة للكرم والبذْل دون انكفاء على الذات المفردة لإشباع رغباتها وحدها دون النظر إلى المجتمع أو الأهل.

ويقدِّم **خبراء الاقتصاد الأسري** عدَّة نصائح للتعامل مع هذه الحالات؛ وأهمها:

أ- **تدريب الأطفال**: تحتاج بعض البيئات إلى تدريب الأطفال منذ صغرهم على حسن تلقِّي المال وحسن إنفاقه؛ فيكون العطاء لهم مرتبطًا بسببٍ: كمكافأة على أداء واجب أو طاعة الوالدين أو لسبب تربوي تشجيعي.. مع مراقبتهم في الإنفاق ومساعدتهم على ادِّخار جزء منه.

ب- **ترشيد استهلاك الطفل**: يتم ترشيد استهلاك الأطفال من خلال القدوة الحسنة، والمشاركة في الشراء، **وتعويد الطفل على الادِّخار**، وإعطاء الطفل مصروفًا محدَّدًا ليتعوَّد التعامل مع مصدر للدخل الثابت، والدور التوعوي لوسائل الإعلام.

ج- مواجهة المنتجات الضارة: لا بدَّ من الوقوف في وجه الشركات التي تطرح منتجات غذائية مضرَّة بصحة الأطفال سعيًا وراء الأرباح السريعة بغرض مواجهة التلوث الغذائي والدعاية الكاذبة والإعلانات المضللة لتكوين جيل صحي سليم؛ فضلا عن وقايتهم شره النزعة الاستهلاكية العبثية.

د- الطفل والعمل: يقدر عدد الأطفال العاملين في العالم بنحو ١٠٠ مليون طفل دون سن الخامسة عشر معظمهم بالدول النامية. ولا ينفي ذلك أن الأطفال بالدول المتقدِّمة منخرطون في أداء أعمال ومهن. ويعمل ملايين الأطفال في العالم في ظروف صعبة من حيث قسوة الأعمال التي

٧٣- زيد بن محمد الرماني، **اقتصاد الأسرة**، الرياض، دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٧٤- زيد بن محمد الرماني، **اقتصاد الأسرة**، الرياض، دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص ص ١٩٥-٢٢٥.

يقومون بها أو الانحراف بانتهاج سلوكيات خاطئة كالتدخين والمخدرات، أو وقوعهم فريسة للاستغلال في أنشطة مثل: الدعارة. ويعيش معظم الأطفال العاملين الساعين لإعالة أسرهم تحت خط الفقر ويحصلون على نصف ما يحتاجونه من طعام وملابس وخدمات صحية. لذا قد يكون من المناسب في ظلِّ أهمية تعويد الطفل الاعتماد على نفسه منذ الصغر؛ أن يتم العمل على ضمان فرص عمل مناسبة لهؤلاء الأطفال بالإضافة لظروف عمل مناسبة.

الباب الثاني

الواقع الأسري والثقافة الزواجية

الفصل الأول: نظرة في الواقع الأسري: البيئة الاجتماعية وأثرها على الأسرة

الفصل الثاني: في مصادر الثقافة الزواجية: الدراما والتواصل الاجتماعي نموذجا

تناولنا في الباب السابق تأسيسًا نظريًّا لقضية الأسرة ومحاولة لفهم مبادئها وقواعدها لا سيما عملية التنشئة الأسرية والاجتماعية التي ينجم عنها جيل تال من الأزواج أو المنتظر زواجهم؛ وإما أن يُنشَّأوا في سياقات وأجواء صحية فيكونوا أهلا لبناء أسر طيبة وإما العكس فيكون ما نرى كثيرًا منه في الواقع من الفشل الزواجي والأسري.

تكتمل الصورة بالنظر في واقعنا العام والعالمي من الناحية الاجتماعية وكذا واقعنا العربي والمصري، وأثر البيئة على التصورات السائدة عن الزواج، وعلى الإقبال عليه أو العزوف عنه، وعلى نظرة الرجال للنساء والعكس؛ ومن ثم تأثير ذلك على بنية الأسرة ومسارها واستدامتها وسائر شئونها. وهذا ما نحاول التعرض له في هذا الباب بين الواقع الزواجي والأسري والثقافة السائدة فيه.

ويتضمن هذا الباب فصلين، يتناول أولهما البيئة الاجتماعية العالمية والوطنية وأثرها على قضية الأسرة، ويتعرض الثاني لمصادر نوعية تسهم في نشر ثقافة الأسرة والزواج الرائجة بين الأجيال الراهنة والصاعدة.

الفصل الأول

نظرة في الواقع الأسري:

البيئة الاجتماعية وأثرها على الأسرة

أولًا– تأثير التنشئة الاجتماعية المتوارثة:

من المهم الإشارة إلى أثر أساليب التنشئة الأسرية والاجتماعية الشائعة في مجتمعنا المصري على نظرة المرأة والرجل لأدوارهما الاجتماعية في الأسرة.

إذ يُلاحظ أن ثمة نظامًا تربويًّا واجتماعيًّا موروثًا في المجتمع العربي عامة وفي المجتمع المصري على وجه الخصوص يُثني الطفل عن الثقة في آرائه الخاصَّة، ويشجِّعه على قبول آراء الآخرين دون تردُّد أو تساؤل، ما ينمِّي فيه نفسية الإذعان؛ لكلِّ من هو أعلى منه منزلة، وبحسب العالم النفسي "إريك فروم" لا يوجد شيء أكثر تأثيرًا وفاعليةً في سحق معنويات الفرد من إقناعه بأنه تافه ورديء. هذا بالإضافة إلى انتشار استخدام الضرب كوسيلة عقاب ممَّا يساعد على تربية شخصيات مهزوزة وتشعر بالقهر، يمتد أثرها في عدم قدرة هذه الأجيال المقهورة على تربية أجيال جديدة أكثر سواءً، وتستمر المنظومة في إعادة إنتاج قيمها السلبية، وتضعف من قدرة الأسرة على أن تكون حاضنة لأفرادها(٧٥).

ومن أهم أسباب الفشل الزواجي التي تطرق إليها **المسح الاجتماعي للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مرحلته الثالثة التي شملت الفترة (٢٠١٠– ٢٠١٥م): الفشل العاطفي والجنسي**. لقد أصبح العيش في كنف كثير من الأسر بالنسبة للشباب قيدًا يذهب خصوصيَّتهم وذاتيَّتهم، ولا يقرُّ باحتياجاتهم الفردية، فيشعرون أنهم مجرد امتداد لحياة الأب أو الأم وليس لأيٍّ منهم كيان خاص به.

وفي مقابل هذا الامتداد للموروث الاجتماعي، يشهد مجتمعنا اليوم طفرة فكرية وقيمية واجتماعية كبيرة؛ يراه بعض المراقبين أشبه بالعقاب على ما دَرَجَتْ عليه نُظم التنشئة السابقة، ولكنها –من ناحية أخرى– تحولات تُجاري صيحات وتقاليع جديدة لا ضابط لها، تتَّسم بسرعة الانتقال والانتشار والتغيُّر، تدور حول فكرة التحرر من الروابط ومن الضوابط، ومن العلاقات التقليدية والأساسية لصالح روابط جديدة لا مزية فيها إلا أنها "جديدة" على نحو ما سبقت الإشارة. تدفع ماكينة العولمة الثقافية وأدواتها الإعلامية والاتصالية الإلكترونية والفضائية ومنها وسائل التواصل الاجتماعي في هذا الاتجاه، وفي طيَّاته تتعرَّض مبادئ الأسرة بل فكرة الزواج نفسها لعواصف عاتية وتحديات كبرى.

(٧٥) انظر خبرة ذاتية في هذا الصدد لأحد أبرز أعمدة الفكر التربوي المصري الحديث: د.سعيد إسماعيل علي، هاؤم اقرؤوا كتابيه، دار عالم الكتب، القاهرة، سنة النشر: ٢٠٠٦

أساليب التنشئة الأسرية في الواقع المصري:

توصَّلت نتائج بعض الدراسات إلى وجود ارتباط بعض أساليب التنشئة الوالدية الإيجابية (الشورى، والتسامح، والتقبُل، وبث الطمأنينة) بزيادة كفاءة بعض الخصال القيادية لدى الأبناء (وهي: الميل للإنجاز، والمقدرة القيادية، وتحمل المسؤولية، وتأكيد المكانة الاجتماعية)[٧٦].

وفي مقابل ذلك يأتي تأثير أساليب التنشئة الأسرية غير السوية على شخصية الأبناء وإمكانية إصابتهم بالأمراض والاضطرابات النفسية والسلوكية، كما سبق بيانه في الفصل النظري. وقد هدفت بعض الدراسات إلى الكشف عن إدراك الأبناء لأساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها **بقلق الانفصال(Separation Anxiety)**[٧٧]، في مرحلة الطفولة. وقد توصَّلت النتائج إلى أن أساليب المعاملة الوالدية المتمثِّلة في **(الحماية الزائدة، والتذبذب في المعاملة، والتفرقة، والقسوة)** من أكثر الأساليب المنبئة بقلق الانفصال عند الطفل[٧٨].

فالأطفال الذين يكبرون في بيئة أُسرية غير سوية لا يرتقون بشكل صحي؛ ومن ثَم لا بدَّ من عدم المغالاة في مقولة "إن لكل طفل شخصية خاصة به، وإن لكل طفل قدرات واهتمامات مختلفة قد يكون لا علاقة لها بالأُسرة" رغم صدقيتها في نسبة محدودة منهم، فالطفل هو بالأساس وعاء تصقله الأُسرة بما تتَّسم به شخصية أعضائها وقدراتهم واهتماماتهم وغيرها[٧٩]. والكثير من أنماط الشخصية المضطربة عند الأبناء –على سبيل المثال وليس الحصر– عندما يبلغون مرحلة الرشد، تعود دائمًا إلى أنماط التربية الوالدية الخاطئة.

ومن الملاحظ أنه بالنسبة **للأسلوب التسلطي** في التنشئة الأسرية مثلا، توجد فروق بين الأبناء الذكور والإناث في الاستجابة لهذا الأسلوب؛ حيث تتوحَّد كثير من الإناث مع مصدر السُلطة (الأُم) فتستخدم نفس السلوكيات التي تُمارسها الأُمهات من أسلوب صارم في المعاملة، وفرض الأوامر، وإلقاء التنبيهات، وكذلك في حالة استخدام طرق العقاب المختلفة، فكانت الإناث أكثر حُبًا للسيطرة وأقل خضوعًا عن الذكور.

وكان تأثير الأسلوب التسلطي مُختلفًا عند كثير من الذكور حيث نجد أن معظمهم يصبح أقل سيطرة –حتى من الإناث– وأكثر ضعفًا وخنوعًا وميلًا للاستسلام؛ وقد جرى عزو ذلك إلى ميل الآباء إلى ترك

٧٦- إيمان فتحي، ٢٠١٨.

٧٧ ويتسم اضطراب **قلق الانفصال** بأنه يُمثل انزعاج غير واقعي يشغل بال الطفل بشأن أذى مُحتمل يصيب الأشخاص شديد الالتصاق به قد يكونوا الوالدين، أو الخوف من أن يتركوه ولا يعودون. كما يتمثل في مضض أو رفض مستمر من قِبل الطفل للذهاب إلى المدرسة؛ خوفًا من الانفصال، مع وجود كوابيس مُتكررة حول الانفصال. وشعور الطفل بالضيق المُفرط والذي يظهر على شكل قلق أو بكاء، أو نوبات عصبية، أو انسحاب اجتماعي عند توقع أو أثناء أو بعد الانفصال مباشرة عن الشخص وثيق الارتباط به (أحمد عكاشة، وطارق عكاشة، ٢٠١٠).

٧٨- ليلى محمد، ٢٠٠٦.

79 -Gunindi Sahin & Demircioglu ،2012.

سُلطة تربية الأبناء إلى الأُمهات بحجة انشغالهم المستمر بالعمل خارج المنزل لفترات طويلة ممَّا أدى إلى **ظاهرة "تسلُط الأُم"** خاصة مع إحساسها بالمسؤولية الكاملة عن تربية الأبناء[٨٠].

وتكشف الدراسات أيضًا كيف يترتَّب على اتِّباع الوالديْن لأسلوب **القسوة** مع الطفل نشأةُ شخصيةٍ عدوانية مُتمرِّدة تلجأ إلى بعض الحيل الدفاعية للتنفيس عما يتعرَّض له من قسوة في كثير من الأحيان. فقد يلجأ كثير منهم للكذب هروبًا من العقاب. كما يلجأ الطفل في كثير من الأوقات إلى تعميم العقاب الواقع عليه وتوجيهه إلى الآخرين وخاصَّة الأقران ممَّن هم أضعف منه[٨١].

أما **أسلوب التدليل** الذي يتبعه الوالدان بشعور الأبناء بالمسؤولية الاجتماعية، فقد توصَّلت الدراسات إلى أن أداء هؤلاء الأطفال –الذين يُتبع معهم أسلوب التدليل– اتَّسم باللامبالاة عند تحميلهم مسؤولية ما، وعدم قدرتهم على إنجاز المهام التي تُسند إليهم بفاعلية وكفاءة[٨٢].

تحولات مفاهيم الذكورة والأنوثة:

إن مفاهيم الذكورة والأنوثة ليست مفاهيم بيولوجية فحسب، ولكنها مفاهيم ثقافية، **فالثقافة السائدة في المجتمع خلال سنوات التنشئة غالباً هي التي تحدِّد للذكور والإناث أدوارهم**، وهي التي تمنح لكلٍّ منهما صورته العامة في المجتمع.

وينشأ الأطفال من الذكور والإناث في أطر ثقافية معيَّنة، فهم يدرجون على تصنيفات نمطية خاصَّة، ويُنَشَّؤون على القيام بأدوار محدَّدة في الحياة، وهكذا تساعد الثقافة في تكوين الصورة العامة التي تكون عليها الأنوثة والذكورة، فتضع الثقافة العامة إطارًا يتحرك فيه كل من الرجل والمرأة، يكون الخروج عنه تجاوزاً لقيم أرساها وارتضاها المجتمع.

وثمة جدال قد أُثير حول دور المؤسسات الحداثية كالمدارس والجامعات على سبيل المثال في تغيير هذه البنى والقوالب الثقافية التي تحدِّد الأدوار الاجتماعية والاقتصادية للرجل والمرأة في مجتمعنا، ولتصوُّرات الذكورة والأنوثة عامة، ولكن ووفقا لنتائج مسح اتجاهات الشباب الذي أجراه **مجلس السكان في مصر** وجد أن غالبية الذكور يميلون إلى تبنِّي اتجاهات محافظة نحو المرأة أو التحفُّظ على إعطاء مساحة أكبر من الحرية لها، ومما توصَّلت إليه الدراسة في هذا الصدد أنه لا توجد علاقة –لا طردية ولا عكسية– بين طول مدة التعليم وبين المفاهيم الجندرية كالمساواة أو أداء الأدوار.

يرجع ذلك إلى أن المؤسسات التربوية المعاصرة عملت على تكريس العلاقات والمفاهيم والسياسات السلطوية في المجتمع، ولم تقدِّم بديلا ثقافيًّا يمكنه مقاومة مثل تلك القيم المتجذِّرة في أعماق المجتمع والتي

(٨٠) سها أمين، ٢٠١٢.
(٨١) المرجع السابق.
(٨٢) المرجع السابق.

نُسِبَ كثيرٌ منها —للأسف– إلى الدين سواء من المتديّنين أو غيرهم، فيما ترجّح الدراسات الأنثروبولوجية أن الأدوار الأنثوية تشكل –من حيث تنوعها والوقت الذي تستغرقه– عبئًا للإناث ولا تمنحهم الفرصة للاعتناء بأنفسهن(٨٣).

كما أن عملية التحديث لم تغيّر كثيرًا من هذه القوالب النمطية لتصورات الذكورة والأنوثة في الواقع الاجتماعي، بل على العكس من ذلك أسهمت آليات التحديث نفسها في دعم خطاب التمييز ضد المرأة وإعادة إنتاج صورتها التقليدية وإبراز خطاب آخر يدعم تمييز المرأة ضد الرجل ولو باسم "تمكين المرأة"، حتى بدأت تبرز مطالب وتنبيهات في ضرورة الاعتدال في المطالبة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل وتحريرها ممَّا لم يفرضه عليها شرع ولا طبع ولا عقل.

وغالبًا ما تلتف هذه الصفات لمفاهيم الذكورة والأنوثة حول مجموعة من المفاهيم الأساسية التي يتم صياغتها في شكل ثنائيات: **الإيجابية والسلبية، الشجاعة والخوف، داخل المنزل وخارجه، العقل والعاطفة**، وفي ضوء هذه الثنائيات تتحدد خصال الذكورة والأنوثة، ويتم ترسيخ هذه الأنماط عبر عملية التنشئة الاجتماعية والممارسات اليومية٨٤.

كما يتمُّ ترسيخ هذه التصورات من خلال الممارسات اليومية مثل: المشاركة في الأعمال المنزلية، فبينما نجد الأطفال منذ الصغر يشاركون في الأعمال المنزلية ذكورًا وإناثًا، ولكن مع تطوُّر مراحل النمو يبدأ الذكور بالانسحاب من المساعدة في هذه الأعمال، ولا ضير في ذلك؛ إذ هذه ثقافة المجتمع التي لا تعني بالضرورة التمييز والتفضيل، لكن هذا الانسحاب يصحبه ترسيخ في تصورات الذكور عن الرجولة والأدوار الوظيفية للرجل والمرأة في المجتمع، بحيث تؤخذ أدوار المرأة في قطاعات من المجتمع بنوع من الدونية، وهذا هو بيت الداء.

ومن ذلك أوجد التحديث حالة صراعية داخل المرأة نفسها ما بين صورتها التقليدية أو الأكثر شيوعا والصورة المروَّج لها إعلاميًّا وعولميًّا، انتقلت بالطبع إلى الرجل الذي بات يشعر بهجمة نسوية مضادة. فقد هزَّت عملية التحديث مفهوم الأنوثة هزًّا عنيفًا، وزادته تعقيدًا، **وأصبحت علاقة المرأة بجسدها أكثر تعقيدًا وإرباكًا**، فهي في حالة صراع ما بين التصورات التي أتت بها العولمة للمرأة، **ومعايير الجمال الجسدي** التي تتلاءم وشروط العالم الاستهلاكي وثقافته المادية التي تحكمها معايير السوق ومركزية الصورة، وبين التصورات الأصيلة أو التقليدية للمرأة **التي تمكث في خدرها وتتحرك في دوائر مضبوطة**، ومع صحوة

(٨٣) أحمد زايد: الأسرة العربية في عالم متغير، مرجع سابق، ٦٥.
(٨٤) المرجع السابق، ص٢٦٥.

التدين (بأنماطه المتعدِّدة) التي انتشرت في مصر خلال مطالع الألفية وانتشار بعض التصورات عن جسد المرأة تتزايد حالة الصراع والتناقض بين الرجل والمرأة، بالإضافة إلى البيئة غير الآمنة اجتماعيًّا[٨٥].

في المقابل ثمة تيارات تعمل في الغرب في العقد الأخير بشكل كبير على تغيير الصور الطبيعية للمرأة والرجل بدعوى أنها صور نمطية. فنلحظ ذلك في الإعلان الذي أصدرته **هيئة معايير الإعلان في المملكة المتحدة** بأنها ستتخذ إجراءات رقابية صارمة تجاه استخدام الصور النمطية لكل من المرأة والرجل في الإعلانات؛ على اعتبار أن ذلك يرتِّب آثارًا ضارَّة على المجتمع، فعلى سبيل المثال يتم رفض التصورات النمطية المعتادة للمرأة باعتبارها (أمًّا)، أو تخيل الفتاة في المستقبل كراقصة باليه؛ لأنه –بحسب رؤيتهم– يؤدِّي إلى حرمان الشخصيات من حرية اختيار هُويَّتها!!

ونجد كذلك أن **إدارة الفيسبوك** قد بدأت بتوفير اختيارات أخرى للجنس في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا غير الاختيارين الطبيعيين: (ذكر أم أنثى)! فقد أصبح هناك نحو خمسين اختيارًا للهوية الجنسية يستطيع المستخدم الاختيار بينها[٨٦].

لا تعكس هذه المواقف أزمة الهوية التي يعيشها الغرب اليوم فحسب، ولكن امتداد هذه الأزمة وصل إلى واقعنا اليومي؛ وإن كان بصورة أقل حدة، **وهذا يثير تساؤلا هامًّا حول طبيعة تصورات المرأة في المجتمع المصري حاليًا**: هل ثمة علاقة مضطربة حول تعريفها كأنثى؟ هل الهوية منفصلة عن تصورات الجسد؟

فالتحرش الجنسي على سبيل المثال يعد آفة خطيرة، ورغم ذلك يعد قضية تدخل في دائرة المسكوت عنه اجتماعيًّا وسياسيًّا، وما يزيد الأمر إرباكًا نمط التربية الأحدث الذي تتلقَّاه الفتيات؛ خاصة في أوساط الطبقات الوسطى اليوم؛ حيث تقوم بترسيخ مفهوم التفوق الدراسي والاهتمام بالتعليم والاستعداد لنيل الدرجات العلمية، والانخراط في سوق العمل والحصول على فرص وظيفية أفضل، وهذه أمور لا ضير منها لكنها للأسف تأتي عادة على حساب جزء هام من هوية الفتيات كإناث، فهذا **الخطاب والانتباه الأنثوي الموجَّه للفتيات** لا يتم الدفع به إليهن إلا بعد مرحلة الانتهاء من التعليم الجامعي، لتكتشف بعض الفتيات مفهوم جسدها الأنثوي من خلال المضايقات التي تتعرض لها بسببه في الشارع بشكل يومي، فتبني البعض منهن تصوراتها القلقة حول هذا الجسد الذي يعرضها للانتهاك في ضوء هذه المضايقات؛ وذلك في ظل إغفال من الأسرة ودون وعيها باحتياج الفتيات لفهم معنى أنوثتها؛ ذلك الوعي الذي يعني أن أنوثتها جزء

(٨٥) أحمد زايد: مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٣.
٨٦ حسين عمارة، **"فيس بوك" يعدل اختيارات الهوية الجنسية لمستخدميه**، فرانس ٢٤، ١٧ فبراير ٢٠١٤، تاريخ الزيارة: ٢٦ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jIXX1u.

من هويتها وليس سببا لتعرضه للأذى، فينتج توازن نفسي بين هويتها كأنثى وبين دورها كطالبة أو عاملة أو مشاركة في الحياة العامة بشكل إجمالي.

ولكن ما يحدث أن الأسر تتجاهل ذلك الجانب لدى الفتيات، وتركز على جانب التعليم فقط، ثم تعيد بعد مرحلة الجامعة توجيه خطاب اللوم للفتيات للانتباه إلى كونها أنثى لا بدَّ أن تتزوج وتنجب، ويكون خطابًا جديدًا بالنسبة للفتيات، وتُتهم الفتاة –إن شعرت بالتردد أو الخوف أو فضلت اختيار شيء آخر كالسفر أو العمل مثلًا كخيارات أكثر اتساقًا مع نمط التربية الذي تعرَّضْن له منذ الصغر– مما يزيد الأمر تعقيدًا وتناقضًا ويسبِّب لبعض الفتيات نوعًا من الاضطراب والصراع وإبراز سؤال الهوية: **ما الذي يشكِّل تصوُّراتنا عن الأنوثة وكيف تكونين أنثى؟ هل بالجسد أم بالثقافة؟ وهل الثقافة التي اختزلت الأنثى إلى باحثة عن فرص جيدة** في سوق العمل وتسعى لامتلاك مهارات وظيفية ودرجات علمية كافٍ ليرسخ تصوراتها عن هويتها **كأنثى؟**

وبالطبع يطرح ذلك التساؤل عن حال الشباب من الذكور وموقعهم من هذه التحولات! فثمة عالم آخر يواجه الفتى فالشاب يتعلق بالمثيرات الجنسية المتفجرة أمام ناظريه مبكرا عبر وسائل إعلامية وفنية وإلكترونية لا حصر لها، فضلا عن البروز الاجتماعي المباشر للأنثى بعيدا عن خدور الاحتشام ومفاهيم الحياء والتعفف والاحتراز، ومع تضاؤل المسافة الفاصلة بين الذكور والإناث في المواقع المختلفة. لقد أفرز ذلك مدرجا من المشاعر في أحد طرفيه البرود والتبلد وربما التخنث، وفي الطرف الآخر تفجرا وهياجا جنسيا أحرى باسم الفجور، ثم يقع ذلك ما بين الكبت والإباحة؛ فتتوالى الأعراض لأمراض نفسية وأخلاقية يعلو الضجيج بالشكوى والتحذير منها.

لكن المشكلة الأبرز التي تعترض طريق الشباب نحو الزواج مطلقا تتمثل في الظروف الاقتصادية التي تتعلق بالقدرة على توفير مستلزمات تأسيس البيت فضلا عن تأمين مصروفاته بعد الزواج من خلال أمان وظيفي ودخل مناسب، لا سيما في القطاع الأعرض من الطبقات، وفي ظل انتشار ثقافة مغالاة وتباه ومقارنات أثقلت كاهل الشاب بأعباء مالية كثيرة لكي يتزوج. أفرز ذلك تأخرًا للشباب في سن الزواج وربما عزوفًا وتأجيلا مفتوحا له.

من ناحية أخرى، تشير عدَّة دراسات إلى أن دور النساء الفقيرات يمر بتحول كبير، فالنساء الفقيرات يعملن خارج المنزل بأعداد أكبر من ذي قبل؛ كي يكملن ميزانيات الأسر، وكثيرًا ما يشعر الرجال بالضيق من جراء شعورهم بالعجز؛ لأنهم ليسوا مصدر الكسب الوحيد في الأسرة. وتعتمد ميزانيات قطاع واسع من الأسر المصرية على قدرات النساء على الكسب(٨٧).

(٨٧) على ليلة: مرجع سابق، ص٤٥٧.

وبالرغم من أن النظرة التقليدية لأدوار الجنسين آخذة في التغير فإنه تغير في اتجاهات غير منضبطة أو غير مؤطرة بإطار فكري واضح يحظى بتوافق مجتمعي ويفتح المجال أمام تطور أعراف جديدة تجمع بين الأصالة القيمية وفاعلية المعاصرة. ويسعى المنظور الاجتماعي الحضاري (التكاملي) إلى توفير هذه السمات؛ وتحكيم منظومة المفاهيم والقيم والمقاصد الأسرية التي تكشف عوار الواقع وثقافاته، وتقدر حجم ما فيها من إشكاليات، ثم تطرح المخارج منها. لكن متابعة تلك التغيرات الواقعية تعد واحدة من أهم عوامل تطوير ذلك المنظور التكاملي وعدم الاكتفاء فيه بما ينبغي أن يكون. ونتناول فيما يلي أهم عوامل البيئة الاجتماعية والمتغيرات الحادثة فيها سواء الداخلية أو الخارجية، والتي تؤثر بشكل مباشر أو بغير مباشر في بناء الأسرة المصرية، وفي استمرارها، وتؤثر كذلك على أدائها لوظيفتها.

ثانيًا– التحديث وتأثيره على أوضاع الأسرة وتنشئة الأجيال:

يرى علماء الاجتماع أن التغيُّرات التي تحدث في المجتمع مع انتقاله من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث من خلال التعليم أو التصنيع أو نمو المدن، وظهور مشكلات التحضُّر والهجرة تنعكس على الأسرة ووظائفها، وكلما كانت هذه التغيرات سريعة كان وقعها أشد قسوة على الأسرة، ومعها تزداد احتمالية وجود الصراع الاجتماعي، وقد أنتج التحديث في مجتمعاتنا تحولات قصيرة النفس تسبَّبت في حدوث فاقد اقتصادي واجتماعي كبير، وانتهت إلى نتائج سلبية في أغلبها(٨٨)، فلم تنطلق عملية التحديث من رؤية تتفق مع السياق المصري وثقافته، وإنما جاءت وليد ثقافات أخرى، فمنطق التحديث في الغرب منبعه **القطيعة مع الوحي**، والاعتماد على تطوير النظام الصناعي على حساب القيم الروحية والتكوينات العائلية؛ التي تشكِّل وعاء هذه القيم، وقد حقَّق ذلك تقدُّمًا اقتصاديًّا وعلميًّا، ولكن ما زالت هناك فجوات عدَّة على المستوى الاجتماعي والروحي.

أما في السياق المصري؛ فلم يحدث هذا ولا ذاك، وإنما أنتج حالة مشوَّهة، فلم يكن للمجتمع المصري مع كثرة تبدُّل التجارب التي مرّ بها خلال فترات تاريخه الحديث ما يساعد على إحداث تراكم بنَّاء، ولم يولِّد ثقافة فكرية تقوم بترشيد وتوجيه عمليات التحديث لتتوافق وحاجة المجتمع، ومن ثم أُلْقت عمليات ما سُمِّيَ بالتحديث وبناء مصر الحديثة آثارها الوخيمة على الأسرة، سواء في ناحية الشكل؛ حيث تحوَّلت من نمط الأسرة الممتدة إلى نمط الأسرة النووية، أو في ناحية القيم من خلال شيوع حالة من فقدان المعايير، وضعف آليات الضبط الاجتماعي وغير ذلك.

وأهم ما تقوم به الأسرة الممتدة هو دورها المركزي في عملية الضبط الاجتماعي حيث تساعد في تحقيق معدلات أكبر من الاستقرار الاجتماعي، وينخفض ميل المنتمين لها إلى الجريمة أو الانحراف، وذلك لأن أكثر من جيل يسهم في عملية التنشئة الاجتماعية، وتتعدد مستويات الرقابة والضبط، فيتعزز في الفرد

(٨٨) على ليلة: مرجع سابق، ص: 67.

الضمير الإنساني والقيم الدينية والأخلاقية. وتقوى أواصر التماسك بين أفراد هذا النمط من الأسر من خلال المصاهرة، فيصعب –على سبيل المثال– اتخاذ قرار الانفصال الذي أصبح خيارًا فرديًا في حالة الأسرة النووية، بينما في حالة الأسرة الممتدَّة يصبح قرار الانفصال قرارًا جماعيًّا، له أبعاد أكثر من مجرد علاقة زوجين بعضهما ببعض، ويرتب آثارًا اجتماعية على العلاقات بين العائلتين الكبيرتين وكبارهما وليس فقط الزوجين الشابين الصغيرين(٨٩).

أما نمط الأسرة النووية المكونة من زوجين وأبناء فقط؛ فهو نمط هشٌّ بطبيعة تكوينه، غير قادر على القيام بالتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي بنفس كفاءة الأسرة الممتدة، بالإضافة إلى ضعف قدرته على الإشباع العاطفي والاقتصادي لحاجات أعضائه.

لذلك أدى ذلك التحول من نمط الأسرة الممتدة إلى نمط الأسرة النووية إلى ظهور مشكلات عدة؛ فلم تعد الأسرة تمثل مرجعية قيمية وأخلاقية بالنسبة لأفرادها، وأصبحت الأسرة مستهلكة أكثر منها منتجة، وتفككت الروابط الجيلية، ومع مرور الوقت تزداد الفجوة بين الأجيال اتساعًا.

ومن مساوئ حالة التحديث المشوَّه أن المجتمع يقف في مفترق الطريق، لا يستطيع العودة إلى حالته التقليدية الأولى التي لم يتخلَّص تمامًا من تصوُّراتها عن الأدوار والوظائف والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد، ولا يستطيع المجتمع التماهي مع منطلقات التحديث كلية؛ فيصبح أفراد المجتمع دائمًا في حالة تناقض وصراع.

لقد تمثل الحصاد النهائي لتأثير التحولات في بنية الثقافة والقيم في ظهور حالة من تحلُّل المعايير، **وخضوع منظومة التوقُّعات المتبادلة بين الناس إلى تفكُّك وانهيار**، وتظهر هذه الحالة في أوقات التغير السريع، حيث يصبح لكلِّ فرد قناعاته وضوابطه الأخلاقية الخاصة، وعند ظهور هذه الحالة في المجتمع تنتشر حالة من عدم الاستقرار، ولكنه لا يؤدي بالضرورة إلى حالة من الفوضى، بل قد تقتصر على **التردِّي الخلقي**(٩٠).

وللتكنولوجيا دور كبير في تطوير وتيسير الحياة البشرية، وقد أضحت التقنية الحديثة بمثابة اليدين والقدمين للإنسان المعاصر؛ وكشفت عن وجه مفيد لظاهرة العولمة، ولكن العملة كان لها وجه آخر من الناحية الاجتماعية وفي قلبها قضية الأسرة، فمن ضمن الأفكار التي تروج لها ثقافة العولمة التعامل مع الحياة الأسرية بوصفها علاقات مادية (جسدية، حسية، مالية) بالأساس، وأنها ذات طبيعة تعاقدية محضة وليس لها علاقة بقيم المجتمع الطبيعي، ومن ثم تركت التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي بصماتها السلبية على الأسرة بأجيالها المختلفة(٩١). وذلك كظاهرة الخرس الزوجي، وإهمال أحد/بعض أعضاء الأسرة علاقته الأسرية لانشغاله وانصراف ذهنه لمتابعة البرامج والدراما التلفزيونية

(٨٩) على ليلة، مرجع سابق، ص: ٨٣.
(٩٠) أحمد زايد، مرجع سابق.
(٩١) على ليلة: مرجع سابق ص٨٥.

والإنترنت؛ ما أدَّى إلى زيادة الفتور والنفور في العلاقات الزوجية، والهروب من مواجهة المشكلات الأسرية؛ ما أدَّى بدوره إلى زيادة الفجوة بين الزوجين والشعور بالانفصال النفسي بينهما(٩٢).

ولقد وسع الهاتف المحمول أخيرا ومع تطورات برامجه من منافذ التفكُّك الأسري والانكفاء الفردي على الذات والعلاقات الافتراضية وصولا إلى هوة الخيانة العاطفية. وقد تدفع مراقبة الهاتف المحمول من قِبل أي من الزوجين للطرف الآخر لاتخاذ قرار الطلاق(٩٣).

ثالثًا– أثر غياب الوالدية على التنشئة الأسرية:

في الواقع المصري غالبًا ما يستغرق الأب في العمل طوال اليوم: فالآباء الذين يعملون بوظائف حكومية يبحثون عن فرص عمل بعد الظهر في أي مجال من مجالات العمل، وغير العاملين بالحكومة يواصلون عملهم أيضًا طوال اليوم بحكم طبيعة القطاع الخاص أو العمل الحر، كل هذا بحثًا عن مصادر لتحسين الموارد المعيشية للأُسرة. وبذلك يعودون لأسرهم مُحَمَّلين بالهموم والمتاعب الجسدية والمعنوية ممَّا ينعكس بشكل سلبي على المناخ الأسري، كما غاب كثيرًا الدور الأبوي في التربية والضبط والرقابة على الأبناء. كما برزت منذ السبعينيات ظاهرة الانتقال للعمل بالخارج؛ سواء للآباء أو للآباء والأمهات معًا.

ولقد ترتَّبت على هذه الهجرة مشكلات أسرية عديدة منها التالي:

مشكلة تأنيث الأسرة:

فقد أدَّت الهجرة إلى إحداث تغييرات مادية مهمَّة داخل الأسرة، فقد ساعدت المرأة على الانفتاح على المجتمع ودمجها في مسؤوليات اجتماعية أوسع، ولكنها أسهمت من ناحية أخرى في إحداث تغييرات مادية وقيمية كثيرة؛ منها تمركز الأسرة حول المرأة، أو **ظاهرة تأنيث الأسرة**؛ أي ترأُّس الأسرة وإدارتها من قبل امرأة نتيجة لغياب الأب؛ لسفره للعمل (أو للمرض أو الموت أو غيرها من الأسباب في الحالات الأخرى). فغياب الأب لفترات طويلة يحدث فراغًا اجتماعيًّا في مجال أسرته، يمتد في صورة عدد من السلوكيات؛ سواء افتقار الأبناء لعاطفة الأبوة، أو تزايد الضغط على الأم لقيامها بأدوار متعدِّدة، قد تعجزها عن دورها الرئيس في تقديم عاطفة الأمومة لأولادها؛ لانشغالها بالأدوار الأخرى(٩٤).

وقد أدَّتْ الهجرة إلى اختلال في منظومة القيم عند الأبناء، وتزامن معها تفاقم بعض الأزمات مثل ارتفاع نسب التسرُّب من التعليم لغياب المتابعة، وتزايد الأعباء الاقتصادية بحثًا عن التقليد والترقِّي، وهو ما يصعِّب على المرأة وحدها مواجهته. ومما يرتبط بهذه المشكلة أحيانا أو يشبهها: زواج القاصرات من الأجانب العرب، والزواج العرفي... إلخ.

(٩٢) المرجع السابق، ص١٥٨ – ١٥٩.
(٩٣) المرجع السابق، ص: ١٦٣.
(٩٤) المرجع السابق، ص٦-٧.

رابعًا: العنف الأسري في المجتمع المصري

تزايدت ظاهرة العنف والعدوان في الوقت الراهن داخل الأسرة الواحدة، فمن ناحيةٍ صار العنف متبادلًا بين الأزواج والزوجات، وبين الآباء والأبناء، بغض النظر عن أي اعتبارات للقرابة أو النوع أو السن، ومن ناحية أخرى تفاقمت أشكال وأسباب العنف الأسري بدرجة كبيرة، والعنف الأسري مسئول عن العديد من الإصابات النفسية والجسدية، وقد يفضي في بعض الحالات إلى الموت، وبالطبع هو مسئول عن نسبة كبيرة من حالات الطلاق والتفكك الأسري.

وتلعب التنشئة الاجتماعية دورًا كبيرًا في نظرة الرجل والمرأة لعلاقتهما الزوجية ومن ثم تبرير العنف من عدمه. ففي بعض المناطق في مصر يزداد تعنُّت واستبداد الزوج نتيجة اعتقاده الراسخ منذ الصغر أنه سيد الأسرة وحاكمها المتفرِّد، ومن ثم يزداد العنف الموجَّه للزوجة ويتمثَّل في الإساءة الجسدية والمضايقة والتهكُّم وإيذاء المشاعر. ففي هذا النطاق يتلقى الصبي تربية تختزل الرجولة في إلقاء الأوامر التي يتعيَّن على الإناث تلبيتها له، حتى يكبر ويتزوج يفعل ذات الشيء مع زوجته التي تصبح في نظره خادمة ينبغي لها أن تمتثل لأوامره.

هذه العلاقة التي لا يسودها التكافل والتي تفتقر إلى التراحم، تدفع الزوجة إلى خيارين: إما أن تصاب بالاكتئاب والكآبة، وينتابها الإحباط وتقع تحت وطأة المرض النفسي، أو أن تتمرَّد، ويلحق بها الأذى والعنف التي يواجهها الزوج بالعنف وتستمر دائرة الخلافات والعنف، وفي بعض الحالات نجد العكس حيث المرأة المسترجلة التي لا تقنع بقوامة الرجل، فتعتدي على أدوراه وتتعمد الإنقاص من شأنه وإهانته. وكثيرا ما تؤول هذه الحالات إلى الطلاق.

أسباب العنف الأسري في المجتمع المصري:

لا يمكن تفسير ظاهرة العنف الأسري باعتباره نتيجة للتنشئة الاجتماعية فقط، ولكن سوء الأوضاع الاقتصادية يزيد من معدلات العنف والتوتر داخل الأسرة في المجتمع المصري، فقد تكبَّدت الأسرة الكثير من الأعباء الاقتصادية والاجتماعية لفترات عدة ممَّا زاد من التوترات داخل الأسرة بسبب ضغوط الكفاح اليومي من أجل العيش، فالخلافات والمعارك الزوجية تنشب بسبب الماديات وضغوط الحياة الاقتصادية.

ومن أسباب تزايد العنف الأسري في الطبقات الفقيرة الجهل والأمية المنتشر في هذه الطبقات؛ خاصة النساء، اللاتي لم يحظيْن بقدرٍ من التعليم أو الوعي بحقوقهن، وافتقاد الوسائل التربوية، وغياب السلوك القويم الذي يشكل الدين والأخلاق فيه مركزًا رئيسيًا، كما أن استجابة النساء للعنف أكثر قبولًا لأنها نشأت في سياق يستمر فيه العنف ويعاد مشاهداته في واقعها اليومي، فعادة رأته في علاقة والديها ببعضهم البعض.

أما في الطبقات الوسطى فتبدو ضغوط الحياة مختلفة؛ منها الضغوط المتولدة عن الرغبة في الإنجاز وتزايد التطلعات ومحدودية الوقت، مما يزيد من التوتر والخلافات.

أما بعض الشرائح العليا من المجتمع فتختلف أسباب الخلافات الأسرية بها والتي قد يصاحبها درجة من العنف، فرغم غياب الضغوط والصراعات الناجمة عن سوء الوضع المادي، إلا أننا نجد أن هناك من يقوم إدراة العلاقات الأسرية باعتبارها إدارة شركات خاصة، وتسود في بعض أوساط هذه الشرائح المجتمعية علاقات غير سوية، وقد يتخذ العنف الأسري نمطا خفيا أو معلنا، فهناك توترات مكبوتة حيث يبدو الهيكل الزواجي متماسكًا من الخارج فقط، ولكن من الداخل قد يكون هناك انهيار وتفسخ حقيقي، فيعيش كل طرف حياته منفصلًا تمامًا عن الآخر؛ فالزوج والزوجة كلاهما في عالمه الخاص، ولا تجمعهما سوى المصلحة الخاصة، فقد يفرغ الكيان الأسري من العواطف والمشاعر الإنسانية وتفتقد إلى لغة الحوار، ويبدو الزواج مجرد واجهة اجتماعية، مجرد شكل أو واجهة لا أكثر ولا أقل.

الفصل الثاني

في مصادر الثقافة الزواجية الحديثة

الدراما والفضاء الإلكتروني نموذجًا

نحن الآن بحاجة لقطع مسافة داخل العقل والوجدان الشبابي المصري عبر النظر في مصادر ووسائل بناء الثقافة الزواجية والأسرية الأكثر انتشارا وتأثيرا اليوم.

ويتنافس على قيادة هذه المصادر والوسائل في مجتمعنا ثقافتان رئيستان من المهم الوعي بهما وبما بينهما من تباينات وتداخلات وربما صراعاتٍ، وبما لهما من أثر كبير على فهم قضية الزواج في مجتمعنا المصري المعاصر؛ وهما: الثقافة الإسلامية (وتلحق بها الثقافة الموصوفة بالتقليدية)، والثقافة الغربية أو المتغرِّبة. فقد قسمت الازدواجية الثقافية المجتمع المصري إلى أنماط متباينة في السلوكيات والعلاقات والمظاهر الاجتماعية بين بيئات محافظة تبدو أقرب إلى الإسلام، وبيئات أخرى متحرِّرة تبدو أقرب إلى الثقافة الغربية، وبيئات ثالثة –لعلها الأكبر حجمًا– تبدو مختلطة ومتذبذبة تأخذ شيئًا من هذه وشيئًا من تلك، ومن ثم فهي غالبًا مختلَّة في بنية علاقاتها وتفاعلاتها؛ وعلى رأس ذلك: الاختلال في تفاعلاتها الأسرية.

وفي دليلنا هذا –القائم على المنظور الاجتماعي الحضاري (التكاملي)– نحتاج دومًا إلى الجمع بين الواجب والواقع؛ فخير الأمور الوسط؛ بأن نأخذ من الواجب ما يُمكننا فعلُه، ومن الممكن الواقعِ ما يُصلحُنا فعله، ونحقق بذلك الأصحَّ (من حيث المبدأ) والأصلح (من حيث الممكن). وهذا التحرك بين الواقع والواجب هو الذي ينبغي العمل به. ويسعى هذا الدليل لاستيعاب هذه الحالة وتجاوزها؛ عبر منظور جامع للثنائيات ورافض للتضارب ومقاوم للعبث بالمجتمع، من هذا الباب تأتي العناية بحال الأسر القائمة اليوم؛ ليس لذاتها فقط ولكن –وهذا هو الأهم– **لكونها هي التربة التي تنبت فيها أسرة المستقبل** التي يجب أن تؤسَّس على أساس متين وذلك لتجنُّب الفتن التي تعرَّضت لها الأسر الحالية والسابقة.

ومن الضروري بناء سياسات وخطط وبرامج لتأكيد الدور الذي يؤدِّيه المسجد والكنيسة والتلفاز والمذياع ووسائل الإعلام المختلفة وكذلك الفنون والآداب، وفضاء الإنترنت وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي... وينبغي أن يكون هذا الدور محل اتفاق وإجماع وطني ومجتمعي لحفظ المجتمع وبقائه باعتبار ذلك قضية أمن إنساني وحضاري كبرى.

ومن ناحية أخرى، فإن الأولاد والبنات يتعرفون على قصة الزواج منذ نعومة أظفارهم من بيئاتهم المباشرة؛ فهم يولدون عادة بين أب وأم (أي زوجين) ويرون علاقة زوجية وتفاعلا زواجيا في دائرة نشأتهم الصغيرة. **فأول مصادر الثقافة الزواجية للنشء هي أسرتهم الصغيرة**، ثم ما حولها من أسر الأقارب وأسر الجيران.. وهكذا، ومن ثم يدرك الفتيان والفتيات إدراكا بدهيا ومبكرا أنهم سيكونون يوما أركانًا لبناء أسر

مستقبلية؛ والمسجد للنشء المسلم والكنيسة للنشء المسيحي أو **التربية الدينية –بصفة عامة– مصدر ثان وأساسي للمعرفة الزواجية** في كثير من المجتمعات؛ حيث نسمع في هذه المنابر أن الزواج سُنة ربانية وشريعة إلهية، وأن الشريعة المنزَّلة من الله تعالى وسيَر الأنبياء تشتمل على توجيهات أساسية في بناء الأسرة وتحقيق السعادة والنجاح فيها، وأن بناء الأسرة الناجحة والسعيدة رهين بالاستقامة بتعاليم الدين ومقاصده وقيمه. إن الدين عنصر مركزي في الزواج وبناء الأسرة لاسيما في مجتمعاتنا؛ وبالأخص في المجتمع المصري.

يلي ذلك دور المدرسة والرفاق ووسائل الإعلام والفنون التمثيلية وألوان الأدب الروائي، وأهم الأدوار اليوم يتمثَّل في الوسائط الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي؛ سواء التي تعبر عن الثقافة السائدة في المجتمع وتقدِّم تأييدًا لهذه الثقافة أو التي تقدِّم لها نقدًا ما، أو التي تعبِّر عن ثقافة خاصة.

هذا هو مجمل المصادر التي تراكم لدى الشباب ثقافة معينة عن الزواج تسبق تفكيره في الزواج أو إقباله عليه.

أولا– الزواج وتكوين الأسرة في الدراما المصرية

تعرف الدراما التلفزيونية على أنها مرآة الحياة، وانعكاس للاهتمامات الخاصة بالبشر، وتعتبر واحدة من أهم الفنون الاتصالية التي تتطرَّق لعددٍ كبير من القضايا الداخلة في صميم اهتمامات الفرد داخل البيئة التي يعيش فيها، وقد تجاوز دورها إلى تكوين الانطباعات والصور عن الأفراد والجماعات المختلفة لما تملكه من جاذبية الصورة والصوت، واعتمادها على المشاهد التي تجسِّدها الشخصيات الدرامية وكأنها عين الواقع الفعلي لحياة الإنسان، كما أنها تعد قوة لا يستهان بها في تشكيل عقليات الأفراد من خلال الآراء والأفكار التي تُقدَّم مرارًا وتكرارًا في إطار تمثيلي؛ حيث تقوم الأشكال الدرامية التي يقدِّمها التلفزيون مثل: (المسلسلات والأفلام والمسرحيات) بدور مهم في تشكيل السلوك الفردي والجمعي في الأسرة والمجتمع؛ أي إنها تسعى لترسيخ أو إلغاء أو تعديل بعض القيم والمفاهيم الخاصة بالمجتمع.

لذلك يدعو بعض المفكرين الاجتماعيِّين للعودة إلى دراسة الأسرة باعتبارها وحدة التحليل الاجتماعي في مجالات كثيرة ومن أهمِّها مجال الاتصال (حيث تعد الأسرة الإطار الاجتماعي للتعرُّض)؛ خاصَّةً أن الدراما أحد العوامل المسهمة في التغيير الرئيسي الذي حدث للأسرة المعاصرة، والذي أثر فيها كجماعة اجتماعية، خاصة أنها تأخذ جزءًا كبيرًا من الواقع وتقدِّمه للمتلقين بطريقة جذَّابة ومشوِّقة، وهو الذي يجعلهم يتوحَّدون مع شخصيات العمل الفني وأحداثه مما يشعرهم بالمشاركة العقلية والعاطفية بكل جوارحهم في أحداث ومواقف لم يكن من الممكن أن يشاركوا فيها بعيدًا عن الدراما التلفزيونية، فهم يعيشون حياتهم بطريقة بديلة حيث تصبح الشخصيات عند البعض مثل: الأصدقاء أو الجيران أو المعارف، ومن هنا يأتي التأثير المتعاظم للمضمون الدرامي.

ونحن بحاجة إلى تحليل أساسي لمادة هذه المصادر على تنوعها وبحسب الأكثر انتشارًا وتركيزًا على الجانب الاجتماعي؛ لكي نكون على وعي بالمقارنات الفكرية والقيمية التي تخترق عقل الجيل الراهن ووجدانه، وتشكِّل أرضية لعلاقات المجتمع والأسرة مستقبلا.

كيف تعرض أبرز نماذج الدراما المصرية صورة الزواج وتكوين الأسرة وسمات العلاقات الزوجية؟

تم تحليل المضمون لعينة درامية متنوعة من المسلسلات المصرية لكنها تركز على صورة الزواج وتكوين الأسرة بما تحمله من إيجابيات وسلبيات؛ حيث يُعَدُّ من أكثر الأساليب المنهجية المناسبة لتحليل المادة الاتصالية وتحليل مضمونها.

أ) أنماط الزواج ومفهومه والهدف منه:

قدَّمت النماذج الدرامية التي تم تحليل مضمونها صورًا عديدة عن مفهوم الزواج والهدف منه وبعض أنماطه، توضح التغيُّرات التي أصابت المفهوم نتيجة للتحولات المجتمعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، مثل: الزواج المثالي، والواقعي، والرومانسي، والشهواني المادي، وزواج الهروب (من العنوسة أو من الوحدة)، وزواج الأمومة (من أجل الإنجاب)، والزواج المؤقت/المشروط، والزواج السجن المقيِّد للحرية.

وحاصل هذه الناحية تعدُّد الصور التي عكستْها العيِّنة الدرامية عن الزواج، فهناك صور صدَّرت الزواج المتعارف عليه في الشرع وفي العادات والتقاليد، وهناك صور أخرى صدَّرت الزواج على أنه الجنس فقط، أو على أنه الهروب من الوساوس التي تسيطر على المرء، أو أنه صفقة بين اثنين، وهذه الصور توضِّح مدى التغيُّرات التي طرأت على المفهوم وأثَّرت عليه بالسلب، وأدَّتْ إلى غياب ثقافة الرابطة الزوجية.

ويمكن القول إن السبب الرئيسي في التغيُّرات التي حدثت للمفهوم الصحيح للزواج، هو الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي طرأت على المجتمع، وجعلت شريحة كبيرة منه تفكِّر في الزواج بهذه الطريقة أو تلك، فلم يعد معظم أفراد المجتمع المقبلين على الزواج يفكرون في الزواج بالطريقة الحالمة بين فتى وفتاة الأحلام، ولا بالزواج المنتظم المحدَّد المعالم الموصوف بالتقليدي الذي يضم الأهلين والتعارف الممنهج والخطوات المتدرجة من التعارف إلى الخطبة إلى الزواج، خاصة مع تعسُّر هذه الصورة، فالواقع خاصة الاقتصادي ومن ثم الاجتماعي والثقافي فرض نفسه بقوة.

ب) أساليب وشروط الاختيار والعوامل التي تؤثر عليه:

تُبنى العلاقة الزوجية السويَّة على المشاركة بين طرفين في كافة أمور الحياة، ولا تكلَّل العلاقة بالنجاح إلَّا من خلال الاختيار الصحيح لشريك الحياة؛ اختيارًا يُبنى على أسس دينية وأخلاقية واجتماعية وثقافية، وعلى التوازن بين العقل والعاطفة.

وتعكس الدراما بعض أساليب وشروط الاختيار والعوامل التي تؤثّر عليه، قد تكون ظاهرة وموجودة في المجتمع، وقد تشوّهها أو تجمّلها، وفي بعض الأحيان تقدّم رؤية سطحية.

أساليب الاختيار:

أهم أسلوب يتم التركيز عليه هو **الأهل**: تتنوَّع صور تدخُّل الأهل في عملية الاختيار في الدراما ما بين سلبي وإيجابي، فمن الإيجابي النصح والإرشاد بلا إجبار ولا إلزام، اللهم إلَّا في حالات استثنائية للغاية كسوء الخُلق، أو مخالفة الشرع، وغيرها من الحالات. ومن السلبي إجبار الأبناء على الارتباط بمن لا يريدون.

الإيجابي في العينة الدرامية: مثل لفت انتباه الأبناء للصفات الإيجابية في الطرف الذي يرشّحه ويختاره الأهل.

أما السلبي: فيكون التدخُّل قائمًا على عملية إجبار وإخضاع للأبناء –خاصة الفتيات– لرغبات الأهل، كإجبار الفتاة على الزواج من شخص ثري.

وتعرض العيّنة الدرامية نماذج أخرى لأساليب الاختيار مثل: مكاتب الزواج، وزواج الصالونات، والتجمعات الاجتماعية كالأفراح وغيرها، والتطوع في الجمعيات والأعمال الخيرية، ووضع الخطط لرسم صورة معيَّنة تدفع أحد الطرفين للتعلُّق بالآخر... إلخ.

شروط الاختيار:

كذلك تتناول العينة الدرامية بعض الشروط التي يجب توافرها عند الارتباط، وتختلف باختلاف السياق وباختلاف الأشخاص، كالحب، أو موافقة واقتناع الأسرة، أو العلاقة الجيدة مع الأهل، أو فرق السن بين العروسين، أو الشكل الظاهري، أو التفاهم أو الاحترام، أو التكافؤ، أو عدم القبول بالشخصية المتسلِّطة، أو اختيار شخص غير تقليدي، أو الثراء.

ج) أهم المشكلات التي تتعلق بالزواج في الدراما:

من الطبيعي أن توجد مشكلات كثيرة جدًّا تتعلَّق بالزواج، ومن الصعب عدم التعرُّض لها، لكن الأهم هو معرفة السبب الرئيسي لها وكيفية التغلُّب عليها والصمود أمامها والتفكير في حلٍّ لها بشكل عقلاني؛ رغبة في الحفاظ على هذه الرابطة الزوجية، ولكن هذا لا يمنع أن هناك بعض المشكلات التي يكون الحل المناسب لها هو الانفصال، وسوف نوضح أهم المشكلات المتعلِّقة بالزواج التي تناولتها العينة الدرامية:

العزوف عن الزواج: سواء بسبب عدم حثِّ الأهل الأبناءَ على الزواج، أو بسبب العقد النفسية، أو بسبب الأوضاع الاجتماعية العامة، أو بسبب فقدان الحب الأول، أو بسبب الماضي المشين.

ومن المشكلات أيضًا التأخر عن الزواج، لفقدان شرط الحب، أو الخوف من الفشل، أو للإعجاب بالذات والتردُّد، أو بسبب اللجوء إلى الدجالين والمشعوذين.

وتناولت العينة أيضًا نماذج أخرى للمشكلات مثل: سفر الزوج الطويل للخارج، واتخاذ القرارات المصيرية من قبل طرف واحد، وعدم تحمُّل مسئولية الإنفاق على المنزل، وإلقاء اللوم على الآخر عندما تحدث مشكلة للأبناء، والخيانة الزوجية، وتدخل الأصدقاء، والمصارحة بالمشاعر السلبية من كلا الطرفين أو أحدهما، وشعور الأم بالغيرة، وقهر الزوجة، وإهمال الزوجة للزوج بحجة الأبناء والعكس، والاكتئاب، والاستمرار في الزواج من أجل الأولاد فحسب، وافتقاد الجانب الرومانسي بعد الزواج، وكذلك المشكلات الناجمة عن الحالة الاقتصادية أو عدم التكافؤ في المستوى التعليمي، أو المستوى الاجتماعي، أو فرق العمر... إلخ.

د) أسباب الاستدامة أو الطلاق:

الأصل في الزواج أن يكون قائمًا على تحقيق السكينة والمودة والرحمة والتعاون بين الزوجين، أما إذا فُقدت المودة والرحمة بين الزوجين، وأصبح استمرار الحياة الزوجية بينهما مستحيلا وبه مشقَّة على الطرفين فقد أباح لهما الدين أن يفترقا فيكون بذلك منفعة لكليهما، وأبرزت العينة الدرامية مجموعة من الأسباب التي تؤدِّي إلى الاستدامة أو الطلاق وهي باختصار كالتالي:

الاستدامة:

١- الاختيار الصحيح منذ البداية.

٢- المودة والرحمة والحب وتحمُّل المسئولية.

٣- التعاون داخل الأسرة.

٤- تحلِّي رب الأسرة بالحنان والحسم واللين والجرأة والضعف والشجاعة والرحمة.

٥- السعي نحو إسعاد الآخر، ومساعدته على التغيير للأفضل وتقبُّله.

٦- مصارحة كل طرف بالمشكلات التي تؤرقه.

٧- الاحتواء، واحساس الطرف الآخر بالحاجة إليه، وعدم القدرة على الاستغناء عنه.

٨- تحمل كل طرف مسئوليته كاملة.

٩- الاهتمام بالمظهر وبالآخر.

الطلاق:

١- عدم المصارحة بين الزوجين بالمشكلات التي يعاني منها كل طرف.

٢- علاقات الزوج غير الشرعية (الخيانة)، ومعاملته القاسية لزوجته.

٣- محاولة تغيير شخصية الآخر بعد القبول بها، وهذا عائد إلى بعض الأسباب وهي كالتالي:

- **الامتلاك**: الرغبة في سيطرة كل طرف على الآخر.
- **تجاهل المشكلات**: عدم المصارحة بالمشكلات.
- **التطبيع**: محاولة كل طرف اعتبار ما يقوم به هو الصواب والأصل.

٤- تدخل الأهل.

٥- تدخل الأصدقاء في أدقِّ تفاصيل العلاقة الزوجية.

٦- اتخاذ القرارات المصيرية من قبل طرف واحد فقط.

٧- عدم التكافؤ.

٨- إهمال الزوج والاهتمام الزائد بالأبناء.

٩- الزواج من أجل الهروب من مشكلات معيَّنة.

هـ) أهم مفاتيح الحلول للمشكلات:

بناء على تحليل العينة الدرامية، يمكن إجمال أهم مفاتيح التعامل الإيجابي للمشكلات الزوجية على النحو التالي:

١- التعايش مع العيوب أو بمعنى أصح التصالح مع المشكلات دون انتظار انتهائها.

٢- تدخل أهل الثقة فقط للإصلاح بين الطرفين.

٣- التغلب على المشكلات الاقتصادية بالتعاون بين الزوجين.

٤- التغاضي عن الأخطاء العابرة.

٥- التسامح والحوار وتقبُّل الأعذار والمصارحة.

كانت هذه أهم المفاتيح لحلول الكثير من المشكلات الزوجية في العينة الدرامية.

ثانيا– الزواج وتكوين الأسرة في الفضاء الإلكتروني

كما تقدم، باتت التكنولوجيا عنصرا مؤثرا بوضوح وتزايد في حياتنا الاجتماعية وتصوراتنا عنها وقيمنا الحاكمة لسلوكنا فيها، ويمتد تأثيرها في تشكيل تصورات الأفراد حول الزواج والأسرة وغالبًا ما يمتدُّ هذا التأثير إلى مرحلة ما بعد الزواج.

وهذه المساحات المفتوحة والمخترِقة لمجال المرء الخاص، غيَّرت تصوُّره أيضًا حول الاستشارة وطلب الرأي من أهل العقل والخبرة الذين يمكن اللجوء إليهم في وقت الأزمات، فبدلًا من أن يلجأ المرء بمشكلته لمن يساعده أو يرشده، يعرضها في سوق يظن أهله أنفسهم خبراء ومستشارين وحتى دعاة من خلف أجهزتهم الإلكترونية، فيُدلي برأيه من يشاء، وفي الغالب لا يكون الرأي مبنيًّا على عقل ولا حكمة ولا معرفة جيدة بأطراف المشكلة أو إحاطة بمُلابساتها، وإنما آراء تعبِّر عن خبرات أصحابها وسياقاتهم وربما ما يكنُّونه لأطراف المشكلة، فيتحول البيت لحقل تجارب ونزاعات بعد أن فقدَ أحد أسس بنائه الرئيسية وهي الحكمة والرغبة الصادقة في الحفاظ عليه.

ويرتبط التطور التكنولوجي في ظل الرأسمالية السائدة بشكل كبير بمفهومي الإنتاج والإنجاز بمنظورهما المادي البحت؛ ومن ثم فقد تغير نظر كل من الرجل والمرأة لمفاهيم كثيرة مرتبطة بالبيت والأسرة، فمثلا تربية الأبناء والاهتمام بالمنزل لا قيمة لهما في ظل معايير الإنتاج المادية؛ ومن ثم بات المجتمع يكنُّ نفس النظرة السطحية لربات البيوت، وبِتْنَ هُنَّ على الناحية الأخرى لا ينظرن لما يقُمن به بعين الرضا والتقدير، بل أصبحت التربية والعناية المنزلية ما هي إلا عوائق بينهن وبين طموحهن الذي يتمثَّل في دراسة أو أي عمل ذي إنتاجية معترف بها اجتماعيًّا ويشعرن من خلاله بتقديرهنَّ لذواتهنَّ.

فلسفة مواقع التواصل الاجتماعي

يعتمد الاتصال في مواقع التواصل الاجتماعي بشكل أساسي على ما يسمى **الإفصاح عن الذات**؛ وهذا الإفصاح عبارة عن أسلوب اتصالي بسيط يستهدف بالأساس تعبير الإنسان عما يجول بداخله وعن أوصافه وكذلك معلوماته الشخصية؛ أي إنه فعل نفسي منتوجه تعريف الآخرين على ذواتنا وتعرفنا نحن على الآخرين بشكل غير تقليدي ومن ثم توطيد علاقات أكثر بيننا وزيادة مساحاتها، مع عدم اشتراط التواصل المباشر أو التقارب أو التقاطع الجغرافي. والدخول في عملية الإفصاح هذه يأتي نتيجة عملية تفاوضية بين المرء ونفسه حول طبيعة المكاسب التي قد يحصل عليها من هذا الإفصاح وبين الخسائر التي قد تصيبه جرَّاء اختراق خصوصيته، لكن عملية الإفصاح عادة ما تتم مدعومة برغبة في بناء الثقة وخلق حالة من التعاطف المتبادل، في حين تكمن خطورة هذه العملية في فقدان الكثيرين للمعيارية في تحديد ما يمكن الإفصاح عنه وما لا يجب أن يتحدَّث عنه في مثل هذه المساحات الجديدة، هذا بالإضافة إلى عدم

إدراك الكثيرين للعواقب الحقيقية المترتبة على عملية الإفصاح هذه وكيف يتم استغلال هذه المعلومات من قبل آخرين يعرفهم وقد لا يعرفهم[٩٥].

وقد عزَّزت مواقع التواصل ما يسمى بعملية **المقارنة الاجتماعية**؛ حيث إن الأفراد مطلعون على ما يجري حولهم طوال الوقت سواء في دائرة الأقارب أو غيرها من الدوائر المجتمعية التي لا تربطهم بها أي صلة، هذا الاطلاع يولِّد لدى الأفراد دائمًا خوفًا من عدم اللحاق بكل ما هو جديد؛ ومن ثم الخروج من نطاق التواصل والتفاعل مع ما حوله. ولأن هذه المواقع تعتمد بشكل كبير على عرض الذات بشكل دقيق فعادة ما يتم وصف صورة مثالية عن هذه الذات وما تتمنى أن تكون عليه أكثر مما هو وصف واقعي حقيقي لها؛ مما يدفع البقية للنظر إلى الآخر باعتباره أفضل منهم وأكثر سعادة منهم وهكذا.

كذلك، **الاختصار أو الاختزال** هو أحد المتلازمات لما يتم نشره على مواقع التواصل الاجتماعي، مما يدفع المرء إلى ذكر ما هو مهم من وجهة نظره فحسب، وذكر ما يريده دون غيره، وعلى الناحية الأخرى يتم استقبال رأي مختزل وبناء رأي مختزل وكذا تحصيل معرفة مختزلة، وهذه هي حقيقة عملية التواصل على هذه المواقع.

لكن الأكثر أهمية هنا كيف أن هذا الاختزال أو الاختصار جعلنا نتحدث بطريقة أو بأخرى عن ما يسمى "**الذات المقطعية**"، فالصورة الذهنية التي يشكِّلها الأفراد عن بعضهم على مواقع التواصل الاجتماعي هي **صورة جزئية مختزلة مبنية على هذه المقطعيات التي يصدرها المرء عن نفسه**، فلا يمكن هناك في هذه الفضاءات الافتراضية الحديث عن تصور كامل أو معرفة حقيقة بالأشخاص الذين يتم التعامل معهم؛ وهذا لأن أسس التعبير عن الذات هناك تكون إما صورة أو لفظًا مقيدًا، والنمطان قائمان على فرضية استبعادية بالأساس أكثر منها تعريفية.

وتعد **الصورة** أحد ركائز التعبير على مواقع التواصل الاجتماعي، ورغم أن الصورة تعبير عن الواقع لكنها إعادة تشكيل له أيضا، فالصورة حين تنقل الواقع فإنها في الوقت نفسه توقِف الزمن وتحنط الحقائق وتعزلها وتجتثها من سياقها، وهي كذلك تنقله ليس كما هو في حقيقته وإنما كما ينعكس في أعين وأفكار ناقله؛ لذا فكثيرا ما تقع الصورة في الانتقائية والتحيز والاستبعاد والإقصاء أيضا.

لذا فقد تحول المجتمع إلى مجرد مشاهد ورموز، وتحولت الحياة الاجتماعية التي ترصدها مواقع التواصل إلى مجرد مظهر، وكذا قد تدفع الصورة بالمرء إلى التماهي مباشرة معها والانتقال بكليته للتخيُّل والتنفيذ بشكل لا واعٍ دون أي حضور للعقل في هذه المعادلة، هذه الآلية التي تعمل بها الصورة تمثل الركيزة الأساسية

(٩٥) سماح فرج، **ثقافة الخصوصية عبر مواقع التواصل الاجتماعي بين مزايا الإفصاح عن الذات ومخاطره**، المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، يناير ٢٠١٥، العدد ١٤، ص: ١١١-١٨٥.

لأي عملية تسويقية لمنتج مادي أو معنوي كان، **والمرء إن لم يكن مدركا لهذا سيصبح جزءًا من هذه الصورة وليس متلقيا لها فقط**[٩٦].

صور وقيم الزواج في الفيسبوك

تم اختيار الفيسبوك كحالة تطبيقية في هذا الموضوع لعدة أسباب منها: أنه الموقع الذي يضم أكبر عدد من المستخدمين في الوطن العربي.

أبرز سمات محتوى الفيس بوك عن الزواج

لا بد من لفت النظر بداية إلى أن الفيسبوك يعد مرآة ذات طبيعة خاصة لما يحدث في المجتمع بكل تعقيداته وتناقضاته أيضًا، وأن المحتوى المعروض عليه لا يأتي من فراغ وإنما يُستقى بشكل مباشر من معين الواقع.

يلفت انتباه أي متابع للفيسبوك مؤخرا انتشار عدد كبير جدا من المجموعات السرية المغلقة، إما للرجال أو للنساء، مع وضع قواعد واضحة تمنع دخول الجنس الآخر مطلقا، بل ومعاقبة العضو الذي يخالف هذا، والمحتوى الرئيس في هذه المجموعات يتمثَّل في المشكلات التي يعاني منها كل طرف مع الطرف الآخر أو أهله أيًّا كانت طبيعة هذه المشكلات وقدر خصوصيَّتها، **هذه المجموعات المنغلقة على ذاتها تعدُّ مؤشرًا خطيرًا على ما وصلت له حالة المجتمع من انعدام الحوار داخل الأسر فانتقل ليصبح افتراضيًّا، أمام أعضاء هذه المجموعات الذين باتوا أدرى بمشكلات البيوت أكثر من أقرب المقربين لأهل البيت أنفسهم**؛ أي إن الروابط الاجتماعية هي الأخرى تحوَّلت إلى روابط افتراضية.

يتم التعامل مع الفيسبوك **كمساحة تنفيسية** بشكل أساسي، وتختلف طبيعة التنفيس باختلاف المكان الذي ستتم فيه، فما يتحدث عنه الرجال والنساء على صفحاتهم الشخصية مغاير كثيرًا لما يتم الحديث عنه في أروقة المجموعات المغلقة، وقد يتحوَّل الفيسبوك أيضًا إلى منصة لمساءلة العادات والتقاليد أو لترسيخها، ويقوم الفيسبوك في بعض الحالات محل **"المرشد الاجتماعي"** في العلاقات الاجتماعية بل وفي أدق التفاصيل، فعلى سبيل المثال تكثر الأسئلة في المجموعات سواء رجالية أم نسائية عن **تفاصيل الخطبة**: ماذا يجلب الخاطب معه في الزيارة الأولى؟ ماذا ترتدي الفتاة؟ ما طبيعة ونوعية الأسئلة التي يطرحها كل

(٩٦) زهير الخويلدي، فلسفة الصورة بين المنع والإباحة، الحوار المتمدن، ١٤ مارس ٢٠١٢، تاريخ الزيارة: ٢٧ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39tppvs.

طرف على الآخر؟ ماذا تقدم الفتاة كضيافة؟ وآخر صيحات خواتم الخطوبة وغير ذلك، مرورًا بالاستشارات الاجتماعية حول العلاقة بين أفراد الأسرة.

جاءت **المراقبة** أيضا كأحد امتدادات الواقع، والتي عززتها التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي بشكل كبير، فواحدة من أكبر المجموعات النسائية تمَّ تأسيسها لمساعدة النساء في مراقبة الرجال الذين يرتبطون بهم، أيا كانت طبيعة العلاقة وشكل الارتباط، وبالفعل حدث ذلك في حالات كثيرة، فقد ذكرت إحدى العضوات —على سبيل المثال– أنها سمعت أحد الرجال الخاطبين يخبر إحدى النساء بأنه ينتظر حتى يحصل من مخطوبته على أموال "الجمعية" ثم سيفسخ الخطبة، وذكرت اسم التي تحدث إليها وفي أي منطقة واسم مخطوبته لتتضافر الجهود بعد ذلك للوصول لمخطوبته هذه وتحذيرها، لكن تمادت المشاركات وانتشر نشاط المجموعة، مما عرضها لحملة انتقادات واسعة ودفع العديد من الرجال لعمل مجموعة بنفس الاسم ونفس الغرض.

يعبر الفيس بوك عن طبيعة الخلل القيمي الذي يعانيه المجتمع أو الفراغ القيمي ربما وغياب المعيار الذي من المفترض أن ترد إليه كافة الأمور، فجولة صغيرة في صفحة يتجاوز عدد أعضائها مليوني عضو، يتم فيها عرض المشكلات بواسطة المسؤولين عن الصفحة دون الإفصاح عن هوية صاحب المشكلة، نجد أن هناك الكثير من الحالات المعروضة تتحدَّث عن **خلافات حول أمور تتعلق بالاتفاقات حول أمور الخطبة والزواج وارتباطات بين الشباب والفتيات قبل الخطبة، وطبيعة التعامل بين المخطوبين والعاقدين، وعن علاقات جنسية مكتملة خارج إطار الزواج، بل والأدهى عن رجال ونساء متزوجين يقيمون علاقات كاملة مع غير أزواجهم**. فلا تُعرَض هذه المشكلات ولا يلجأ أصحابها إلى استشاريّين نفسيّين، أو أهل رأي وحكمة أو إلى علماء الدين وإنما إلى جمهور الفيسبوك، فيدلي كل منهم بدلوه وفق تجربته وخبرته ومنظوره للحياة وقيمه هو، في حين أن أغلب هذه المشكلات تحتاج إلى متخصصين دينيّين ونفسيّين يرسون بناءً قيميًّا ويكيّفون المشكلة من خلاله وقد نحتاج لأطباء وعلماء نفس واجتماع.

إذا ما استكملنا استعراض ما يُتداول في مثل هذه الصفحات والمجموعات، نجد حضورًا كبيرًا وربما طاغيًا في بعض الأحيان لمن يتم تصنيفهم **كمراهقين** يتحدَّثون أيضًا عن إحباطات أصيبوا بها بعد ما خُذِلوا وهُجِروا وخانهم أحباؤهم؛ كل هذا وهم في السادسة عشر مثلا، والحديث عن علاقات جسدية تتم دون رقيب وهم في هذا السن، لكن اللافت أنهم لا يسألون في المشكلة عن حرمة الأمر أو استهجانه مجتمعيًّا وإنما عن صعوبة الفراق مثلا... ما يُشعر بحالة من الفوضى الأخلاقية النفسية والمجتمعية، يكاد لا يشعر بها جيل الآباء والأمهات الذي قد يكون بعضهم غارقًا في مساحات افتراضية أخرى.

ومع كل ذلك يبقى الفيسبوك مؤشرا لكل ما هو جديد فيما يخص مساحات الأسرة واهتماماتها، بل وربما ساحة لنشر هذا الجديد، فعندما ظهرت الحملات التي تدعو للتهاون في أمر شبكة العروس كان انطلاقها على الفيسبوك، وعندما ظهرت دعوات استبدال المكتبة بالنيش كان أوج انتشارها على صفحات

الفيس بوك، وفي الآونة الأخيرة عندما توجَّهت الأسرة بمختلف أعضائها للأكل الصحي والرياضة والأزياء وكذلك الاهتمام بالدعم والعلاج النفسي والتثقيف الجنسي أيضًا، كان الفيسبوك مرصدًا مهمًّا لهذه التغيُّرات المجتمعية.

ظاهرة تعدد أنماط العلاقات قبل الزواج:

إن انتشار وتزايد ظاهرة تأخر الزواج أو العزوف عنه لا يعني انعدام العلاقات بين الشباب من الجنسين أو غيابها، بل وجود علاقات خارج إطار الزواج بين الجنسين يعد فرعًا عن تأخر الزواج؛ فجانب كبير من هذه العلاقات ينتج –من ناحية– عن تأخُّر سن الزواج؛ حيث يلجأ لعلاقات أخرى لتعويض ما يعانونه من نقص وفقدان الإشباع العاطفي والشعور بالاهتمام والأمان. ومن ناحية أخرى يدعم وجود هذه العلاقات وسهولتها تأخر زواج الكثير من الشباب؛ حيث يجدون فيها بديلا أقل تكلفة وأخف مسئولية من الزواج، مع غياب الوازع الديني والأخلاقي الذي يردعهم عن الدخول في مثل هذه العلاقات.

ونحاول هنا رصد بعض صور العلاقات التي تسود بين الشباب قبل الزواج. ونعني هنا الزواج الشرعي مكتمل الأركان والشروط، المقبول عرفا في المجتمع، ومن ثم نذكر من ضمن أنماط علاقات ما قبل الزواج صورًا من العلاقات التي يطلق عليها اسم "زواج" ولكنها لا تستوفي هذه الشروط.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أننا لا نورد هذه الأنماط أو الأشكال من العلاقات باعتبارها ظاهرة سائدة، وإنما من قبيل وجودها بين قطاع متزايد من الشباب والمراهقين، وتزايد انتشارها إن لم يكن على مستوى الممارسة فعلى الأقل على مستوى القبول والظهور. ومن ثم، فمن المهم التطرق إليها ومناقشتها من قبيل كونها جزءًا من الواقع –وإن كان محدودا– ينبغي التنبيه إليها تحسبًا من زيادتها وتحوُّلها إلى ظاهرة أكثر انتشارا. ومن هذه العلاقات:

* **الحب في مرحلة المراهقة:** يمر الأشخاص من الجنسين في مرحلة المراهقة بتحولات جسدية ونفسية، ترتبط بالانتقال من مرحلة الطفولة التي تتَّسم بالاعتمادية إلى مرحلة الشباب التي تتَّسم بالانطلاق والرغبة في المغامرة والتجربة، والرغبة في تحقيق الاستقلال عن الأهل والمجتمع والشعور بالذات والقدرة على تكوين علاقات مع الجنس الآخر. تدفع هذه التحولات الشخص إلى الشعور بالميل نحو الجنس الآخر، والرغبة في تكوين علاقات معه تختلف عما كانت عليه في مرحلة الطفولة؛ فيبدأ الشاب أو الفتاة في المرور بما يظنون كونه حبًّا لطرف آخر يرغبون في الاقتراب منه بدرجة أكبر، خاصة من زملاء الدراسة أو الأصدقاء في الأندية أو الأقارب أو الجيران.

وقد يستغرق هذا الميل وهذا الشعور فترة محدودة تنقضي مع الوقت، أو بمعرفة الشاب أو الفتاة حقيقة تلك المشاعر بتوجيه من الأهل وذوي المعرفة، أو قد تمتد وتتطوَّر من مجرد مشاعر الإعجاب والتعبير

الشفهي الحالم عن تلك المشاعر إلى مرحلة أخطر قد تصل إلى الخلوة بين الطرفين، وقد تصل إلى شكل من أشكال الزواج السري.

وتنشأ هذه العلاقات في فترة المراهقة في ظل ضعف دور الأهل وتواجدهم في حياة أبنائهم، فلا يجدون من يوجّههم ويرشدهم ويبصّرهم بطبيعة المرحلة التي يمرون بها وما تتَّسم به من تغيُّرات وكيفية التعامل معها، ولا من يجيب عن أسئلتهم الخاصة بما يُقبِلون عليه من مرحلة جديدة، وكيفية التعامل مع الجنس الآخر فيها، وكيفية توجيه طاقتهم في مجالات وأنشطة مفيدة تصرفهم عن التفكير في أمور سابقة لأوانها[٩٧].

ويغلب على تعامل الأهل مع هذه الحالة وهذه المرحلة القسوة والعنف والزجر والعقاب، مسبوقًا وملحقًا بالسخرية، خاصة وبدرجة أكبر مع الفتاة. وهو تعامل قد يؤدِّي إلى نتائج أكثر سلبية؛ منها إصرار الفتى أو الفتاة على استمرار العلاقة أو تطورها دون علم من الأهل، ومنها إلحاق أذى نفسي وجسدي بالمراهق قد يعوقه عن تكوين وبناء علاقات سوية فيما بعد، بل قد تصل في بعض حالات المراهقين ذوي الطباع الأكثر حساسية إلى أذى النفس الذي قد يصل إلى الانتحار، أو أذى الغير بمن فيهم الطرف الآخر في العلاقة أو الأهل.

وفي المقابل قد يكون تعامل الأهل بالتجاهل وترك الأمور تسير في صمت باعتبار أنها فترة ستمر لا محالة فلا داعي للحديث في أمور "محرجة" قد يُنتِج تساؤلات لا يمكنهم الإجابة عنها ومواقف لا يمكنهم التعامل معها، فيترك الأهل المراهق/ة يمر بهذه المرحلة المهمة والحرجة منفردين دون توعية وتوجيه متعمَّد منهم، وإن لجأ إليهم المراهق طلبا للفهم أو المشورة فيكون التعامل عشوائيا جزئيا، ما قد يترتب عليه بحث الولد أو البنت عن مصادر أخرى للمعرفة والفهم إن عاجلا أو آجلا، وينشأ عن ذلك مشكلات نفسية واجتماعية وجسدية مختلفة تواجه الشاب أو الفتاة، عادة لا تقتصر على مرحلة المراهقة فحسب، وإنما تمتد آثارها لحياتهما فيما بعد وقد تصل إلى ما بعد الزواج.

ويمثل جهل الأهل السبب الرئيسي في التعامل الخاطئ بأشكاله المختلفة مع أبنائهم في مرحلة المراهقة وما يمرون به من اضطراب وبحث عن "الحب". لذلك ينصح المختصون وذوو الخبرة بأن تكون علاقة الأهل بالمراهق قوية ووطيدة منذ الصغر، تقوم على المصارحة والتفاهم والصدق والقرب والاطمئنان، حتى لا يخاف المراهق من مصارحة أهله بما قد يمر به من هذه المشاعر ويطلب مشورتهم في كيفية التعامل معها. فضلا عن التربية والتوعية الصحيحة دينيا وعلميا بطبيعة هذه المرحلة وخصائصها، والتمايز بين الجنسين فيها، وحدود العلاقات والتعاملات بينهما[٩٨].

---

٩٧ انظر على سبيل المثال: **الموضوعات الصعبة: المراهقون والعلاقات مع الجنس الآخر**، موقع "سوبر ماما"، ٤ نوفمبر ٢٠١٢، https://bit.ly/2vUiwAP.

٩٨ انظر على سبيل المثال:

* **العلاقات المفتوحة:** وتشير إلى رغبة الشباب من الجنسين في تكوين علاقات مع الجنس الآخر أوسع من علاقات الزمالة أو حتى ما يسميه البعض "الصداقة"، تصل إلى الحب و"المصاحبة" أو "العلاقات الرضائية" والارتباط غير الرسمي بين الشاب والفتاة بدون زواج أو قبل الزواج، وقد تصل إلى وجود علاقة جنسية جزئية أو كاملة بين الطرفين. وذلك بدعوى التحرر والحرية الشخصية، أو التعرف على الطرف الآخر جيدا والتأكد من ملاءمته قبل الزواج، أو عدم الرغبة في التقيد بالزواج ومسئولياته واعتبار تلك العلاقات بديلا مؤقتا أو نهائيا للزواج[٩٩].

* **المساكنة:** أي **العيش مع الشريك في منزل واحد قبل الزواج/ أو بدون زواج؛** وهي أحد أشكال النمط السابق ولكنه أكثر ديمومة لقبول الطرفين واتفاقهما على الإقامة المشتركة في سكن واحد بشكل مستمر أو شبه مستمر، ادعاءً بأن ذلك يقرِّب الطرفين من بعضهما البعض ويساعدهما على اكتشاف ومعرفة كل منهما للآخر بشكل أفضل وأن يرى كل منهما الآخر "على طبيعته" ومن كل جوانب شخصيته وصفاته، كي يتأكد الطرفان من ملاءمة بعضهما لبعض ومن وجود توافق بينهما يساعدهما على استكمال علاقتهما معا، وأن ذلك أفضل من "العلاقات السطحية" التي يتجمَّل فيها كلُّ طرف أمام الآخر ليبدو في أحسن صوره[١٠٠]؛ وكأن العفوية وصدق كل طرف في علاقته مع شريكه المستقبلي لا يكون إلا بالانكشاف الكامل منذ البداية دون حدود أو ضوابط لكل مرحلة، وكأن التأكد من وجود توافق بين الطرفين لا يتحقَّق إلا من خلال المعاشرة والعيش في منزل واحد دون زواج ولا يتحقَّق من خلال الحوار بين الطرفين ومراقبة كل منهما الآخر في تصرفاته وسلوكياته في مواقف مختلفة أثناء الخطبة والتعارف قبل الزواج، وكأن الزواج دون المرور بمرحلة المساكنة بين الشريكين لا يؤدِّي بالضرورة إلى المصارحة وتقبل كل طرف للآخر كما هو.

ويُرجِع أحد التقارير هذا النمط من العلاقات إلى العولمة الثقافية التي أدَّتْ إلى انتقال وانتشار أفكار وسلوكيات غريبة عن مجتمعاتنا وتتنافى مع قيمها وأعرافها من الغرب، ويرى أن سوء الأوضاع الاقتصادية التي تعسِّر أو تعرقل الزواج شجعت على انتشار هذا النمط بدرجة أكبر[١٠١].

وتعرض بعض الأعمال الدرامية هذه العلاقات إما عرَضًا أو بشكل موسع في العمل الدرامي، ولا يقتصر الأمر على الدراما المصرية، بل يمتد –سابقا أو لاحقا– إلى الدراما العربية عموما، وبطبيعة الحال

- هيفاء أحمد، **مشاعر بريئة تزينها أحلام اليقظة أم محطة مشروعة في الحياة؟ حب المراهقة على لسان خبراء وناضجين وشباب من سورية**، ٢٤ مارس ٢٠٠١، https://bit.ly/2OMn6YG.

وحول سمات مرحلة المراهقة وكيفية التعامل الصحيح معها بشكل عام، انظر:

- ملف كامل عن المراهقة: **خصائص المرحلة ومشكلاتها، البداية الجديدة**، ١٤ نوفمبر ٢٠١١، متاح على: https://bit.ly/2wfaQZ4.

٩٩ انظر: **علاقات "خارج إطار الزواج" في مصر...كسر للتابوهات؟**، ١٧ سبتمبر ٢٠١٧، https://bit.ly/2MkHZ0y.

١٠٠ انظر عرضا مؤيدا لهذه التجربة ومدافعا عنها:

- أميرة حسن الدسوقي، **تجربة حقيقية: لنسكن سوياً بدون زواج ... أولاً**، ٩ أغسطس ٢٠١٨، https://bit.ly/2vZ9r9Z.
- **علاقات "خارج إطار الزواج" في مصر...كسر للتابوهات؟**، مصدر سابق.

١٠١ محمد عمر، **المساكنة عند العرب: علاقة جنسية أم زواج التفافي**، 18 اذار/مارس ٢٠٠٧، https://bit.ly/2vRtBmb.

إلى الدراما الأجنبية (خاصة التركية والهندية) التي تزداد نِسب مشاهدتها وانتشارها في المجتمعات العربية بدرجة ملحوظة كما تتأثر بها الدراما المصرية لجذب مزيد من المشاهدين؛ فبعضها يعرضها باعتبارها واقعا موجودا لا يمكن تجاهله، وبعضها الآخر يعرضها تبنيا ودفاعا عما يرونه "حرية شخصية" و"تمدنا"!!

وقد تخطَّى دفاع هذه الفئة من المجتمع (أي المشاركين في الأعمال الدرامية) عن تلك الأنماط من العلاقات الصورة غير المباشرة من خلال الأعمال الدرامية التي يقدِّمونها، إلى الدفاع المباشر من قِبل كثير من الممثلين والمخرجين وأمثالهم وإعلان قناعتهم التامة بهذه الممارسات، بل وممارسة بعضهم إياها.

ولكن ثقافة المجتمعات العربية وأعرافها وقيمها الدينية ترفض هذه الأنماط من العلاقات وتنبذ ممارسيها، وهذا ما يؤكِّده متبنُّو هذه العلاقات وممارسوها أنفسهم، فيشيرون إلى أن رفض المجتمعات لهذا الشكل من العلاقة دون زواج يدفعهم إلى السرية في ممارسته وإخفائه عن أُسرهم وأهلهم، كما أنهم يلجأون إلى ادِّعاء الزواج أمام الآخرين من جيران السكن والمحيطين به خوفًا من التعرُّض للمشكلات.

* **العلاقات الإلكترونية:** لم يعد التعارف وإقامة العلاقات بين الجنسين مقتصرًا على الواقع المادي القائم على التلاقي وجهًا لوجه، وإنما كثُرت سبل التعارف والتلاقي عبر الفضاء الافتراضي القائم بدرجة كبيرة على الخيال (جزئيًّا أو كليًّا)؛ عبر وسائل عدَّة بداية من الهواتف ووصولًا إلى مواقع الإنترنت والمنتديات ووسائل التواصل الاجتماعي، في هذا الإطار، زاد لجوء الشباب إلى الفضاءات الافتراضية لتكوين علاقات حب وصداقة مع الجنس الآخر لأسباب مختلفة؛ إما ملأً لفراغ مادي في الوقت، أو لفراغ عاطفي وبحثا عن الحب والاهتمام، أو محاولة لتعويض فشل علاقة أخرى في الواقع المادي، أو وسيلة للتسلية والإثارة، أو سوء الأوضاع الاقتصادية وعدم القدرة على الزواج[١٠٢]... يدعم ذلك سهولة الوصول إلى تلك الوسائل والمساحات الممكِّنة للتعارف، مع ضعف وصعوبة رقابة الأهل عليها، وزيادة العوامل المعيقة للزواج؛ حيث أصبح الزواج أمرا أكثر صعوبة وتعقيدا ماديا ونفسيا واجتماعيا من ذي قبل.

والشائع حول هذا النمط من العلاقات أنها غالبا ما تكون علاقات قصيرة الأجل، وتنتهي بالفشل؛ حيث يكثر ويسهل فيها الخداع والتلاعب واتخاذها وسيلة لتحقيق متعة سريعة مؤقتة، كما أنها عادة ما تكون علاقات سطحية يصعب من خلالها تعرف كل طرف على الآخر بشكل جيد؛ حيث يتجمَّل كل طرف ولا يُظهِر من صفاته وطباعه سوى ما يريد للطرف الآخر، ومن سلبيات هذه العلاقات أيضًا أنها قد يصعب تحولها إلى علاقة مباشرة لوجود طرفيها على مسافات متباعدة ومن ثم صعوبة التقائهما واجتماعهما في مكان واحد. غير أن البعض يذكر تجارب ناجحة للتعارف الإلكتروني، تمكَّن من خلالها الطرفان من إيجاد شريكه المثالي الذي يبحث عنه، أو الالتقاء بشخص مناسب محل ثقة واتخاذ قرار استكمال العلاقة بينهما[١٠٣].

---

١٠٢ للمزيد حول وسائل العلاقات الإلكترونية ودوافعها انظر: سلفيا بشرى، **الحب الإلكتروني: كيف تُساعد التكنولوجيا على نشوء الحب؟**، ٢٢ فبراير ٢٠١٧، https://bit.ly/2nYLATm.

١٠٣ يمكن الاطلاع على بعض تجارب ونماذج العلاقات الإلكترونية الإيجابية والسلبية والآراء حولها في:

* **الزواج السري** (الشرعي منه وغير الشرعي)؛ يلجأ إليه بعض الشباب نتيجة صعوبة الظروف الاقتصادية والاجتماعية، أو الرغبة في الاستمتاع لفترة مؤقتة دون حب حقيقي أو دون رغبة في استمرار/ استكمال الحياة الزوجية مع الطرف الآخر، فضلا عن جهل الشباب بأمور دينهم. ومن أبرز أشكاله الزواج العرفي، الذي يشار إلى انتشاره بنسبة كبيرة بين طلبة الجامعات والمدارس، الذي يرون فيه وسيلة للهروب مما يعتبرونه "قيودا اجتماعية" ترفض العلاقات غير الشرعية خارج إطار الزواج، وفي الوقت نفسه يعتبرونه بديلا "شرعيا" عن الدخول في علاقات محرمة[١٠٤].

* "**زواج فريند**": وهو نمط تمثلت بدايته في ارتباط تتوفر فيه جميع شروط الزواج الشرعي عدا وجود مسكن دائم يضم الزوجين وإنفاق الزوج على الزوجة، وسمي فيما بعد "الزواج الميسَّر" لما أحدثه اسمه الأول من لبس وما أثاره من انتقادات ورفض. وأطلق هذا الاسم والفكرة لأول مرة فقيه يمني باعتباره حلا مقترحا لأوضاع الشباب المسلم في الدول غير المسلمة وقاية لهم من الأوضاع الاجتماعية غير الملائمة للمسلمين من انفتاح في علاقات الصداقة وغيرها بين الجنسين دون زواج، ثم نقل البعض الفكرة إلى المجتمعات العربية باعتبارها يمكن أن تكون حلا أيضا لكثير من الشباب الراغبين في الزواج مع عدم قدرتهم على توفير متطلبات الزواج المادية.

ويرى البعض أنه يمكن قبول هذا النمط من الزواج لفترة مؤقَّتة حتى تتحسَّن الأحوال المادية للزوج ويتمكَّن من إيجاد مسكن مناسب للأسرة، وأن "هذا النوع من الزواج أقرب إلى الواقع ويمكن أن يكون حلًّا لمشكلة العنوسة". في حين يرى البعض الآخر أن هذا النمط من الزواج أو العلاقة قد ينتج عنه مشكلات اجتماعية وشرعية عديدة، منها احتمال إنجاب أبناء قبل الاستقرار في منزل مستقل يجمع الزوجين، وإهدار حق الزوجة في إنفاق الزوج عليها، وتفكُّك كيان الأسرة وعدم استقرارها، ومنها أيضًا شبهة أن يكون زواجًا مؤقَّتًا للمتعة وليس زواجًا بنية الاستمرار والدوام. فضلا عن أن مصطلح "**زواج فريند**" أصبح يستخدم أحيانًا للتعبير عن الزواج العرفي الشائع في المجتمع المصري، بما يفتقد إليه من إشهار وإعلان.

وخلاصة جميع ما سبق، أن القضية الزواجية والأسرية مفعَمة بعدد لا حصر له من المتغيرات؛ سواء النظرية والفكرية أو الواقعية والعملية، بداية من آثار الحالة العولمية التي تغزو مجتمعاتنا والعالم منذ نحو ثلاثة عقود

- **فتيات يغرقن في بحره ويقعن في شباكه...الحب الالكتروني علاقات عابرة لا تخلو من كذب ونفاق**، القاهرة: دار الإعلام العربية، 03يناير ٢٠١١، https://bit.ly/2wgFfGl
- صفاء الهراز، **ظاهرة الحب الالكتروني بين الواقع و العالم الافتراضي**، هبة بريس، ٢٨ أبريل ٢٠١٠، متاح على: https://bit.ly/2nZ8IkG
- **علاقات العشق والحب عن بُعد لديها فرص نجاح ككل علاقة**، 24 تموز/يوليو ٢٠١٣، https://bit.ly/2wpqQIj

(١٠٤) راجع:

- معتز سيد عبد الله، جمعة سيد يوسف، **التراث والتغير الاجتماعي: الزواج العرفي...واقعه وآثاره النفسية والاجتماعية (الكتاب التاسع عشر)**، كتب عربية، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/2Mqp1FT.
- يولند نيل، **الزواج العرفي بين طلبة الجامعات في مصر**، 20يناير/ كانون الثاني ٢٠١٠، https://bbc.in/2nLgoXt

بفعل تغيرات عالمية، وثورة اتصالية وتواصلية كبرى، واستمرار تدافع الأفكار والقيم عبر الأمم، مرورًا بالتحولات الداخلية والاقتصادية والثقافية في المجتمع المصري وتأثيراتها الاجتماعية والنفسية على الأسر والأجيال الجديدة، ووصولا إلى تفاقم مشكلات زواجية وأسرية لا حصر لها تتطلَّب وقفة مختلفة.

وتستلزم المواجهة الجادة منظورًا اجتماعيًّا أكثر تكاملًا، وأقدر على التفسير ثم التأثير والتغيير. إن حاجتنا تتزايد كل يوم لرؤية مجتمعية أوسع وأعمق تحرص على العناية بأكبر قدر من أبعادها المشكلة شرعيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا.

وفيما يلي من أقسام وأبواب هذا الدليل نحاول أن نسهم إسهامًا متواضعًا في سبيل تحقيق هذا الهدف.

والله المستعان!

القسم الأول – مرحلة ما قبل الزواج

(التأهل والاختيار واختبار الاختيار)

تمهيد:

للزواج مقدِّمات تسبقه، ويجب أن تكون مرحلة ما قبل الزواج محل عناية كبيرة منا، ففيها تغرس بذور الحياة الزوجية القادمة، وتوضع أساسات البيت التي عليها يرفع بناؤه.

وكثير من المقبلين على الزواج –بل وعائلاتهم– يغفلون عن أهمية هذه المرحلة، وبعضهم يختزلها في فترة خطبة يتخيَّلها فترة استمتاع بالتعرُّف على الشريك المحتمل والتواصل معه، ومن ثم فهي عند هؤلاء فترة خالية من المسئوليات أو المهام الجدية أو أنها آخر مراحل العزوبية الحرة التي يُراد تحصيل أكبر قدرٍ من اللهو فيها. والذي نؤكِّد عليه أن لذَّة التواصل والتعارف وبهجة التقدُّم في مشروع الزواج أمر طبيعي وجيد ولكن لا يصحُّ أن تلفتنا عمَّا لهذه المرحلة من أهمية في إرساء قواعد البيت الجديد، وأن البدايات الحسنة الجادَّة تؤدِّي بإذن الله تعالى إلى مسيرة حسنة وسعيدة.

ونحن ننظر إلى هذه المرحلة –كما عهدنا في هذا الدليل– بعينين: عين على "الواقع" المعيش لنتساءل: هل شبابنا اليوم مؤهَّل لزواج ناجح وبناء بيت من سكينة ورحمة ومودَّة؟ وهل نحن –الأسرة والمجتمع الحاليان– أعددنا أولادنا ليكونوا أهلًا لإدارة حياة زوجية سعيدة ومستقرة؟ وإذا لم يكن ذلك موجودا في الواقع أو كان به خلل، فالعين الأخرى تطل على "الواجب" على الجميع: كيف يجب أن يتأهَّل الشاب/الفتاة ذاتيًّا وكيف نساعد نحن في تأهُّله واستعداده للزواج الناجح؟ ومن ذلك: كيف يختار شريك حياته ثم كيف يتأكَّد من حسن الاختيار قبل أن يتزوَّج فعلًا؟ هذا ما نتساءل عنه في هذا القسم من دليل الأسرة الناجحة والزواج الناجح.

ففي هذه المرحلة التأسيسيَّة تتشكَّل ثقافة ومدركات الشاب والفتاة –بل والأهل والمجتمع من حولهما– عن الزواج والأسرة والسبيل الأمثل لبنائها، والاحتياجات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والشرعية لتكوين علاقة زوجية سوية. **ويمكن أن نقسِّم هذه المرحلة التأسيسية إلى ثلاثة أبواب أو محطات متتالية:**

- **الباب الأول– محطة الاستعداد والتأهيل للإقدام على الزواج:** حيث يتعرَّض الشابُّ/الفتاة لبيئة وثقافة وتنشئة تؤثِّر في فهمهما للزواج، ويجب على كلٍّ منهما التنبُّه لما يفيدهما منها وما لا يفيد؛ وهي مرحلة يتخلَّق فيها الاستعداد للزواج ويجب فيها إعداد الذات للزواج الناجح قبل التفكير في اختيار شريك المستقبل.
- **الباب الثاني– محطة اختيار شريك الحياة:** حيث يتحوَّل الاستعداد الذاتي للزواج إلى تحرُّك فعلي باتجاه البحث عن شريك الحياة المناسب؛ ومن ثم تبرز قضية معايير الاختيار، وطرق التعارف للتأكُّد من تحقُّق المعايير، وتعريف النفس للآخر.

- **الباب الثالث– محطة اختبار الاختيار (الخطبة)**: وهي محطة غاية في الأهمية، يفوت الكثيرين فهم مغزاها، ولكننا نسلِّط الضوء على أنها فترة تكميل الاختيار الأوَّلي وتعميق التعارف الأساسي باختبار الاختيار ومراجعة تحقُّق معاييره؛ للتأكُّد من مدى التناسب والتكامل بين الشريكين المقبلين على بناء حياة مشتركة. ففيها يتاح مزيد استكشاف للطباع والسمات المركزية والظروف المحيطة وطرق التفكير ووجهات النظر في إدارة الحياة الزوجية، وربما يجب فيها التعاقد الواضح على نظام الحياة الزوجية المقبلة والتخطيط له من لحظة تأسيس وتأثيث البيت إلى ليلة الزفاف إلى السنة الأولى من الزواج.

الباب الأول

محطة التأهل والتأهيل للإقدام على الزواج

وفيه ثلاث فصول:

الفصل الأول– مراجعة ثقافة الشباب السائدة عن الزواج

الفصل الثاني– التأهُّل والتأهيل من منظور نفسي واجتماعي

الفصل الثالث– التأهُّل والتأهيل من منظور شرعي

مقدمة:

الزواج طبيعة وضرورة ونعمة، لكنه لا يكون كذلك إلَّا بشروطه. وشروط الزواج الصحيح –في العادة– ممكنة وفي المتناول، ونحن نرى في واقعنا المعيش كيف تتحوَّل نعمة الزواج يومًا بعد يوم إلى إشكالية كبيرة بسبب ثقافات معتلَّة وأوضاع مختلَّة؛ في مقدِّمتها إهمال الوعي والتوعية بحقائق الزواج، وإغفال تعلُّم وتعليم أصول الزواج الصحيح وشروط الحياة الأسرية السعيدة، وفي المقابل نتشرَّب كلَّ يوم تصوُّرات عقيمة ونردِّد أفكارًا سقيمة؛ سواء من بعض ماضينا نحن الذي لم يلتزم بأصولنا السامية، أو من حاضر غيرنا البراق الخادع وهو مشحون بالفساد الفكري؛ ومن ثم صنعنا بأيدينا أوضاعًا ونظمًا ونشرنا أفكارًا ومفاهيم لا تزيد الحياة الاجتماعية إلَّا ضيقًا وعسرًا[١٠٥].

إن تأهيل الذات للزواج يسبق –في الترتيب والأهمية– عملية اختيار الآخر المناسب لهذه الذات، فليس من المقبول ولا المعقول أن يبحث فاقد مؤهلات الزواج عمن يكون أهلاً له!

ومن ثم فالخطوة الأولى نحو زواج ناجح رهينةٌ بفهمنا لهذا السياق، وكيف يفهم الشباب في سنِّ الزواج –وخاصة المقبلين عليه– معنى الزواج ومغزى الحياة الزوجية ومواصفات شريك الحياة من جهة، ومن الجهة الأخرى أن يستعد هؤلاء الشباب من الفتية والفتيات للتأهُّل الذاتي ولعمليات التأهيل الزواجي؛ ليكون هو زوجًا صالحًا ويقيم بيتًا ناجحًا، ولتكون هي زوجة كفؤة تؤسِّس لحياة زوجية سعيدة.

ونحن نتناول تلك المهمة الأساسية من خلال نقطتين متكاملتين:

الأولى– مراجعة ثقافة الشباب السائدة عن الزواج

الثانية– التأهل والتأهيل للزواج من منظور متكامل

١٠٥- عمرو شريف، نبيل كامل، المخ ذكر أم أنثى؟، تقديم: أحمد عكاشة، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩)، ص ص ٢٦٣-٢٧٠.

الفصل الأول

مراجعة ثقافة الشباب السائدة عن الزواج

١ – مفهوم الزواج عند شبابنا:

توصَّل هذا الدليل إلى عدد من الملاحظات يمكن إجمال أبرزها في النقاط التالية:

أ- بروز التأثُّر بالحداثة والتغيُّرات التي مسَّت المجتمع، ونتج عن ذلك ظهور قيم وسمات ثقافية في مقابل اختفاء أخرى كانت موجودة، وهذا جعل مفهوم الزواج غير محدَّد الملامح عند قطاع كبير من اليافعين والشباب؛ ومن ثم تتعدَّد زوايا النظر إلى الزواج ما بين كونه قدرًا اجتماعيًّا مقدورًا يتعامل معه الشباب بشعور من الثِّقل المعنوي والشعور بالضغط النفسي، أو كونه اختيارًا مطلقًا يمكن أن نستغني عنه أو نرجئه إلى أجل غير مسمًّى، أو أنه تجربة سوف نرى إن كانت تستحق الاستمرار فيها واستكمالها أو نتخلَّص منها بسهولة وبأقلِّ قدرٍ من الصراع. وهذه الحالة سلبية بكلِّ معانيها من منظور العمران البشري الذي يتبنَّاه الدليل؛ فمآلها إما زواج فاشل أو لا زواج أصلًا ومن ثم بدائل مدمرة.

ب- نسبة من الشباب تعاني ما يمكن وصفه بـ"**أمية الزواج**"؛ فلا قراءات سابقة ولا اهتمامات كافية، ولا توجيه من البيت والأبوين ولا مقررات تعليمية أو تربوية. فالشباب متروك في المسألة الزوجية لمحض اجتهاده ولحظِّه من الخبرات والمشاهدات. وهذه الحالة تزيد الصورة التي في النقطة السابقة تعقيدًا؛ حيث يفقد الشباب البوصلة –ليس فقط في أصول الزواج المستقرَّة في مجتمعه– بل أيضًا في التعامل مع متغيراته المستحدثة. فنسبة كبيرة من الشباب لا يعرفون الأصول الشرعية للخطبة ولا الحقوق المتبادلة المادية والأدبية، وكثيرون لا يعرفون فنون المتعة الجنسية إلَّا عبر مصادر أكثرها مفسِد، وكثيرات من الفتيات لا يعرفن أصول التعامل الزواجي ولا فنون كسب الآخرين ولا كيفية التصرف في المواقف المختلفة، فضلا عن الافتقار لفكرة أساسية عن التربية ومسئولياتها وتدبير ميزانيات البيوت دخلًا وإنفاقًا.

ج- يتصدَّر البُعد الماديُّ في النظر إلى الزواج والأسرة ووظائفهما؛ متمثلا في الجوانب الفسيولوجية والاقتصادية وبعض المظاهر الاجتماعية، مقابل ضعف أو غياب الجوانب القيمية والدينية، وضعف الوعي بالمقاصد العامة والشرعية للزواج وكذلك قلة المعرفة بمنظومة الحقوق والواجبات المتعلِّقة به؛ سواءٌ بإطارها الاجتماعيِّ الواسع أو ببُعدها القانوني، فلقد تغيَّرت نظرة كثير من الشباب عن مفهوم الزواج من أنه سَكَنٌ ومَوَدَّةٌ ورَحْمَةٌ وعِشْرةٌ وتعارُفٌ لمفهوم مرتبط بالمهور وغلائها، وأزمة السكن وتكاليف الزواج من جهة، أو مفاهيم أخرى عن معركة بين الذكر والأنثى أو بين كل واحد منهما وأهل الآخر

أو بحث عن مساحات افتراق باسم الخصوصية أكثر من مساحات الاشتراك والتلاقي بناء على واقع الزوجية.

د– أثر الصور النمطية **Stereo Types** عن الطرف الآخر حين لا تتوافق مع الصورة الواقعية. فالمرأة المصرية –على سبيل المثال– "**نكدية**" وتحب الصدام والمشكلات، والرجل المصري "زائغ العين" أي إن لم تربطه زوجته بإنجاب الأطفال وكثرة المطالب سيبحث عن امرأة أخرى، ويرى الرجل مثلاً أن غيْرتها عليه "**نكد**"، وترى الزوجة في حرصه على توفير المال بُخلًا، وكلاهما يريان مثلا الزواج مسابقة من أجل سيطرة أحدهما على الآخر.. وهكذا. تشيع وتنعكس مثل تلك الصور النمطية على تعامل الخاطب بمخطوبته والزوج بزوجته والعكس، وقد تقيم حاجزًا مبدئيًّا بين الطرفين يعطِّل التواصل الحقيقي بينهما، فلا يفهم الشاب طباع شريكته منذ الخطبة وربما فيما بعد الزواج، وكذلك هي. والصور النمطية غالبًا هي صور مبالغٌ في تبسيطها واختزالها لفئات معينة من الناس ولا تأخذ في الاعتبار التنوع الحقيقي لأفراد المجتمع وأحوال الأسر، وتظهر بالأساس في الدراما التلفزيونية لأسباب متعدِّدة، وتعمل باعتبارها اختزالات غير موزونة تعمِّم الظواهر الهامشية وتضخِّم الحالات غير الشائعة[١٠٦].

هـ– **وضوح توجُّه تشاؤمي وتصدير الجوانب السلبية:** فتظهر العديد من الدراسات كيف أنه في مصر –والبلاد العربية والشرقية– تتسرَّب منذ عقود ثقافة سلبية عن الزواج، فيتردَّد بين قطاعات من الشباب أن الزواج:

- أعباء وقيود وأن بيت الزوجية عبارة عن سجن مدى الحياة؛ ولذا فالعزوبة هي الراحة كلها. وفي مقابل ذلك يرى شباب أن الزواج خلاصٌ من عذاب البيت الذي نشأوا فيه. وعند فريق آخر هو متعة ولذة (بالمعنى الجنسي) وحسب. وثمة قطاع يتعامل مع الزواج باعتباره مغامرة مسلِّية وتجربة مُمتعة وحسب. بينما ترى فئة من الشباب الزواج صفقة مادية ينبغي أن تكون محسوبة بحسابات الكسب والخسارة.

- ومن ناحية أخرى، يردِّد بعض الشباب أن كلَّ زواج إنما هو مشروع فاشل تبريرًا لعزوفهم عنه ونفورهم من التفكير فيه واستسلامهم لعدم توفيقهم فيه. ويزايد عليهم بعض دعاة التحلُّل الاجتماعي والانحلال الخُلقي بأن للزواج بدائل أخرى؛ وأنه لا يعدو أن يكون عملية بيولوجية أو جنسية يمكن ممارستها بغير تلك القيود والأعباء التي يفرضها الزواج الرسمي، وعلى عادتهم

١٠٦- صفا فوزي عبد الله، أثر الفضائيات على الأسرة العربية.

يخترعون تسميات جديدة للممارسات غير الشرعية وغير الأخلاقية من قبيل: تكوين علاقة – مرافقة – ترويح – تنفيس – إخراج الكبت – فك العقد... إلخ[١٠٧].

نموذج الزواج العشوائي:

في سياق ما سبق ظهر مفهوم **الزواج العشوائي**: نرى جميعًا كيف تضعف في زمننا الراهن الثقافة الدينية المتعلقة بالزواج، وكذلك الثقافة الاجتماعية سواء الموروثة على الطريقة المجتمعية المعتادة أو المنقولة عبر وسائل التثقيف الحديثة والمنتشرة. فمجتمعنا المصري في معظمه يعيش حالة لا ثقافية تقوم على عشوائية في التفكير ومن ثم عشوائية في السلوكيات وفي ترتيب العلاقات الاجتماعية وخاصة العلاقات الأسرية. ومن ثم يمكن الزعم بأن أكثر أوصاف الزواج انتشارًا في مصر والتي تفسِّر أكثر مشكلاته وإخفاقاته هي أنه "زواج عشوائي".

والزواج العشوائي هو واحد من مظاهر العشوائية الضاربة في مفاصل حياتنا عامة؛ ويعني أن الأمور باتت تمضي بغير مقاييس محدودة ولا نظم معروفة على نحو ما تفعل الأعراف والعادات المستقرَّة في كل مجتمع، إنما تشيع وتتَّسع اليوم الطرق الفوضوية على مختلف المستويات. فالرغبة العامة في الزواج غامضة، وأغراض المقبلين عليه منه، وطرق الاختيار ومعاييره، وأسباب المشكلات الأسرية ومسالك البحث عن حلول لها. كل هذه الجوانب أصابتها عشوائية بلا ضابط؛ ومن ثم فالغالب على الناس هو التكيُّف التلقائي والتعايش عن قلة حيلة مع المشكلات والأزمات وكأنها من طبائع الأمور وكأن تفاقمها أمر حتمي لا فكاك منه.

ومن تلك العشوائية أيضا ثقافة الشباب عن التكاليف المالية للزواج؛ حيث يتبدى في المجتمع المصري نمطان طبقيان متمايزان لكنهما –كليهما– يتفقان في التنافس على الإسراف والمبالغة في تكاليف ومصاريف الزواج: نمط الطبقات الغنية (وهو على محدوديته العددية في نسبة سكان مصر لكنه يشكِّل القاطرة في أفكار الزواج المادية)، ونمط الطبقات الشعبية في ضواحي الحواضر والريف والمناطق الشعبية والعشوائيات وهو نمط يسعى لتقليد ومشابهة الطبقة الأعلى بمظاهر أخرى.

ولكن الملاحظ الأبرز أن كلًّا منهما يحيط الزواج بقيود مادية مرهقة غالبًا خاصة للطبقة الفقيرة؛ قيود يتم التعامل معها بتقديس اجتماعي يفوق كثيرًا الأصول الفطرية والفروض الدينية.

١٠٧- شهد العقد الأخير برامج ومشاهد وأصوات صريحة في الدعوة إلى متابعة القنوات أو الأفلام الإباحية أو تكوين علاقات خارج الزواج أو العودة إلى تقنين الدعارة والبغاء في مصر من هذا الباب المشار إليه.

٢- النظرة إلى الآخر:

الوصول إلى الشريك المناسب أمر ليس باليسير، خاصة أن أعباء الزواج اليوم ثقيلة وربما تحول دون إتمامه، ويعتقد كثير من الشباب من الجنسين أن العثور على الشريك المثالي أو الذي يحلم به ليس متاحًا اليوم، ولذا فقد بات أقصى طموحهم أن يحظى أحدهما بشريك مقارب في الأفكار والعواطف والظروف الاجتماعية، أو متفهِّم لما بينهما من فروق.

ولكن في ظل الثقافة السائدة تعبِّر شابَّات كثيرات في سن الزواج عن أن صفات الرجولة وتحمل المسئولية، وصورة الشاب الذي يملأ العين ويحرك رغبة الفتاة في الزواج ، تتراجع لدى الشباب الذكور اليوم. وعلى الجانب الآخر يرى كثير من الشباب أن أغلب الفتيات أصبحن غير مناسبات للزواج؛ إما لتفاهة عقولهن أو لمثالية مطالبهن أو مبالغتهن في الشروط والرغبات.. وأن الزواج أصبح مغامرة غير مأمونة العواقب.

يتجلَّى هذا التراشق أمام أعيننا وتصحبه النظرات المرتابة المتبادلة بين عالمي الذكور والإناث، في مقولات استخفافية من الأولاد/الشباب تجاه البنات/الفتيات والعكس.. وهذه النظرات والمقولات تتحوَّل عند البعض من الهزل إلى الجدِّ؛ الأمر الذي تؤازره ثقافة الأمثال الشعبية المصرية المعروفة، وكثير منها غير جادٍّ ولا متوازن، مثل: (خليها تعنَّس - خليه في حضن أمه).

وتعضد بعض هذه النظرات حزمة من الأمثال الشعبية المصرية التي تنقل رؤى سلبية متبادلة عن الشباب وعن الفتيات؛ وكذلك عن طرق التعامل المُثلى تجاه كل من الفريقين، مثل: **(يا مأمنة للرجال يا مأمنة للمية في الغربال)**، و**(قصقصي ريش طيرك قبل ما يلوف على غيرك)**. و**(جوزك على ما تعوديه وابنك على ما تربيه)**. و**(الرجل ميعبوش غير جيبه)** و**(ضِلّ رجل ولا ضِلّ حيطة)**... إلخ.

يتردَّد ذلك كله بين كثير من المصريين والعرب خلطًا للجدِّ بالهزل، لكنه في النهاية يعبِّر عن شيء من ثقافة عامة ومكنون اجتماعي شائع.

ومن أهم نتائج هذه الحالة المجتمعية بصفة عامة تعثر أو تعسُّر طرق اختيار شريك الحياة وشيوع ثقافة مغلوطة عن شروطه وكيفية التحقُّق منها أو عن مفهوم الاختيار نفسه، وكذلك —وهو الأخطر- تبرير العلاقات غير الشرعية أو غير المقبولة اجتماعيًّا قبل الزواج.

ينضاف إلى ما سبق من مشكلات في الرؤى المتبادلة بين الجنسين، تصورات أخرى تتعلَّق بعملية التعرف والتعارف والاختيار لشريك الحياة. وقد رصدت الدراسات رؤى الشباب في المجتمع المصري لذلك، وتوصلت إلى عدد من الملاحظات أهمها:

- المبالغة في مواصفات شريك الحياة؛ ومن ثم صعوبة تحققها.. فهناك تعقُّد في معايير اختيار الشريك لدى بعض الشباب؛ نتيجة ارتفاع مستويات التعليم ومطالب العمل والحراك الاجتماعي؛ الأمر الذي رفع بدوره شروط الاختيار والقبول، وتراجعت معه الثقة المتبادلة قبل وأثناء الزواج، والرغبة في الجمع بين عدَّة مزايا وشروط يصعب اجتماعها في الشخص الواحد: من العلم – الغنى – الجمال – النسب – التفاهم...[١٠٨].
- كما يبني بعض الشباب اختياره على مفهوم الحب الرومانسي الذي تروِّج له الدراما والسينما والروايات، وهو غالبًا قصير العمر ويغلب عليه أوهام ويفتقد غالبًا إلى التفكير في المسؤولية، ومنه: وكذلك مفهوم الحب من طرف واحد[١٠٩].
- اعتقاد البعض أن هناك معايير ومواصفات ثابتة يبحث عنها الجميع. وهذا أمرٌ مُشكِل؛ إذ إن الاختيار له ثوابت ومتغيرات، وله مساحة عامة تتعلق بالأصول الثابتة ومساحة خاصة ترتبط بطبائع كل إنسان؛ حيث لكلِّ شخصٍ فيها معاييره ومواصفاته الخاصة التي تتناسب مع شخصيته وطباعه. أو قد يبحث كل طرف –في المقابل– عن التطابق مع شريكه؛ وكلاهما خطأ. ولذلك، يكمن حلُّ هذه الأزمة في إدراك الطرفين أن الأهم عند الاختيار هو معرفة صفاته هو الشخصية، وما يمكنه تحمله ولا يمكنه التعايش معه.
- أو على العكس، كثيرًا ما تكون معايير اختيار الشريك والمواصفات المقبولة/ المطلوبة والمرفوضة فيه غير واضحة.
- افتراض تصوُّرات مسبقة عن بعض الأحوال أو الأوضاع بأنها غير مناسبة في تكوين الأسرة، وبالتالي رفض الارتباط بمن لديهم هذه الظروف (مثل مستوى تعليمي أو مؤهل معين/ أو تفاوت المستوى التعليمي بين الطرفين، أو العمل: اشتراط وجوده أو عدمه (بالنسبة للمرأة) / أو العمل بمهن معينة).
- عدم الاختيار، والرضا بالمتاح أو المناسب شكلًا أو بالمعايير المادية وحدها.
- التحولات الخاصة بقيم الزواج عند الشباب، ومنها ما يتعلَّق بأساليب الاختيار الحر للشريك دون مراعاة للاختلافات الطبقية والاجتماعية والثقافية وذلك عبر وسيلة المواعدة أو التعارف قبل الزواج التي باتت تشكل الطريقة المثلى لاختيار الزوج أو الزوجة بين الكثير من أبناء الجيل الحالي[١١٠].

١٠٨ فرفار جمال، قيم الزواج في منظور الشباب الجامعي
١٠٩ راجع في هذا الإطار: دورة البيت المسلم...د.اسامة صالح
١١٠ فرفار جمال، قيم الزواج في منظور الشباب الجامعي

- كما يُلاحظ تهميش ولي المرأة أو الفتاة من قضية الاختيار لصالح الطريقة المباشرة بين الشاب والفتاة.

توجد أفكار متنوِّعة ومتضاربة لدى الشباب عن الزواج والأُسرة والجنس الآخر وعما يستلزمه الزواج من استعدادات وما يترتب عليه من أعباء ومسئوليات أو ما يتضمنه من متع وملذات نفسية وجسدية واجتماعية. من هذه الأفكار نظرات إيجابية للزواج لا تزال حاضرة ورائجة في واقعنا العربي والمصري، وأخرى سلبية تتَّسع بفعل عوامل عديدة سبقت في مدخل الدليل.

وتقدِّم الكثير من البرامج الدينية والاجتماعية –في المساجد والكنائس وعبر الإعلام والوسائل الاتصالية المختلفة– صورًا جيدة للزواج الناجح، وعديدًا من التوجيهات لبناء مشروع زواج سعيد، وخاصة للزوجين، فضلًا عن تعرُّضها للثقافة التي يحتاجها الشباب بعد الزواج ومتطلبات نجاحه. وتنتشر في الأسواق المصرية كتابات تدعو لتأسيس الأسرة الصالحة، وأخرى للإرشاد النفسي والاجتماعي لحلِّ المشكلات التي تعترض طريق الزواج والحياة الزوجية، بالإضافة إلى برامج لإدارة الأسرة اقتصاديًّا واجتماعيًّا.

ولكن في المقابل تتزايد تلك الأفكار السلبية التي أشرنا إليها في الوقت الراهن. فتقدِّم بعض هذه البرامج ذاتها —على سبيل المثال– أفكارًا معاكسة لثقافة الواقع المصري والتصورات الشائعة فيه عن الزواج، فيدخل بعضها في "الأحلام المثالية" التبسيطية التي لا تليق بالتعقُّد الذي باتت عليه أمورنا الاجتماعية، ويصوِّر البعض الزواج فردوسًا أرضيًّا، ويقدِّم آخرون الوعود للشباب المقبل على الزواج، أو الأزواج الذين تزوَّجوا حديثًا: أنهم إذا ما اتَّبعوا بعض تلك النصائح والتوجيهات البسيطة سوف يتحوَّل بيتهم إلى جنة وحياتهم إلى نعيم.

إن الأمر اليوم يحتاج إلى مداخل أو منظورات أكثر تركيبًا، وأكثر مراعاة للأبعاد المختلفة للزواج وبناء الأسرة وإدارتها؛ مكوَّن من أبعاد **شرعية، ونفسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وواقعية**. ومن المنظور المركَّب ذاته ينبغي أولا مراجعة ثقافتنا وأفكارنا السائدة عن الزواج، وتصحيح ما قد يكون أصابها من تشوُّهات.

٣– عوامل اختلال مفاهيم ما قبل الزواج:

تكشف الدراسات السابقة والدراسة الميدانية الخاصة بهذا الدليل عن عدد من العوامل التي يمكن عزو إشكاليات مفاهيم مرحلة ما قبل الزواج إليها؛ ومنها:

أ- اختلال عمليات التربية ونقص التثقيف عن الزواج وتكوين الأسرة، وضعف المناهج التربوية في نظم التعليم العربية والإسلامية؛ بل رأى البعض أن الشباب أصبح "يعاني من عملية غسيل مخ يومية تقوم بها عوامل الحضارة المادية الغربية". فتبث الفضائيات الغربية كثيرًا ممَّا يتناقض ويتعارض مع القيم العربية

والإسلامية دون ردِّ فعلٍ مناسب من أولياء الأمور أو القائمين على التربية في المجتمع، ودون فتح حوار حقيقي عمَّا يُعرض في وسائل الإعلام التقليدي والجديد. وينضم إلى ذلك محاولات نشر ثقافات مستوردة (مثل النسوية المتطرفة والأسر البديلة والعلاقات المفتوحة والسكن المنفرد للفتيات..) تروِّج لتصورات مغلوطة عن ماهية وأدوار كل من الرجل والمرأة وطبيعة العلاقات الزوجية والأسرية، وتحاول بعض الدوائر ترسيخ تلك المفاهيم السلبية من خلال قوانين أو الترويج لها وإشاعتها عبر أدوات الإعلام والدراما وعالم الإنترنت(١١١).

ب- وقد كانت إحدى الدراسات في إحدى الدول العربية بيَّنت أن الأثر الأكبر والمتزايد هو لدور وسائل الاتصال الحديثة في تغيير نظرة الشباب للزواج؛ حيث أكَّدت الغالبية العظمى من أفراد العينة (٦٦%) أن لهذه الوسائل أهمية كبيرة في تغيُّر نظرة الشباب للزواج، وهذا راجع إلى دور هذه الوسائل في تفريغ شحنات العواطف والمشاعر من خلال عملية الاتصال والتواصل عبرها، وأجاب ٣٤% من أفراد العينة خلاف ذلك(١١٢).

ج- وقد ذكرت دراسة أن هذه التحديات التي تهدِّد مفهوم الأسرة ووجودها تهدِّد أيضًا تماسك المجتمعات والدول العربية والإسلامية. ومن تلك التحديات الاجتماعية-الثقافية أثر العولمة والتغير العالمي وأنماط الحياة الحديثة على الأسرة، وكثير من الممارسات التقليدية الموروثة عن عصور التدهور فيما يتعلَّق بالأسرة كزواج الأطفال والحمل المبكِّر وغلاء المهور والزواج العرفي(١١٣). وقد أشرنا من قبل –في الفصل التمهيدي- إلى تزايد أثر التغريب والغزو الفكري للمجتمعات العربية والإسلامية من خلال مفاهيم الفردية والاستهلاك والموضة والاستقلال الذاتي وغيرها من المفاهيم الغربية التي دخلت البلاد الإسلامية في سياق عمليات العولمة والعلمنة والتي أدَّتْ إلى ارتباك وتشوُّش المجتمعات الإسلامية وكذلك ارتباك النظرة إلى الأدوار والوظائف الخاصة بالرجال والنساء(١١٤).

د- **أثر التجارب السابقة سواء شخصية أو عائلية أو مجتمعية:** أكدت مبحوثات أن تجاربهن السابقة أو تجارب الآخرين أثَّرَتْ عليهنَّ تأثيرًا ما؛ سواء جاء التأثير بالسلب أو بالإيجاب:

- **فمن ناحية التجارب الشخصية:** أثرت تجربة حب –لم تصل للخطبة بسبب الظروف المادية- على إحدى المبحوثات نفسيًّا، ودخلت بعدها تجربة خطبة لم تستمر سوى ستة أشهر بسبب التردُّد الشديد وعدم الجدية من قبل الطرف الآخر على حد تعبيرها: "يريد شخصية منكسرة،

---

١١١ راجع: د.محمود أبو السعود، دور الرجل والمرأة في الأسرة المسلمة بالولايات المتحدة الأمريكية، مجلة المسلم المعاصر.

١١٢ البنة صالح، **الاتصال الثقافي الحديث ودوره في تغير الأسرة بنانيا ووظيفيا: دراسة ميدانية بمنطقة تماسين**، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الاجتماعية، ٢٠١٣.

١١٣- **"حراسة قيم الأسرة ومؤسسة الزواج في بلدان منظمة التعاون الإسلامي: كيف تتغير الأسر والزواج في الألفية الجديدة؟"** تقرير صادر عن مركز البحث والتدريب الإحصائي والاقتصادي والاجتماعي للدول الإسلامية، التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، ٢٠١٧.

١١٤- حبيب المفتى، **تأثير الحضارة الحديثة على الأسرة المسلمة**، مجلة المسلم المعاصر

سبق له الزواج مرتين وطلق". وهناك من مرَّتْ بتجربتين: الأولى كانت في عمر التاسعة عشر، مبنية على القلب فقط –لم تصل إلى الخطبة– جعلتها تراه أفضل شخص موجود ولا يمكن الارتباط بغيره، ولكن مع مرور الوقت أدركت عيوبه التي لا تتحمَّلها، أما التجربة الثانية فكانت مبنية على أساس العقل ولكن لم تستمر بسبب الظروف المادية، وبسبب عدم تقديم أي تنازل أو استعداد لتحمُّل ظروفه منها، وهذا تأثير التجربة الأولى عليها. وهناك من جعلتها تجاربها السابقة كثيرة الشك وليس من السهل أن توافق على أي شخص إلا إذا كانت تحبه. وهناك من أصبحت في حالة توتر مستمر.

ومن المبحوثات من رأت أن العلاقات القائمة على "الكلام" أي التعارف والتواصل قبل الارتباط تكون غير ناجحة، لتأثيرها الكبير على القلب وبما يغلب على العقل.

- **أما تأثير تجارب الآخرين:**

فبالنسبة للفتيات: فقد أثرت على جميع المبحوثات، فهناك من تفكِّر في موضوع الطلاق حتى قبل التفكير في الزواج نفسه وتعتبره شيئًا واقعيًّا وطبيعيًّا، وهناك من غيَّرت فكرتها عن الزواج بسبب هذه التجارب، فلم تَرَهُ السند والاحتواء والمشاركة، وأثَّرت تلك التجارب على أخرى وجعلتها "متردِّدة" في موضوع الزواج، وأخرى رأت أن العلاقات جميعها متعسرة حتى العلاقات المستمرة فإن الشكوى داخلها كثيرة رغم محاولات التجميل التي تبدو من أصحاب هذه العلاقات.

أما بالنسبة للذكور: فقد تأثر البعض بتجارب الآخرين، في حين لم يتأثر البعض الآخر بتجارب من حوله.

ومن أسباب اختلال مفهوم الاختيار:

١. دور التغيرات الاجتماعية في تغير مفاهيم الزواج ومعايير الاختيار الزواجي عند الشباب العربي، وبالأخص دور عملية التحديث التي مرت بها المجتمعات العربية وأثرها على مفاهيم الزواج عند الشباب[١١٥].

٢. اختلاف طريقة اختيار الزوجين من الطريقة التقليدية التى يشارك فيها فاعلين من الأقارب إلى طريقة دخول وسائط التكنولوجيا وشبكات التواصل الاجتماعى، وما ينتج عنها من إسقاط الاعتبارات الطبقية والاجتماعية والثقافية المؤثرة فى عملية الاختيار[١١٦].

٣. اختلال ونقص التربية والتثقيف عن الزواج وتكوين الأسرة.

٤. نقص أو غياب الثقافة الشرعية والدينية المتعلقة بالزواج والأسرة لدى الشباب.

---

١١٥ **اتجاهات الشباب نحو قضايا الزواج: دراسة استطلاعية على عينة من الشباب القطري**، د. كلثم الغانم، المجلس الأعلى لشئون الأسرة، قطر، ٢٠١٠.

١١٦ زهية دياب: **التغير في قيم الزواج لدى الشباب الجزائرى**.

٥. انتشار ثقافات مستوردة (مثل النسوية) تروج تصورات مغلوطة عن ماهية وأدوار كل من الرجل والمرأة وطبيعة العلاقات الزوجية والأسرية، ومحاولة ترسيخ تلك الثقافة من خلال القوانين والترويج لها في الإعلام والدراما[١١٧].

٦. التغريب والغزو الفكرى للمجتمعات العربية والاسلامية من خلال مفاهيم الفردية والاستهلاك والموضة والاستقلال الذاتى وغيرها من المفاهيم الغربية التى دخلت البلاد الاسلامية في سياق عمليات العولمة والعلمنة والتى أدت إلى ارتباك وتشوش المجتمعات الإسلامية وكذلك ارتباك النظرة إلى الأدوار والوظائف الخاصة بالرجال والنساء[١١٨].

٧. وتشبع الطرفين بمعايير الزواج الغربية التي لا تتناسب مع المجتمع المصري، والانبهار بالنموذج الغربي للأسرة.

٨. التعرض بشكل مكثف للبرامج التلفزيونية الغربية دون رقابة من أولياء الأمور أو فتح حوار حقيقي عما يُعرض في هذه البرامج.

وقد سهّل عدم وجود احتكاك مباشر بين معظم الأشخاص وبين الغرب من تصديق ما تبثه الفضائيات عن الغرب وطبيعة العلاقات الاجتماعية —وعلى رأسها الزواج– في تلك المجتمعات. فالشباب عندما يشاهدون الأسر الغربية وهي في حالة من التوافق والهدوء وقلة المشاكل يظنون أن هذا هو الواقع. إلا أن الواقع مختلفٌ تمامًا، وهو ما يدركه من عاش في الغرب فترة مناسبة تسمح له بتكوين صورة حقيقية عما يجري هناك من مشكلات أسرية مكثفة نتيجة فقدان العلاقات الأسرية السوية.

٩. تأثير ثقافة التكنولوجيا في عملية اختيار الرجل والمرأة لشريك حياته: فقد كانت خطوة الزواج من أكثر الخطوات التي يعطي لها المجتمع قدرًا وقيمة، وأكثرها تقيُّدًا بالعادات والتقاليد واحتكامًا للأصول؛ فالتقدُّم لفتاة والموافقة على رجل كان يستدعي معرفة مسبقة بالبيت والأسرة وسؤال عن سيرة المرء بين أهله وجيرانه، وكذا التأكُّد من وجود حدٍّ أدنى من التكافؤ يضمن إقامة علاقة متوازنة بين كلتا الأسرتين، وكان يستدعي أيضًا مشورة الأب والأم وربما حكماء العائلة. لكن في عصر التكنولوجيا تبقى الخفة إحدى السمات المميزة بقوة له، فعملية الاختيار باتت أكثر خفَّة فتمَّ تنحية الأهل عنها بشكل أو بآخر، والعادات والتقاليد باتت أشياء بالية لا تتناسب مع الشكل العصري للمجتمع؛ فالحب والحب فقط هو المعيار الأوحد للاختيار متجاوزًا لسواه من المعايير، حتى دون التأكُّد من كونه حبًّا بصدق مكفولًا له من بقية العناصر ما يضمن بقاءه واستقراره، أم هو مجرد انجذاب دون أي دعائم.

---

١١٧ راجع: د.محمود أبو السعود، **دور الرجل والمرأة في الأسرة المسلمة بالولايات المتحدة الأمريكية**، مجلة المسلم المعاصر.
١١٨ حبيب المفتى، **تأثير الحضارة الحديثة على الأسرة المسلمة**، مجلة المسلم المعاصر.

١٠. والفردية أيضًا ليست ببعيدة عن ما سبق ذكره، فمواكبة العصر تقتضي أن يتخفَّف المرء من روابطه المجتمعية، والإنسان في حالته المفردة برغباته واحتياجاته هو دون غيره هو ما تسعى التكنولوجيا لتلبيته، ليس هذا فقط بل باتت نمطًا للتفكير أيضًا في كافة شؤونه، ومن ثم فإن تنحية الأسرة والمجتمع تنحية تامة عن عملية الاختيار منذ البداية هي نتيجة طبيعية لتصوُّر المرء عن شكل أسرته وطبيعة علاقتها بالمجتمع المحيط بعد ذلك، فحتى أقرب المقرَّبين لم يعُد لهم الحق في تقديم النصح والمشورة سواء في اختيار الزوجة أو الموافقة على الزوج، وهذا لأن الأمر بات يمضي فرادى، وكل ما يتجاوز الفرد هو ثقل زائد لا حاجة إليه.

بالإضافة لهذا، فقد كانت عملية الاختيار في السابق تخضع لمعادلة عادة ما تتمثل عناصرها في المال والجمال والحسب والدين، ويحدد الوزن النسبي لكل عنصر منها ما يدين به المرء من معتقدات وما يستند إليه من مرجعية، وكانت عناصر المعادلة تنبثق بشكل أو بآخر عن المجتمع ومن ثم تنتج زيجات تلتئم في الكل المجتمعي بعد ذلك. لكن في ظل حالة الانفتاح الذي صاحب التكنولوجيا والقيم التسويقية الملازمة لها، وسيطرة "الصورة" كحقيقة لا تعلوها حقيقة، باتت الصورة التي تقدمها التكنولوجيا بكل وسائطها عن الرجل والمرأة هي المحدد الرئيسي لعملية الاختيار، فالرجل لا بدَّ من أن يكون وسيمًا جذابًا متمدينًا ورياضيًّا ورومانسيًّا يَقْطُرُ فمُه كلامًا معسولًا طوال الوقت، والمرأة جميلة رشيقة مكتملة الأناقة حتى وهي في مطبخها أو وهي ترعى أطفالها

٤- قرار الإقدام على الزواج:

بناء على ما تقدَّم يتعرَّض قرار الإقدام على الزواج لدى كثير من الشباب في المجتمع المصري لإشكالية كبيرة ينبغي تحليلها ومواجهتها، فقد أثبتت الدراسات الميدانية عددًا من الملاحظات الجديرة بالاهتمام:

- فيما يتعلق بالشباب (الذكور)، نجد أن قطاعًا من يرون أنهم أولًا لا بدَّ أن يحقِّقوا الاستقرار المادي الذي يمكِّنهم من تكوين بيت وتوفير مستلزمات الزواج، فيجب أن ينهي الشاب أولًا دراسته، ثم يلتحق بعمل مقبول اجتماعيًّا ذي عائد مناسب، قبل أن يبدأ التفكير في الزواج.
- وقطاع آخر يفكر في مرحلة ما قبل الزواج مترِدِّدًا: هل يخطو هذه الخطوة أم ينتظر حتى يتشبَّع من حياة النزهات والهوايات التي يحبُّها أو ما يسمِّيه "حياة الحرية" قبل أن يدخل القفص! بعض الشباب اليوم لا يريد أن يقيِّد نفسه مبكرًا بزوجة ومسئولية وهو في هذه السِّنّ (حتى نهاية العشرينيات تقريبًا)، ولا يريد أن يصرف كلَّ ما يدَّخره على تكوين بيت وأسرة وحسْب، فربما يرجئ الفكرة لأجل مسمى أو غير مسمى حتى يستكمل الاستمتاع بحياة العزوبية.

- وفئة أخرى من الشباب (الذكور) اليوم لا يرون ضرورة لوجود وقت محدد للزواج، وخاصة أن مجتمعنا المصري عادة لا يعترف بشيء اسمه عنوسة الشباب الذكور، فالشباب يتزوج في أي وقت يريد، خاصة في المدن والحواضر.

- يفترض أن الأمر يختلف بالنسبة للفتاة؛ فهي منذ نعومة أظافرها تنتظر اليوم الذي ترى فيه فارس أحلامها، وحتى وإن كانت تحلم بأن تصل لأعلى المراتب العلمية والمناصب العملية، فإن المجتمع نفسه لا يقبل منها –كإنسانة طبيعية– إلا أن تقبل على الزواج في سنٍّ معينة، يراها المجتمع مناسبة لها. **ولكن الفتاة اليوم –مثل الفتى**– تسمع عن تجارب سيئة للزواج وكيف تنطفئ روح كثير من البنات ويزول بريقها بعد الزواج، وتسمع أن الزواج لا مكان فيه لأي امرأة طموحة مع رجل في بيت واحد، وتسمع كثيرًا في مجتمعنا عن عقلية الرجل الذي لا يحترم المرأة وشخصيتها ويحاول السيطرة عليها. ومع هذا فبخلاف الأولاد يتهدَّد الفتيات منذ نضوجهن الخوف من لقب "عانس"!

- ويمكن أن نضرب مثالًا لأثر السياق والتكوين النفسي والاجتماعي على مفهومنا عن الزواج بمقولة "**الزواج مسئولية ثقيلة**"..!! فهي جملة يسمعها الشباب كثيرًا ويردِّدها كثيرٌ منهم، وكانت تُقال دومًا من باب التشجيع على تحمُّل المسئولية وإظهار القدرة الرجولية، ولكنها اليوم في ظلِّ الأوضاع الاجتماعية والنفسية المتغيِّرة أصبحت شبحًا يطارد الشباب عندما يفكِّرون في الزواج. إن مسئولية تحمل العيش مع شخص في بيت واحد، يتقاسمان الحياة بكل تفاصيلها، ويتشاركان مسئوليات الحياة وقرارات العيش.. هذه أضحت فكرة ضاغطة وتقلل من دافعية الزواج. هكذا يردد كثير من شبابنا اليوم، لذلك لا بدَّ من معرفة الذات والتأهل النفسي والاجتماعي قبل الإقدام على الزواج.

- ومن ثم يبحث الشباب والفتيات عن "**زواج آمن**" وليس "زواجا ناجحا أو سعيدًا" لأنهم يعيشون في ظروف اجتماعية وعالمية غير مستقرة، فيحلم كثيرون منهم ببيت يقوم على التفاهم والتجانس والتكامل، بينما يخافون في الوقت نفسه ما يمكن تسميته **بالفشل الزواجي**؛ ويعي كثير منهم أن ذلك الفشل يبدأ من مرحلة اختيار شريك الحياة المناسب، ووصولًا إلى استدامة الأسرة والحفاظ عليها. وقليل منهم من يعي أن ذلك يبدأ من فترة إعداد الذات للزواج.

من الرصد السابق ومن تحليله، يتَّضح أن وراء ذلك نظرتين أخريين إلى الذات –ومن ثم إلى الزواج وكيفية بناء الأسرة– نظرتين غير سويَّتين نفسيًّا واجتماعيًّا لكنهما بارزتان في واقعنا الراهن:

فهناك من يقول بلسان الحال: **أنا كل شيء وغيري لا يهمني**؛ وهو من لا يرى إلَّا نفسه وحقوقه، ويرى حقوقه هذه بعدسة مكبِّرة وحقوق غيره بعدسة محقِّرة؛ ومن ثم يتصور الزواج بناء لمملكته الخاصة التي على الآخرين فيها أن يعملوا لأجله وحده.

وفي مقابل ذلك نظرة دونية بائسة تحتقر الذات مفادها: **أنا لا شيء ولا أستحق شيئًا**؛ وهي – على العكس من الأولى– يتصوَّر فيها الإنسان نفسه خلوًا من أية حقوق أو قيمة؛ ومن ثم يعطي نفسه لأي طالب ويعيش في أية ظروف ويتحمَّل أية أعباء، ولا شكَّ أن النمط الأول يبحث عن فريسته في عالم النمط الأخير، كما يلحظ الباحثون النفسيُّون والاجتماعيُّون.

وبين هذا البحث عن الأمان والاستقرار من جهة والخوف من الفشل من جهة أخرى، ينبغي أن نراجع العوامل التي تقف وراء شيوع تلك المفاهيم المسبقة عن الزواج لدى الشباب في المجتمع المصري.

ونحن الآن بحاجة إلى الخروج من هذه الحالة إلى أفق آخر من التأهل الذاتي والتأهيل من قبل المجتمع ومكوناته المختلفة للإقبال على الزواج وبناء أسرة ناجحة.

الفصل الثاني

تأهل وتأهيل نفسي واجتماعي

نحتاج إلى فهم أنفسنا وطبائعنا وخصائص شخصياتنا قبل أن نتعرض لطبيعة العلاقة الزوجية وكيفية بنائها والحفاظ عليها. فيجب أولا أن نراجع أنفسنا بخصوص التكوين الفكري والنفسي والاجتماعي لكلٍّ منَّا، وأن نتساءل قبل أن نبحث عن شريك الحياة (الآخر؛ سواء كان الزوج أو الزوجة):

هل أنا مستعدٌّ لإقامة حياة زوجية جيدة وناجحة؟

هل أنا مؤهَّل لمتطلبات الزواج الأساسية؟

وكيف أعرف ذلك؟

وكيف أستكمل ما يكون مفتقدًا عندي ويجب أن أتحلَّى به؟

يتَّفق علماء النفس والاجتماع والشريعة على مجموعة من العوامل التي تُهيئ النجاح في المسيرة الزواجية أو المواصفات التي يُفضَّل توافرها وتعتبر شروطًا يجب الالتزام بها عند اتخاذ قرار الاختيار في الزواج. هذه العوامل تقف بعد ذلك وراء نجاح الحياة الزوجية وتحقيق السعادة فيها؛ وفي مقدِّمتها: التديُّن والأخلاق الحميدة، والاستقرار الأُسري مع الوالدين، نضج الشخصية، القدرة على تحمُّل المسؤولية، التقارب في السن وفي الخلفية الاجتماعية.

يحتاج المقبلون على الزواج تأهيلًا ذاتيًّا نفسيًّا واجتماعيًّا يتمثل في المعرفة والاقتناع بواجبات التأهيل ومبادئه، فالتمرُّن والتدرُّب عليها، والاعتياد حتى تصير طبيعة لازمة وسمات ثابتة في شخصية كل من الفتى والفتاة.

وفيما يلي إشارة إلى جملة من أهم هذه المؤهلات النفسية والاجتماعية في المقبلين على الزواج:

الأول– التحلي بالتوازن النفسي والفكري

كل مقبل على الزواج يحتاج نفسية التوازن والاعتدال، والتي تعني عدم التهويل أو التهوين في التعامل مع سائر الأمور وخاصة الزواج، فلا يخاف من الزواج ولا يستثقل مسؤولياته، كما لا يستهتر ولا يستخفُّ بمتطلباته.

ومن ثم يمكن إجمال الأبعاد النفسية والاجتماعية للتوازن في مقولة "**الجمع بين الثنائيات**": الدين والدنيا – التوكل والأسباب – الأخلاق والفاعلية – الفردية والجماعية – الواقع والواجب – الذات والآخر – الذكر والأنثى – القيم والمصالح – العقل والعاطفة،... ويمكن أن يتحقَّق التوازن النفسي للمراهق أو اليافع من خلال عدَّة ممارسات:

١- الحفاظ على أركان الدين وخاصة الأذكار وتلاوة الآيات وأداء الواجبات الدينية. فالدين يطفئ نيران التحير والشعور بفراغ وجودي قاتل، ويحل محله الاستناد إلى حقائق راسخة وعميقة.

٢- حسن التوكل على الله تعالى؛ وهو صدق اعتماد القلب على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب. فالتوكل على الله تعالى هو: الثقة به والاستسلام لأمره واليقين بأن قضاءه عليه نافذ مع اتباع الأسباب التي سخرها للإنسان.

فمن ملك القدرة على الزواج بدنيا وماليا، وقام بما يحتاج إليه المقبل على الزواج من تأهيل نفسي ذاتي وتأهيل اجتماعي وأسري، فينبغي عليه أن ينزع عن نفسه الخوف من مسؤوليات الزواج وأعبائه بصدق التوكل على الله تعالى: "**ومن يتوكل الله فهو حسبه**"؛ أي: ومن كان الله حسبه كفاه ما يحذر ويخاف.

٣- الجمع بين الشعور بالفردية والشعور بالجماعية وسط الأهل والمجتمع؛ تفاديًا للاغتراب الاجتماعي الذي يجتاح شباب العالم، أو الانسحاق الاجتماعي في بيئات لا تقدر معنى الشخصي والخاص. فالفجوة التي تتسع بين فردية الفرد وارتباطه بشبكات علاقات اجتماعية متعددة لا يسدُّها شيء مثل ذلك التصور للطبيعة الإنسانية المتكاملة على النحو الذي بدأنا به هذا الفصل. فالفردية والجمعية حقيقتان لا تتعارضان إلَّا نتيجة تصوُّرات متطرِّفة تجمع بين الإفراط في طرف والتفريط في الآخر.

٤- إدراك ثنائية التكوين الإنساني ما بين الجسد والروح من ناحية ومن ناحية أخرى ما بين العقل والعاطفة. وما أحْوج الاستعداد للزواج إلى هذا الجمع بين الثنائيتين. فدوافع الزواج بعضها جسدي يتعلَّق بالشهوات الجنسية والمالية، وبعضها روحي يتعلَّق بالمعاني من الأُنس والسكينة والمشاركة والحب، وهذان الدافعان لا يتعارضان. ومن ثم يحتاج المقبل على الزواج للجمع بين وازع العقل ووازع العاطفة؛ فيُقبل بقلبه في حضور عقله ويحسب الأمور بعقله في حضور مشاعره. وهذا يقيه الزواج الخيالي من جهة والزواج الجاف من الجهة الأخرى.

٥- وأخيرا يتحقَّق التوازن النفسي بالجمع بين مطالب الذات ومطالب الآخر أو الآخرين؛ فالزواج علاقة كسائر العلاقات الإنسانية والاجتماعية ينبغي للإنسان أن ينظر فيها بعين إلى ما يحتاجه ويستحقُّه من الآخرين وبالعين الأخرى يلحظ ما يحتاجه ويستحقُّه الآخرون منه، (وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)- الحديث رواه مسلم.

الثاني– استيعاب الاختلافات بين الذكر والأنثى:

من أخطر المشـــكلات التي تواجه الشـــباب هو الفهم المتبادل لطبيعة كل منهما؛ وما بينهما من مشـــترك وما بينهما من اختلاف، وكيفية تحويل الاختلاف إلى ائتلاف. وقد لاحظ الباحثون النفســـيون والاجتماعيون فجوة إدراك لدى كثير من المقبلين على الزواج عن طبائع الذكور والإناث.

لماذا يُفكر الشباب والفتيات بشكل مختلف؟

لماذا يتصرفون بشكل مختلف في المواقف الضاغطة؟

لماذا تتصرف النساء بشكل عاطفي أكثر مقارنَّة بالرجال؟

لماذا يتفوق كل من الرجال والنساء في أنواع مختلفة وغير مشتركة من المهام؟

لماذا يلاحظ الخبراء أن الأولاد يحبون اللعب مثلا بالسيارات والشاحنات والسوبرمان بينما تميل الفتيات إلى اللعب بالألوان والعرائس وبناء المنازل؟

هذه أسئلة شائعة تُثار عادَّة في الأحاديث من كل جنس عن الآخر.

كما أن هناك سمات نفسية مُهمة تميز الشباب والفتيات، حيث يُنظَر إلى الشباب عامةً على أنهم مُسيطرون طموحون مُهتمُّون بأنفسهم، بينما يُنظَر إلى الفتيات على أنهن يهتممْن بالآخرين أكثر من أنفسهن. كما لاحظ خبراء علم النفس الاجتماعي أن أحد التفسيرات الشائعة للاختلافات بين الرجل والمرأة قد تعكس الاختلافات البيولوجية بينهم[١١٩].

وبالفعل فلقد وجدت دراسات الإدراك والذاكرة والوظائف العصبية اختلافات واضحة بين الجنسين يمكن أن يتم عزوها إلى عوامل متعدِّدة وراثية فسيولوجية وهرمونية، وأخرى بيئية اجتماعية، وهي لا تعكس أي تفوُّق أو أفضلية قيمية لأيٍّ من الجنسين على الآخر بقدر ما تعكس اختلاف الائتلاف وتنوع التكامل. فكلٌّ من الجنسين يتساوى مثلا في الذكاء، لكنهما يميلان لاستخدام هذا الذكاء اجتماعيا بشكل مختلف[١٢٠].

والذي نستفيده في الاستعداد للزواج وقضاياه أنه على كل من الشاب والفتاة بشكل عام أن يكونا على وعي وإدراك بالفروق فيما بينهما حتى يستطيعا التعامل كلٌّ مع الآخر بشكل إيجابي.

---

119 -Guimond, 2008

120 -Zaidi, 2010.

- راجع: كتاب "**المخ ذكر أم أنثى**"، مرجع سابق.

فعلى سبيل المثال، إدراك المرأة أن الرجل حين ينشغل ذهنه في التفكير حول موضوع مُعين فهذا يجعله أكثر انعزالًا وأقلَّ اهتمامًا بأيِّ شيء أو شخص حوله بما في ذلك هي أو أطفالهما؛ إدراكها لذلك يجعل الموقف بسيطًا ويمُرُّ بدون مشكلات.

وكذلك الأمر بالنسبة للرجل، فإدراكه أن المرأة حين ينشغل تفكيرها نحو موضوع ما فيجعلها ذلك تميل إلى التحدُّث كثيرًا مع الآخرين وقد يكون هو منهم، فعليه الإنصات لها وتفهُّمها دون التذمُّر أو التأنيب لها في أي حال من الأحوال. وكذلك الأمر فيما يتَّصل بالعلاقة الجنسية والتعامل مع الأبناء وغيرها، فإعطاء كلٍّ من الطرفين للآخر المساحة اللازمة للتعبير عن مشكلاته واهتماماته وممارسة مهامه – بالطريقة المحبَّذة له أو الأكثر مناسبة وملاءمة له– من شأنه أن يتجاوز العديد من المشكلات الزواجية فيما بعد.

الثالث– التعرف على دوافع الزواج والتجاوب معها:

المقبل على الزواج عليه أن يعرف دوافعه بصفة خاصة ودوافع الجنس الآخر للزواج بصفة عامة (قبل الخطبة)، ويحاول أن يتأهَّل نفسيًّا لإمكانية تحقيق دوافعه ودوافع شريك مستقبله. فالواقع أن الناس يُقدمون على الزواج بدوافع متعدِّدة تختلف في أولوياتها من شخص لآخر، ويجعلها بعضهم أهدافًا سواء كانت أهدافًا رئيسية ضرورية أم ثانوية تكميلية.

١– الدافع الديني

يقدم قطاع من الشباب والفتيات على الزواج تحت تأثير الدافع الديني، من خلال ما حثَّت عليه النصوص الشرعية من أمر الزواج ورغَّبت فيه. فإذا اندفع الشاب أو الفتاة إلى الزواج من هذا الباب وكان الآخر لا يكترث لذلك فسيواجهان مشكلات من وراء ذلك؛ لأن أحدهما ينظر إلى أوامر الله في تصرُّفاته مع الأسرة، لكن الآخر لا ينظر إلى ذلك.

والدافع الديني أنبل الدوافع التي تدفع الشاب أو الفتاة نحو الزواج، فهو الذي يحمل كلا الزوجين على البِرِّ بصاحبه، ويضفي على البيت روح السكينة والاستقرار.

أما أن يفكِّر المقبل على الزواج في أن يكون شريكه غير متديِّن ابتداءً بحيث يعمل هو على تصنيع الدافع والوازع الديني لديه بعد الخطبة مثلًا، فأكثر الدراسات النفسية والاجتماعية والآراء الخبيرة على أن ذلك غير يسير في هذه المرحلة، ولكن الرأي الشرعي لا يمنع ذلك شريطة وجود بوادر له أثناء التعارف والتأكد منه أثناء الخطبة. ولكن في مرحلة ما قبل الاختيار وبناء معايير الاختيار فالأفضل بلا شك أن يتخير المتدين المتدينة والعكس ليسهل التفاهم بينهما.

٢- الدافع الاجتماعي

الدافع المتعلِّق بالحرج الاجتماعي بسبب تأخر الزواج عند كثيرين يجعل عددًا لا يستهان به -وخاصة الإناث- يقبلون على الزواج. وهذا دافع صحيح؛ وهو دليل على سلامة المجتمع[١٢١]. ولكنه ينبغي ألَّا ينتقل من كونه دافعًا ذاتيًّا متزنًا إلى أن يصبح عامل ضغط مؤرِّقًا ومتسبِّبًا في الاضطراب عند التفكير بالزواج.

الدوافع الاجتماعية لا تقتصر على قضية السِّنِّ، ولكنْ هناك أيضًا تفضيلات مجتمعية في التكافؤ الزواجي، واختلاف البيئات والفئات والطبقات الفرعية داخل المجتمع، واختلاف القيم وتحوُّلاتها ومنها اختلاف معايير الاختيار وتنوُّعها.. هذا النظر وما ينتجه من فهمٍ يقوّي مفهوم الشاب/الفتاة الواقعي عن الزواج وبناء الأسرة وسمات شريك الحياة، ويؤهِّله ذلك إلى مراعاة أهله وحسن فهم أسرة من سيختارها، ويجعله أكثر مهارة في التعامل اجتماعيًّا وإثبات حضوره في المواقف المختلفة.

٣- دافع الأبوة والأمومة

هذا الدافع من أقوى الدوافع عند الإنسان، وهو عند المرأة أقوى، وتبيّن استبيانات الرأي أن بعض الفتيات يتزوَّجن بقصْد الإنجاب وحسب؛ بهدف أن تنجب وتحمل طفلًا يقول لها: يا أمي! كذلك يحب الشاب/الرجل أن يكون أبًا ويدفعه ذلك إلى الزواج، فينبغي أن يتَّجه الشاب/الشابة إلى الفئة التي تحب ذلك ولا يسعى بغير وعي للاختيار ضمن فئة عندها على الإنجاب محاذير أو مخاوف منه.

فمن المهم أن يعرف الشباب/الفتاة أن مسألة الإنجاب لم تعد معطى فطريا ولا ثابتا اجتماعيا على ما كان عليه الحال منذ جيل أو جيلين سابقين، فقد برزت فئة في الأجيال الحالية تناقش في ضرورية الزواج من جهة، و/أو تضع عليه شروطًا زمنية وموضوعية ومادية وصحية وربما جمالية من الجهة الأخرى قد ينسحب بعضها على موضوع الإنجاب.

٤- الدافع الجنسي

هو الميل الجسدي للرجل نحو المرأة وميلها نحوه وحاجة كل منهما إلى الآخر؛ وهو أمر فطره الله تعالى في الرجال والنساء؛ ليحصل التواصل والتجاذب مما يحقق استمرارًا للنوع البشري. وهو دافع طبيعي فطري أودعه الله في الرجال والنساء على السواء، وإن كانت حاجة الرجل أشدَّ وصبره عليه أقل. ولهذا السبب جاء في الحديث: (**إذا باتت المرأة، هاجرة فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح**)[١٢٢]. وذلك لأن

(١٢١) ينظر: الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، ص ٣٤.
(١٢٢) صحيح مسلم، باب إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، رقم: (٣٥٢٨)، (٤/ ١٥٦).

الزوجة إن لم تُحصن زوجها يُخشى أن يتَّجه إلى ما لا يحلُّ له وتبوء بإثمه لجهلها وخطئها، فليس لها أن تنشغل في هذا الشأن عنه أيًّا كان الشاغل، حتى وإن كان عبادة.

على أنه يجب التنبُّه إلى أنه من الخطأ أن يُجعل الدافعُ الجنسي الدافع الوحيد إلى الزواج؛ إذ المشاهد في الحياة عدم استمرار الزيجات القائمة على هذا الأمر منفردًا، لأن الدافع الجنسي ليس هو الحياة كلها إنما هو جزء منها، والحياة الزوجية أجزاء كثيرة؛ منها الأخلاقية، ومنها السلوكية، ومنها العملية، والرجل يحتاج إلى زوجة تلبي فيه الدافع الديني والدافع الاجتماعي، وتحسن الكلام وتحسن التعامل مع أحداث الحياة وطوارئها، فإن كانت الزوجة تلبي الدافع الجنسي وحده ولا تُلبي باقي الدوافع فالغالب أن هذه الأسرة ستضعف عن متابعة سيرها في الحياة(١٢٣).

٥- الدافع النفسي

وهو عبارة عن مجموعة من المكنونات النفسية التي تدعو الشاب والفتاة إلى الزواج؛ منها الحاجة إلى الحب والتقدير أو الهرب من الوحدة(١٢٤). ويدخل فيه بعضٌ مما سبق، ولكن أكبر دافع نفسي اجماعي هو غريزة البحث عن السكن والسكينة (وهي سنة الله في خلق الرجال للنساء والنساء للرجال من أنفسهم)، والاستقرار واستكمال المعنى الاجتماعي للحياة. فحياة العزوبية وحدة ووحشة تتسبَّب في ضعف إنساني وخواء معنوي وشعور عارم بالفراغ والحاجة إلى إشباع لا يوفِّره إلَّا الزواج.

والوعي بالدافع النفسي يساعد على التوازن النفسي عند الإقبال على الزواج والاختيار، وعند الزواج نفسه؛ لأن إجراءات الاختيار ومعادلاته وتوازناته هي الثمن الذي يدفعه المرء للحصول على إشباع غريزة الزواج هذه.

٦- الزواج لدوافع خاصة:

يفكر بعض الناس في الزواج بدوافع خاطئة من دون التفكير في غيرها، كالزواج للحصول على المال أو طلب الشهرة؛ وهذا وهمٌ وخللٌ فكريٌّ كبير ناتج عن ضعف الوازع الديني والفكري والتربوي لدى صاحبه. وقد ورد في الحديث أنه: «**من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يتزوجها إلا ليغض بصره أو ليحصن فرجه، أو يصل رحمه بارك الله له فيها، وبارك لها فيه**»(١٢٥).

(١٢٣) الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، ص ٤٢ وما بعدها.
(١٢٤) الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، ص ٤٣ إلى ص ٤٦.
(١٢٥) المعجم الأوسط للطبراني، رقم: (٢٣٤٢)، (٣/ ٢١). قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن إبراهيم إلا عبد السلام.؟؟

الفصل الثالث

تأهل وتأهيل شرعي لتدعيم ثقافة الزواج

الإسلام –باعتباره الرسالة الخاتمة للبشرية– يقدّم رؤية متكاملة للكون والإنسان والحياة؛ يتفرَّع عنها تصوُّر للحياة الزوجية وبنائها ورعايتها والحفاظ على التماسك الأسري. ومن هذه العقيدة تأتي شريعة تتابع جزئيات التفكير في الزواج والاستعداد له وحسن الاختيار وقواعد الخطبة النافعة والمنضبطة وكذلك حقوق الزوجين وواجباتهما ووسائل إقامة بيت السكن والمودة والرحمة، وتحمُّل مسئولية الرعاية المنزلية، وصولًا إلى أدوات مواجهة المشكلات التي ترد من أحد الزوجين أو من كليهما (**إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**) [النساء: ٣٥]، أو التفريق بينهما بمعروف وإحسان (**وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ**) [النساء: ١٣٠].

وفي ظل الحالة الراهنة، ينشأ الفتية والشباب من الجنسين وسط قيم وأوضاع وممارسات مختلطة من الدين ومن غيره، وممَّا يوافقه وممَّا يخالفه؛ الأمر الذي يكرّس فصامًا متعدِّد الجوانب: نفسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، يعاني منه الجميع. في هذا الإطار تتجلَّى أهمية التوعية بالجوانب الدينية والثقافة الشرعية اللازمة للمقبلين على الزواج في مراحله المختلفة. وسوف يتعرَّض الدليل لذلك في كل مرحلة تالية، وفي هذا المقام نستعرض ما يحتاجه الشباب المفكر في الزواج من معرفة وممارسات شرعية ينبغي أن يستعد بها لبناء بيت طيب ومتين.

فالشاب والفتاة يحتاجان لتجديد أصول وأركان الإسلام أولًا؛ كل منهما في نفسه قبل أن ينتظرها من غيره؛ وكذلك استكمال توجيهات الشريعة فيما يتعلق بالأهلية الزواجية بمعنى أن يكون أهلًا لأن يتزوج (ولأن تتزوج) وليتحقق فيهما قول الله تعالى: (**الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**) [النور: ٢٦]، ومن هذه الأصول والتعاليم نركز على ما يلي:

أولًا– بناء الأركان

لا إسلام لمن لا صلاة له، ومن ثم لا حياة طيبة بغير أن يقيم المرء الصلاة. والصلاة هي جوهر الإسلام بحيث إن من يتركها تركًا تامًّا أو يهمل فيها يشعر أنه فاقد لهُويته الإيمانية وغير موصول بالله تبارك وتعالى. فعلى كلِّ شابٍّ في سن التفكير في الزواج أو الإقبال عليه أن يتدبَّر هذا الأمر. ويمكن القول إن الشريعة الإسلامية تلمح إلى أنه لا قيمة للزواج مع ترك الصلاة، ولا معنى لبناء بيت بينما قلب ساكنيه فارغ من الإيمان أو يكاد يخلو منه بإهمال الصلاة.

ويتعلق بذلك إتيان بقية الفروض والتعاليم النفسية الإسلامية من صيام رمضان وتلاوة القرآن وكثرة الذكر والمعرفة الأساسية بالسنة النبوية، فإن صُحبة القرآن تُرَقِّي النفس والعقل، ومعرفة النبي صلى الله عليه وسلم تسْمو بالأخلاق، وكثرة الذكر تُحيي الروح وتصفيها من منغِّصات الحياة، والشباب الخالي من هذه

المعرفة والأعمال أو المقصِّر فيها يحتاج لأن ينتهز فرصة الإقبال على الزواج لكي يجدِّد العهد مع الله تعالى ومع النفس لكي يكون مؤدِّيًا لفروضه الدينية ومتَّصلًا بالله تعالى الذي يرجو منه الهداية للصواب والبركة في الرزق والعون في حسن الاختيار وأن يُحْيِيَهُ حياةً طيبة.

ثانيًا– أخلاق وقيم ما قبل الزواج

الزواج مرحلة مهمة في حياة الإنسان، لكن قيمه وأخلاقه تتشكَّل قبل الزواج؛ ومن ثم ينبغي لمن يفكِّر في الزواج أو يقبل على اتخاذ قراره أن يراجع منظومة قيمه ومدى أهليَّتها لإقامة حياة زوجية ناجحة. وهذه القيم التي تُؤسس بها الأسرة ليست خافية ولا غامضة، لكنها تتعرَّض لكثير من التشويش والتشويه، في عصر طغت فيه المادية المتوحِّشة، وتجرأ كثيرون على الاستهانة بالأخلاق واعتبارها عادات قديمة أو أمارات ضعف وقلة حيلة.

ينبغي لمن يفكِّر في بيت متين الأساس أن يؤسِّسه على الصدق، فالصدق يهدي إلى البر فالجنة، وأن يتجنَّب الكذب، فالكذب لا يصل بصاحبه إلَّا إلى مزيد من الكذب فالفجور فالنار. والصدق يستدعي الشجاعة الأدبية والقدرة على الإفصاح عما في النفس بكل وضوح دون خوف من لومة لائم. والشجاعة قرينة العدل والإنصاف؛ فالشجاع يقول الحق ولو كان مُرًّا، ويكره الظلم مهما جرى تبريره بمصالح معينة.

ومنظومة القيم واسعة وتتجلَّى في كلِّ المواقف والأحوال، ومنبعها التربية المنزلية والتنشئة الاجتماعية في المؤسسات المختلفة من المسجد (أو سائر المعابد لغير المسلمين) والمدرسة والجامعة والنادي ووسائل الإعلام التقليدية والجديدة. كل هذه تبث قيما على رأسها الموقف من الأخلاق نفسها ومدى أهميتها في تكوين الإنسان. ولكن الشأن الزواجي يحتاج إلى التركيز على هذه الأخلاق كأولوية بالإضافة إلى ما سبق:

العفاف والاستعفاف: وهو أساس الإقبال على الزواج. فيفترض في المتقدم للزواج أنه يريد أولا أن يعف نفسه وأنه هارب من الحرام إلى الحلال، وأنه ينتظر ذلك في بيته وفي شريك حياته. والإنسان العفيف لا ينظر خارج حقه، لا في مال ولا عرض ولا يسمح بذلك في معيشته. ولا يلزم أن يولد الإنسان عفيفًا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ). ومعنى الاستعفاف مجاهدة النفس المستشرفة الناظرة لما لا يحل لها لكي تتعوَّد غضَّ البصر بل غضَّ النفس والفكر عن المحرمات.

الحلم والتحلُّم: وهو قرين الصبر المشار إليه؛ ويعني عدم المسارعة إلى الغضب فيما لم يستوعبه وما لا يجد سببًا له يستوجبه. فالحليم خلاف الغضوب، والغضوب هو ما يعرف بالعصبي الذي لا يملك نفسه

عند الغضب ويمكن أن يفعل أي شيء حال غضبه. والمقبل على الزواج لا يصح له أن يقول: أنا عصبي، وهو عيب لا يمكن أن أتخلص منه، أو أنا جزوع عند المشكلات ولا أملك نفسي وعلى من سيتزوجني أن يقبل بي على هذه الحال. فكثير من البيوت شَقِيَتْ وربما خَرِبَتْ بسبب هذه الأخلاق غير الحميدة.

عدم الكبر: فالكبر آفة النفس والعلاقات الإنسانية، وهي من أسوأ السيئات وأكبر الكبائر. فالمتكبر أعمى لا يرى إلَّا نفسه، ويراها بعدسة مضخمة على غير الحقيقة، وفي الوقت ذاته يرى غيره صغيرًا ضئيلًا لا يساويه ولا يُدانيه. وهذا لا يقوم به بيت عامر ولا زواج صحيح؛ إذ إنه متفرِّد في نفسه ويقيم العراقيل الذهنية والنفسية أمام الزوجية والمشاركة والحقوق المتبادلة والعناية المشتركة بشئون الحياة. يصعب التوافق مع المتكبر إلَّا بالتصاغر له أو التكبُّر على تكبُّره، وكلا الأمرين ضد الزوجية والحياة المشتركة. وكذلك يصعب إرضاء المتكبر أو إثنائه عن خطأ يرتكبه أو إخضاعه لحكم في خلاف يقع بينه وبين غيره.

وفي مقابل ذلك تأتي فضيلة التواضع التي تحمل معنى السكينة والرحمة بالغير، وإظهار النفس صغيرة لكي يأنس بها الآخر، وعدم التعالي بما يملك المرء من عقل وذكاء أو شجاعة وإقدام، أو مال وممتلكات، أو حسب ونسب، أو جمال ووسامة.. إلى آخر هذه الأمور التي ينخدع بها قصار الأنظار.

ثالثًا– حقوق الزوجية

ومن المعاني التي ينبغي التربية عليها وتنشئة الإنسان المقبل على الحياة عليها؛ الحقانية؛ أي مراعاة حقوق الآخرين من تلقاء النفس وبغير إكراه من الغير. فالإنسان إما يميل إلى الحق والقصد وإما يميل إلى الباطل والضلال، والنفس المائلة للحق والحقيقة هي التي يسهل عليها أداء الأمانات والوفاء بالعهود وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وتقابلها النفس الأمَّارة بالسوء التي تُزَيِّنُ لصاحبها التعدِّي على حقوق الغير أو اغتصابها أو حرمانه منها مع القدرة على ذلك.

إن العمود للزواج الناجح والبيت السعيد هو الوفاء بالحقوق المتبادلة بين شريكي الحياة، وهذا هو الأساس الملموس في العلاقات الزوجية؛ والتعدِّي فيه يهز بقسوة ما يعلوه من قيم التراحم والتواد والتعاطف والتشارك، ويردُّنا إلى خطوط دفاع متأخِّرة تتعلَّق بالحقوق المادية والمعنوية.

وعلى الشباب أن يتأهَّلوا للزواج بدورات شرعية أو برامج تعلُّم وتثقيف فيما يتعلق بالحقوق المتبادلة والمتقابلة بين الزوجين، وكذا حقوق الأهل، وحقوق الأبناء من بعد بل وحقوق الخطبة وأطرافها من البداية. هذه الثقافة أساسية في السن المبكرة وهي ليست عسيرة.

ومن أول حقوق الزوجية احترام الزوج لزوجته وإكرامه لها بل تلطفه معها –كما سيأتي في قسم الحياة الزوجية– ومن ثم لا يقبل أبدًا من يفكِّر ابتداءً في إهانة زوجته أو الاستهانة بقدرها. ويقابل ذلك حق

القوامة للرجل على زوجته وأن تتواضع له وتطيعه فيما يأمرها من معروف، لا أن تكون العلاقة بينهما قائمة على الندية المتنازعة. فالمساواة التكاملية الشرعية غير نزعة الندية التي تضرب الرأسين أحدهما بالآخر.

ومن حقوق الزوجية النفقة من الرجل على المرأة، وإذا كان عصرنا يسمح بعمل المرأة بأجر وقد يتفق الزوجان على التشارك والتعاون، فلا ضير طالما كانا متفقين، لكن هذا لا يلغي الأصل الأول ولا يحل أصلًا يخالفه؛ كأن يتَّفقا على أن تنفق المرأة عليه بصفة دائمة وأساسية، أو أن يمنع المرأة من ترك العمل ويجبرها على الإنفاق معه، فهذا مما انعكست به الأوضاع، وغاب عن الناس الموقف الشرعي فيه وضاع. وإلى الله المرجع والمصير.

ومن الثقافة الدينية التي يحتاجها المقبلون على الزواج ذكورا وإناثا، أن يتعلموا بعض أحكام النكاح وأحكام الطلاق وما يتعلق بهما.

أما النكاح فهو عقد مقدس، جعل الله له شروطًا وأركانًا، وهو مؤسسة لها قيم ومبادئ تقوم عليها في ظل الشرع الحكيم. ولا تقوم تلك المؤسسة بدون تلك القيم والمبادئ التأسيسية. كما أن هذا العقد يرتِّب حقوقًا لكلٍّ من طرفيه، ويلزم كلًّا منهما في مقابل تلك الحقوق بواجبات مماثلة، والحق هنا نابع من العقد ذاته بمقتضى الشرع، فلا يملك قانون أو إنسان أن يجرِّد هذا العقد ممَّا يترتب عليه من حقوق أو واجبات كلها أو بعضها. فمن جهل تلك الحقوق، ربما ضيَّعها أو على الأقل لم يؤدِّها وافية كما أمر الله تعالى.

وأما تعلُّم أحكام الطلاق، فلأن سنة الحياة أن البيوت لا تخلو من مشكلات ومنغِّصات، فمن لم يعلم أحكام الطلاق وألفاظه، ربما تكلَّم بكلمات ذات صلة بالطلاق، يترتَّب عليها أحكامه، وهو لا يدري. وربما بعض الزوجات يدفعن أزواجهن إلى التلفُّظ بكلمات لها صلة بالطلاق، أو يتصرَّفن تصرفات تستوجب طلاقًا، دون أن تدري. لذا كان الواجب على كل شاب وفتاة مقبل على الزواج أن يتعلم أحكام الزواج والطلاق وما يتعلق بهما. ومما يجب تعليمه للمقبلين على الزواج أن الطلاق شيء بغيض، ويشتد البغض عندما يكون هناك أولاد، لأن ضرره يتجاوزهما إلى الأبرياء! ومن ثم يجب أن يتعلموا أن الوقاية خير من العلاج، وأن استدامة الحياة الزوجية أولى من تعريضها للانقطاع ثم مواجهة الآثار السيئة للطلاق. وهذه الاستدامة لا تتوفر إلَّا مع الإيمان الحق والإخلاص الطاهر واكتفاء الرجل بزوجته التي يسرها القدر له، وكذلك رضاء المرأة بزوجها وحسن رعايتها له. وهذه هي العناصر المستفادة من قوله تعالى في صفة عباد الرحمن **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)** [الفرقان: ٧٤].

فينبغي أن يُرَبَّى المقبلون على الزواج على أن الأصل في الزواج التأبيد، أي لا وجود فيه للطلاق، وأن الطلاق تشريع استثنائي وحلٌّ لحالات خاصة جدًّا، فليس هو انتقامًا، ولا تشفيًا، ولا إظهارًا للرجولة، ولا هروبًا من مواجهة المسؤولية. فهو أمر يحتاج إلى طول تفكُّر وتدبُّر، وترتيب واستشارة، وهذا هو الأصل

الشرعي فيه. أما أن يستخدمه السفهاء والمتهورون لأشياء تافهة لا قيمة لها، ولا يستشيرون ولا يراجعون من يوثق بعقله وعلمه، فهؤلاء مؤاخذون ويرتكبون إثمًا، رجالًا كانوا أو نساء.

رابعا – فنون الحياة الطيبة

والشرع لا يدل فقط على مواعظ ونصائح نظرية، بل إن سيرة الأخيار من الأنبياء ومن تبعهم تدل على أهمية التعلم والتدرب والنظر في الخبرات. فإقامة الحياة الطيبة اتِّباع لأصول من جهة وتعلُّم لفنون من الجهة الأخرى، ومنها تعلُّم ثقافة المسئولية من الآباء إلى الأبناء ومن الأمهات إلى بناتهن، ومنها أيضًا ثقافة جنسية أساسية بطريقة تحفظ قيم العفاف والمروءة على كل من الشاب والفتاة، وغير ذلك من ثقافات اجتماعية وشخصية تتضمَّن فنون التعامل مع الزوج/الزوجة، ونذكر منها مثالين:

أ– تعلم ثقافة المسؤولية وقبول الاختلاف:

لا بدَّ أن يعلم المقبلون على الزواج أن الزواج يتطلَّب من طرفيه تحمُّل المسؤولية وقبول الاختلاف بين أطرافه وتجاوز صعوبات السنوات الأولى للزواج. فالزواج مسؤولية، مأجور من قام بحقها، مأزور من ضيَّعها:

ربما توهَّم البعض أن الزواج هو فقط الباب للمتعة والرفاهية الخالية من الأعباء والمسئوليات، ولكن حقيقة الزواج أنه متعة وراحة وأيضًا مسؤولية يقوم بها كل من الزوجين. فالله سبحانه وتعالى قد نادى المؤمنين فقال لهم: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**) [التحريم: ٦]، ومن الآية يظهر أن من حق النفس على صاحبها أن يقيها نار جهنم، فإذا تزوج المرء زاد عليه حق وواجب آخر هو أن يَقِيَ أهله (أي زوجته وأولاده ومن في ولايته) النار كما يجب عليه أن يَقِيَ نفسه منها. كما أن الزوجة والأولاد يصيرون من رعية الرجل، الذين يجب عليه أن يقوم على أمرهم رعاية وإصلاحًا.

وكذا الفتاة مقبلة على أن تكون امرأة وتصير راعية في بيت زوجها، فيجب عليها إصلاح شأنه والعناية به وبمن يكون بينهما من أولاد. وفي الحيث الشريف: (**كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها**..).

ومن أعظم الذنوب أن يضيع الرجل مسؤولية بيته، وأن تضيع المرأة مسؤولية بيتها. فقد قال –صلى الله عليه وسلم– "كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يعول".

وتحمل المسؤوليات وأداؤها يتطلب مؤهلات يتمتع بها الشخص؛ فمن لم يجد في نفسه تلك المؤهلات، فالأولى ليس أن يعيش عزبًا، بل أن يتأهَّل لاكتساب مؤهلات الزواج والحياة الأسرية.

ومن ناحية أخرى فإن الاختلاف سنة من سنن الله تعالى في كونه، وعلى هذا الاختلاف قامت الحياة الدنيا، قال الله تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ● إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) [هود: ١١٨-١١٩] ومن ثم فمن سنن الكون وطريقته عدم اتحاد الناس في أحوالهم كلها. والبشر أجناس وطبائع مختلفة ومتنوعة، والاختلاف بين الأخوين أبناء الأم والأب الواحد، بل وبين التوأمين المتماثلين، أمر معلوم. فكيف بالاختلاف بين ذكر وأنثى لم يجتمعا تحت سقف واحد من قبل، لهذا لا بدَّ أن يتهيَّأ الخاطبان نفسيًّا ليتقبَّل كلٌّ منهما الآخر على حاله، ثم هما يسعيان مع مرور أيام حياتهما الزوجية إلى التقارب ومزيد من التفاهم.

ب- تعلم ثقافة جنسية صحيحة:

ومن الأمور الواجب على الطرفين الإلمام بها الثقافة الجنسية الصحيحة التي من خلالها يمكن أن يتحقَّق مقصود النكاح بينهما في قضاء الوطر على نحو يَسْتَعِفُّ به الطرفان. فالواقع أن أمر العلاقة الحميمية بين الزوجين من الأمور التي تبدأ من الليلة الأولى للزواج وتلازمهما طيلة حياتهما غالبًا، ومن ثم فإذا لم يقدِّم لكلٍّ منهما ما يجب أن يعلمه عن هذا الأمر، من جميع نواحيه: الشرعية، والعلمية، والمجتمعية، ونحو ذلك، فالغالب أن ذلك سيؤدِّي إلى ظهور المشكلات، ويصدع كيان الأسرة في القريب العاجل أو البعيد.

والسؤال الذي تلح الحاجة إلى الجواب عنه هنا: هل الحياء المأمور به شرعًا يتنافى مع تعلم الأمور الجنسية؟

فمن التصورات الخاطئة عند كثيرٍ من الناس أن خلق الحياء يمنع المسلم من أن يخوض في أي حديث يتَّصل بأمور الجنس وأن التربية الجيدة السليمة تفرض على صاحبها اجتناب التعرُّض لأي أمر من هذا القبيل، سواء أكان ذلك بالسؤال إذا اشتدَّت حاجتنا إلى سؤال أو بالجواب إن طلب منا الجواب أو بالمشاركة في مناقشة هامة وجادَّة. فهذا الخطأ منشأُه الجهل بهدي نبينا الكريم –صلى الله عليه وسلم– الذي علم أمَّته آداب كلِّ شيء، ومن بينها ما يهم العلاقة الحميمة بين الزوجين.

فينبغي على الآباء والأمهات أن يحرصوا على أن يحصلوا على قدر مناسب من الثقافة الرشيدة فيما يتَّصل بالتربية الجنسية، وذلك من خلال مطالعة بعض الكتب العلمية في مجال التربية الجنسية، وحضور بعض الندوات التي تجمع بين أخصائيِّين في الطب وعلم الاجتماع وعلم النفس، وقبل هذا كله أن يتعلَّموا الآداب الشرعية في هذا الشأن.

وينبغي أن يعلم الآباء والأمهات أن التعتيم وإغلاق الافواه لا يحقق استقامة الأبناء بل هو يفتح الباب على مصراعيه لمعلومات خاطئة أو مغرضة من مصادر غير موثوق بها، كزملاء أو زميلات أو خدم أو كتب مضلِّلة أو مواقع مشبوهة أو غير موثوقة.

فالشباب والفتيات المقبلون على الزواج، لا شك في الحاجة إلى أن يتعلموا الأمور الجنسية بصورة صحيحة؛ وذلك في ظل الخطر الداهم من وراء مافيا المنشطات الجنسية، والتي غزت البيوت جميعها، من خلال التلفاز ومواقع الإنترنت، وملأت إعلاناتها الشوارع بشكل لا يُرَاعَى فيه أدنى معاني القيم أو الحياء، إن اللواط والسحاق والممارسات الجماعية للجنس والأفلام الجنسية الفاضحة، والصور الخليعة... إلخ كل هذه وغيرها أصبحت خطرًا يهدِّد مجتمعاتنا، بل والعالم بأسره.

الباب الثاني

محطة اختيار شريك الحياة

الفصل الأول

مفهوم الاختيار الزواجي ومنظوراته

اختيار شريك الحياة واحد من أهم الاختيارات في حياة كل إنسان؛ ولذا يتوقَّف عنده الناس كثيرًا، وقد يتحيَّر البعض في هذا الاختيار ويستغرق منه التفكير الداخلي وقتًا طويلًا ليس لأنه لا يجد من يناسبه للزواج ولكن غالبًا لأنه لا يملك وضوحًا لمعنى هذا التناسب، وهذا ما يستلزم توجيهات أساسية تؤدِّي إلى الجمع بين أكثر من بُعد للاختيار بحيث لا يتم تغليب زاوية على ما عداها.

مفهوم اختيار شريك الحياة:

ليس المقصود باختيار شريك الحياة مجرد التحديد؛ أي تحديد الشاب لفتاة يريدها هكذا بغير رُؤْيَة ولا رَوِيّة؛ إما لأنها المتاحة أو أنه استحسنها بظاهر النظر، ولا العكس: ليس الاختيار هو قبول الفتاة بأي شاب يطرق بابها هكذا بغير نظر في سماته الشخصية وظروفه الاجتماعية، فهذا استهواء أشبه بالإكراه الناعم أو الإغراء الخادع أو القرارات العمياء.

وكثير من الأزواج غير الناجحين يردِّدون أنهم أساءوا الاختيار أو أن الوالدين أساءا الاختيار لابنهما أو ابنتهما، ولكن مع التدقيق قد نلحظ أنهم لم يمارسوا الاختيار أصلا، وهذا يعني أن العناية باختيار شريك الحياة تردُّنا إلى مناهجنا في التفكير واتخاذ القرارات بصفة عامة، خاصةً في بيئة تتمسَّح خطأ في مقولات: النصيب، والقسمة، والحظ، والقدر، وهي أقوال حق لكن يراد بها التغطية على خيبات!

المقصود باختيار شريك الحياة -في هذا الدليل- **عملية مركبة ومرتَّبة من خطوات؛ يسبقها فكر عن معايير مسبقة واضحة للزوج المناسب (أو الزوجة المناسبة)، وتبدأ بالنظر في مدى تحقُّق هذه المعايير لدى الطرف الآخر، والتعرُّف على الطبائع والقيم وطرق التفكير، وصولًا إلى موازنة السمات الشخصية والظروف الاجتماعية والمادية قبل اتخاذ قرار الارتباط باعتبار أنه مناسب لها وأنها مناسبة له.**

وأساس هذا المفهوم هو قول الله تعالى (**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**) [النور: ٢٦]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (**إذا خطب أحدكم امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما**)، وهذا النظر لا يتعلق فقط بملاحظة الجمال من أجل القبول الشكلي، ولكنه قابل للتوسيع إلى النظر في الحال والهيئة والأهل والتفكر في دلالة ذلك كله على من سيختارها للزواج. وكذلك يفعل أهل الفتاة أو الفتاة إن استطاعت، ثم بعد قرار الارتباط الأوَّلي للخطيبين وأهليهما أن يستكملوا ذلك ويتحقَّقوا منه في فترة الخطبة.

أ) نظريات الاختيار الوضعية:

في مرحلة ما قبل تكوين الأسرة يتم طرح أسئلة غاية في الأهمية؛ مثل:

من أين نستقي معايير اختيار زوج/زوجة المستقبل؟

أي هذه المعايير تكون له الأولوية وأيها يمكن التنازل عنه؟

كيف سينظر الطرف الآخر إلى اختياري له؟

كيف ينبغي أن أرتب معادلة اختياري الخاصة بي وتكون واضحة أمامي؟

في هذا الصدد هناك عدة نظريات اجتماعية حاولت تفسير أهم عوامل الاختيار الشائعة وما يترتب عليها من آثار؛ ومن أهمها:

١ – نظرية التجانس/المجانسة:

تُركز هذه النظرية على فكرة أن الشبيه يتزوَّج بشبيهه، وأن التجانُس هو الذي يُفسِّر اختيار الأفراد بعضهم لبعض من أجل الزواج. ويكون التشابه والتجانس في الخصال الاجتماعية والسمات النفسية والفكرية وربما الجسمية؛ الأمر الذي يتوقَّع الشريكان أن يترتَّب عليه مزيد من التفاهم بينهما، وأن ينعكس على حالة الاستقرار الأُسري بعد الزواج[١٢٦]. ويمكن تعريف **الاختيار بالتجانس** بأنه ميل الشخص – شعوريًّا ولاشعوريًّا– لاختيار شريك تتشابه خصائصهما سويًّا.

ويتَّفق أغلب الباحثين الاجتماعيِّين على أن **المجانسة الزوجية** هي معيار رئيسي في المجتمعات المختلفة، فالفرد عادة ما يقع اختياره على من يستشعر فيه أنه أكثر تجانسًا معه، وبالتالي يقلُّ الإقبال على الزواج مع تزايد أوجه الفروق بين الفرد ومن حوله أو يبحث بينهم عن شريكه.

ومن أهم أنواع المجانسة: **التجانس العمري، والتجانس الفكري والتعليمي، والمجانسة في التدين، والتجانس المكاني أو السكني، والمجانسة في المستوى الاجتماعي.**

ومن المهم أن نَعِي شرط التكافؤ في الفقه الإسلامي؛ وهو يتَّسع لمفهوم المجانسة والتكامل معها، كأساس للاختيار بين الأزواج؛ ولكنه يُعلي الجوانب المعنوية كالخلق والدين ولا يغفل في الوقت نفسه التناسب المادي في المال والجمال والحسب؛ حتى لا تصبح مثل هذه المعايير مجالًا للنزاع مستقبلًا كتكبُّر غني على فقير، أو شعور غير ذي الحسب بالدونية أمام ذي الحسب لا سيما مع ضعف التكوين الديني والخلقي.

---

١٢٦ - ماهر فرحان، ٢٠١٦؛ الحسين حسن السيد، ٢٠١٥

٢- نظرية تكامل الحاجات:

تركّز هذه النظرية على وجود احتياجات تُحدد عملية الاختيار الزواجي، هذه الاحتياجات لا تُركّز على تشابه الشريك في الخصائص، ولكنها تُركّز على مدى توفُّر خصائص في شريك الحياة تشبع حاجات معيَّنة لديه، وكلما كان التوقُّع بالإشباع أكبر زادت الدافعية نحو اختياره كشريك في العلاقة الزواجية. وهذه الفرضية تتناقض مع نظرية التجانس؛ حيث تفترض هذه النظرية أن دوافع الاختيار الزواجي تكاملية أكثر منها تجانسية، وبالتالي فإن هذه النظرية تُركّز على دور الخصائص النفسية المغايرة أكثر من الخصائص الاجتماعية المتشابهة لدى الشريك كالتديُّن، ومستوى الدخل، والتعليم في عملية الاختيار الزواجي.

ويفترض أصحاب نظرية تكامل الحاجات وجود دوافع شعورية ولا شعورية، تدفع الشخص إلى اختيار الزوجة / الزوج التي تكمل حاجاته، وتشعره بالرضا، فالاختيار –من وجهة نظرهم- يقوم على أساس التغاير في السمات والخصائص وليس التشابه فيها، وعلى التكامل في الحاجات وليس التجانس فيها. فالشخص ينجذب نحو من يجد فيه ما يكمل ما ينقصه من خصائص؛ فالرجل الذي يميل إلى السيطرة يسعى إلى اختيار زوجة تتسم بالخضوع، والعكس في ذلك، والزوج الذي نشأ في أحضان أم متسلطة يقبل الزواج من امرأة مسيطرة، ويرضى بالخضوع لها فكل شخص يبحث عن الزوج الذي عنده القدرة على إشباع حاجاته النفسية أو يتوقع منه أن يقوم بالأدوار التي تكمل أدواره.

٣- نظرية المعايير:

تفترض هذه النظرية أن الاختيار الزواجي عملية إرادية تتم في ضوء معايير غالبًا ما يضعها المجتمع من حيث: السن، والمستوى الاقتصادي، والدين، والتعليم، والمكانة الاجتماعية، وغيرها بحيث تكون في ذهن الفرد المقبِل على الزواج معايير مُحددة عن مواصفات الطرف الآخر؛ بمعنى أن المجتمع حدد له ماهو مقبول وما هو مرفوض وعليه حينها التجاوب مع معايير المجتمع.

وتنقسم المعايير إلى ثلاثة أقسام؛ هي: العرف، المحرمات، والعادات.

من خلال عرض هذه النظريات يتضح تنوعها في نظرتها لدواعي الاختيار الزواجي. كما أن كل نظرية تُقدم تفسيرات لمعايير الاختيار الزواجي ترتبط إما بالفرد نفسه وبتكوينه النفسي والبيولوجي، أو بالمحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه، وبجماعته التي تؤثر في أفكاره واختياراته، ويكتسب من خلالها وجوده الاجتماعي. لكن عيبها الأساسي هو الاجتزاء وعدم البحث عن تفسير تكاملي.

وفي هذا الإطار سوف يساعد تكامل التفسيرات على تقديم فَهم أفضل لطبيعة الاختيار الزواجي وتأثيره في الفرد ومحيطه الاجتماعي، وعلى أوضاع الشباب وعلاقاتهم الزواجية وأدوارهم الأُسرية.

ب) النظرية التكاملية الاجتماعية في الاختيار:

لا توجد نظرية وضعية واحدة عامة وشاملة في علم الاجتماع تعالج قضية الاختيار، إنما هناك نظريات جزئية متعدِّدة تفسِّر الحقائق انطلاقًا من الأطر النظرية والفكرية التي تعتمدها، أما في الرؤية الإسلامية فإن ثمة منظومة عقيدية تشريعية أخلاقية كبيرة متماسكة ومتراتبة؛ ترتِّب للزواج مقاصد عالية منذ أن يكون فكرة أو مشروعًا تحت التأسيس، وللأزواج وظائف موصولة بالمقاصد، وللسلوك الزواجي قيمًا حاكمة وضابطة، وللحقوق والواجبات منظومة أحكام وتوجيهات واضحة وصريحة منها العام ومنها الخاص، وللاختلافات والتغيرات البيئية والزمانية والفكرية والحضارية قواعد للتعامل معها. هذه التركيبة تقدم رؤية واسعة ومركبة لقضية الاختيار ومعاييره وأسسه، غايتها جلب أكبر قدر من المصالح النفسية والاجتماعية والمادية، ودرء أكبر قدر من المفاسد على المستويات ذاتها.

وفي هذا الإطار يرشد الدين إلى أولوية حفظ الدين نفسه، والإسلام حين يرشد إلى أولوية حفظ الدين وما فيه من قيم وخُلق في معايير الاختيار إنما يقصد به الدين المتكامل لا مجرد الاسم والانتساب الشكلي؛ عملا بالمعنى التكاملي، وليس ذلك النموذج الذي يؤمن ببعض ويترك البعض الآخر. ويخص التوجيه الإسلامي من الدين حسن الخلق؛ الذي هو تعبير جامع عن حسن التفكير وحسن التعامل، قال صلى الله عليه وسلم في اختيار الزواج للزوجة: **(تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)**. وقال في المقابل من قبول الزوجة بالزوج: **(إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ)**.

وعلى هذا الأساس؛ فقد دعا الإسلام إلى حسن الاختيار والنظر والتبصُّر حتى يتحقَّق الرضا والقبول، كما بيَّن التشريع عددًا من المعايير الهامة التي ينبغي أن تُراعى عند البحث والتعارف والاختيار، ومن هذه الأبعاد:

١- أولوية البعد القيمي والأخلاقي في الاختيار:

جعل الإسلام الأخلاق والقيم الدينية أساس العلاقة الزوجية، فمع شدة القرب والتلازم والترابط بين الزوجين يكشف كل منهما للآخر ما لا يطلع عليه غيره، وكثرة الاحتكاك بعد الزواج قد تولد المشكلات؛ وهنا يأتي دور القيم الحاكمة والأخلاق الضابطة التي تهيء النفوس للتفاهم ولتقبُّل الحلول. فإن لم توجد الأخلاق والقيم التي تحمل النفس على الإنصاف ومراعاة الحقوق والواجبات وتحصِّنها من الانحراف، فلن تستقيم الحياة ولن تدوم في ظلِّ صراعات نفوس غير سويَّة.

٢- مراعاة البعد العاطفي في الاختيار:

مراعاة الجوانب العاطفية والقلبية بين الرجل والمرأة من الأسس الهامة في الاختيار، فبوادر المودة والرحمة، والألفة والمحبة، التي تتحرك في القلب مع الرؤية الأولى أو التعارف في البداية؛ وما يسمّيه الناس بـ"القبول المبدئي" و"الشعور بالراحة" تجاه الطرف الآخر، من الأشياء التي ينبغي العناية بها. لذا قال الله تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)** [الروم: ٢١]. فشعور الخاطب بنوع من السكينة وما يكمله من شعور المخطوبة بقدرٍ من الرضا يعتبر أساسًا في الاختيار يمهّد للأسس الأخرى. ولكن لا ينبغي أن يكون هذا هو الأساس الأول بل مكانه المستوى الثاني بعد السؤال عن الأخلاق والقيم التي تحكم كل طرف وبيئته.

٣- مراعاة البعد الجسدي في الاختيار:

الصحة الجسدية معيار مهم في الاختيار، يبدأ من لحظة التعارف والسؤال عن الطرف الآخر، فإذا عرف أن به بأسًا من مرض مُزمن أو مُعْدٍ أو مؤثّر على سير الحياة فلا يفضَّل أن يختاره زوجًا. فإن إصابة أحد الطرفين بمرض معيَّن منفِّر أو مُعْدٍ أو مُزمن قد يجعل الحياة معه صعبة الاستمرار؛ ومن ثم يتم تجنُّبه من البداية. ومن ذلك ما يتعلق بالعلاقة الحميمية.

إن إخفاء المرض على الطرف الآخر يعتبر من الغش في العقد وفي الحديث **(من غشنا فليس منا)**، فلا بدَّ أن يكون ذلك واضحًا بين الطرفين سواء كان بالمريض عاهة مستديمة، أو مرض جلدي في أماكن خفية من جسده، أو مرض مزمن كالسكري أو غيرها من الأمراض أو العيوب التي قد يُعاني منها الإنسان.

ولا يمنع ذلك من أن يتزوج المريض ولكن بناء على استكمال المعايير الأخرى؛ بحيث لا يكون الزواج وبالًا على الطرفين. فقد يكون الطرفان مريضين بأمراض مختلفة أو المرض ذاته ويريان ذلك من التناسب ولا يمنع الطب زواجهما. وقد يكون لمزيد حب وعاطفة خاصة، أو لتحلّي الطرف المريض بأخلاق عالية وتديُّن صادق أو جمال باهر أو ما إليه مما تنعدل معه كفة الاختيار.

٤- مراعاة البعد الاجتماعي الاختيار:

البعد الاجتماعي من الأبعاد الهامة التي يجب أن ينظر إليها الرجل والمرأة بشكل جيد عند اختيار شريك حياته؛ لأن الإنسان هو ابن بيئته التي نشأ وترعرع فيها، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)**.

فلا بدَّ من النظر إلى أسرة الرجل وأسرة المرأة بشكل جيد؛ إذ تلعب أسرة المنشأ دورًا مهمًّا في تشكيل شخصية شريك الحياة، فالشخص الذي عاش في جو أسري هادئ ودافئ في حضن أبوين متحابَّين متآلفين، ومع إخوة وأخوات يتعلم معهم وبهم معنى العيش مع آخرين، هذا الشخص نتوقَّع نجاحه أكثر في الحياة الزوجية؛ لأن نموذج الأسرة بكل أركانها يكون مطبوعًا في برنامجه العقلي والوجداني، فهو أكثر قدرة على أن يُحِبَّ ويُحَبَّ، وأكثر قدرة على العيش المستقر الدائم مع شريك الحياة، وعلى العكس من ذلك نجد أن الشخص الذي رأى وعاش تجربة انفصال والديه وتفكُّك الأسرة؛ نجده أكثر قدرة على الهجر وعلى الانفصال عن شريكه؛ لأنه تعوَّد على الهجر وتعوَّد على الاستغناء عن الآخر، ولا يجد صعوبة في ذلك، كما أن نموذج الأسرة ليس واضحًا في عقله ووجدانه.

٥- مراعاة البعد الاقتصادي في الاختيار:

بعض الشباب يقدم على الزواج دون أن يكون لديه القدرة على الوفاء بتكاليف العيش، وقد انتشرت في القصص الرومانسية والأفلام والمسلسلات الدعوة للزواج دون أن يملك الإنسان أسبابه بدعوى الحب؛ مما يؤدِّي إلى تورُّط الشاب والفتاة في زيجة فاشلة تتكاثر عليهم فيها المشكلات والديون والأعباء، ويكون المصير في النهاية هو الطلاق، فليس بالمشاعر والعواطف فقط تُقام البيوت. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس، عندما ذكرت له أن معاوية وأبا جهم خطباها، قال: **(أما معاوية فصعلوك لا مال له)**؛ يعني لا تقبليه زوجا.

وليس معنى هذا أن تبالغ الأسر في الشروط المادية للزوج، كما هو واقع في بعض المجتمعات ومنها مجتمعنا المصري؛ إذ تركز الأسر على النواحي المادية فقط، دون النظر إلى أي بُعد آخر، لكن الأمر يجب أن يكون دون إفراط أو تفريط.

٦- البعد الجمالي في الاختيار:

يختلف مقياس الجمال عند الرجل عنه عند المرأة، فالرجل يهتم جدًّا بشكل المرأة وجاذبيتها، ويسحره جمال وجهها ورقة صوتها وكمال أنوثتها. أمَّا المرأة فالجمال عندها في الرجل أن تشاهده رجلًا في طباعه وأخلاقه وتصرفاته قبل شكله؛ أي تستطيع أن تعتمد عليه وتشعر عند الاقتران به أنَّه أهل لحمايتها، وتلمس الأمن عنده، فهذا هو الجمال الأساسي في عين المرأة. صحيحٌ أن جمال الشكل ووفرة المال مهم عندها أيضًا وخاصة في هذا العصر، ولكن الأولوية لأمر آخر تحتاجه ليسدَّ النقص عندها، وتستمر الحياة بتكاملهما.

الفصل الثاني
واقع الاختيار وأنماطه

إن اختيار شريك الحياة كأول وأهم مرحلة تسبق الزواج، تتضمَّن خطوات ترتبط عادة بثقافة المجتمع، وتتأثَّر بالرؤية الشخصية والمعايير الاجتماعية، وهو أمر ينطبق على الإناث والذكور، حين يعلنون موقفهم بالموافقة أو الرفض على شريك الحياة، وتختلف أساليب الاختيار الزواجي بحسب ثقافة كل مجتمع.

أ) واقع الاختيار في المجتمع

يميز علماء الاجتماع بين نوعين من المجتمعات في اختيار شريك الحياة: المجتمعات ذات التوجه الجمعي، والمجتمعات ذات الاتجاه الفردي، ويختلف هذان النوعان في مسألتين: الاختلاف الأول يعود إلى الدور الذي يلعبه الأقارب وخاصة الوالدين في عملية اختيار الزوجة أو قبول الزوج، والاختلاف الثاني يعود إلى رؤية هذه المجتمعات دور الحب في الاختيار للزواج.

ففي المجتمعات ذات الاتجاه الجمعي يلعب الوالدان وكبار السن من الأقارب دورا رئيسيًّا –وربما الدور الرئيسي– في عملية الاختيار، فهذه المجتمعات تُولِي أهمية كبيرة لمفهوم الأسرة وخاصة الأسرة الممتدة، وتشجِّع تأسيسها وديمومتها وفق منظومتها الثقافية والاجتماعية، حيث يقوم الزواج نفسه بتوطيد العلاقات بين التكوينات المختلفة لهذه المجتمعات؛ لذا لا يشجعون الزواج القائم على الحب ولا يشترطونه؛ بل يحبِّذون الزواج القائم على روابط القربى والنسب، ويُراعون في الأغلب ما تتمتَّع به الفتاة من معايير شخصية؛ كالأخلاق الحميدة والطاعة لأهلها، وأيضًا ما تجيده من مهارات منزلية؛ فضلًا عن مظهرها الخارجي، وفي المقابل يراعي أهل الفتاة معايير في المتقدِّم لابنتهم من قبيل الوضع الاجتماعي والاقتصادي للشاب وعائلته، ومستوى دراسته، وإمكانياته في الحصول على دخل مناسب.

أما في المجتمعات ذات الاتجاه الفردي؛ كالمجتمعات الغربية والمتغربة على وجه التحديد، فيكون الاختيار أولا للشخص المعني بفرديته لا لأهله ولا لأهلها، فثمة معايير أخرى للاختيار لا تأخذ في اعتبارها سلطة الوالدين، ويتضاءل دور الأبوين فضلًا عن غيرهما من الأقارب بوصفه دورًا حاسمًا أو مرجِّحًا، لكن قد يكون دور الأصدقاء أكثر تأثيرًا. وتعتمد معايير الاختيار بالأساس على القبول الشخصي بين المقبلين على الزواج، وغالبًا تكون بينهما معرفة من قبل التفكير في الزواج أو من قبل المفاتحة فيه بفترة، ولا سلطان للأهل في هذه المعايير، فعملية الاختيار تستند بالأساس على ذاتية كل منهما وعلى رأسها مفهوم الحب. لكن الواقع في هذه المجتمعات يشهد أن المادية والجسدية والمظهرية والتأثر بالسياق المجتمعي والثقافي لها تأثير كبير على عقلية الاختيار غير مجرد الحب الرومانسي.

ومن الجدير بالذكر أن الحب (أو عشق الصورة) موجود على مدى التاريخ في المجتمعات المختلفة، ولكنه لم يكن أساس عملية الاختيار الزواجي في أغلب المجتمعات التقليدية، وإن كان من **إيجابيات الزواج القائم على الحب** أنه يترجح أن يزيد الالتزام بين الزوجين، ويمثل دافعًا للزواج في المجتمعات الغربية التي أصبح الإشباع الجسدي خيارًا متوافرًا ومتاحًا خارج منظومة الزواج، فظل معيار الحب هو الدافع نحو استمرارية العلاقة.

وفي المجتمعات العربية التي ما زالت في طور التحديث نجد نموذجين الاختيار: القائم على الاختيار الجمعي بالأساس، والمستند إلى قوة اختيار العائلة وتدخلها ومراعاتها للمعايير الاجتماعية والثقافية والطبقية المختلفة. فيحرص أغلب المقبلين على الزواج في هذه المجتمعات على الحصول على رضا الوالدين في خيار زواجه؛ سواء لكي يحصل على الدعم المادي أو الاحتفاظ بالسند الاجتماعي للتغلب على حالات التوتر أو الخلافات المتوقَّعة في إجراءات الزواج فيما بعد. ولكن طبقة المتعلمين من سكان المدن وخاصة خريجي الجامعات تتزايد عندهم ميول الانفرادية بدرجات متفاوتة وتنحو عملية الاختيار والبحث عن شريك الحياة لديهم إلى النمط الفردي وكذلك طرق التعارف وحال العلاقات قبل الخطبة.

أما الإسلام فقد وضع نظاما يجمع بين حسنيات الأمرين: الحرية والمسئولية الفردية، والدور والمسئولية الجماعية؛ حيث ينحو التشريع الإسلامي إلى حفظ التماسك الاجتماعي بكافة دوائره: الأسري، والمجتمعي، والقومي، والعقيدي، والإنساني. ومن ثم تأتي عملية بناء الأسرة جزءًا من هذه النزعة التكاملية، فتتأكَّد حرية وحق الشاب والفتاة في اختيار الشريك أو قبوله والرضا به، آخذًا في الاعتبار حالات التقلب والاضطراب الشعوري التي قد تعتري الشاب أو الفتاة، وتمنعه من تقييم اختياره على أسس أكثر موضوعية.

وفي الواقع المصري، يجب تنبيه الشباب المقبل على الزواج إلى أهمية أن تكون توقعاتهم وأحلامهم قبل الزواج قريبة من التصور الحقيقي للزواج. فقد كشفت دراسة هدفت إلى الكشف عن علاقة توقعات الشباب قبل الزواج وبعده بالتوافق الزواجي، وتوصلت نتائج الدراسة إلى وجود اختلاف في توقعات الشباب قبل الزواج عن الواقع بعده كمًّا وكيفًا في ضوء متغيرات (الجنس، والمستوى التعليمي، والمستوى الاقتصادي). وتوصَّلت الدراسة أيضًا إلى وجود علاقة ارتباطية سالبة بين كل من فرق التوقعات (قبل – بعد) الزواج وبين التوافق الزواجي[١٢٧].

ومن أمثلة التوقُّعات التي يكوِّنها الشباب في مرحلة الاختيار ويجب تصحيحها:

١) أنه يجب أن يكون كل شيء مشترك بين الزوجين، وأن أي اختلاف يُمثل عدم توافق للاختيار.
٢) أن الطرف الآخر هو المسؤول عن السعادة بشكل كامل، وهذا لا يمثل مسؤولية ثقيلة عليه.

١٢٧- سوزان محمد إسماعيل، ١٩٨٩

٣) أن الزوجين يجب أن يكونا دائمًا "في حالة من الحب"، وأنه من خلال الحب سيتم الحفاظ على الأُسرة والمنزل وتعزيز العلاقات بينهما[١٢٨].

٤) اعتبار الزوج أن الزواج شرٌّ لا بدَّ منه وأنه يتطلب تحمل المسؤولية والأعباء، وتربية الأبناء، والإنفاق فحسْب[١٢٩].

فالمعتقدات/التوقعات غير الواقعية من شأنها أن تُساعد في نشأة الاضطرابات والمشكلات الانفعالية والسلوكية، ومن ثَم التسرع في إنهاء خطوة اختيار شريك الحياة لمجرد التفكير بشكل غير واقعي حول بعض الأمور في هذه المرحلة. فيجب على الشخص دائمًا أن يختبر أفكاره ومعتقداته وربطها بالواقع؛ حتى يتسنَّى له التروي والتفكير ومن ثَم إتخاذ القرار الملائم.

ب)أنماط الاختيار

هناك عدة مداخل أو أنماط يتم على أساسها الاختيار للزواج في الواقع، وتختلف هذه الأنماط من شخص لآخر ومن أسرة لأخرى، ويجب أن يتم وضعها في الاعتبار لفهم الواقع ثم من أجل حُسن الاختيار بعد ذلك، وتتمثل في التالي:

١- **النمط العاطفي**: وفيه يكون الاختيار قائمًا على عاطفة حبٍّ قوية، لا تخضع للعقل أو المنطق. ويعتقد صاحب هذا النمط بأن الحُب وحده كافٍ لتخطي المشكلات وبناء حياة زوجية سعيدة؛ فبالتالي يصرُّ على رأيه ولا يستمع لنصائح الآخرين له، وغالبًا ما يكون شديد العناد في الدفاع عن اختياره أو بالأدق رغبته. وفي هذا النمط يكون الجانب العاطفي والشعوري هو الموجِّه الوحيد. والشخص العاطفي كثيرًا ما لا يستطيع التحكُّم في الانفعالات أو تحييدها نظرًا إلى غلبتها على شخصيَّته. وغالبًا ما يتم توجيه هذا النمط إلى ضرورة الاحتكام للعقل والموازنة بين العاطفة والعقل، وحساب مكاسب وخسائر الميل نحو العاطفة فقط حتي يتمكَّن من اتخاذ القرار السليم بشأن الزواج، ولكن هذا التوجيه عادة يلقى مقاومة داخلية تلقائية منه وربما يتحوَّل إلى منازعة ومعاندة ليكون شعاره: أنا حر / حرة، أنا من سيتزوج لا أنتم!!

ومن المعتاد أيضًا أن يتم توجيه هذا النمط بأن المشاعر بعد الزواج كثيرًا ما تصبح متذبذبة غير مستقرة بحُكم المسؤوليات وضغوط الحياة الزواجية، فإذا اعتمد الفرد على الجانب العاطفي في الاختيار ولم يحتكم مطلقًا إلى عقله وتفكيره –خاصة في أمور من شأن الزواج لا يُجدي معها سوى العقل والمنطق– فإمَّا ألَّا تسير بشكل إيجابي أو تنتظر حصول خسائر فيما بعد.

128 - Federal Occupational Health, 2018

١٢٩- سراي مهدي، ٢٠١٢

وهناك رأي آخر مفاده أنه لا يوجد حلٌّ آخر مع هذا النمط سوى تركه يخوض التجربة بنفسه، ومن ثم يتحمَّل مسؤولية هذا الاختيار ونتائجه، ولكن يجب الإشارة إلى أن هذا الرأي قد يؤدِّي إلى عواقب وخيمة على الطرفين مثل: الانفصال المبكِر بسبب أمور تافهة بعد ذهاب السكرة (الحب) وحلول الفكرة (العقل) كما يقولون. لكن هذا لا يعني أن العاطفة نقيض العقل، إنما يمكن بل يجب اجتماعهما عند الاختيار.

٢- **النمط العقلاني**: وهو –في مقابل السابق– يقوم على حسابات منطقية لخصال الطرف الآخر ومدى تناسُبها أو الرضاء عنها، وبالتالي فهو –في صورته البحتة– يخلو من الجوانب العاطفية حيث يركِّز على قضايا التكافؤ العقلي والنفسي والاجتماعي وربما الفكري العام وأسلوب التعامل من الشريك المحتمل ومن أهله، ويتحكَّم في عاطفته وانفعاله لكي يأتيا بعد نتيجة هذه المعادلة.

وهذا النمط تصعب مجادلته بخصوص الجانب العاطفي؛ لأنه غالبًا ما يتمتع بقدرة إقناعية عالية. فالمدخل المناسب له هو فَهم الفرد بشكل واضح بأن يتعرَّف عليه من خلال طريقة تفكيره ومعتقداته المعرفية لأنها هي التي سوف تحكُم سلوكه وانفعالاته، ويرى أن هذا ما يجب أن يهتم به كلٌّ من الطرفين؛ حيث من الأفضل في هذه المرحلة أن يتعرف كل طرف على النمط السائد على تفكير الآخر: هل هو سلبيٌّ مُشوَّه أو إيجابي مرن.

ويرى البعض أن وعي كلٍّ من الطرفين بطريقة التفكير المنطقية والمتعقِّلة سوف تصحبه أو تتبعه حياة وجدانية هادئة. ولكن كثيرين من الفتيات ومن الشباب يحذرون من هذا الاختيار الجاف ويرون أن البيت لن يختلف عن خارجه من أماكن العمل والملتقيات غير الزواجية، وأنه ما لم يتضمَّن الاختيار قبولًا نفسيًّا وشعورًا بالانجذاب أو على الأقل القبول القابل للتصاعد فإن الأفضل هو عدم الاختيار.

وهذا القول فيه قدر كبير من الحقيقة والأهمية؛ فإن التفكير العقلاني في تأسيس شركة أو اختيار وظيفة أو التفاوض على صفقة غيره عند بناء بيت أو اختيار شريك عيش واحد، ويجب الوعي عقليًّا ومنطقيًّا بهذا الفارق الذي يدور حول موضع العاطفة والحب من العلاقة محل التأسيس. ولذا فلا تعارض بين تفكير منطقي "زواجي" وبين تفكير عاطفي "مسئول" أو سيكون مسئولا عن بيت ومشاركة معيشية حميمة.

٣- **النمط الجسدي (الشهواني)**: ويقوم هذا النمط من الاختيار على الإعجاب بالمواصفات الشكلية للطرف الآخر مثل جمال الوجه أو جاذبية الجسد والهيئة، فهو عند الاختيار للزواج يقدِّم المعيار الجسدي قبل أيِّ شيء. وهذا النمط يغلب أن يكون لدى الرجال أكثر من النساء حيث يتَّجه

اهتمام المرأة أولا إلى المضمون المعنوي والمادي قبل الشكلي؛ ولكنها تدرك أن ذلك مطلوبٌ منها تجاه الرجل فيكون معيار الجسد مطلوبًا فيها لا منها، ويغلب على الفتيات العناية بأنفسهن وهيئاتهن من هذا القبيل.

وليس من الغريب أن يتَّجه اهتمام الشاب/الفتاة إلى الناحية الجسدية عند التفكير في الزواج والاختيار بالمعنى السابق طالما يضم هذا المعيار إلى المعايير الأخرى، لكن من المهم –كما سيرد– أن يتعمَّق فهم هذا المعيار وأنه لا يقتصر من الفتاة على الزينة الظاهرة وصناعة الجاذبية السطحية وحدها، ولا من الشاب على النظرة العابرة والتمتُّع بشهوة النظر وحسب.

النمط المصلحي المادي: وهو اختيار بهدف تحقيق مصلحة مادية أو اجتماعية أو وظيفية من خلال الارتباط بالطرف الآخر. ويتَّسم هذا النوع من الاختيار بالجمود دون اعتبار للمشاعر؛ حيث إنه قائم على المصالح فحسْب، فبمجرد انتهاء المصلحة أو توقُّف الحصول عليها بعد الزواج قد يحدُث الانفصال أو على الأقل تظهر كثير من المشكلات الزواجية والنفسية.

وهذا النمط يشبه العقلاني لكنه يركِّز على الأبعاد المادية، وهذا النمط لا يحتاج إلى اختيار زواجي لأنه عادة ما يبحث عن فريسة إذا كان الطمع من طرف واحد أو شريكه في صفقة إذا اتفق الطرفان.

٤- **النمط الاجتماعي والعائلي**: وهو زواج يقوم على التوافق الاجتماعي المتعارف عليه بين الناس من الناحية الثقافية الاجتماعية، والتوافق في المستويات، أو يُقصد به لَمُّ شمل العائلة، أو اتباع تقاليد معينة كالزواج من الأقارب؛ تنفيذًا لأوامر العائلة ومواصلة العادات السائدة. وهذا النوع من الزواج يكون أسهل بالنسبة للطرفين حيث تكون الاختيارات أمام كل طرف محدودة في الاختيار لشريك الحياة، ولكن هذا لا يعني أنه الأنسب لعواقبه من الناحية الجسدية والعقلية وغيرها.

وآفة هذا النمط ليست في تجاوبه الاجتماعي بقدر ما هي في سحقه للبعد الفردي، والأوْلى بلا شك هو الأبعاد الفردية ثم يليها أويصحبها الجانب العائلي والاجتماعي.

٥- **النمط الهروبي**: في هذا النمط نجد الفتاة مثلًا تَقْبَلُ أيَّ طارقٍ لبابِها هروبًا من قسوة الأهل أو الأب وسوء معاملتها، فلا تُفكِّر في الشخص المتقدِّم بقدر ما تُفكِّر في الهروب من الواقع المؤلم الذي تعيش فيه. وهذا النمط يكون مُميِّزًا للفتيات أكثر من الشباب. وقد نجد شابًّا لا يشعر بالسعادة في أسرته بين أبويه وإخوته لأسباب مادية أو سلوكية أو ثقافة سائدة فيسعى لفتح نافذة هروب عبر مشروع الزواج.

من المهم أن نتفهم هذه الأحوال وأن نراعيها ولكن من دون الخضوع لها. فالهروب أو الانسحاب له أصوله وينبغي ألا يكون الشخص فيه كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ فينبغي أن يُقَوَّمَ ضغطُ هذا الشعور بالدرجة التي تسمح له باختيار زواجي موزون. كما ينبغي للشاب أن يتدرب على فكرة الاختيار وصنع القرار تحت ضغط ما. وبالطبع يكون واحدًا من أهم معايير الاختيار لهذا النمط هو تحديد العلاقة مع أسرته السابقة؛ لأنه كثيرًا ما يعقب الهروب رغبة عكسية في الارتداد أو استدعاء الماضي.

٦- **النمط العشوائي: وهو قد يتقاطع مع أنماط سابقة** ولكن العشوائية كما سبق التأكيد تتعلَّق أساسًا بغياب المعيار أو تناثر المعايير بغير خيط ناظم، أو تحكيم الهوى أو تغيير المعايير كل لحظة، هذه الحالة تخرج الاختيار عن اسمه، وتجعله أقرب إلى عملية مقامرة أو لعبة طفولية؛ وغالبًا ما تكون نتائجه شديدة السوء والمفاجأة.

٧- **النمط المُتكامل**: وفيه يُرَاعِي الشخص عوامل متعدِّدة لنجاح الاختيار، كالعاطفة، والعقل، والجسد، والأبعاد المادية والاجتماعية. وهذا أفضل نمط للاختيار لأنه لا يعتمد الاعتماد الكامل على بُعد مُعَيَّن من دون التكامل بينه وبين الأبعاد الأخرى[١٣٠].

وبصفة عامة فإن النمط المتكامل يقدم الاختيار العقلاني ويصله بالاختيار العاطفي، ويراعي المعيار الجسدي والمعيار العائلي ويربطهما بالقيم والأصول الزواجية وبمراعاة ذاتية الشاب والفتاة، وفي الوقت ذاته يسعى النمط المتكامل لاستيعاب حالتي الاختيار الهروبي والمصلحي على أن يُعيد توجيههما، لكنه يرفض رفضًا باتًّا ومطلقا ما يسمى بالاختيار العشوائي إذ إنه في أصله يضاد وينفي مفهوم الاختيار ذاته.

ج) نحو تعارف جاد وهادف

يعتبر حسن التعارف بين طرفي الخطبة ومعرفة مدى التوافق والانسجام بينهما من أجل أن يتحقق للزواج المنشود الديمومة والنجاح والاستقرار، من الصعوبات التي تواجه كثيرا من المقبلين على الزواج في مجتمعاتنا المعاصرة؛ نظرا للسيال الفكري في المجتمع، والتفاوت الكبير في العادات والتقاليد في بعض البلدان، كما في القاهرة الكبرى مقارنة بالمحافظات الريفية على سبيل المثال.

ومن المهم في هذا الإطار أيضًا أن تتعارف العائلات وليس الشريكان فحسْب، خاصة في مجتمعات الاختيار الجمعي. ففكرة أن الزواج مسألة شخصية محضة وحسْب في ظل هذه البيئة هي فكرة خاطئة تمامًا، فالعائلات نفسها تتزاوج، ولا يمكن استئصال الشخص من عائلته مهما حدث. لذا فالزيارات العائلية ومد جسور الود المتبادل من الأمور الهامة، وهي مهمة في اختبار الاختيار لا سيما أثناء الخطبة؛

١٣٠- خلود محمد علي، ٢٠١٥.

لنرى كيف تتعامل العائلة وكيف نناقش بعض الأمور سويًّا، وكيف يتعامل كل من الخطيبين مع والدة شريكه المستقبلي، حتى يكون الاختيار على بيِّنة وبصيرة.

في إجادة التعارف وتلافي مشكلاته

ومما يوصى به في تعارف جاد وهادف:

أ. ألا نتسرَّع في الاختيار أو إبداء الرغبة في التعرُّف، وكذلك في الموافقة أو الرفض، قبل معرفة الشخص بشكل جيد والتأكُّد من أنه يتَّسم بالصفات الأساسية التي يرغب في توافرها في شريك حياته.

ب. أن نختار وسيطًا نعرفه جيدًا ويعرفنا جيدًا لكي يقوم بعملية الترشيح على وجه صحيح؛ وذلك لمحاولة التأكد من مدى ملاءمتهما كل منهما للآخر.

ت. أن يكون لدينا معلومات أولية عن الشخص المرشَّح لأنه من الممكن أن يكون غير مناسب من بابه كما يقولون (كأن يكون مثلًا أحدهما متحررا في أفكاره والآخر محافظ مختلف عنه)؛ ومن هنا لا يقبل ولا لزوم لأي إجراءات من الأصل، ففكرة الالتقاء مع أي شخص هكذا بدون سابق معرفة أو تعرُّف على حالِهِ مرهقةٌ للفتيات غالبًا وكذلك للشباب أحيانًا.

ث. في البيئات المتحرِّرة غالبًا ما تكون بين الطرفين علاقة سابقة وربما علاقة خاصة كالحب أو الإعجاب المتبادل، وينبغي عدم الإعلان عن العلاقة أو إشراك عدَّة أشخاص أو أطراف فيها، حتى لا يكون ذلك سببًا للتردُّد أو الاختلاف.

ج. في البيئات المحافظة: ينبغي أن نطلب عدَّة لقاءات وليس لقاءً واحدًا فمن غير المعقول أن يتعرَّف شخص على شخصيَّة جديدة ويقرِّر الزواج بها من جلسة، فالجلسات المتكرِّرة في حضور الأهل وبموافقتهم تيسِّر فكرة التعارف ويتدرج الأمر من قبول الشخص وأنه غير مرفوض، إلى الاهتمام ثم الإعجاب ثم تأتي مرحلة الحب لاحقًا. وهنا يكون القرار مبنيًّا على أساس سليم يشترك فيه العقل والقلب معًا واستشارة أهل الخبرة ومن يهتمون لأمرنا.

الفصل الثالث

أسس ومعايير الاختيار

يحتاج الاختيار الزواجي إلى تروٍّ وتعقُّل، واستشارة واستخارة، ولا يقبل فيه استئثار النزوة أو العاطفة أو الميل القلبي دون إشراك تلك العوامل الأخرى التي ينبغي البحث في توافرها.

وفي هذا الإطار ومن المنظور الاجتماعي التكاملي نشير إلى أهم المعايير والأسس التي يفضل —وربما يجب– أن يراعيها الشاب والفتاة بصفة العامة عند اختيار شريك الحياة.

أولًا– الصلاح والأخلاق

فلا خلاف أنه على الرجل/الشاب الصالح أن يبحث عن الزوجة الصالحة ذات الدين، وأن الفتاة الصالحة وأولياءها عليهم ألَّا يقبلوا إلَّا الإنسان الصالح الذي يرتضون خلقه ودينه، ولا يزوجوا ابنتهم ولا تقبل هي بسيء الخلق؛ قال الله تعالى: **(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)** [السجدة: ١٨].

فاختيار كلٍّ من الزوج والزوجة يجب أن يكون مبنيًّا أولًا على أساس الدين والخلق، ولا يصح ولا ينبغي التفريط في هذا الأساس بحالٍ من الأحوال.

ومن أهم الأخلاق: الحياء والإنصاف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن الحياء من الإيمان"، فالحياء مادة مهمة في المرأة، وإذا كان الحياء في الرجال جميلا فهو في النساء أجمل، وإذا كان الحياء في الرجال زَيْنًا فهو في النساء أزْين، وجمال المرأة في حيائها، وثمَّة فارق بين الخجل والحياء، فالحياء هو: انطواء في النفس يمنع من ارتكاب المحرمات أو المنهيات. والخجل هو: انطواء في النفس وضعف في الشخصية منبعهما الخوف، يمنعان صاحبهما من أخذ حقه. فالحياء محمود، وهو دليل قوة، والخجل مذموم، وهو دليل ضعف.

والحياء ليس مقصورًا على النساء والفتيات، إنما يعم معهن الرجال، وهذا أرجل الرجال صلى الله عليه وسلم كان يوصف بشدَّة الحياء حتى يقول عنه الصحابي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: **(كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أشد حياءً من العذراء في خِدْرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه)**. وحياء الرجل يظهر في تصرفاته أولا وعدم تجاوزه لحدوده مع الآخرين لا سيما النساء، وفي أسلوبه مع الأجانب عنه، وفي كلامه وحرصه على الكلام العفيف، وفي وجهه عند حدوث ما يخجل أو يستحيي منه.

أما الإنصاف فهو يكمل الحياء والتواضع بشجاعة الفكر والقول والتصرف، وهذا يقتضي تعلُّم قواعد العدل والميزان التي تقيم الوزن بالقسط.

ثانيًا– العائلة الطيبة أو ما يسمى بالحسب

الحسب: هو شرف الآباء والأجداد، والشرف والتقوى وسلامة الترابط الأسري، ومن أراد الزواج فعليه أن يبحث عن شريك حياته من معدن نفيس معروف بالعفَّة والأدب، ومن أسرة مترابطة متعاونة، لأن المرء ابن بيئته، سواء أكان ذكرًا أم أنثى. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة**). فهناك معدن نفيس، وغال، وصاف، ونقي من الشوائب، وآخر وضيع، مخلوط بالشوائب، ولا بدَّ عند اختيار الأسرة من أن تكون سمتها العامة الشرف والصلاح وسلامة البنية الأسرية. فالأسر ذات المعدن النفيس تربي أولادها على الصفاء والنقاء واحترام ميثاق الزواج، وتدور بينهم أحاديث وكلمات يعلِّمها الأجداد للآباء، والآباء للأبناء، تورثهم المجد والحسب.

فلينظر المقبل على الزواج في أخبار إخوة الطرف الآخر وأسرته، ما هي أحوالهم؟ وما أوضاعهم؟ ما أخبار الوالدين والأعمام والأخوال؟ وكيف ترابط الأسرة وتحابها؟

ثالثًا– الجمال

الإنسان مجبول بفطرته على حب الجمال والميل إليه والرغبة فيه. ولم ينكر الإسلام أن يكون الجمال من مرغبات الزواج، وإنما ينكر الشرع أن يكون الجمال وحده، أو في غيبة الدين والخلق هو المرغب والدافع في الزواج. فقد قال صلى الله عليه وسلم: (**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**).

فينبغي ألَّا يتعارض الجمال مع الدين والخلق، فإذا تعارض فلا قيمة له. ولا مانع أن يجتمع مع الدين، المال أو غيره من الجمال والحسب وغير ذلك.

ومن جملة جمال الرجل والمرأة النظافة: فالنظافة في الإسلام عبادة وقربة من الله تعالى، ففي الحديث: (**إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحبوا الجود فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود**).

والإنسان السوي يحب النظافة، ومن أكثر ما يزعج الزوج أن يرى بيته غير نظيف، أو يقدم إليه طعام لا يرى فيه أثر النظافة، أو يشم من زوجته أو أولاده رائحة غير محبَّبة، ثم إن المرأة النظيفة تمنح الراحة النفسية للزوجة والأولاد. وكذلك تنزعج المرأة والأولاد من الزوج غير النظيف الذي لا يأبه أن يشم منه رائحة كريهة، أو يرى منه هيئة قبيحة. والجمال كما يكون في الخِلْقَة فإنه يكون في الخُلُقِ أيضًا.

رابعًا– التناسب أو ما يسمى الكفاءة أو التكافؤ

(في الدين والسن والمستوى المادي والثقافي والاجتماعي)

مراعاة التكافؤ بين الخاطبين من أسباب انتظام حياتهما الزوجية بعد الزواج؛ وعدم مراعاتها يؤدِّي غالبًا إلى تفكُّك الرابطة الزوجية والأسرية. والمشاهد في كثير من الزيجات التي يغيب عنها الكفاءة أن يشوبها الكثير من المنغِّصات، والتي قد تؤدِّي في بعض الأحيان إلى فشل الزواج. فقد تجد عاملًا تزوج طبيبة أو أستاذة جامعية، وهما يظنان أنه لا مشكلة أبدًا في ذلك، ولكن ما إن يدخلا في معترك الحياة حتى تظهر المشكلات غالبًا، بسبب عدم مراعاة تلك الكفاءة، فمن الأسباب التي تضمن حدوث زواج ناجح أن يكون الزوجان أكفاء لبعضهما البعض؛ لأن تلك الكفاءة تساعد على تحقيق مزيد من التفاهم والانسجام، والذي في وجودهما تتولَّد المودة والرحمة بين الزوجين.

ويقصد بالكفاءة في الزواج: مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة، والأمور التي تقدَّر على أساسها الكفاءة هي: الدين، والمستوى المادي، والمستوى الاجتماعي، والمستوى العلمي والثقافي، والسِّن، والوظيفة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم**).

خامسًا– الطاعة، وهي صفة في المرأة

وصف النبي صلى الله عليه وسلم الزوجة الصالحة بأنها مطيعة لأمر زوجها، حيث قال: (**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**).

وهذا الأمر قد يظهر في عدَّة مواقف في أثناء الخطبة، أبرزها غياب الأب المادي والمعنوي عن المسألة، فالأم هي التي تنسِّق موعد القدوم، وهي التي تتصدَّر الحديث، وهي التي تتولَّى إبرام الأمور، وعندما يطلب الشاب الحديث مع والد الفتاة تجيبه الأم دون الرجوع إلى الأب، ولعلها إن تكلم الأب أسكتَتْه. هذه الأسرة لا يبدو فيها أن الأم تطيع الأب، والغالب أن حال البنت غدًا مع زوجها كحال أمها اليوم مع أبيها؛ لأنها قدوتها.

سادسًا– استطاعة الباءة، وهي صفة في الرجال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**).

فمن أسس اختيار الرجل زوجًا أن تكون لديه القدرة على تحمُّل مسؤوليات الزواج وأعبائه بدءًا من النفقة ثم تسيير أمور المنزل وغيرها من أمور تتعلَّق بشؤون الأسرة في مختلف النواحي. فمن يعجز عن الإنفاق على نفسه وأهله فقد يضيِّع من يعول، ويعرِّض نفسه وأهله لألم الحاجة وذلِّ السؤال، فعجز الزوج عن توفير الاحتياجات المعيشية سبب من أسباب المشكلات الأسرية الواقعة يوميًّا في حياتنا. والخطير في

ذلك هو ما نشاهده من أصناف من الشباب والرجال الذين يتعاجزون ويتقاعدون عن الكسب أو يبخلون ويمسكون عن الإنفاق على أسرتهم ويتحمَّلون مسئولياتهم.

ثم تُراعى الباءة الجسدية والتربوية والنفسية، أي وعي الشباب بالحياة عامة، وبالحياة الأسرية خاصة، وقدرته على تحمُّل مسؤولية الزوجة ثم الأولاد، وإعطاء كلٍّ حقَّه، وتستطيع الفتاة وأهلها قراءة وعيِه من خلال كلامه وحديثه، والموضوعات التي يناقشها في جلسة الخطبة، ولعلها تسأله عن نظرته إلى أسرته القادمة، وما آماله التي يرجوها منها؟ وما هدفه في الحياة؟ وما رأيه بالمرأة الزوجة؟ والمرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلم عُرِفَ.

مناقشة: الاختيار على أسس مادية

لم يكن الشارع الحكيم ليتجاهل هذه الحقائق التي قد تطبع السلوك البشري في بعض المجتمعات؛ ولم يرفضها أو ينكرها بالكلية؛ وإنما تعامل معها بميزان "العليم بأحوال البشر". يقول النبي صلى الله عليه وسلم **(تنكح المرأة لأربع: مالها وجمالها وحسبها ودينها)**. هذا النص النبوي الشريف يرصد معايير الاختيار في الواقع المعاش بين الناس في هذه الفترة وفي غيرها. وعلى المستوى المادي؛ أشار الحديث النبوي الشريف إلى عاملين ماديَّين مهمَّين في عملية الاختيار؛ الأول هو المال وما يتعلَّق به من فرعيات ومظاهر مثل: الوظيفة والثروة والإرث.. والثاني: هو الحسب، وما يتفرَّع عنه من جزئيات: المكانة الاجتماعية للفرد والمكانة الاجتماعية للأسرة وغيرها.. ويتفرَّع عنها من المنظور الاقتصادي.. المستوى الطبقي للفرد أو للأسرة.

ويصعب إنكار أثر هذه العوامل في حسم قرارات الزواج أو على الأقل الترجيح في الواقع المصري المعيش؛ لما يترتَّب على ذلك من إشكاليات تمسُّ جوهر عملية الاختيار وما يعقبها من زواج وتدبير شئون الأسر، ومن بين هذه الإشكاليات: القدرة على توفير وحدة سكنية "بنظام التمليك، أو بنظام الإيجار، أو السكنى بمنزل عائلي"، وما يعقب ذلك من إمكانيات تتعلق بتشطيبات الوحدة السكنية التي سيتم العيش فيها، فضلًا عن إدارة فترة الخطبة على المستوى المادي بين الخطيبين؛ وما يتعلق بها من هدايا وعطايا؛ ربما تكون من طرف واحد أو طرفين.. وكذلك مسألة "الشبكة"، وقيمتها، وهل سيكون بمقدور الخطيب شرائها جملة واحدة أو يكتفى بمجرد إثباتها بما يعرف بـ"القائمة" أو قائمة المنقولات والتي تكون من حق الزوجة..

ويرتبط بمعايير الاختيار المادية أيضًا؛ إدارة نفقات البيت بعد الزواج وما يتعلق بها من تدبير المعايش؛ هل بشراكة بين الزوجين؟ أم من خلال الزوج؟ أم من خلال الزوجة؟.. وهل ستُدَبَّر المعايش باستقلال عن أسرتي الزوجين أم بمساعداتهما؟.. وغيرها من الإشكاليات.

وقد يحاول البعض أن يدَّعي تجاهل العوامل المادية عند الاختيار؛ بمقولات مثل: "احنا بنشتري راجل.. المهم الدين والأخلاق.. طالما الراجل محترم وافقي.. هاتوا اللي تقدروا عليه.. احنا ناخدها بهدومها (ملابسها)؛ أي بدون ما يسمى بجهاز العروس..، وغيرها من المقولات التي توحي بأن كلا الطرفين قد نحَّيا الأبعاد المادية جانبًا عند الاختيار؛ لكن عند الدخول في التفاصيل كثيرًا ما تتجلَّى هذه الأبعاد، وقد تؤدِّي لمشكلات..

ويشهد الواقع المجتمعي أيضًا زيجات تحدث بين طرفين منتميين لمستويات طبقية اقتصادية مختلفة، وبين مستويات تعليمية متباعدة، وبين ذوي مكانات مجتمعية متباينة.. وغيرها؛ بما يفيد بأن هؤلاء الأزواج ومن ورائهم قد جنَّبوا البُعد المتعلق بالأوضاع المادية في الاختيار؛ لصالح عوامل أخرى غالبًا ما سترتبط بعلاقة عاطفية أو عوامل دينية وما شابه..

وفي هذه الحالات؛ كثيرًا ما تثار إشكاليات من قبيل مدى قدرة رب الأسرة على توفير المستوى الاقتصادي وما يتعلق به من رفاهيات للطرف المنتمي لطبقة اقتصادية أعلى، بما يتضمنه من رفاهيات المعيشة وكمالياتها؛ سواء المتعلقة بالسكن أو الانتقالات أو الهدايا وغيرها.

إن مدى القدرة على الوصول إلى التوافق الزواجي في هذه الحالة متوقف على الاتفاق بين الطرفين، بما يشمله من اتفاق على تفاصيل العيش بعد ذلك. وتقوم العوامل الإيمانية بدورٍ حاسمٍ في هذا الصدد؛ إذ إن الأمر متعلق بما يشبه التنازل عن شيء دنيوي مقابل الحصول على ما هو أفضل منه في الآخرة. لذا لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف الاختيار على كل الأسس الدنيوية المادي منها والمعنوي؛ وإنما أرشد أن يكون الدين في قلب عملية الاختيار (**فاظفر بذات الدين**).. (**من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه**..)؛ بحيث يجتمع الدين مع غيره من العوامل أو أن يكون هو العامل الفاصل دون غيره... ومن ثم يتوقف مدى النجاح أو الفشل داخل الأسرة على مدى ترجيح كفة العامل الديني.

في واقعنا المصري؛ لم يعد العامل المادي فاصلًا في عملية الاختيار فحسب؛ بل إنه قد أصبح ميزة يحاول كل طرف ترجيح كفته بها خاصة من خلال الأسرة، وهو بالفعل ميزة؛ لكنها كما سبق القول تحتاج الدين والأخلاق إلى جانبها.

من بين النماذج الواقعية على ذلك: أن يعرض رب أسرة على شاب الزواج بابنته التي يخشى أن يفوتها "قطار الزواج" مقابل أن يوفِّر له شقة.. أو وظيفة.. وليس هذا عيبًا في رب الأسرة أو ابنته أو الابن الذي تفتخر أسرته بذلك؛ فالفيصل هو مدى ارتباط هذه العوامل بمظلَّة الدين.

وبين أسس الاختيار المادية؛ تندرج قضية عمل المرأة من عدمه كونها أحد العوامل المؤثرة على عملية الاختيار؛ فكما تفضِّل البنت كثيرا وأسرتها الخاطب العامل؛ خاصة الذي يشغل منصبًا أو وظيفة مرموقة؛

يفضِّل بعض الشباب أن تكون البنت عاملة؛ بهدف أن تسهم معه في مصروفات المعيشة في ظل حالة الغلاء العامة التي تسود في مصر. لذا؛ كثيرًا ما تشارك المرأة زوجها في تحمُّل أعباء المعيشة سواء من خلال راتبها أو من خلال مساعدات أسرتها إذا كانت قادرة على ذلك.

بالنهاية؛ فتلك كانت إشارة إلى أهمية الجوانب المادية عند الاختيار والترجيح خاصة عند تعدُّد المتقدِّمين لخطبة الفتاة وعند تعدُّد الفتيات اللاتي يختار من بينهن الشاب، ولا يتوقف الأمر على الطرفين وحدهما؛ وإنما تزداد أهمية هذا البُعد بالنسبة للأسر؛ حيث تتراجع لديهم بشكل ما العوامل المرتبطة بالعاطفة لصالح البُعد المادي.. وهو ما يستلزم التساؤل عما إذا كانت هذه المواقف مرتبطة بخبرات الحياة؟ وما إذا كانت حالة عامة في المجتمع؟ وما إذا كانت هذه المواقف أكثر صحة من مواقف الأطراف المباشرين!!

الفصل الرابع

معادلة الاختيار

نحو تطبيق لعملية الاختيار

ليس المنشود أن نعرف فقط طرق التعارف وخطوات الاختيار وواقعه ولا معايير الاختيار وأسسه، بل لا بدَّ من النظر في منهج بناء معادلة الاختيار المكونة من مجموعة المعايير الأساسية والمكملة، وطريقة الاختيار نفسها، وكيف نطبق المعايير التي تعرفنا عليها على الحالات المختلفة التي يتعرَّض لها كل من الشاب / الفتاة.

بين المعايير العامة والمعايير الخاصة: معادلة الاختيار

ما تقدَّم يتعلَّق بمعايير عامة يعرفها الجميع ويلتزمها كلها عادة الغالبية من الشباب والفتيات والأهل في الجانبين، ولكن الشخص كما هو معلوم له تفضيلاته وأولوياته وما يقبله قد لا يقبله غيره، وما يطلبه قد لا يعتني به الآخرون؛ ومن ثم تكون له معاييره الخاصة به بالإضافة إلى تلك العامة. وهذه المعايير الخاصة بعضها يتعلَّق بترتيب المعايير العامة والانتقاء منها، وبعضها معايير أخرى قد يجعلها ثانوية أو تكميلية وبعض الفئات تضعها في الأولويات عند الاختيار.

من هذه المعايير الخاصة: نوع التخصص العلمي أو العملي، والفكر والأيديولوجيا، وبيئة العيش (بين الريف والحضر، والأحياء النخبوية والأحياء الشعبية)، وهيئة وشكل الشاب / الشابة من حيث الطول والحجم والقوة البدنية والرشاقة، ونوع الملبس والاهتمام به، وحب السفر والتنزُّه أو حب الاستقرار، والعناية الخاصة بالنظام والنظافة، وخفة الدم والفكاهة، والجدية والصرامة، والمهارة في أعمال المنزل وخاصة إعداد الطعام، وحب الفنون من الغناء والموسيقى والأفلام السينمائية، والعناية باللغات أو بعلوم معينة... إلخ.

هذه المعايير الخاصة أو الثانوية منها ما هو مقبول بصفة عامة كزيادة العناية بالنظام والنظافة، ومنها ما هو غير مقبول كاشتراط الشاب ألَّا تكون زوجته محجَّبة أو اشتراط الفتاة ألَّا يسألها زوجها في دخول أو خروج أو توقيتات باسم التفتُّح والتحرُّر، ومنها ما هو خلافي يكون محل جدل ونقاش. ولكن من المهم أن نلحظ أن كل شخص يؤلِّف من هذه المعايير ومن المعايير العامة حزمة خاصة به؛ هي ما نسميه "**معادلة معايير الاختيار**"؛ وذلك وفقًا لسماته الشخصية، وثقافته وبيئته الاجتماعية، وطريقته هو في التفكير.

ومعادلة معايير الاختيار هذه هي السؤال الذي يقف أمامه كل شاب وشابة عند الاختيار والإقدام على قرار الزواج: ما هي مجموعة أو منظومة المعايير التي أتبنَّاها عند النظر في من أنظر إليه بوصفه شريك حياة محتملًا؟ ماذا آخذ من المعايير العامة وماذا أترك؟ وماذا آخذ من المعايير الخاصة وماذا أترك؟ ولكن

السؤال الأهم يتعلَّق بالجمع بينها: كيف أرتِّب المعايير نفسها وأفاضل بينها؟ وكيف أعطي لكلِّ معيار درجة في ذاته ودرجة بالنسبة لغيره؟

ويرجع إشكال معادلة الاختيار إلى حقيقتين واقعيتين؛ أولاهما- أنه لا يوجد ذلك الإنسان الكامل الذي تتوافر فيها كل المعايير وبكامل درجات كل معيار، وثانيهما- تنوع الأذواق واختلاف طرق التفكير وتباين الظروف المعيشية بين الناس. هاتان الحقيقتان تفسران وتبرران التوقف عند الاختيار للزواج للتساؤل عن معادلة الاختيار الأنسب لكل شخص، علما بأن معادلة الاختيار في أساسها تتعلق بالشخص الباحث عن الزواج واختيار شريك حياته ولكنها عند التطبيق تتأثر بسمات الشخص المبحوث عنه؛ خاصة إذا كانت فيه معايير أساسية وليست فيه معايير أخرى ربما أساسية أو غير أساسية. فما العمل؟

لبناء معادلة الاختيار عدد من الشروط وعدد من القواعد، يحسب بيانها فيما يلي:

أما شروط بناء المعادلة فأهمها أربعة: الصدق مع النفس، والواقعية، والمرونة والتوازن في غير تهاون ولا تصلب، والاستقرار الفكري والاستقامة الأخلاقية والاجتماعية.

فلا يُتصوَّر بناء معادلة اختيار من شخص يكذب على نفسه أو يتوهَّم فيها ما ليس فيها ومن ثم يطلب في غيره ما ليس يتحلَّى هو به. إن مفهوم الاختيار نفسه يشترط الصدق وليس أقل من الصدق مع النفس. كما أن الشخص المغيَّب عمَّا حوله من الواقع ولا يدري التغيُّرات والاختلافات التي عليها أهل زمانه فإنه غالبًا ما يذهب بمعايير الاختيار إلى سماوات لا يصل إليها كهؤلاء الذين يشترطون أن تكون زوجة المستقبل متحررة وتجيد أعمال المنزل أو أن يكون الزوج لم يتحدث مع فتاة من قبل.

إن الإنسان في النهاية محكوم بالمتاح وعليه أن يختار أفضل الموجود وليس أفضل المنشود. وهذا يقتضي قدرًا من المرونة والموازنة ولكن هذا لا يعني بحال التغاضي مثلًا عن شرط الأخلاق والقوامة واللين في يد الزوج والمسئولية عن الإنفاق مهما اتَّفقا على التشارك أو ما شابه.

أما تمتُّع الشخص الباحث عن شريك الحياة بالاستقرار الفكري والاستقامة الأخلاقية والاجتماعية فلا بدَّ منه حتى يكون الشخص من الأساس جديرًا بصفة الاختيار وحسن الاختيار. **فالمعادلة عبارة عن ميزان يَزِنُ المعايير ويفاضل بينها**، فلا يتصور أن يكون الميزان بيد مضطربة فكريًّا أو أن يبحث الشخص عن الأفضل وهو ليس بفاضل.

أما قواعد بناء معادلة الاختيار في الواقع –وليس في العقل فقط- فهي قواعد أولويات وموازنات ورعاية للواقع ومآلاته؛ ومن أهمها:

١- أولوية المعايير العامة الأساسية، وألَّا تقلَّ نسبة التحقق من كل معيار في الشخص محل الاختيار عن المتوسط في حالة الضيق وعن ثلاثة الأرباع في حالة السعة الاختيارية. وهذه القاعدة مبنية

على التجارب الحية والماضية، والتي تؤكد أن البيوت الأكثر استقرارًا ونجاحًا في الاستمرار ويعبِّر أهلها عن نوع من الرضا الزواجي وربما السعادة هي التي انبنت على أصول يعرفها أغلب الناس ويأخذون بها. فالأخلاق والقيم والنسب الكريم والتدين الأساسي وتحمُّل المسئولية وتوافق الطباع... هذه المعاني هي التي تقيم "المعاشرة بالمعروف" وتنبت معاني المودة والرحمة والسكينة وهي أعمدة البيت الناجح.

٢- تقديم المعايير المعنوية والأدبية (من القيم والأخلاق والدين، والتفاهم العقلي وتقارب أو تكامل الطباع وسمات الشخصية) على المعايير المادية والظاهرية كالجمال والمال والتكافؤ المهني مثلًا؛ لأن تلك المعايير المعنوية هي التي تؤثِّر في استمرار واستقرار الحياة الزوجية إيجابًا أو سلبًا، بينما المعايير المادية والظاهرية سرعان ما تتراجع بعد الزواج.

٣- التمييز بين المعايير الحاسمة المحسومة والمعايير محل الأخذ والرد: فالأخلاق مثلا معيار محسوم عند الجميع إلَّا من شَذَّ، لكن بعض الأشخاص يشترطون أمورًا أخرى كالجمال الباهر والبعض يشترطون منه درجة معقولة والبعض يكتفون بالقبول العام عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إذا نظرَ إليها أَسَرَّتْهُ**)، والفتيات قد يشترطن دخلًا معيَّنًا وبعضهن لا يشترطن ويكتفين بما يبدو من تحمُّل الشاب للمسئولية. إن فهم الشاب / الفتاة لهذا التمييز من الأهمية بمكان حتى تتَّضح أمامهما معايير الاختيار ولا تتداخل.

٤- الموازنة بين المعايير النظرية التي يستبطنها الباحث عن شريك الحياة أولًا، وبين السمات الواقعية التي يطَّلع عليها في الشخص محل الاختيار؛ بحيث يمكنه إعادة تعريف معيار أو أكثر، ويمكن إعادة ترتيب المعادلة النظرية بدرجة ما بناء على الخبرة الواقعية. فمثلًا قد يشكِّل شاب معاييره النظرية على مفهوم معين للتدين –كالعناية بالهَدْي الظاهر وبعض العبادات– لكنه مع التعارف يجد تديُّنًا أخلاقيًّا عاليًا مع بعض التقصير في عبادات أو عدم العناية بالنوافل أو ضعف الثقافة الشرعية، فساعتها يضيف معيارًا جديدًا من الضروري الانتباه إليه؛ وهو معيار "الاستعداد للتجديد والتغيير والتطور بعد الزواج أو بدءًا من فترة الخطوبة". وكذلك قد ترتِّب فتاة نفسها للارتباط بشاب متحرِّر بمفهوم معيَّن للتحرُّر ثم عند التعارف تجد شخصًا يتَّسم بالتوازن بين التحرُّر والمحافظة فتعيد النظر في مفهومها عن الانفتاحية والتحرُّر خاصة إذا وجدت فيه معايير وصفات أخرى لافتة.

٥- ومن ثم فالقاعدة الجامعة أن يعتني المقبل على الزواج بمفاهيم الميزان والمعادلة والمعيار؛ أي الجمع بين المعايير الأساسية والتكميلية وترتيبها وفق أولويات مع تعريفها بمؤشِّرات واضحة قابلة للنظر بها في الواقع، ثم تعريضها لتجارب الاختيار وللمشاهدات الواقعية لكي تكون قابلة للتطبيق؛

بحيث يتم رفض مشاريع زيجات إذا خرجت عن هذه المعادلة، ويتم قبول المشروع الزواجي الذي يتحقق فيه معادلة معايير الاختيار التي يكونها الشاب/الفتاة.

ولا يلزم مما سبق أن ينفرد الشاب/الفتاة ببناء معادلة معايير اختياره؛ فكثيرًا ما تكون الاستشارة والاستئناس برأي ذوي الخبرات والتجارب من الأهل والأصدقاء وغيرهم مهمة ومفيدة، ولكن في النهاية على كلٍّ من الشاب والفتاة أن يمسك بزمام هذه المعادلة قبل وعند تطبيقها لأنهما من سيقومان بالعيش بناءً على ذلك ويتحملان مآلات الاختيار.

قضية: الحب قبل الخطبة وأثره في الاختيار

قد يرغب بعض الناس في الزواج من فتاة أو امرأة بعينها نتيجة إعجاب وتقدير، وقد يقع أحيانًا ميل قلبي وهوى نفسي، وهذا الميل القلبي أو الإعجاب الذي لم يمتد إلى شيء منهيٍّ عنه، لا حرج فيه شرعًا، ويدلُّ على ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة. فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: **(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ) [البقرة: ٢٣٥]**، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: **"لم يُر للمتحابين مثل النكاح"**.

ومن ثم فالمشاعر القلبية أو ما يعرف بالحب إذا لم تؤدِّ إلى أمر نهى الشرع عنه فلا جُرم فيها.

ولكن هل هذا التعلق أو ما يسمى بالحب سبب كاف وسليم لاختيار هذا المحبوب ليكون زوجًا؟

الذي نراه: أن الحب وحده لا يكفي، فإن وُجِدَ هذا الحب مع غياب المعايير الأخرى المرغِّبة في الاختيار أو بعضها، فإن هذا الزواج –في غالب حاله– لن يكون زواجًا ناجحًا، ولكن إذا توافرت المعايير السابق ذكرها، ثم انضمَّ إليها الحب فهو شيء حسن، ولكن وجود الحب لا يُغني عن فقدان تلك المعايير أو بعضها.

فكثيرٌ من الزيجات التي أتت بعد قصة حب انتهت بالطلاق؛ وذلك لأن كلًّا منهما يظن قبل الزواج أن الحب سيُذَلِّل الصعاب كلها، وأنهما سيجتازان به العقبات كلها، وسيعيشان الحياة بحلوها ومرها مع بعضهما!! والحق أن ظنهما ليس صحيحًا، فما لم يكن بينهما انضباط بالشرع وتربية وصلاح، فالغالب أن حياتهما الزوجية لن تستمر؛ لأن العواطف ستخبو بعد أسابيع، أو بعد شهور، لتبدأ الحياة العملية.

وعلى النقيض يلاحظ أن كثيرا من الزيجات التي وقعت بغير إفراط في اشتراط هذا النوع من الحب الرومانسي والعلاقة القلبية الخاصة قد تنجح وتستمر؛ ولعل العلة في استمرار الزواج، مع كونه من دون حبٍّ سابق، هي تحلِّي الزوجين بالالتزام بمعادلة المعايير الأساسية، ومع العشرة تتوالد المودة والرحمة وينمو نوع من الحب الأكثر ثباتًا.

الباب الثالث

محطة الخطبة (اختبار الاختيار)

فترة الخطبة هي الفترة التي نختبر فيها صحة الاختيار، وليست فقط الفترة التي يتم فيها إعداد منزل الزوجية كما هو شائع في مجتمعنا، أو فترة ضحك ولعب وورد وحب، ولا هي مجرد وقت ضائع لا مقصد له، بل هي ممرٌّ مهمٌّ إلى الحياة الزوجية؛ وعلى قدر عنايتنا بها تكون خطواتنا نحو الزواج صحيحة أو خاطئة. لذا فاستثمار الخطبة على أكمل وجه يعدُّ من الضروريات لبناء علاقة زواج مستقرَّة وسليمة؛ فكثير من الزيجات التي لم تكتمل كان من الممكن أن نلمح فيها أمارات التعثُّر أو الفشل منذ مرحلة الخطبة وفي وقت التعارف والاختيار.

وفي مرحلة الخطبة نحتاج إلى ميزان النظر والتقييم يمسك به الخطيبان وأسرتيهما تجنُّبًا للتفريط في التعارف أو الإفراط. فقد يدقِّق بعض الناس في جانب الخاطب أو المخطوبة ويتعمَّدون التمحيص الزائد إلى درجة تغليب التشكُّك والتشاؤم على الحساب الموضوعي، أو قد يميلون إلى إصدار الأحكام السلبية بشكل جاهز، وقد يحدث العكس بالميل إلى التغافل عن الاختلافات أو الاختلالات أو بالغوص في اتباع مشاعر الحب أو التركيز في الماديات مثلا وإهمال التفكير العقلاني في نقاط أخرى.

الفصل الأول

مفهوم الخطبة وعوامل نجاحها

تبدأ فترة الخطبة بطلب الشاب يد الفتاة وقبولها لذلك ويتحوَّل التفكير بالاختيار للزواج إلى تنفيذ أساسي. وفترة الخطبة هي بوابة الزواج والتمهيد له، وتختلف تصورات الناس عن الخطبة سواء على الصعيد النظري والعلمي أو العام والعملي. فثمة تعريفات عديدة بمفهوم الخطبة وتحديدات مختلفة لمقاصدها وما ينبغي أن تنطوي عليه من تصورات أو قيم أو ممارسات؛ وذلك باختلاف المداخل والاهتمامات: النفسية والاجتماعية والشرعية والثقافية والاقتصادية الواقعية.

أولا– مفهوم الخطبة وأبعادها

التعريف النفسي القيمي لمرحلة الخطوبة:

للخطبة أبعاد نفسية غاية في الأهمية قد يغفل عنها كثيرون، حيث يؤكِّد كثير من علماء النفس أن فترة الخطوبة هي عبارة عن:

فترة لتعارف كل طرف على الآخر؛ وهي فترة التجريب والاختبار لمعرفة الميول والاتجاهات المتوافقة بين الطرفين، وهي مرحلة الانتقال من حياة العزوبية إلى مرحلة الحياة الزوجية، وهي فترة التخطيط للمستقبل وتوزيع المهام بين الطرفين في الحياة الأُسرية، وهي فترة تجمع بين الاستمتاع بالتقارب الشخصي بين المخطوبين والمسئوليات التي تفرضها عملية التأسيس للبيت الجديد ومتطلبات إدارته المشتركة. لذلك على الشريكين أن يستمتعا بهذه الفترة بشكل لا يتعدَّى الحدود الدينية والاجتماعية والأخلاقية؛ لأن عدم الاستمتاع يخالف الطباع ولا يمهِّد لزوجية حقة.

ومن المهم أن نتعرَّف على سمات الشخصية في النظر إلى المستقبل: هل هو/هي شخصية اتكالية وفوضوية وتنفر من التخطيط وتعتبره قيدًا أو استباقًا للمشكلات واستحضارًا لها؟ أم هو/هي شخصية شديدة التدقيق والتخوف من المستقبل أو توقُّع ما هو سيِّئ والخوف منه، بحيث تبحث عن ضمانات كثيرة لعدم وقوع مشكلات مستقبلا؟ أم أنهما معتدلان ويتفهَّمان معنى التخطيط وأنه شأن مركَّب من عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية، وأنه توضيح للأهداف المشتركة وحوار حول وسائل وطرق تحقيقها؟

لكن الثابت في هذا الإطار أن فترة الخطوبة مرحلة نفسية ضرورية للتهيؤ العقلي والوجداني والاجتماعي لكلٍّ من الطرفين، وأنها تعدُّ مرحلة مُهمة حيث من شأنها أن تعمل على الوقاية من أخطار الزواج السريع وعواقبه الوخيمة التي قد لا يُمكن حلُّها بشكل جذري في مرحلة ما[١٣١]. فمن هنا تظهر أهمية

(١٣١) انظر: أحمد مُبارك الكندري، علم النفس الأسري، ط٢، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٩٢.

الخطوبة كفترة اختبار لشخصية كل من الطرفين المقبلين على الزواج؛ لمعرفة خصال وسمات كلٍّ منهما للآخر، كما أنها تساعد على اكتشاف العيوب الخفية والعادات السلبية قبل الزواج، ومن ثم اتخاذ القرار إما بإكمال المرحلة إلى ما بعدها أو إنهائها.

ومن المنظور الاجتماعي والثقافي فإن الخطوبة مناسبة للتوافق على أمور كثيرة منها:

أ- **الاتفاق المبدئي**: فترة الخطوبة مناسبة مهمة للاتفاق والتعاقد الأوَّلي على تفاصيل ما بعد الخطوبة لتأسيس البيت السعيد. رغم أن الخطبة نفسها واستمرارها وعد غير ملزم وليست كعقد الزواج نفسه.

ب- من المهم تهيئة نفسية وعقلية التعاقد: فالعقلاء هم الذين يحبُّون التعاقد، وأصل التعاقدات هي استباق الخلافات بالحلول أو بمرجعيات للحلول، والعقلية التي ترى في الاتفاق إشعار بالخلاف وتتشاءم منه ليست سوية أو لا تفكر بشكل صحيح، وربما تكون مغرضة وتبيّت عدم الاستقامة.

ج- لا بد من الوقوف عند الاتفاقات، والرضا بها عن قناعة تامة، وليس من باب الحب والمشاعر أو المجاملة، لأن هذه الاتفاقات ملزمة للطرفين ما دامت ظروفها ثابتة، مثلًا إذا اشترط الخطيب على خطيبته عدم خروجها للعمل بعد الزواج أو اشترطت الزوجة نظامًا معيَّنًا لزيارة أهلها أو والدتها أو اشترط أحدهما نظامًا معينًا للنفقات المالية؛ أو مواعيد للحمل والإنجاب فمن غير المنطقي أن يشكو أي طرف منهما بعد الزواج من هذه الأمور أو يخالف المتَّفق عليه في أمور من المفترض أنه سبق الاتفاق عليها وأصبحت مسألة منتهية.

د- ومن المهم للفتاة أن تراقب تصرُّفات خطيبها ومعاملاته مع أخته ووالدته، فهي جزء من صورة لنظرته إلى المرأة بصفة عامة، وإن كان لا يلزم أن تتطابق مع نظرته لزوجته في المستقبل.

هـ- أيضًا على الخطيبين اليوم أن يناقشا حتى أدقِّ الأمور؛ مثل زيارات العائلة متى تكون، كيف ستكون علاقتهما مع باقي الأسرة، ما الوقت الذي أقابل فيه أصدقائي.. كلها أمور تبدو بسيطة لكن حسمها والاتفاق عليها في البداية من الأمور الهامة جدًّا لا سيما في زمننا الراهن.

و- وممَّا ينبغي أن يفكرا فيه لا سيما فيما بعد الزواج وفي سنته الأولى هو ما يسمى بقضاء وقت الفراغ: كأن يتَّفقا مثلا على هواية أو عمل يجمعهما يداومان عليه سويًّا بعد الزواج، فكثيرٌ من الأزواج لا يعرفون كيف سيقضون الوقت سويًّا في المنزل، والحل الأسهل السائد اليوم هو إما افتعال المشاكل لأتفه الأمور أو اللجوء إلى العالم الافتراضي بما يسبّبه من تباعد قد يؤدِّي إلى الخرس الزواجي. والتواصل المستمر مع الآخرين والغرباء مما يخلخل التفاعل الزواجي حيث لا حوار ولا عمل مشتركًا بين الزوجين إنما هما فقط جسدان في مكان واحد، وهذا مما يفقد كثيرًا من البيوت الدفء والسكينة.

التعريف الشرعي الاجتماعي لمرحلة الخطوبة:

من الناحية الشرعية تعد الخطبة فترة تمهيد جيدة يرجى أن يتحقَّق فيها التواؤم والانسجام بين طرفيها أو ما يسمِّيه النص الشرعي الإدام؛ أو بالتعبير النبوي: (**أن يُؤدَم بينهما**). وإذا كان الشرع قد أعطى للإنسان الحرية في اختيار شريك حياته، فإن الاختيار كي يكون عن بيّنة ورضًا تامَّيْن ينبغي أن يكون لدى كلٍّ منهما معرفة مناسبة وكافية بصاحبه، فإن لم تكن ظروف الحياة قد يسَّرت هذه المعرفة قبل الشروع في الخطبة فيمكن أن تولد تلك المعرفة وتتحقق من خلال أمرين: الرؤية ثم المعرفة.

فالرؤية في المجتمع المتدين هي الرؤية الشرعية بين طرفي الخطبة؛ وذلك بأن يرى كلٌّ منهما الآخر وفقًا للضوابط الشرعية التي سيأتي ذكرها. ويجوز أن تتمَّ الرؤية دون علم الفتاة شريطة الأمن من الاطلاع على عورة[١٣٢]. وإذا كان ثَمَّ تعارف مباشر بين الفتى والفتاة قبل الزواج فيُكتفى به.

ولكن بعد أن يعزم الرجل إتمام الخطبة ويعلم أهل الفتاة، ويقبلوا بالخطبة، فيحسن أن يتجاوز التعرُّف رؤية المظهر الظاهري أو الخارجي إلى التعرُّف على الشخصية بصفة عامة؛ بالحصول على ما يتيسَّر من المعلومات عن شخصية كل من الخاطب والمخطوبة من أناس على صلة بهما وعن ظروفهما العائلية، ثم يكون لقاء يحضره بعض الأقارب ليراها وتراه عن قرب وليتعرَّفا على السَّمْتِ العام لشخصية كلٍّ منهما؛ إذا قرَّر الطرفان القبول كانت الخطبة.

وينبغي على الأولياء أن ييسِّروا لكلٍّ من الخاطب والمخطوبة رؤية الآخر، ثم الحديث معه والتعرُّف على شخصيته ما دام ذلك في حدود الشرع وآدابه[١٣٣]؛ فالرؤية يُتعرف من خلالها على الجمال والصحة، وأما معرفة الأفكار والثقافة والأخلاق فتتطلب المحادثة والمجالسة. ولا مانع شرعًا من المجالسة إذا لم تكن في خلوة، وفي الصحيحين: (**لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**)، والخلوة المحرمة هي أن ينفرد رجل بامرأة أجنبية عنه لا يكون معهما ثالث بحيث يحتجبان عن الأنظار ويأمنان من دخوله عليهما. ومن ثم فلا يدخل في الخلوة جلوسهما بمفردهما في البيت تحت نظر أهل الفتاة، ولا جلوسهما معًا في مكان عام كشارع أو سوق[١٣٤].

والخطبة أيضًا فترة تعارف الأسرتين وإرساء قواعد التعامل بينهما من جهة، ومرحلة الاتفاق على الحقوق المادية والأساسية المتبادلة التي تدور حول مفهوم "المهر / الصداق".

---

(١٣٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (٩/ ٢١٠). المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي)): أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، (١٦ /١٣٩).

(١٣٣) ينظر: تحرير المرأة في عصر الرسالة، مرجع سابق، ج٥، ص ٣٧، ٣٨.

(١٣٤) ينظر: موسوعة أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام: الشيخ/ عطية صقر، الجزء الخامس، المعاملات، ص ١٧٦. ينظر: شرح مسلم للنووي، (٩/ ١٠٩).

ومن المهم أن يتحلَّى الأهل في هذه الفترة بعدد من السمات والممارسات في مقدمتها: الصدق والشفافية، والكياسة والذكاء الاجتماعي، والتسامح والتفاهم، واللطف في القول وحسن الظن، ومع هذا ينبغي أن تستمر عملية النظر والاختبار لمدى التناسب بين السمات الاجتماعية، ومدى التوافق بين الفتاة وأسرة خطيبها خاصة في حالة الأسر المتَّصلة والابن قوي الصلة بأسرته، وكذلك مدى التوافق بين الخاطب وأهل خطيبته خاصة في حالة زيادة ارتباطهم بها أو ارتباطها هي بهم لا سيما بأمها كما في نسبة كبيرة من الأسر المصرية.

وفي هذا الإطار تتأثر الخطبة بالبيئات والفئات الاجتماعية التي تنتمي إليها من ريف أو حضر، وطبقة ثرية وطبقة فقيرة، وأسرة ذات حظ من التعليم والثقافة وأسرة ليس لها هذا الحظ، وفئة ذات توجُّهات متحرِّرة أو متغرِّبة وفئة ذات توجُّهات محافظة أو متديِّنة، أو الخليط المجتمعي المعروف من هذا وذاك. فالوعي بهذه الصور والتنوعات مما يرشد إلى أسلوب التعامل الأمثل في الخطبة؛ بين الأهلين والخطيبين.

وفي مجتمعنا يجعل المهر والهدايا الملحقة به (كالشبكة: الهدية الذهبية) مقياسًا لمدى تقدير الخاطب لمخطوبته وأهلها، وكذلك يرى الخاطب وأهله عادة أن تقدير أهل العروس للمهر وموقفهم من الهدايا وما إليه فيه دلالة على مدى تقديرهم للشاب الخاطب. وهذه مفاهيم اجتماعية محضة ما أنزل الله تعالى بها من سلطان إلا قوله تعالى (بالمعروف): **(فآتوهن أجورهن بالمعروف)**. والمعروف هو العرف؛ وهو العدل الذي يقدَّر فيه ظروف الطرفين فلا تُبخس ابنة الأثرياء ولا يُرهق ابن الفقراء؛ إنما تستحق الفتاة مهر مثلها. فلا يصح وضع حدٍّ أقصى ولكن يُوصى بعدم المغالاة، ولا يقرر حد أدنى لكن لا يستهان به لأنه ركن في الزواج.

ثانيا– الخطبة الناجحة

الخطبة الناجحة ليست هي التي تنتهي بعقد الزواج أيا ما كانت الأحوال، وليست الخطبة الفاشلة هي التي تنتهي بالفسخ مثلا أو تلك التي تخلو من خلافات أو مشكلات هنا أو هناك. إنما الخطبة الناجحة هي التي تراعى فيها الأصول ويقوم كل طرف فيها بما عليه من مقومات نجاح الخطبة، وربما يكون نجاح الخطبة في اكتشاف عدم التناسب ومن ثم اختيار إنهائها بدلا من أن تؤدِّي إلى زواج على غير أساس وذلك هو مُنتهى الفشل.

وبناء على هذا المفهوم، فللخطبة الناجحة جناحان تصل بهما إلى غايتها من تأسيس زواج ناجح: أمور مما يجب عمله والحرص عليه من الطرفين بما فيهما أهل كل منهما، وأمور مما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه أو إصلاحه إن وقع.

وعلى الجانب الآخر ثمة أخطاء ينبغي أن ينتبه إليها الخطيبان وأن يتفاديا الوقوع فيها أو يحرصا على إصلاحها إن حدثت؛ من قبيل: التصنع والتكلف والتجمل بما ليس موجودا، والسخرية من الآخر أو الاستهانة به، والتطرُّف في الحكم على تصرُّفاته، والتهاون في أخطاء غير مقبولة، وعدم العناية بأسلوب الحديث والحوار، والتهاون في حقوق الآخر/الآخرين أو بالعكس الخوف المرضي من الاختلاف معه، وما إلى ذلك من سلبيات قد تتسبَّب في أن لا تؤدِّي الخطبة وظيفتها وتصبح خطبة فاشلة.

وتتعدَّد العوامل الإيجابية التي ينبغي التحلي بها لنجاح مرحلة اختبار الاختيار؛ ومنها: المصارحة التامة، والواقعية، وسعة الصدر، والوعي، والذكاء الاجتماعي، والتسامح، والتوازن في تقييم الطرف الآخر، والتفكير المستمر المنظم، والتهادي، والكلمة الطيبة، وإظهار العناية، والتقدير والاحترام المتبادل خاصة أمام الآخرين، وغيرها. وهي أمور قد يغفل عنها الكثيرون أو لا يعيرونها العناية الواجبة والضرورية.

وتنجح أي علاقة بين شخصين خاصة في فترة الخطوبة إذا كان كلٌّ من الطرفين على استعداد لتقديم التضحية اللازمة لنجاح هذه العلاقة، حيث يجب التضحية بالرغبات والاهتمامات من أجل الطرف الآخر إذا تطلَّب الأمر واستحقَّ ذلك، كما يجب أن يكون الشخص أكثر تسامحًا مع شريكه، حيث إن من شأن ذلك أن يجعل الحياة اليومية أقل فتورًا وملالًا وأكثر شعورًا بالرضا والمتعة. وتنجح العلاقة بين الطرفين كذلك عندما يحاول كل منهما إسعاد الآخر، وذلك من خلال القيام بفعل كل ما يحبه الشريك، على أن يكون ذلك نابعًا من القلب، بحيث يستمتع كل منهما فيما يقدمه لشريكه دون استياء أو انزعاج[١٣٥].

وهناك بعض السلوكيات التي يجب أخذها في الاعتبار في فترة الخطوبة، حتى تؤدي مرحلة الخطوبة الناجحة إلى مرحلة الزواج الجيد، ومن هذه السلوكيات:

تقبُّل كل طرف لنقد الآخر، خاصَّةً إذا كان هذا النقد نقدًا بنَّاءً ومؤدَّبًا؛ والرقابة أو الرعاية من قِبل الأُسرة، فينبغي على الأُسرة أن تجعل مقابلات الفتاة والشاب –حتى وإن كانت أثناء الزيارات– تحت أعينهم بأسلوب مقبول غير مُزعِج يوحي بالتفتيش والشك والمراقبة الناقدة، فلا بدَّ أن يكون المكان مفتوحًا؛ بحيث يتم إعطاء الحرية للحديث حتى يتفَهَّم كلُّ طرف الآخر مع وجود قدر من الاهتمام بهما.

مدة الخطوبة:

يجب أن لا تكون مدة الخطبة قصيرة قِصَرًا مخلًّا ولا طويلة طولًا مملًّا، بل ينبغي أن تكون متوسطة كافية لتعارف كلٍّ من الطرفين على الآخر بشكل جيد.

(١٣٥) ريناد الصباح، ٢٠١٨.

ولذا يفضَّل ألَّا تقلَّ مدة الخطبة عن ستة أشهر وألَّا تزيد عن سنة إلَّا إذا تدخلت عوامل أخرى تفرض الاستمرار أكثر من سنة مثل تجهيز بيت الزوجية أو استكمال سنة تعليمية أو ما شابه.

ما يُباح وما يحرم في الخطبة

إن كل مسلم يسعى إلى العفَّة يريد أن تكون خطبته موافقة لشرع الله من خلال التحقق من توافر شروط الخطبة الشرعية، وعدم التعدِّي على حدود الله المتعلِّقة بالحلال والحرام؛ وهو ما يستلزم عرض هذه الشروط ومباحات ومحرمات الخطبة.

فالخطبة ما هي إلا وعد بعقد، فليست عقدًا حتى تأخذ الأحكام العامة للعقد أو الأحكام الخاصة بعقد الزواج. وبناء على ذلك فالخاطبان لا يزالان أجنبيين عن بعضهما البعض، فيحرم عليهما المباشرة الكاملة التي بين الزوجين، كما يحرم مقدِّمات هذه العلاقة الخاصة بين الزوجين من قول أو فعل. وفي بيان ما يجوز من القول والفعل، وما لا يجوز هذا التفصيل:

أما القول:

فلا يجوز بينهما إلا القول المعروف الجائز بين الأجنبيين، ومن ثم فالحديث المحرم بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه يظل محرَّمًا أثناء فترة الخطبة، وحتى ولو كان بعض هذا الحديث جائزًا بين الزوجين كالغزل والحديث في أمور العلاقة الجنسية بينهما.

ويخطئ بعض الشباب بالحديث في هذه الأمور من جراء المحادثات التي تمتد لساعات ولساعات ليلًا ونهارًا، ونذكِّر هؤلاء بقول الله تعالى: **(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)** [الإسراء: ٣٦]، وما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج، أو يكذبه).

وأما المحادثة بينهما بالمعروف، والتي يمكن من خلالها أن يتعرف كل منهما على الآخر، ليتبين مقدار التوافق بينهما فلا حرج في ذلك ما دام الكلام بالمعروف وليس فيه خوض في باطل أو تطرُّق لأحاديث لا تجوز إلا بين الزوجين. ومن أمثلة ذلك الكلام المباح بينهما أن يتحدَّث كل منهما على عادات الآخر وتقاليده، وأن يتعرف على بيئته وثقافته، وأن يتعرف على أهله وعاداتهم وثقافتهم، ونحو ذلك.

فعلى طرفي الخطبة أن يراقبا الله عز وجل في أفعالهما، وأن يجتهدا في ألَّا يجعلا للشيطان عليهما سبيلا. فإن كان الكلام محرَّمًا؛ فلا يجوز تبادله بين طرفي الخطبة.

وأما الفعل:

فمنه ما هو فعل القلب واليدين والعينين، وهذا فيه تفصيل:

أما القلب، فعمله هو تحرُّكه ميلًا تجاه الطرف الآخر أو ما يُعرف بـ"الحب"، والحب الذي يقع في تلك الفترة، هل هو أمر محرم -كما يظن البعض- أم هو شيء محمود -كما يدَّعيه البعض؟

وللجواب يقال: إن القلب وتغيراته بيد الله -جل وعلا- كما جاء في الحديث: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء". وفي هذا المعنى عن السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك. قال إسماعيل القاضي: يعني القلب. وهذا في العدل بين نسائه"؛ يقصد الميل القلبي. وعن حب خديجة رضي الله عنها يقول: "إني رزقت حبَّها".

ومن ثم فمشاعر القلب في تلك الفترة ليست مذمومة في ذاتها، إنما المذموم ما قد ينتج عنها من أمور حرَّمها الله، ولكن تُحمد تلك المشاعر إن نتج عن الخطبة زواج بين طرفيه؛ اتباعًا لقوله صلى الله عليه وسلم: "لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح".

وأما عمل العين فهو النظر، ومعلوم أن الله قد أمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر فقال تعالى: **(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن..)** [النور: ٣٠، ٣١]، ومع أن المخطوبة ما تزال أجنبية عنه فحكم النظر إليها استثناء على هذا الأصل، حيث جاءت به نصوص السنة النبوية، والقاعدة أن الاستثناء لا يُتَوَسَّعُ فيه. ولا خلاف بين الفقهاء في (جواز) النظر إلى المخطوبة؛ وإن كان قد (استحبه) بعضهم، بل (**أوجب**) بعض الفقهاء النظر إلى المخطوبة.

من خرافات فترة الخطبة: تصديق الأبراج والعمل وفقا لها

مما يجب على الخاطبين (بل وكل مسلم متزوج أو غير متزوج) تجنُّب الخرافات التي ظهرت بين قطاع من الناس نتيجة لجهلهم بأمر دينهم ولخلل في عقيدتهم؛ وهو تصديق الأبراج وترتيب أمور الحياة وفقًا لها، كما في ربط أمر إتمام الزواج بمدى إخبار الأبراج بإمكانية التوافق بينهما وأن يتم تحديد العلاقة بين الطرفين وفقًا لمدى إظهار الأبراج لصفات الطرفين ومدى إمكانية حدوث التوافق بينهما.

ولا شك أن هذا خلل كبير في الثقافة المجتمعية عامة والثقافة الدينية خاصة، وأن هذا غياب للمعرفة الدينية؛ فهذا التصرف نوع من الكهانة والتنجيم والرجم بالغيب الذي حرَّمه الله سبحانه وتعالى، وهو من نواقض الإيمان بالله جلَّ وعلا، قال عبد الله بن مسعود: «**من أتى عرافا أو كاهنا يؤمن بما يقول فقد**

كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». وصَحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**من أتى عرافا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**".

الفصل الثاني

الخطبة والزفاف من منظور اقتصادي

تشيع في مجتمعنا ثقافة زواجية تتعلق بفترة الخطوبة وما فيها من ترتيبات مادية ومالية تتسبب في الكثير من معوقات الخطبة الناجحة والزواج الناجح. فعلى الرغم من سموِّ التشريع المتعلق بالمهر إلا أن المجتمعات تضيف الكثير من المطالب، ويتَّفق الجميع على أن التكاليف المالية للزواج أحد أركانه، وفي بعض الحالات الركن الأساس؛ وعادة ما يكون هو السؤال الأول عند التقدُّم للخطبة، كما يتَّفق أكثر المعنيِّين على أن تأخُّر سنِّ الزواج وربما العزوف عنه الذي أصبح ظاهرة في المجتمع إنما يعود إلى ارتفاع تكاليف الزواج مع تدنِّي الوضع الاقتصادي؛ مما أثَّر بالسلب على الإقبال على الزواج وأصبح السن الطبيعي للزواج يذهب إلى ما فوق الثلاثين عامًا.

ومن منظورنا فإن البُعد المادي أو المالي للزواج هو ركن ركين سواء من حيث التأسيس أو إدارة الحياة الزواجية؛ فالمهر ركن في عقد الزواج، وإنفاق الرجل على بيته ركن في استمرار المعيشة واستحقاق حقوقها، والسمات التي تصاحب الإنفاق من الزوجين تشِي بخصائص شخصيةِ كلٍّ منهما من الكرم والبخل، والإسراف والاعتدال، والتقدير للآخر وعدمه، لذا فمن الأهمية بمكان إعارة هذا الجانب اهتمامًا كافيًا.

ولكننا في هذا الموضع نشير إلى عادات تصاحب الخطبة من المنظور الاقتصادي والمادي بما فيها من أمور عادية وأمور أخرى ينبغي إصلاحها؛ ومنها:

ثقافة الشباب عن تكاليف الزواج في الطبقات المختلفة

تتمحور المصاريف الأساسية للزواج في مصر في الشقة والشبْكة والأثاث والزفاف، ولكن هناك العديد من التكاليف المالية التي ربما يمكن اعتبارها مصاريف غير أساسية، مثل الهدايا، والخروجات، وجلسات التصوير والتي بدأت تصبح من متطلبات الزفاف، ولكنها تختلف في كميتها ونوعيتها والنظرة إليها من طبقة إلى أخرى.

وتختلف الثقافات حول تكاليف الزواج مع اختلاف الطبقات في المجتمع، فالمناسب والضروري لطبقة ما ليس بالضرورة أن ترضى به الطبقات الأخرى، فالطبقة الغنية لها معاييرها عن جودة الحياة، وينطبق الأمر ذاته على الزواج وتكاليفه بالنسبة للشباب من هذه الطبقة. وإذا كان الأغنياء يسرفون في تجهيزات الزواج؛ فإن المشكلة نفسها تواجه الطبقة المتوسطة والدنيا، سواء في توفير منزل الزوجية وتشطيبه، أو أثاث المنزل وتفاصيله، أو اختيار الشبْكة، أو الزفاف ومشتملاته من عناصر زينة العروس وفستان الزفاف... إلخ.

يعد ما سبق التكاليف الأساسية للزواج، ولكنه له أيضًا تكاليف غير أساسية، تعد ذات تكلفة عالية ومرهقة بالنسبة للطبقات المتوسطة والفقيرة، منها على سبيل المثال: هدايا ومواسم الخطبة، وجلسة التصوير (فوتو سيشن)، وشهر العسل، وهناك تكاليف أخرى لا يتم الحديث عنها؛ مثل: تكاليف الخروجات التي تتم في فترة الخطوبة و التي أصبحت من المتعارف عليه حتى تكاد تصبح تقليدًا أساسيًّا.

وفي ظل الوضع الاقتصادي الحالى والمرشح للاستمرار في الفترة المقبلة، ومع زيادة نسبة التضخم أصبح متوسط التكلفة لشراء الجزء الخاص بالعروس لتأسيس المنزل لا يقل في الغالب عن ٢٥٠ ألف جنيه (ما يعادل بمتوسط سعر الدولار ٢٠٢٠ نحو ١٥٠٠٠ دولار أمريكي)، وهو مبلغ كبير بالنسبة للمجتمعات الغربية، فكيف به في مجتمعاتنا؟ إن هذا الوضع يفرض الكثير من الأعباء على الأهالي، خاصة النساء المعيلات اللائي ينهضْن منفردات بتجهيز بناتهنَّ مما يعرِّض هذه الأسر للاستدانة، ومع تكاثرها وعدم تسديدها من الممكن أن يتعرَّض العائل –في كثير من الأحوال– للسجن؛ وذلك كله من أجل الحفاظ على بعض تقاليع متحوِّلة إلى تقاليد بغير عقل ولا بصيرة.

إن الأمر هاهنا لا يستدعي غير التركيز في أسباب الشراء؛ فإن كانت ثمة حاجة له فيتم الشراء وإلا فلا داعي للكماليات في حالة الطبقتين المتوسطة والدنيا. وإذا كانت الداعي للشراء هو المظهر أمام الآخرين فينبغي التخفيف فيها قدر الإمكان، خاصة أنه ليس من الواجب –شرعًا ولا عقلا– شراء كل هذا القدر أو بكل هذه التكلفة.

إلى أي مدى تؤثر الظروف الاقتصادية على فرص الزواج؟

في دراسة أجريت في كلية الآثار جامعة القاهرة قائمة على البحث الميداني أوضحت أثر العامل الاقتصادي في الزواج تبعا لعدة متغيرات هامة وهي:

- ارتفاع معدلات البطالة بين الفئات العامة للشباب: إن ارتفاع معدلات البطالة وانحسار الوظائف وفرص العمل أمام الشباب حالت دون حصول الشاب على فرصة عمل تدر عليه دخلًا ثابتًا يمكنه من تحمُّل أعباء الزواج. وقد أثبتت الدراسات والنتائج الأخيرة التي تمَّت بمصر ارتفاع معدلات البطالة على الصعيد العام سواء بين الرجال أو النساء، وتبلغ نسبة البطالة بين النساء أكثر من ثلاثة أضعاف النسبة بين الرجال. وتوضِّح مؤشِّرات البطالة في مصر واختلافاتها بين الحضر والريف إلى أن معدلات البطالة في تزايد لكلٍّ من الرجال والنساء، وإذا وجد الشاب عملا فإنه يصعب عليه العثور على مسكن ليتزوَّج فيه، وهكذا يمتنع عن الزواج ما دام غير قادر مادِّيًّا.

- غلاء المعيشة وارتفاع تكاليف الزواج والظواهر المصاحبة للزواج نفسه؛ واستمرار ثقافة الإسراف والاستهلاك بغضِّ النظر عن ظروف الأسرة نفسها، فكل ما يهم بعض الشباب وكثيرات من الفتيات هو أن يستمتع الفرد بلحظات الخطبة وصولًا إلى الزفاف.

- ارتفاع المهور والمغالاة فيها هو أحد أهم القواسم المشتركة لارتفاع العنوسة في المجتمعات العربية، فضلًا عن التشدُّد في تحديد مواصفات عش الزوجية والأثاث، والتي تفوق قدرة ودخول أغلب الشباب. فنجد أن معظم أهالي الفتيات مقتنعون بأن جميع الأجهزة والأشياء التي كانت تعدُّ سابقًا من الكماليات أصبحت اليوم من أساسيات الزواج التي لا يمكن الاستغناء عنها، حتى وإن كان أغلب الناس غير قادرين على توفيرها. كل هذه المطالب دفعت الشباب إلى الهروب من هذه التجربة المكلفة.

- عدم تفهُّم كثير من الأسر للتحوُّلات الاقتصادية وما صاحبها من أزمات وتغيرات اجتماعية، فهي لا تزال تطلب ممَّن يتقدَّم للزواج من بناتها مطالب ينوء بها ويعجز عن تلبيتها. والغريب في الأمر أن هذه الأسر يكون لديها أبناء ذكور وتنعى على غيرها من الأسر مبالغتها في المطالب ذاتها، وهذه ازدواجية مرَضية آن الأوان للتخلُّص منها ومواجهة الأمور في واقعنا المعاصر بما يجعلها تساير الظروف الاجتماعية والاقتصادية. فحلم فارس الأحلام الذي يمتلك شقة كالقصر وسيارة فارهة ويقدم شبكة ماسية.. إلخ. هذا الحلم لا بد أن يتراجع الآن لما آل إليه المجتمع من تحولات كثيرة أهمها التحولات الاقتصادية.

ونستنتج من هذا أن الوضع الاقتصادي له علاقة في تراجع معدلات الزواج في السنوات الأخيرة داخل كل فئة أو بين فئة وأخرى، حيث إن المرأة التي تعيش في أسرة غنية لا تستطيع -بلا شك- أن تعيش مع رجل فقير (وهذا هو الصواب في ظل المعايير المذكورة أعلاه ومنها التكافؤ والتناسب).

لقد كان من أثر التغيرات البنيوية التي طرأت على المجتمع المصري وما صاحبها من ارتفاع هائل في الأسعار أن أصبح الزواج —في رأي البعض- نوعًا من الرفاهية أو الحظ العالي الذي لا يستطيع كثير من الشباب التمتُّع به خاصة إذا حاول تحقيق هذه الرفاهية في ضوء قيم الاختيار التقليدية. وعلى الرغم من أن الزواج يعد من أهم الحقوق الإنسانية إلا أن الظروف الاقتصادية المعاصرة تقف حائلًا دون حصول الشباب على هذا الحق بنفس السهولة التي كانت تتوفَّر للشباب في الفترات السابقة[١٣٦].

١٣٦ حسن أحمد غلاب وأخرون، الزواج العرفي، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٦٤ ٢ عزيز أحمد الحسني المرجع السابق صـ ٣٩٢. ٢ نادية رضوان، الشعب المصري المعاصر وأزمة القيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م صـ ٢٤٦. ٣٢٠

الفصل الثالث

الخطبة أم الفسخ؟

مشكلات وحلول

لا تخلو مرحلة حياتية ولا زواجية من مشكلات صغيرة أو أزمات كبيرة، وما ينبغي أن نفكر فيه دائمًا أن لكلِّ مشكلة حلًّا أو حلولًا ومخارج، فإن استعصت واستحالت على الحل؛ فالحل هو الحل كما يقال، أي التفرُّق عملًا بقول الله تعالى: **(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته)**.

وتتعدَّد المشكلات المرتبطة بالخطبة وتتنوع حسب النمط الذي تنشأ به. وقد قدَّمنا فيما سبق إشارات إلى عوامل عدَّة مما قد يصنع مشكلات هذه الفترة، ويمكن إجمال هذه العوامل في هذا الموضع في قسمين مختلفين، وقد يؤدِّي أحدهما إلى الآخر: مشكلات قابلة للتعامل معها توعية وتفهيما، وإصلاحًا وتصحيحًا؛ وهذه نُعْنَى بحلولها، ومشكلات من نمط آخر يكون الأفضل فيها اتخاذ قرار الفسخ وإنهاء الخطبة ونبحث تبرير ذلك ونميِّزه عن غيره.

أولا– حلول مشكلات الخطبة المعتادة

من مشكلات الخطوبة التي يمكن اعتبارها طبيعية تلك التي تتعلق باستمرار التعارف ويمكن التغلب عليها بمزيد من التعارف، والأخرى ما يتعلق بظروف كل طرف التي قد تطرأ عليه والتي ينبغي مراعاتها باعتبارها غير ثابتة، ومنها بعض مشكلات الخطبة التي أصبحت طبيعية اليوم لتعلُّقها بمعرفة وثقافة كلٍّ من الخطيبين عن الزواج ومستلزماته حيث يعاني الجيل الراهن من ضعف شديد في هذه الثقافة.

ويمكن الإشارة إلى نماذج من تلك المشكلات العادية التي تمر بها مرحلة الخطبة وإلى مقترحات لكيفية التعامل معها على النحو الآتي:

١– عدم الوعي بهدف مرحلة الخطبة:

حين يظهر في الخطبة أن الخطيبين او أحدهما لا يعي مغزى الخطبة على نحو ما سبق بيانه، فينبغي على الأهل –أو من يقوم مقامهم– التذكير بأن الهدف الأساسي لهذه المرحلة هو ما أسميناه **اختبار الاختيار**؛ أي حسن التعارف بين الشريكين والتأكُّد من فهم كلٍّ منهما سمات شخصية الآخر وطباعه للتأكُّد من توافقهما وقدرتهما على إتمام الزواج والاستمرار معًا، والتحذير من الاستغراق في إعداد المستلزمات المادية للزواج حتى تمضي دون تفاهم جيد بين المخطوبين.

وإذا كان أكثر الشباب والفتيات اليوم لا يملكون من المعرفة والثقافة ما يؤهِّلهما لخوض تجربة ممنهجة أو منظمة، بل إن كثيرًا من أمهاتهم وآبائهم يغفلون عن هذه الحقيقة، فإنه يجب التوعية بهذا الهدف من

خلال المثقفين والمتخصّصين من الخبراء والعلماء والدعاة والإعلاميّين وأن تكرّس الجهات التعليمية والتثقيفية والتأهيلية برامج وجهودًا خاصة لهذا الغرض. وينبغي على برامج التأهيل الزواجي أن تركّز على هذا الجوهر: إن أهم مهام الخطبة الناجحة هي تأكيد التوافق والتأكُّد منه. وعليه، فإن فترة الخطبة التي هي فترة اختبار للطرفين قد تنتقل إلى الزواج انتقالًا ميسورًا وقد تنتهي فيها العلاقة بين الطرفين لعدم توافقهما.

٢- تشوُّه التصورات حول كيفية التعارف بين الشريكين:

إن تشوُّه التصورات وسوء فهم كل من الشريكين للآخر وتراجع التوافق بينهما؛ قد ينتج عنه سرعة ظهور مشكلات كثيرة بعد الزواج نتيجة وجود اختلافات جوهرية بين الزوجين أو وجود عيوب غير محتملة لم يكتشفاها قبل الزواج أثناء فترة الخطبة. وينصح فيها الخطيبان بتحكيم العقل أكثر من العاطفة دون إلغائها، وأن يكون الحوار البنَّاء والمستمر هو أساس العلاقة بينهما أثناء الخطوبة، وكذلك الحرص على المصارحة والشفافية مع الذكاء الاجتماعي.

فينبغي على الخطيبين أن يعرفا أن وسيلة التعارف الأولى ليست الظنون ولا التوهُّمات ولكن التحادث والسؤال والجواب لا المساءلة ولا الاستجواب، وأن التقدير المتبادل من خلال الاستماع المتبادل يكسر كثيرًا من الجليد. ومن ناحية أخرى فإنه لا يلزم من التعارف مطلقًا تخلّي الفتاة عن حيائها ولا الفتى عن عفافه، وأنه ينبغي دومًا مقاومة نزوعات التخلّي عن القيم في علاقة غير مكتملة المشروعية.

٣- مشكلة التحير في العاطفة:

حين يتساءل الشخص هل هو فعلا متقبّل لطرف الخطوبة الآخر وهل هذا الآخر يميل إليه فعلًا؟ فإن هذا قد يتسبَّب في تنغيصات غير مفهومة لكليهما، ومشكلات لا تجد لها أساسًا موضوعيًّا. وفي هذه الحالة، ينبغي عمل اختبارات العاطفة من الابتعاد قليلًا وعدم التحادث لأيام ثم النظر: هل ثمَّة رغبة أو شوق إلى رؤية الآخر، فإن لم يكن فثمَّة مشكلة حقيقية وتحتاج لوقفة، وإلَّا فإن الاشتياق دليل الحب. ولا شكَّ أن استشارة المقربين من العقلاء في هذا الصدد أو خبير إرشاد زواجي قد تكون هي الحل الأنسب.

٤- تصنع الطرفين أو أحدهما وتكلفه:

المؤمن لا يكذب أبدًا، إلا في المواطن التي أجاز الشرع فيها ذلك. والصدق هو حاله دائمًا، لأنه سبيل نجاته في الدارين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق، ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكْتَب عند الله صدِّيقًا. وإيَّاكم والكذب، فإنَّ الكذب يهدي إلى الفُجُور، وإنَّ الفُجُور يهدي إلى النَّار، وما يزال الرَّجل يكذب، ويتحرَّى الكذب حتى يُكْتَب عند الله كذَّابًا).

ومن ثم ينبغي، بناءً على أن الأصل في المسلم الصدق، أن يُبنى الزواج على الصدق والوضوح أيضًا، وأن يكون كلٌّ من الخاطبين صادقًا في إخباره عن نفسه وحياته وما يقصد إليه، ليكون كلٌّ منهما على بيِّنة من أمره، هل يقدر على المشاركة في تلك الحياة، ويرْسو بتلك السفينة إلى بر الأمان، أم أن دخوله فيها سبب لغرقها وتدميرها.

فالتصنع الكاذب من الطرفين يعطي للآخر شكلًا معيَّنًا للزواج، ربما لم يكن يحلم به، ثم إذا ما كشفت الأيام بعشرة الزواج عن الحقيقة، تأتي الصدمة التي قد يتأقلم معها الزوجان، أو يتداركها بعد أن تقع مشكلة ما لا يستطيعها الطرفان، فينتهي الأمر بفشل هذا الزواج، بطلاق أو خلع.

وإذا وقع من أحدهما تكلُّف أو تصنُّع في تلك الفترة، فمن الوفاء ومن المروءة التي حث عليهما الشرع أن يداوم عليهما بعد الزواج.

٥- اعتبار البعض الخطبة كالعقد:

ليس للخاطب أن يعرف كل صغيرة وكبيرة عن مخطوبته، أو أن يشترط عليها أن تستأذنه في كل حركة لها: فإن أذن لها أقدمت وإلا فيجب عليها أن تمتنع طاعة له. فيتوهَّم بعض الخطاب أن طاعته واجبة كطاعة الزوج أو أقل درجة، فلا تخرج مخطوبته إلى أي أمر إلا بإذنه، حتى ولو أذن لها ولي أمرها. كما يعتقد البعض أنه يجب على مخطوبته أن تخبره بكل شيء حدث لها في يومها.

ولا شكَّ أن هذا الأمر خطأ بيِّن، ولا يعترف به الشرع الحنيف من قريب أو بعيد. فالمخطوبة أجنبية عن خطيبها، فليس له عليها طاعة واجبة، كما أنه لا حقَّ له في ذلك.

٦- مغالاة الناس في المهور:

ظاهرة المغالاة في المهور متأثرة بجهل الآباء والأمهات بأمور دينهم، ونقص الثقافة الدينية وقلَّة الوازع الديني عند كثير منهم، الأمر الذي يجعلهم يقدِّرون العادات والتقاليد أكثر من استجابتهم لأمر دينهم.

فغلاء المهور –كما أخبرت به النصوص الشرعية ووقائع الحياة اليومية- من أسباب الشقاء والتعاسة في الحياة الزوجية؛ إذ تنزع البركة من بيت حاله هكذا، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يمن المرأة أن يتيسَّر خطبتها، وأن يتيسَّر صداقها، وأن يتيسَّر رَحِمُها، قال عروة: يعني يتيسَّر رَحِمُها للولادة، قال عروة: وأنا أقول من عندي: من أول شؤمها أن يكثر صداقها"، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعظم النساء بركة أيسرهن صداقًا".

وإذا كان الناس يتوهمون أنهم بغلاء مهور من في ولايتهم، أنهم قد حافظوا عليهم، وضمنوا لهم بذلك الكرامة، فالواقع يثبت عكس ذلك، فكيف لبيت يقوم على الديون والأثقال أن يكون سَكَنًا لصاحبه، أو أن تُرفرف المودة في جنباته؟ فالغالب أن لا يقع ذلك. فتلك المغالاة قد تتسبَّب في إفشال الزواج وتؤدِّي إلى التعاسة؛ وذلك من خلال العداوة التي قد تتربَّى في نفس الزوج من جرَّاء الأعباء والديون التي أثقل بها من زواجه، فتمتلئ نفسه عداوة لزوجته وأهلها، ثم يبدأ مسلسل التربص للصغير منهم قبل الكبير، فينقلب الحب بغضًا، والمودة عداوة، والسكن حقدًا وشقاء.

٧- خوف العوز بعد الزواج:

ويكون هذا بسبب غلاء المعيشة أو الخوف من المسؤوليات المالية بعد الزواج. وهذا المسلك منشؤه من الجهل بالشريعة، ولعلَّ هؤلاء لم يعلموا ما في الزواج من بركة، وما وعد الله به من الخير لمن اتقاه فيما أمر من أمر النكاح، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]، فهذا وعد الله بالغنى لمن طلب الزواج طمعًا في رضاه واعتصامًا من معاصيه، متمسكًا بتقوى الله فيه. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : "أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى"، فمن قصد بالنكاح مقصدا حسنا يحبه الله ويرضاه، كمقصد العفاف، فحقٌّ على الله تعالى أن يُعينه، وأن يبارك له في زواجه، قال (صلى الله عليه وسلم): "ثلاثة حق على الله عونهم، المكاتب يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله".

٨- عدم ملاءمة فترة الخطبة:

فقد يصرُّ الأهل على قِصرها، فتُستغرَق في الإعدادات المادية وعدم قدرة الطرفين على التعارف والتفاهم. أو في المقابل قد تطول فترة الخطبة لمدة أطول من اللازم فتظهر مشكلات أكبر.

ثانيا- الموقف من مشكلات خاصة

١- عدم التوافق بين الطرفين في الطباع:

هذا ممَّا قد يؤدِّي إلى صدامات متعدِّدة قبل الزواج وبعده. وتتعدَّد الأسباب التي تؤدِّي إلى هذه الحالة، أبرزها:

١. عدم فهم الطرف لنفسه في البداية، فلا يدرك قبل الزواج أن هناك اختلافًا في الطباع بينه وبين شريكه. فيكتشف أحد الطرفين بعد الزواج أن طبعه لا يتوافق مع هذا الطبع أو ذاك في شريكه.

٢. فقدان الوعي باختلاف المرأة عن الرجل، إذ إن قليلًا من الرجال والنساء من يدركون أن الرجل والمرأة يختلفان في تركيبهما الجسدي والنفسي؛ فالمرأة تختلف عن الرجل في طباعها واحتياجاتها ومتطلباتها وزاوية رؤيتها للأشياء.

٣. التسرع في الاختيار قبل التأكُّد من تكافؤ الطرفين أو توفُّر الصفات المطلوبة في الطرف الآخر.

٤. التنازل عن بعض الصفات الأساسية المطلوبة في الشريك، مقابل تحقُّق جوانب أخرى مادية أو شكلية.

٥. عدم فهم الطرفين لضرورة التنازل للوصول إلى أرض مشتركة للحياة عليها، فثقافة العناد تعدُّ من أكبر المشكلات في هذه الفترة.

وغالبًا ما تصيب الحيرة أحد الطرفين أو كليهما فيما يتعلَّق بأمر اكتمال فترة الخطوبة أم لا، وذلك عندما يتم اكتشاف بعض الخصال غير الملائمة في الطرف الآخر، واختلاف الطرفين في العادات والتقاليد والميول والاهتمامات؛ مما قد يُنبيء بعدم التوافق في مرحلة الزواج. ولا شك أن المخرج الأساسي من الحيرة هو إعمال ميزان المصالح والمفاسد أو المكاسب والخسائر؛ بحيث يكون القرار في أي من الاتجاهين عن بينة وبصيرة.

٢- التنقيب عن ماضي الطرف الآخر:

من الأخطاء التي يقع فيها البعض أن يسأل أحد الخاطبين الآخر عن حالة الآخر العاطفية قبل الخطبة، هل هو الحب الأول في حياته أم سُبِقَ بحُب؟ هل للطرف الآخر علاقة سابقة على الخطبة أو الزواج بغيره؟

فالخوض في تلك التفصيلات من الأخطاء التي يقع فيها بعض الخطاب اليوم، والتي قد تؤدِّي الصراحة فيها، أو الخوض فيها قبل الزواج أو بعده، إلى تهديد للزواج أو إفشال له. وربما ولَّدت تلك الصراحة في نفس أحدهما ضعف الثقة في الشريك الآخر، وسوء الظن به طيلة العمر، وهو بريء من تلك الريبة والشكوك.

فمن أقدم على خطبة امرأة بعد أن تحرى عن صلاحها وعن أهلها، واستشار واستخار، وكذلك من قَبِلَتْ خطبة رجل بعد أن رضيَت ورضِيَ أهلها دينه وخلقه، واستخارت واستشارت، فلا يحلُّ لأيٍّ منهما أن يسأل مثل تلك الأسئلة التي ربما كان الصدق فيها، سببًا لتدمير الحياة الزوجية بعد ذلك، أو ربما أدَّت إلى هتك أسرارٍ أمر الله بسترها.

والأدهى من ذلك أن البعض قد يتعدى مرحلة السؤال إلى البحث والتجسس، كمحاولة بعضهم التوصُّل إلى الرقم السري الخاص بأجهزتهم الإلكترونية وما تحتويه، وهذه الأفعال لا تجوز في ميزان الشرع،

إذ تشتمل على محرَّمات، منها: سوء الظن والتجسُّس وتتبُّع عورات الناس، وكل ذلك منهي عنه بنصوص صريحة من القرآن والسنة. فتتبع أخبار الناس والتجسُّس عليهم محرَّم، سواء كان في البحث عن عيوبهم أو للاطلاع على أخبارهم.

والتجسُّس صورة من صور ضعف الإيمان والوازع الديني، وهو دليل على دناءة النفس وخسَّتها، فمن ظهرت فيه صفة التجسُّس تجاه الطرف الآخر، فيُنصح هذا الآخر أن لا يُتَمِّمَ أمرَ هذا الزواج. ومن صور التجسُّس محاولة الاطلاع على ما يخفيه الناس عن غيرهم في هواتفهم أو أوراقهم أو صورهم ونحو ذلك.

ومن خطايا هذه الفترة ما يحصل أحيانًا من تباهي الشاب بخبراته السابقة مع الفتيات، فهذا الأمر ليس مصدرًا للتباهي، بل سيجعل الطرف الآخر (الفتاة) مُتحفِّزة ومُتصيِّدة للأخطاء، ومُتردِّدة في إكمال فترة الخطوبة لمجرد الاعتراف المبالغ بوجود علاقات سابقة، ولكن هذا لا يعني أن الصراحة غير مطلوبة بل هي مطلوبة بدرجة ما طالما لا يضُر الأمر الإفصاح عنه بغير استفاضة مبالغ بها.

٣- سمات الشخصية المضطربة:

هناك بعض سمات الشخصية التي من شأنها أن تُنبئ بعدم اكتمال مرحلة الخطوبة، وعدم تكيُّف الطرفين مع بعضهما بسببها. ومن هذه الخصال الشخصية المضطربة "الشخصية غير الناضجة انفعاليًّا"، فقد نجد أحد الطرفين قليل الصبر، ومتقلِّب المشاعر، وغاضبًا لأسباب تافهة، وغير قادر على ضبط الذات، ونجده أكثر تركيزًا على الجوانب الغريزية دون أخذ في الاعتبار للنتائج المترتِّبة على هذا السلوك. ويلجأ هذا النمط من الشخصية إلى استخدام الدفاعات النفسية مثل إلقاء اللوم على الآخرين، أو الشكوى من اعتلال الصحة، أو الهجوم اللفظي العنيف لمواجهة الموقف. ويعتبر هذا النمط من الشخصية نمطًا مضطربًا غير ناضج، ويُمكن أن يُطلق على هذا النمط "أطفالًا في سن البلوغ".

ومن الشخصيات المضطربة أيضًا "الشخصية النرجسية"، وتمُرُّ العلاقة العاطفية مع الشخصية النرجسية بثلاث مراحل، تبدأ بمرحلة المثالية والتقييم الزائد، ثم مرحلة التقليل من قيمة وشأن الطرف الآخر، ثم الوصول إلى المرحلة النهائية وهي مرحلة التجاهل. ففي المرحلة الأولى يكون الشخص النرجسي حريصًا كلَّ الحرص عند اختياره لطرف العلاقة الآخر أن يظهر في أبهى صُوَرِهِ ليكون جذَّابًا، فهو يبذل قصارى جهده من أجل جذب انتباه الآخر، فيبدأ في الرعاية المفرطة للطرف الآخر حيث يهتمُّ بكافة تفاصيله، الصغيرة منها قبل الكبيرة، مع المزيد من الاهتمام، والبدء في وضع الخطط المستقبلية ورسم الآمال والأحلام لحياة مثالية سعيدة، ليجد الآخر نفسه محط اهتمام، محاطًا بحياة مثالية ليعتقد بأنه وجد توأم روحه ورفيق دربه وأحلامه. وفي المرحلة الثانية، حين يتأكد الشخص النرجسي من حب الطرف الآخر له وتيقُّنه من كونه الملجأ الوحيد والملاذ الآمن، يبدأ الشخص النرجسي في إسقاطه لأقنعته والكشف عن شخصيته

الحقيقية، إذ يختفي الاهتمام المبالغ فيه لتظهر اللامبالاة على تصرفات الشخصية النرجسية بصورة واضحة، فقد تمُرُّ الأيام والأسابيع دون رؤية الطرف الآخر أو الاتصال به والاطمئنان عليه، مما يُصيب الطرف الآخر بالارتباك والحيرة، فهو لا يدري ما الذي طرأ، ليبدأ في التساؤل عن ماهية الخطأ الجسيم الذي ارتكبه والذي أدَّى إلى هذا التحوُّل المفاجئ. وبعدها يجد الطرف الآخر أن التحول لم يتم بناؤه على ذنب واضح، بخلاف كونه وقع كشريك لشخصية نرجسية يصيبها الملل بشكل مفاجئ وسريع. ويتعمد الشخص النرجسي التقليل من شأن الطرف الآخر، وإلقاء اللوم عليه.

كما تعتبر "الشخصية الاعتمادية أو الاتكالية عاطفيًّا"، أو ذات التعلُّق العاطفي المَرَضِي من الشخصيات المضطربة التي تكثُر معها المشكلات أثناء فترة الخطوبة، والتي تُشير إلى تعلُّق الشخص المفرط بعلاقة عاطفية، ويعتمد في استقراره وتوازنه النفسي على الأمور الخارجية والأشخاص الآخرين، ويستمد قيمته وهُويته من غيره. ويجب أن نعي بكون الشخصية الاعتمادية تدفعنا نحو سلوكيات وعلاقات هدَّامة لا تجعلنا نتقدَّم إلى الأمام بل نقف في أماكننا مصابين بالمشكلات النفسية والاجتماعية، بل وقد يصل الأمر إلى الإصابة بالأمراض النفسية، فهي طريقة غير واعية في التعامل قد يقوم بها شخص ما بصورة تلقائية لأنه يكون قد اعتادَ عليها في الطفولة وأصبحت جزءًا منه. وتُمثل المهارة الأساسية عند كلِّ الشخصيات الاعتمادية السيطرة على الآخرين بشكل مباشر أو غير مباشر، فكل اعتمادي يميل إلى أكثر من نمط من أنماط السيطرة حسب ظروف ونوعية العلاقات التي عاشها في طفولته. وعلى الطرف الآخر من هذه الشخصية تكون الشخصية الناضجة التي تُحقِّق التوازن بين الحاجة للعلاقات الاجتماعية والتعامل مع هذه العلاقات باحترام وتقبُّل دون سيطرة، فالعلاقات الصحية تلك التي تتضمَّن الأخذ والعطاء وتحقيق مصلحة الآخر ومصلحة الذات؛ لأن الشخصية الناضجة تشعر بقدرٍ كافٍ من الأمان ولا تميل إلى السيطرة في العلاقات.

ويجب الإشارة إلى أن مثل هذه الخصال يكتسبها الفرد ويتعلمها من خلال أساليب التنشئة الأُسرية المتبعة منذ مرحلة الطفولة وحتى الرُشد، وبناءً عليه فالأساليب التربوية الصحية السلمية التي تُفصح عن التقبُّل غير المشروط، والتقويم الإيجابي، والتعبير عن الحب وتطبيقه ومن ثم يحدث الاستقرار العاطفي، والاحترام والمدح الذي يترتَّب عليهما الثقة المرتفعة في الذات، وعدم عقد المقارنات التي من شأنها أن تخلق الغيرة والتمرُّد، ومدح الصواب وتصويب الخطأ الذي يُمكن أن يُنبئ بفعل إيجابي دائم، وغيرها من الممارسات التربوية الإيجابية، من شأنها جميعًا أن تُنتِج أفرادًا (زوجًا، وزوجة) أسوياء من الناحية النفسية والاجتماعية والجسمية والأخلاقية. أما عن الأساليب التربوية غير الصحية من قبيل النقد الجارح، والتسلُّط والتجاهل للسلوك السلبي دون التركيز على السلوك الإيجابي، والتقلُّب في المزاج والمشاعر، وعدم وجود نظام أُسري

مُتَّسق، وغيرها من الممارسات غير السليمة من شأنها أن تُنتِج شخصيات تسلُّطية، مُدَمِّرة، مزدوجة الشخصية، مُعادية للمجتمع، وغيرها من الاضطرابات الشخصية.

ومن الممكن علاج هذه الأنماط من الشخصية المضطربة من خلال اتباع بعض الإجراءات، ومنها:

- أن يعمل الشخص الذي يمتلك هذه السمة على فهم ذاته واكتشافها وتجنب الدفاع عنها، أو التبرير لها.
- الاعتراف والاستبصار بوجود مشكلة ومن ثَم السعي نحو حلِّها وتغييرها من خلال اللجوء إلى أهل الخبرة والتخصُّص.
- التواصل مع الطرف الآخر بشأن هذه الخصال، والمناقشة معه، والبحث عن كيفية تقبُّلها أو العمل على تعديلها وتغييرها.

٤- تدخل الأهل في حياة الطرفين بشكل مُبالغ فيه:

قد يؤدِّي هذا التدخُّل المبالغ فيه إلى حدوث مشكلات كثيرة في هذه الفترة، وتكوين انطباعات عن الأهل تقيم حاجزًا قويًّا في العلاقات فيما بعد إذا تمَّ الزواج. ويعدُّ هذا الأمر من أكبر مشكلات الخطبة في الوقت الحاضر نظرًا لازدياد مخاوف الأُسر من الفشل الزواجي ومن حدوث الطلاق المبكِّر ومن ثم يتكالبون على التدخُّل في شأن الزواج لا سيما في فترة الخطبة والسنوات الأولى للزواج. وفي ظل تراجع القدرات الوالدية والقدرات الاجتماعية لدى الشباب أنفسهم تتنازع أساليب ومفاهيم التعامل مع هذا التدخل.

وفي هذه الحالة ينصح بالحوار الصريح بين الأهلين وبين كل طرف وأهل الطرف الآخر؛ بحيث يعرب كل منهم عما يريده وعما يراه غير موائم ويستمع لردود الآخرين؛ حتى يتم الوصول إلى "كلمة أهلية سواء" يمكن أن تؤسِّس لنظام أو ميثاق تعامُل يوضِّح حدود وحقوق كل طرف تجاه الآخر. ومن ذلك تحديد مدى تداخل معيشة الأسرة الجديدة مع أسرة الزوج المنتظر ومساحات الخصوصية، وكذلك مدى تدخل والدة أو والد الزوجة المنتظرة في معيشتها ومساحة الخصوصية أيضًا، ثم طبيعة العلاقات بين الأسرتين من التزاور والتلاقي في المناسبات المختلفة. ويمكن أن يشتمل الميثاق (الشفوي أو المكتوب) على مرجعية يتم الرجوع إليها عند الخلاف من صديق مقبول ومسموع الكلمة من الطرفين أو شيخ كبير محلَّ ثقتهم أو مكتب إرشاد اجتماعي متخصص.. إلخ.

وقد تكون مثل هذه الطرق غير معتادة في مجتمعنا المصري، لكنها بدائل لأشياء كانت حاضرة وتمَّ التخلِّي عنها تدريجيًّا بفعل قوى التحديث والقضاء على الموارد الأصيلة للمجتمع من وجود كبير عائلة أو كبير منطقة أو شيوخ مشاهير يتم العودة إليهم وما شابه. لكن هذا المخرج مهم في حالة الرغبة في استمرار

الخطبة وتكليلها بالزواج، لكن في الحالة الأخرى فينبغي ألا يكون قرار الفسخ قائمًا على التكاسل والتقاعس عن حلول ممكنة لكنها تحتاج إلى إرادة إصلاح حقيقية: **(إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)**.

ولكن في حالة الإصرار على التدخل والتداخل بين أو من الأسرتين أو إحداهما أو بعض أفرادهما في الأسرة محل التأسيس بغير حدود ولا ضوابط، وبغير احترام لمساحات الخصوصية، فالموصى به هو الفسخ؛ لأنه ينذر بفشل زواجي كبير. إلا أن يكون الشاب أو الفتى قابلا لذلك ولديه من الدوافع للتكميل ما يعينه على تحمُّل هذا الإشكال وآثاره المستقبلية.

٦- حدوث كثير من المخالفات الشرعية في مرحلة الخطوبة:

ومنها الفوضى في العلاقة بين المخطوبين من حيث الالتقاءات والتواصلات السرية أو غير المعلنة للأهل والناس. فكثيرًا ما تقع في هذه المسافة مخالفات تتحوَّل إلى أجواء من التعكُّر والضيق، ثم عدم الثقة المتبادل ولا سيما من قبل الشاب تجاه مخطوبته، ومنها ما يتحول إلى مخاوف عدم البركة في عيشهما المنتظر. وبعض المخالفات تتعلق باستباحة أقوال غير مشروعة؛ ومنها ما يتعلَّق بالحب وما شابه ومنها ما يتعلَّق باستباحة التعدِّي اللفظي منه بشتم وربما المادي عليها بضرب أثناء الخطبة. هذه مشكلات تقع وتتزايد مظاهرها في ظلِّ تراجع الحالة الاجتماعية والثقافية والتربوية العامة.

قد يفكر الخطيبان أو أحدهما في فسخ الخطبة وإنهاء العلاقة لأي من هذه الأسباب، وقد يفكر أحدهما في الفسخ أو يهدِّد به لظهور معارضة من الآخر لاستمرارها بهذا الشكل؛ ما يُحْدِث أزمةً بينهما، بينما الحلُّ يسيرٌ جدًّا ومهم جدًّا في الوقت نفسه.

فالواجب هو سرعة الإقلاع عن مثل تلك الممارسات كلها جملة وتفصيلًا، والتوبة إلى الله تعالى واستغفاره منها، مع عدم البوح بها لأحد من باب "الستر" لا "التستر". والفارق بين الستر المحمود والتستر المذموم أن الأول يكون لفعلٍ مَضَى وتمَّ التوقُّف عنه، والثاني يتعلَّق بفعلٍ مستمرٍّ في الحاضر أو مستأنف في المستقبل. وهذه التوبة واجبة لقوله تعالى: **(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)**، وهي بمثابة فتح صفحة جديدة مع الله أولا ثم مع النفس ومع شريك الحياة المنتظر. وعلى من يعرفون هذا من حالهما مساعدتهما على التصحيح: **(فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما)**.

فإذا لم يمكنهما ذلك فالموصى به هو إنهاء العلاقة لما أثبتته الدراسات والمشاهدات الواقعية من أن مثل هذه العلاقات إذا انتهت بزواج من غير تصحيح الأوضاع فإن التصحيح يلحُّ بطريقة عكسية أثناء الزواج في صورة تحميل متبادل للمسئولية عن العلاقة الشائهة، وافتقاد الثقة حيث تراود الزوجة هواجس إقامة زوجها علاقات خارج الزواج، والأنكى هو أن يفقد الرجل ثقته في زوجته أو يرتاب في سلوكها، فهذا باب واسع إلى الفشل الزواجي ويجب تفاديه من البداية.

ثالثا– فسخ الخطبة: علاج التداعيات

إن الخطبة من الممكن أن ننهيها إذا قرَّرنا ذلك في أي وقت بعد الاستخارة والاستشارة، فهي ليست أمرًا حتمًا ينتهي بالزواج.

وبما أن الفسخ نهاية محتملة للخطبة؛ فعلى كلِّ طرف أن يدرك ذلك، وعلى مؤسسات التنشئة والتربية أن تغرس ذلك في نفوس أبناء المجتمع؛ ليكون الجميع واعيًا أن الخطبة هي اختبار للاختيار؛ وبالتالي يكون واضحًا في الذهن من البداية أن احتمالات النهاية متنوِّعة بين الفسخ أو الزواج، ومن ثم فإن هذه الثقافة هي التي ستحل المشكلات التي تترتَّب على الفسخ فلا يصطدم أيٌّ من الطرفين بالنتيجة وربما تكون هناك طرق ودية للفسخ لا يترتَّب عليها عداوات في المجتمع.

ومع ذلك فالفسخ أمر صعب، وخصوصًا عندما يكون الشخص الذي يفسخ الخطبة هو الطرف الآخر، ويكون الشعور بالحزن شيئًا طبيعيًّا نتيجة فقد الحبيب، وصدمة الفراق، وإعادة تنظيم المستقبل بشكل جديد؛ ممَّا يجعل الفرد يتخبَّط في كلِّ الاتجاهات لا يدري ما الذي يفعله، وما الذي يجب أن يتجنَّبه، حتى ولو كان قد مرَّ بتجربة الانفصال قبل ذلك.

التأهل النفسي/الاجتماعي بعد فسخ الخطبة:

لا بد أن نعترف أنه في بعض الأحيان يكون الحل الأمثل لإنهاء علاقة ليست قائمة على أسس قوية ومتينة، لذا فمهما كان سبب فسخ الخطوبة، لا بد أن يتم هذا الأمر بشكل لائق يخلو من الإيذاء النفسي وإثارة المشاكل.

ومن أهم النصائح قبل الإقدام على فسخ الخطوبة ما يلي:

أ. **التأكد من الرغبة الأكيدة في إنهاء الخطبة:** قرار فسخ الخطوبة لا بد أن يكون قرارًا نابعًا من النفس، فليحرص من يفسخ الخطبة أن تكون أسباب الفسخ واضحة أمامه، وليلقِ عليها نظرة سريعة قبل الإقدام على أي إجراء قد يندم عليه فيما بعد، مع الحرص على عدم الخضوع لأي ضغط من أجل استمرار علاقة لا يشعر بأي رغبة في الاستمرار فيها.

ب. **إبلاغ الطرف الآخر:** جرت العادة عند فسخ الخطوبة على إرسال وسيط لإبلاغ الطرف الآخر بالرغبة في فسخ الخطبة، ولكننا نؤكِّد اليوم على ضرورة الاعتماد على النفس في هذا الأمر، فقد يكون الأمر محرجًا؛ ولكننا نؤكِّد على هذه الخطوة لضمان وصول الرسالة بطريقة لائقة، وبطريقة تنم عن نضج الشخصية.

ج. **سرد الأسباب الحقيقية لفسخ الخطبة:** في بعض الأحيان نظرًا لحساسية الموقف يتم إخفاء الأسباب الحقيقية التي دَعَتْ لفسخ الخطبة، إمَّا حرصًا على المشاعر أو الاعتقاد في عدم جدوى

ذلك، ويقال عادةً (مفيش نصيب)، وقد يتم ذكر أسباب تافهة، ولكننا نؤكِّد على ضرورة ذكر الأسباب الحقيقية مع مراعاة أسلوب الحديث، واحترام كلِّ طرف للآخر واستخدام كلمات لائقة، بالإضافة إلى تفهُّم الموقف واحتمال وجود ردود أفعال غاضبة، أو رفض وإنكار هذه الأسباب.

د. **اختيار الوقت والمكان المناسبين:** اختيار مكان محايد للطرفين هو أفضل الخيارات تجنُّبًا لحساسية الموقف ومشاعر الخجل.

هـ. **عدم النظر للخسائر المادية:** إذا كان قرار فسخ الخطبة قرار فردي ويشعر من يتخذه أن الطرف الآخر يكن له مشاعر إيجابية؛ فلا بد أن تُحترم هذه المشاعر وألا يُتَعَمَّدَ التجريح وإسقاط التهم على الطرف الآخر لمجرَّد التخلُّص من الخطبة بأقل الخسائر المادية.

وهناك عدة أفكار لتساعدك على تخطي هذه المرحلة بنجاح منها:

أ. **قبول الوضع:**

لا بد أن تتقبل فكرة خروج هذا الشخص من حياتك، ويجب أن تتمتع بالمرونة؛ فالحياة تسير بشكل مستمر ولا تقف لعدم وجود شخص فيها؛ بل يجب أن تفكر في الخطوة القادمة.

ب. **فرصة للمراجعة وفهم النفس:**

رغم أن فسخ الخطبة حادث غير سعيد إلا أنه يكون أحيانًا فرصة ذهبية، ليفهم الإنسان نفسه ويدرك أن به عيبًا كان هو السبب في الفسخ، وعليه أن يبدأ في علاجه وفرصة ليفهم "الجنس الآخر" وأن هذا الجنس له طبيعة مختلفة عنه، وأنه يقيِّم الأمور ويزنها بميزان آخر، وفرصة ليفهم طبيعة العلاقة بين الجنسين، وكيف تنجح، ولماذا تفشل؟

ج. **الابتعاد عن كل ما يذكرك بالتجربة:**

لا بد من التخلص من كل شيء له علاقة بالتجربة، أو يذكرك بها، لأنه كلما كانت أعراضها موجودة أمامك كلما كان التغلب على هذه التجربة صعبًا، لذا يجب تجنُّب التعامل مع خطيبك/تك السابق/ة لأن مجرد رؤيته/ها يمكن أن تحرِّك مشاعرك وتجعلك تشعر بأنك مفتقد له/لها.

د. **عبِّر عن مشاعرك:**

لا بد أن تأخذ فرصتك في التعبير عن مشاعرك، لأن من الطبيعي أن تصبح حزينا وربما مكتئبًا لأنك فقدت شخصًا اعتدت على وجوده بحياتك، وكنتما ستتزوجان.

هـ. **القرار بالتغلب على الموقف:**

لا بد أن تأخذ قرارًا من داخلك بالتغلُّب على هذه الخطبة الفاشلة، وأن تصرَّ على ذلك، وذكِّر نفسك دائمًا أنك تتحكَّم بحياتك، وإذا اعتقدت بقوة أنك ستقابل شخصًا أفضل فهذا سيزيد من فرصة حدوث ذلك.

و. فسخ الخطبة أنجح من الطلاق:

يظن البعض أن فسخ الخطوبة له قيمة أعلى من الطلاق، ولكن هذا أمر خطأ، ففسخ الخطوبة لا يعد من الأشياء الكبيرة في المجتمع، لأنه وجد للتعارف فقط، فلا يعدُّ شيئًا كبيرًا كما يظن البعض.

القسم الثاني

المرحلة الثانية: إدارة الحياة الزوجية

(مقومات – مشكلات وحلول)

الباب الأول

مقومات إدارة الحياة الزوجية

يشتمل هذا القسم (الأكبر) من دليل الأسرة الناجحة على بابين كبيرين:

الباب الأول عن تأسيس حياة وإدارة علاقة زوجية ناجحة بداية من مقدمات مفاهيمية إلى مقومات الاستقرار الأسري في السنوات الأولى من الزواج فمقومات التوافق والسعادة الزواجية ودوام المحبة والتماسك الأسري.

ويتضمَّن الباب الثاني تفصيلًا لما يعترض مسار الحياة الأسرية، وفي قلبها العلاقة الزوجية، من عثرات أو خلافات أو مشكلات أو أزمات: تحليلًا وتعليلًا، بداية من مفهومي المشكلة الزوجية والأزمة الأسرية فأنماط ودرجات المشكلات وأهم مجموعاتها، ثم يأتي دور استراتيجيات الحل وإرشادات الخروج من المشكلات والأزمات، إجمالا وتفصيلا في عدد كبير منها على سبيل المثال لا الحصر.

الفصل الأول

مقدمات مفاهيمية وواقعية عن الحياة الزوجية

يشتمل هذا الفصل على مقدمات مفاهيمية وواقعية، تسعى لتعميق النظر في مفهوم "**الحياة الزوجية**" وقيمتها الاجتماعية والنفسية والشرعية وأنواع الأنماط الزواجية ومراحلها، وكذلك مفهوم "الأسرة" وتأسيس البيت؛ ومن ثم مفهوم "العلاقة الزوجية" التي تؤسِّس للتفاعلات داخل البيت، مع الإشارة إلى نظرة المجتمع الراهنة لهذه المنظومة من المفاهيم الأساسية.

أولًا – مفاهيم تأسيسية للحياة الزوجية

نؤكد في هذا المقام على معاني: الأسرة والزواج، وأنماط الحياة الزوجية بين الإيجابي منها والسلبي، ومراحلها، ومفهوم إدارة البيت، قبل التركيز على مفهوم العلاقة الزوجية وطبيعتها والعوامل التي تساعد على نجاحها.

أ) الأسرة والزواج

الأسرة وحدة اجتماعية نواتها الزوج والزوجة، تحكُمها مجموعة من الحقوق والواجبات؛ وهي الشكل الاجتماعي الشرعي المعترف به لإنجاب الأبناء. وقد تمتد الأُسرة حتى تضم الأجداد، والأحفاد، والأقارب الذين يعيشون فى معيشةٍ مشتركة وتحت سقف واحد، ويتفاعلون معًا وجهًا لوجه، وتسودها المودة والمحبة والرحمة، وتقوم الحياة فيها على التضحية والرعاية المتبادلة وتنشئة الأطفال وحماية كبار السن[١٣٧].

والأُسرة هي حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، أو الوسيط بين الثقافة وبناء الشخصية. وهي الوسط الإنساني الأول الذي ينشأ فيه الطفل، ويكتسب في نطاقها أول أساليبه السلوكية التي تُمَكِّنه من إشباع حاجاته وتحقيق إمكانياته والتوافق مع المجتمع[١٣٨]. ولا يتضمَّن النسق الأُسري "Family System" قدرة الفرد على الارتقاء، والتزاوج، والتعرُّف على هويته الشخصية فحسْب، وإنما يعكِس أيضًا الثقافة والقيم والتوقعات وقواعد المجتمع. وتؤدِّي التجارب والنماذج التي تضعها الأُسرة للطفل دورًا مُهِمًّا في ارتقاء سلوكياته وقيمه[١٣٩].

ولهذا فلا عجب أن جعل الإسلام تأسيس بيت الزوجية دينًا، والمحافظة عليه إيمانًا، وعدَّ مكافحة المخاطر التي تهدِّده جهادًا، واعتبر رعاية ثمراتها من بنين وبناتٍ جزءًا من شعائر الله(١٤٠). ولهذا لما ابتدأ الحديث في القرآن عن الأسرة تكلَّم عن كهف الإيمان الذي ينبغي أن يقصده من أراد الزواج، فيكون

---

(١٣٧) كمال إبراهيم، ٢٠٠٨.
(١٣٨) علاء الدين الكفافي، ١٩٩٩.
(139) Gunindi, Sahin & .Demircioglu, 2012
(١٤٠) ينظر: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: الشيخ/ محمد الغزالي، ص ١١٠.

الإيمان، وهو أعلى درجة من الإسلام، هو مقصد كلِّ مقبل على الزواج ذكرًا أو أنثى، فقال تعالى: **(وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)** [البقرة: ٢٢١].

ومن هذا المنظور فالزواج عبادة: هو آية من آيات الله تعالى الدالة على عظيم قدرته وواسع حكمته، قال تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً..)** [الروم: ٢١]، فمن آيات الله في الزواج؛ أن جعل كلًّا من الزوجين سندًا للآخر وسكنًا له، وخلق بينهما المودة والرحمة بحيث ينصهران في بوتقة الزوجية فتتوحَّد روحاهما وتأتلف نفساهما، ويتقاسمان الآمال والأهداف والأفراح والأتْراح، ويصيران كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى، كما قال تعالى: **(هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ)**.

والزواج وبناء البيت غايته الأولى هي السكن، والسكن نوعان: سكن نفسي، وسكن جسدي، وهما متوافران في الزواج. أما الجسدي فإن الزواج هو السبيل الشرعي الوحيد إلى قضاء الوطر وإشباع الغريزة البشرية المركبة في نفس الذكر والأنثى. وأما النفسي فما أسعد حال من يجد من يشاركه الحياة يسرًا وعسرًا، يفرح بفرحه، ويتألَّم لألمه.

فالزواج في هذا المنظور وسيلة لا غاية، والوظيفة الأولى والأعظم للبيت هي الحفاظ على الإيمان والعبادة، وترسيخ الخُلُقِ الشريف والمثُلِ العُليا! والزوجان الأبوان شركاء في أداء هذه الوظيفة، ونصيب الزوجة/الأم منها ضخم ثقيل. ومن السَّفه وخفَّة العقل أن يكون الزواج منحصرًا في إدراك الشهوات وطلب المتاع. فليجعل الزوجان هدفهما من الزواج هو إنشاء أجيال زاكية ذكية ناشطة قوية تقود ولا تقاد، تهوى الصلاح وتكره الفساد(١٤١).

وأهم ما يساعد على ذلك التعليم والتربية اللذان يزيلان الجهل والأنانية التي سيطرت على بعض الأزواج والزوجات، فأوْدت في أغلبها إلى فشلٍ ذريعٍ للحياة الأسرية.

ومن ناحية أخرى، يرتبط التوافق الأسري بمفهوم النضوج والنموِّ الزواجي عند الزوجين، فالزواج قبل نضج أيٍّ من الزوجين غالبًا ما يصْحبه اختلالٌ في العلاقة واضطرابها؛ سواء تعلَّق هذا النضوج بالبلوغ العمري والجنسي، أو العاطفي، أو الفكري أو الاجتماعي.

وإذا كان النظام الحقوقي الإسلامي يؤيِّد بل يشجِّع أحيانًا الزواج المبكر (كثير من الدول الغربية تفعل ذلك اليوم وتخفض سن الزواج إلى الثامنة عشر وما دونها وبعض هذه الدول يسمِّيها ممارسة الجنس

(١٤١) ينظر: قضايا المرأة للغزالي، ص ١٠٢، ١٠٣. ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

اختيارًا للمراهقين) لكن هذا التأييد بشرط مراعاة مصالح الزوجين مراعاة حقيقية وواقعية؛ وذلك لتأمين بعض الوظائف العائلية كالرقابة والحماية وانتقال الإرث، فالبلوغ العمري الجنسي شرط الألفة بين الرجل والمرأة، ولكنه ليس شرطًا كافيًا، فلابد معه من النضوج العاطفي للشخص والذي يستلزم وجود تجليات نفسية ووجدانية وسلوكية واضحة، كالقدرة على إقامة وحفظ العلاقة الشخصية مع الآخرين، والتفاعل مع المسائل العاطفية، والقدرة على إدراك الأحاسيس المتبادلة. وبما أن الزواج علاقة تَحْمِلُ المسئولية والالتزام في جوهرها؛ حيث تجعل الفرد في خضم علاقة شخصية وقريبة من شريك الحياة، يرتبط بشكل رئيس بالنمو العاطفي له.

١ – النمو الفكري والعقلي:

يكتسب الأفراد أثناء عملية النمو الفكري والعقلي مجموعة من القرارات الإدراكية المتعلقة بفعل وانفعالات الذهن، كإدراك العلاقة بين الأشياء والتخيُّل وحفظ المعلومات، والاستنتاج والاستنباط والتحليل، ويساهم الأفراد المبْتلون ببعض الاختلالات الفكرية في وجود الكثير من المشكلات لأنفسهم وللآخرين في العلاقات الفردية والاجتماعية.

فتمتُّع الزوجين ببلوغ فكري متوازن له دور أساسي في الإدراك المتبادل والحياة المتوازنة والقيام بالواجبات ورعاية الحقوق، لذا كان من معايير الاختيار تمتُّع الزوجين بالحد الأدنى من القدرات العقلية والإدراكية(١٤٢).

٢ – البلوغ الاجتماعي:

يتشكَّل البلوغ الاجتماعي أثناء عملية التنشئة الاجتماعية، ويتجلَّى في عدد من الخصائص كالقدرة على تحديد المسئوليات والاختيار، وامتلاك نظام الترجيح والثقة بالنفس، والقدرة على التعبير عن الانفعالات المختلفة، والالتزام الواعي برعاية القواعد والآداب الاجتماعية، والقدرة على التفاعل مع العلاقات الاجتماعية المركبة.

وقد ثبت من خلال عدد من الدراسات الميدانية أن نسبة كبيرة من المشكلات العائلية نتاج عدم بلوغ الزوجين أو أحدهما اجتماعيًّا، وعدم الاستعداد لتأدية الواجبات العائلية والزوجية.

ب) أنماط الزواج/الحياة الزوجية

يُصنف البعض الزواج أو الحياة الزوجية إلى أربعة أنواع كما يلي:

(١٤٢) المرجع السابق، ص٢٥٥.

١) **زواج مُستقر ومُشبع**: هو ذلك الزواج الذي يوفر علاقة مُتكاملة، إذ يبدو فيه الزوجان وكأنهما توأمان متشابهان في كثير من الصفات والميول والرغبات، ويكون فيه درجة من الثبات والاستقرار بالعلاقة الزواجية. وقوام استقراره أداء الحقوق والواجبات، وقوام الإشباع فيه الحب والتسامح.

٢) **زواج مُستقر غير مُشبع**: ويُشكل هذا النوع من الزواج أكبر نسبة من المجتمعات الإنسانية عامَّة والمجتمعات العربية خاصَّة؛ لأنه باستقرار العلاقة الزواجية يكون لدى الأُسرة أطفال ويكون من الصعب الطلاق بسبب الأبناء، وبه يكون الزواج مُستقِرًّا ولكن درجة الإشباع قليلة، ويكثُر في هذا النوع الأمراض النفسية. وقوامه أداء الحقوق لكن بغير مشاعر متبادلة أو بحالة جفاف للمشاعر الودية.

٣) **زواج غير مُستقر ولكنه مُشبع**: ويكون فيه إشباع لدى الزوجين بتحقيق غايات كلٍّ منهما ولكن الاستقرار يكون ضعيفًا حيث تكون الظروف الزواجية غير طبيعية أو غير مضمونة الاستمرار، وذلك كأنْ تقبل فتاةٌ صغيرةُ العُمر الزواجَ من رجلٍ كبيرِ السنِّ طمعًا منها في ماله ورغبة منه هو في جمالها ونضارتها.

٤) **زواج غير مُستقر وغير مُشبع**: وهو أشبه بالسجن أو ميدان الحرب أو أي شيء مضاد لمعنى الزواج، ولا يكون في هذا النوع من الزواج أي ثبات أو استقرار أو إشباع بين الزوجين، والعلاقة بينهما غالبًا لا تستمر لأكثر من شهور[١٤٣].

وهذه الأنماط كما تبيَّن تقوم على عنصرين: أداء الواجبات المتبادلة، وتبادل مشاعر الحب والرضا، ونحن نحتاج إلى البيت الذي يجمع الحسنيين؛ حق وحب. وللحياة الزوجية مراحلها التي تتقلب بينها، يمكن الإشارة إلى جوهر كل مرحلة منها.

ج) مراحل الحياة الزوجية

يميل أكثر علماء النفس والاجتماع إلى تقسيم الحياة الزوجية زمنيًّا إلى مراحل تتَّسم كل مرحلة فيها بسمات معينة. وتختلف معايير التصنيف المرحلي هذه باختلاف المنظورات وغايات التصنيف، ومنها التقسيم الثلاثي المشهور إلى مرحلة شهر العسل، ومرحلة السنوات الأولى للزواج، ثم مرحلة الاستمرار وتعمُّق الحياة الزوجية، ويمكن تناولها باختصار على النحو الآتي:

١ – مرحلة شهر العسل:

تبدأ مرحلة شهر العسل بمجرد الانتهاء من مراسم حفل الزفاف عندما يستعد الزوجان لبدء حياتهما الجديدة تاركين حياتهما القديمة السابقة. ويُعَدُّ الحُب والمودة والتقارب بشكل أكبر من السمات المميزة

١٤٣- أحمد كامل الحوراني، ٢٠١٨.

لهذه المرحلة. ويُركِّز فيها الزوجان على تفاصيل وخصال شخصية بعضهما البعض بشكلٍ فيه قدرٌ من الخصوصية دون تدخُّل أي أشخاص آخرين.

في هذه المرحلة تقفز إلى السطح التوقُّعات الكامنة لدى كلِّ طرف تجاه الآخر، ويتحرَّك كلٌّ منهما تجاه الآخر بما تكون لديه في فترة التعارف والخطبة من انطباعات وتصورات؛ لذا يكره كل منهما في هذه الفترة المفاجآت غير المتَّسقة مع تلك الانطباعات، ويتخوَّفان ممَّا يظهر على أيٍّ منهما من مستجدَّات لم تكن معروفة أو متوقَّعة من قبل. وهذه الفترة هي امتداد لفترة الخطبة، لكنها فترة تتميز بظهور ووضوح ما كان سابقًا في وضعية الغموض.

ومن المهمِّ جدًّا للعروسين أن يضع كلٌّ منهما نُصب عينيه شعار "الانطباعات الأولى تدوم"، ومن ثم يجب أن يتمَّ تصنيع هذه الفترة الأولى تصنيعًا واعيًا، يتم الحفاظ فيها على أجواء المودة والتسامح والتجاوب والتطاوع والإشعار بالاستعداد للبذل من أجل الآخر. إنها بكل معاني الكلمة فترة "الغيرية" التي يظهر كل واحد للآخر أنه يفكر فيه أكثر من أيِّ شيء آخر. ولعل أسوأ انطباع يمكن أن يتكون في هذه الفترة هو الأنانية أو التعالي أو الاستعداد للصراع أو التعدِّي على الطرف الآخر ولو معنويًّا.

وينبغي لمرحلة شهر العسل أن تكسر روتين الحياة اليومية على النمط العزوبي (ما قبل الزواجي) من أجل تأسيس روتين داخلي جديد اسمه (نظام البيت)، وكذلك يُمكن بل يجب فيها امتصاص الضغوط الجسدية والذهنية التي واجهها كلٌّ من الطرفين عند الإعداد للزواج؛ فيُمكن للزوجين أن يقوموا بتصفية الذهن والتقلُّص من المسئوليات لفترة من الوقت حتى يستعدَّ الزوجان لخوض غمار الحياة الزوجية في مراحلها التالية.

وفيها أيضًا ينبغي وضع أو بيان أساسات التعامل الخارجي أي مع أسرتيهما بالوصل الجميل، وربما بالهجر الجميل، والصبر الجميل، والصفح الجميل[١٤٤].

وكما ذكرنا في الخطبة، نشير إلى أن عادة الشباب اليوم من حديثي الزواج هي جعل فترة شهر العسل للمتعة الجسدية فقط، وعدم انتباههم لأهميتها في وضع الأساس الثاني والأهم للحياة الزوجية والذي يمكن أن يستوعب ويصلح الأساس الأول (في الخطبة) ويكمله إذا كان ناقصًا؛ ومن ثم فللزيجات الجديدة ننبِّه إلى أهمية هذه الفترة.

والمطلوب هو أخذ الأمور بسلاسة والعناية بنشر أجواء من التعاطف والتسامح. وهذا ليس دور الزوجين وحدها فلأسرتيهما دور كبير في هذا الصدد، خاصة عند الزيارات أو السؤال عنهما.

١٤٤- ذكر القرآن هذه الثلاثة موصوفة بالقرآن: (فصبر جميل)، (فاصفح الصفح الجميل)، (واهجرهم هجرا جميلا).

٢ – مرحلة السنوات الأولى في الحياة الزوجية:

يُعير كثير من علماء النفس السنوات الأولى في حياة الزوجين أهمية خاصَّة، حيث يبدأ الزوجان في هذه الفترة في التفاعل الزواجي باتجاه التوافق والتكيُّف. وفي هذه الفترة يستمر كلٌّ منهما في اكتشاف شخصية الآخر اكتشافًا أقرب وأعمق؛ وبالتالي يحاول كلٌّ منهما تحديد الوظائف والأدوار والمسئوليات الاجتماعية لكلٍّ منهما.

وتعتبر هذه الفترة هي المعبر الأساسي إلى قلب الحياة الزوجية؛ والمختبر الحقيقي لها وفترة تطبيع الحياة الزوجية الجديدة والمضي بها إلى مسارها المستديم. وفيها تتجلَّى الشخصية المتكاملة لكلٍّ من الزوجين، وتفرض الحياة الزوجية منطقها ومطالبها وأسئلتها عن: مساحات المشترك، ومساحات الخصوصية، والعبادات، والأخلاق، والدخل والإنفاق وأسلوب الزوجين في إدارة المنزل ماليًّا، والعلاقة الحميمية ومدى التوافق فيها، ونظام المنزل ودرجة العناية به، وقضاء ما يسمَّى بوقت الفراغ، والصلات بالجيران والأصدقاء والمعارف، والصلات الخاصة مع الأقارب، ونظام البقاء في المنزل وخارجه، وأسلوب الحوار واتخاذ القرارات المنزلية.

ومن ناحية أخرى غالبا ما تزداد المشكلات الزواجية في السنوات الأولى حيث يحاول كل منهما فَهم شخصية الآخر بما يوافق عاداته وميوله واتجاهاته.

وفي بعض الدول العربية –وفي مقدِّمتها مصر– دلَّت الإحصائيات على أن أعلى نسبة طلاق تقع في السنوات الأولى من الحياة الزواجية فيما أضحى يعرف بظاهرة الطلاق المبكر.

أما عن أسباب الطلاق المبكِّر فهي تتعدَّد وتتداخل ما بين:

- استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة حيث يتسبب التلفزيون في الخرس الزواجي.
- والتليفون المحمول في التأثير بالسلب كوسيلة تجسس والخيانة الزوجية.
- وإدمان الجلوس أمام الإنترنت والمواقعة الإباحية وإقامة العلاقات.
- أما بشأن الأسباب الشخصية فترجع إلى **عدم التوافق الشخصي، واختلاف الخلفية الاجتماعية للطرفين، والعنف اللفظي والجسدي وكذلك السكر والإدمان.**
- فضلا عن المشكلات الجنسية بين الطرفين.

فإذا تمَّ تجاوز مشكلات هذه الفترة دون حدوث اضطرابات أسْرية كبيرة وشهدت قدرًا معقولًا من الاستقرار، فإن الغالب أن يمضي كلُّ طرف في التكيُّف والتوافق مع شريك حياته، خاصَّة إذا ما أصبح

لديهما أطفال. وبذلك يتم منذ بداية السنوات الأولى للزواج تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والنفسية للأسرة[١٤٥].

٣- مرحلة استمرار الزواج وتعمُّق معنى الحياة الزوجية:

تتحدَّد هذه المرحلة بعد مجيء الأطفال، ومن خصائصها أن يكون الزوجان قد وصلا إلى مرحلة استقرار العلاقة والحياة الزوجية إما على رضا وسعادة، وإما على تكيُّف مع مشكلاتها المتحمَّلة؛ حيث يكونا قد وضعا طريقة لحلِّ مشكلاتهما تتضمَّن رضاهما عن مستوى العلاقة الجنسية والتنظيم الداخلي للمنزل، وعن نوعية العلاقة مع عائلتيهما والعلاقة مع الأصدقاء الجُدد والقدامى، وعن الحياة المهنية لكلٍّ منهما (إذا كانت الزوجة تعمل)، وعن الإنجاب والتعامل مع الأطفال، وتكون قد تكشَّفت لكلٍّ منهما القيم والمعتقدات التي يعتنقها كل طرف، وطريقة تنظيم الجوانب المالية، وطريقة إيجاد حلول للمشكلات اليومية.

ويجب أن يدرك كل من الزوجين أن أي خلل في استمرار الحياة الزوجية واستقرارها سيدفع الأبناء ثمنه، إما على المدى القصير أو الطويل، حيث قد ينتج عنه مشكلات الانحراف والاضطرابات النفسية لدى الأبناء.

ومن المهم في هذا الصدد أن نعي أن الظروف الحياتية تؤثِّر على التوجُّه نحو الحياة، فالأشخاص المستقرُّون في زواجهم ولديهم عمل مُشوِّق وصحَّتهم جيدة وأكثر سعادة، يتَّسمون ببعض الخصال كالتفاؤل، وتوقُّع الخير، والاستبشار، والرضا عن الواقع، وتقبُّل الذات واحترامها، والاستقلال المعرفي والوجداني، فإذا تحقَّقت هذه الخصال لدى الإنسان فإنه عندئذ يشعر بالسعادة أكثر من أي وقت آخر، خاصَّة أن السعادة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالرضا عن الحياة. وينعكس التوجُّه نحو الحياة والنظرة التفاؤلية للحياة على العلاقات الاجتماعية وبصورة خاصة على العلاقة بين الزوجين.

د) مفهوم إدارة المنزل

يعدُّ كلٌّ من إدارة المنزل وتحديد الميزانية من أهم الأدوات الأساسية للوصول إلى التفاهم المالي لدى الزوجين، واستبعاد شبح الخلافات المالية ممَّا يؤدِّي إلى الوصول إلى الهدف الأكبر؛ ألا وهو التوافق الزواجي. لذلك ينبغي تحديد مدلول إدارة المنزل وكيف السبيل إلى تحقيقها على الوجه الأمثل، بالإضافة إلى طرح تصوُّرٍ عن ميزانية للأسرة يمكن اتِّباعها لتلافي الخلافات المالية.

١٤٥- أحمد محمد مبارك، ١٩٩٩.

لا تعني إدارة المنزل العناية به من حيث التنظيف أو عملية الطهو كما يعتبرها البعض، بل هي عملية ذات أهمية وتشمل جميع أطراف الأسرة. إنما هي "**استعمال الأسرة ما لديها من إمكانيات للحصول على ما تريده أو تحتاج إليه**"[١٤٦]. ومن التعريف نجد أن الأسرة يجب أن تكون قادرة على تحديد كل من إمكانياتها وأهدافها واحتياجاتها.

وتعدُّ إدارة المنزل سلسلة من المواقف المبدئية والمنتظمة من موضوعات الأسرة اليومية وتخرج في صورة القرارات التي تتراتب لتكوِّن الأسلوب الذي تتَّبعه الأسرة في استغلال مقدَّراتها المختلفة لتحقيق ما تنشده من: التخطيط لأمورها والالتزام بنظامها، والمتابعة الجيدة لسريان الأمور المالية والاجتماعية بانتظام لا فوضى فيه. وكل ذلك يؤدِّي إلى نجاح الأسرة. هذا بالإضافة إلى كونها عملية عقلية يتعرَّف بها رب/ربة الأسرة على ما يواجه الأسرة من مشكلات في جميع مجالات الحياة؛ سواء أكان هذا في مجال المسكن أو في علاقات الأفراد بعضهم مع بعض والعمل على حلِّها بطريقة سليمة؛ وذلك من خلال استخدام ما لدى الأسرة من إمكانات؛ لإشباع حاجاتها وتحسين مستوى معيشتها، بلغة مستقاة من لغة الاقتصاد. وبذلك تعتبر "**إدارة شئون الأسرة**" وسيلة تهيئ المناخ السليم للعلاقات والتفاعلات الأسرية.

ويجب الأخذ بالاعتبار، أن كل أنواع الإدارة المنزلية تحتاج إلى عملية لا يعتني بها أكثر الأزواج حتى المتعلمون منهم؛ وهي عملية التخطيط الأسري؛ وهي عبارة عن عملية تصميم حاضر الأسرة ومستقبلها وتطوير الخطوات الفعَّالة لتحقيقه؛ ولذلك لا بد من تحليل الوضع الحالي للأسرة لتحديد أهدافها البعيدة والقريبة.

هـ) العوامل التي تؤدي إلى نجاح العلاقة الزواجية

يُمكن الحُكم على جودة الزواج من خلال ارتباطه بعدد من العوامل مثل التواصل الزواجي الجيد، والمستوى المرتفع من السعادة الزوجية، والتكامل والتوافق بين الزوجين، والدرجة المرتفعة من الرضا بالعلاقة، والحب بين الزوجين. وهذه العوامل يُمكن التعبير عنها في شكل بُعد مُتصل يتدرج من أعلى إلى أسفل كما في الشكل التالي:

١٤٦ كوثر حسين كوجك، الإدارة المنزلية، (الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠١) ص ص ١-١٤

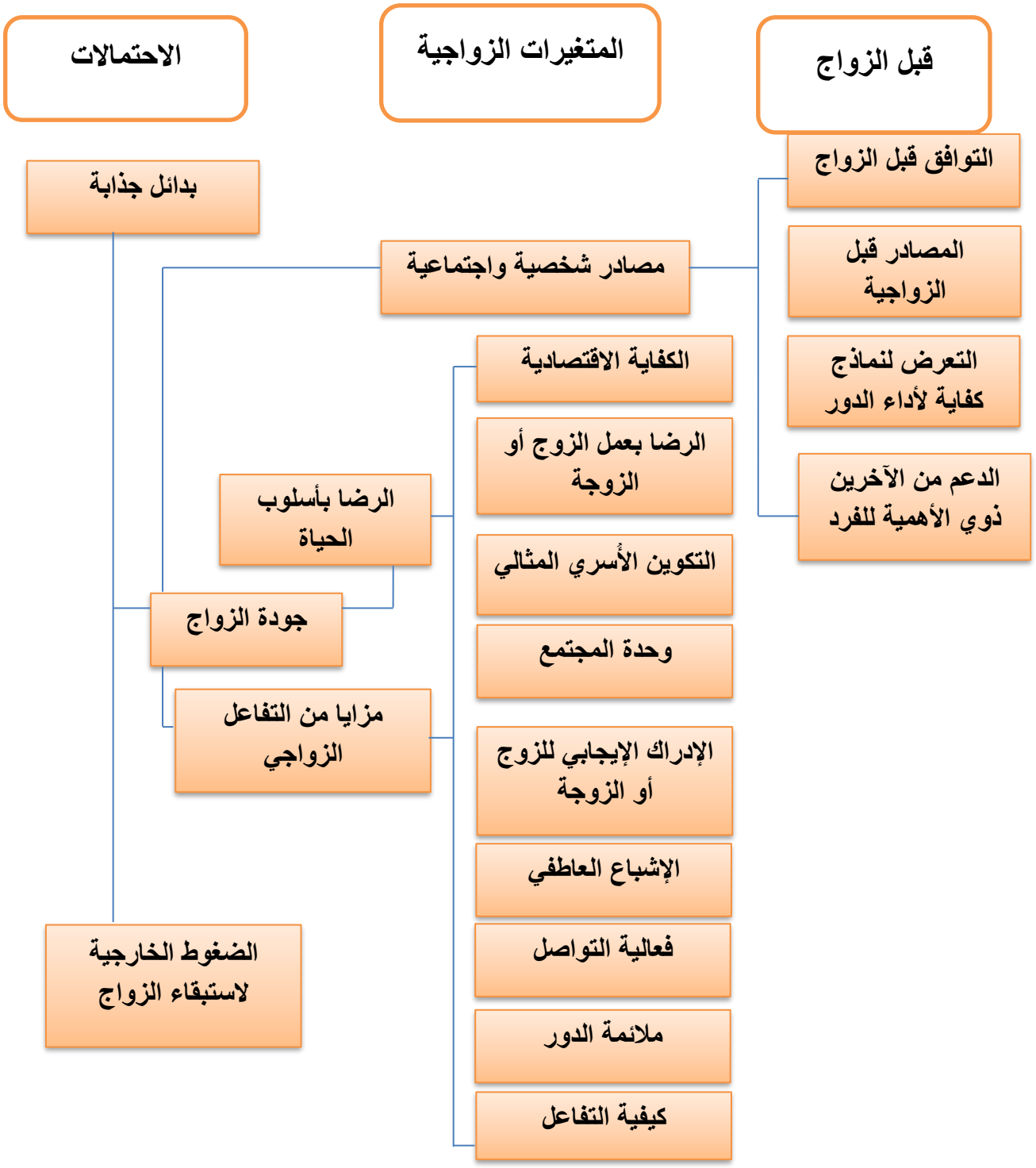

شكل (١) يوضح مخططا للزواج الجيد

ويوضح الشكل السابق أن هناك بعض المتغيرات الزواجية المهمة التي إذا توافرت أمكن الحكم على الزواج بأنه جيد يتَّسم بالاستقرار وقابل للتوافق والسعادة، ومن هذه المتغيرات:

- الكفاية الاقتصادية الاجتماعية من موارد مادية ومكانة اجتماعية متوافقة بين الزوجين.
- رضا كل من الزوجين بعمل الآخر على نحو يُعبِّر عن التفاهم والمشاركة فيما بينهم للتغلب على ضغوط الحياة المادية.
- اتِّباع معايير وقواعد متَّفق عليها فيما بينهم فيما يتعلَّق بتربية الأبناء والتعامل مع أمور المنزل والأُسرة.
- أن يُدرك كلٌّ من الزوجين طبيعة الآخر بشكل إيجابي دون تصيُّد للأخطاء أو الوقوف على أبسطها.
- أن يعمل كلُّ زوج على إشباع حاجة الآخر عاطفيًّا وجسديًّا.
- أن يكون التواصل والتفاعل بين الزوجين جيدًا وإيجابيًّا يحثُّ على الحوار المستمر بدون شجار أو هجر.
- كذلك أن يحدِّد كلٌّ من الطرفين الأدوار الملائمة حتى لا تختلط الأدوار بل تصبح الأمور واضحة.

وإذا توافرت هذه العوامل أو المتغيرات في الزواج فسوف تكون النتيجة إيجابية بشكل كبير؛ حيث سيتحقَّق ما يُسَمَّى **بالزواج الجيد أو جودة الزواج**، والرضا بأسلوب الحياة المتَّبع في الزواج، والتغلُّب على كلِّ الضغوط الخارجية التي من شأنها أن تعرقل الحياة الزوجية وتعوق من استمرارها وتقدُّمها بشكلٍ ناجح.

وكل هذه الأمور كان يمكن التنبُّؤ بإمكانية العمل بها إذا توافرت بعض العناصر **في مرحلة قبل الزواج**؛ وهي: استشعار كلٌّ من الطرفين بتوافق كل منهما مع الآخر في كثير من السمات والخصال، وكذلك لجوء كلٍّ من الزوجين قبل الزواج إلى المصادر التي من شأنها أن تساعدهم على معرفة معنى الزواج وأهميته وكيفية التعامل فيه مع كل الأمور المتوقع حدوثها في كل مرحلة، و**أن يكون تركيز الشخص (حين كان مُقبِلا على الزواج) على النماذج المُتزوجة الجيدة والعمل على تقليدها في المراحل التالية دون الاعتبار للنماذج السلبية** التي قد تحث وتشجِّع على عدم الاستقرار واختلاق المشكلات، وكذلك من العناصر المهمة التي يجب تحقيقها **في مرحلة قبل الزواج** تحديد كل طرف من الزوجين لمصادر الدعم من الأشخاص ذوي الأهمية بالنسبة لهم؛ حتى يكونوا مصدر ثقة حين اللجوء إليهم عند حدوث أي مشكلات في مرحلة الزواج، ويجب الاتفاق بين الزوجين على تحديد هؤلاء الأشخاص الذين سيمثِّلون مصادر دعم ومساندة بالنسبة لهم.

و) سمات الزواج في المنظور الحضاري الاجتماعي التكاملي

استكمالًا لمنظومة المفاهيم التأسيسية للحياة الزوجية نذكر بأن مركز هذا الدليل هو تأسيس الحياة الزوجية وتوجيهها على ذلك الأساس/الشعار الذي يبدأ به عقد الزواج (على كتاب الله وسنة رسوله)؛ فالزواج مودة ورحمة وسكن وسكينة قبل أي شيء آخر، وهو أيضًا حقوق وواجبات ينبغي الوعي بها وبالإطار المحدَّد لها وخاصَّة مفهوم **"حدود الله"**؛ وهي ليست الحقوق المادية والمالية فحسْب بل حقُّ المعاشرة بالمعروف والتعامل بالإحسان أيضًا؛ الأمر الذي يكمل مفهوم "القوامة" ويتقوَّى به.

ويمكن أن نستعرض هذا التصوُّر للحياة الزوجية في شبكة مفاهيمية متكاملة على النحو الآتي:

١) الزواج مودة ورحمة

عقد الزواج –على خلاف العقود الأخرى– مبنيٌّ على المكارمة والمسامحة والمعروف. فحقيقة الزواج والعشرة الزوجية أنها علاقة إنسانية مبنية على السكن والمودة والرحمة(١٤٧). ومن تمام رحمة الله ببني آدم أن جعل بين الزوجين شيئا فطريا اسمة "مودة": وتعني محبة قلب، و"رحمة": أي رأفة قلب، فإن الرجل يمسك المرأة؛ أي يحافظ عليها: إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للأُلفة بينهما، وغير ذلك"(١٤٨). و"الحب أصل كل عمل من حق وباطل وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله"(١٤٩). وبجناحي المودة والرحمة يطير طائر الحياة الزوجية في الملكوت سعيدًا مبتهجًا.

٢) الزواج سكن

من آكَدِ حقوق الزوجين المشتركة بينهما، والتي هي من أُسس الحقوق الأخرى: أن ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر على أنه سكنٌ له تركن إليه نفسه، وتكمل في جوارها طمأنينته، وترتبط بالحياة الكريمة معها سعادته أو شقاوته، فليس هذا الشريك (أي الزوج بالنسبة لزوجته، والزوجة بالنسبة لزوجها) أداة للزينة، ولا مطية للشهوة، ولا غرضًا للنسْل فحسْب. بل هو تكملة روحية لصاحبه، يكون بدونها عاريًا من الفضائل النفسية، فقيرًا من بواعث الاستقرار والطمأنينة، ولعلَّ ذلك من معاني السكن المشار إليها في الآية الكريمة المذكورة: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** [الروم: ٢١].

---

(١٤٧)ينظر: الخطاب الفقهي المتعلق بالمرأة: إيمان الطويرش، مها المانع، ط تكوين للدراسات والأبحاث، ص: ٥٦ وما بعدها.

(١٤٨) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (٦/ ٣٠٩)

(١٤٩) قاعدة في المحبة: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، ص ٤٩.

٣) الإطار العام لأداء الحقوق

الأصل أن الزواج يقوم على المودة والرحمة؛ وفي إطارهما ينبغي أن تؤدَّى جميع الحقوق المتبادلة بين الزوجين. وإذا كانت الأخوة في الإسلام بشكل عام تقضي ألَّا يكتمل إيمان المرء إلَّا أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، كما جاء في الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وبديهي أن حقوق الزوجية أعظم من حقوق الأخوَّة العامَّة، فقد اجتمعت مع رابطة الإسلام رابطة الزواج التي عدَّها الله تعالى ميثاقًا غليظًا، فقال تعالى: **(وأخذن منكم ميثاقا غليظا)**. فمن باب أولى بين الزوجين أن ينظر كل منهما لنفسه: هل قدَّم لصاحبه ما يحبُّ لنفسه؟

ولكن ينبغي التنبّه إلى أن أداء الحقوق في إطار المودة والرحمة لا يعني أن مؤدّيها متبرعٌ متفضِّلٌ بها؛ فحقوق الزواج لازمة الأداء بنصِّ الشرع، وعدم أدائها يعرِّض صاحبها لغضب الله وسخطه.

٤) حدود الله

فقد جعل الله تعالى للبيت المسلم قيمًا وآدابًا وأحكامًا لقبها بـ"حدود الله"، وحقوق الزوجية هي حدود الله في الزواج، والتي يجب على الزوجين أن يراقبا الله تعالى في أدائها فلا يضيِّعوها ولا يفرِّطوا فيها. ولقد ختم الله تعالى الآية التي تتناول أحكام الطلاق بقوله تعالى: **(تلك حدود الله فلا تعتدوها)**؛ أي إن "هذه الأوامر والنواهي هي حدود الله للمعاملة الزوجية فلا تتجاوزوها بالمخالفة **(ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)**. وتعدِّي حدود الله تعالى ظلم للنفس بإثقالها بالذنوب وظلم بالغير، يطالب به صاحبه بين يدي الله يوم القيامة.

٥) حق اللطف والمعاشرة بالمعروف

من الأصول والمبادئ والحقوق التي يقوم عليها الزواج حق اللطف والمعاشرة بالمعروف. وقد حضَّت الشريعة عليه الرجال؛ لأنهم هم القوَّامون على الأسرة، فقال تعالى: "**وعاشروهن بالمعروف**"؛ فأمر الله المؤمنين بعشرة زوجاتهم بالمعروف.

وقد حضَّت السنة النبوية الزوجات على اللطف العام والمعاشرة بالمعروف مع أزواجهن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**خير نسائكم الولود الودود المواسية المواتية (أي المطاوعة) إذا اتقين الله**".

٦) الزواج والعرف والمعروف

لقد راعت الشريعة الإسلامية العُرف الاجتماعي الذي فيه مصلحة ولا يتعارض مع مقاصدها وأحكامها، وأهدرت وأبطلت كل عرف خالف حكمًا شرعيًّا أو مقصدًا من مقاصدها الكلية أو العامة

أو الجزئية. ومراعاة العرف يمكن الاستدلال عليها بقوله تعالى: (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**).

وبمقتضى الزواج الذي هو عقد مقدَّس شرعًا وطبعًا، أمر الله الزوجين بحسن العشرة ومراعاة المعروف بينهما. والضابط في العشرة بالمعروف هو أحوال أهل البلد وعاداتهم.

٧) مفهوم القوامة

القوامة من الحقوق التي أسيء فهمها، بسبب غيبة الثقافة الشرعية الصحيحة في ظل سطوة العادات والتقاليد، وفي مقابل ذلك الغزو الفكري الغربي، فاستخدمها بعض الرجال على أنها حق له تفرض له على زوجته الطاعة، دون أن يقوم الرجل بلوازم تلك القوامة من رعاية حال زوجته والقيام على شئونها ومصالحها والصبر على ما قد يصدر منها من سوء، بل وربما بعضهم لا يقوم بواجب الإنفاق الذي ألزم الله الرجل به بمقتضى تلك القوامة.

والحال التي يفهم فيها الرجال القوامة على أنها حق له في طاعة زوجته دون أن يكون عليه التزام تجاهها، تؤدِّي في كثير من الأحيان إلى تصدع كيان الأسرة وانهدامها، هذا بجانب أنه تضييع لحقوق ألزم الله بها الرجل تجاه زوجته. وفي مقابل هذا نجد فكرًا وافدًا مستوردًا من بلاد الغرب يرفض تلك القوامة، ويطلب المساواة التامة الكاملة بين الجنسين، دون أن يُراعى الفوارق التي قدَّرها الله بمقتضى الخِلقة؛ إذ التسوية بين المختلفين ظلم وجور وسوء تقدير، لكن المساواة في ميزان الإسلام ليست مساواة عددية كمية، وإنما هي مساواة عدل وتكافؤ.

فللرجل على أسرته درجة القوامة؛ أي الرئاسة والولاية، وذلك يفرض له حقَّ الطاعة من أفراد أسرته: زوجة وأولادًا في رعايته، ويفرض عليه القيام على إصلاح شئون رعيته، والرحمة والرفق بهم، والإنفاق عليهم.

وتظهر آثار القوامة في المسائل الاجتهادية التي اختلف فيها الزوجان، والتي تقوم على تقدير المصلحة، وتقديرها متفاوت من شخص لآخر ومن نظر لآخر، كما لو اختلف الزوجان هل يدخلان ابنهما نوعًا معيَّنًا من التعليم من بين أنواع متقاربة المصلحة وليس منها ما هو ضارٌّ بالابن أو مفسدٌ له أو ما يفوِّت عليه مصلحة متحقِّقة كبيرة، فهنا يكون القول قول الزوج بمقتضى القوامة وتسمَّى بالولاية التعليمية. وما عدا تلك الحالة يصار فيها إلى ما سبق ذكره من نص شرعي أو عرف عام أو خاص.

ومما يثبت للزوجة من حقوق على زوجها كأثر من آثار ثبوت القوامة له، هو حقها في أن يعلِّمها ما يمكِّنها من القيام بما يجب عليها ويجعل لها في النفوس احترامًا.

٩) الإفضاء والميثاق الغليظ

بعقد الزواج وإفضاء الزوجين بعضهما إلى بعض، يأخذ الله تعالى على الأزواج للزوجات ميثاقًا عظيمًا أن يُحسنوا عشرتهن، حتى ولو كرهوهن، وإنْ أبَى الزوج إلَّا الفراق فالعهد عليه أن يفارق بإحسان، وأن لا ينسى كلٌّ منهما فضلَ صاحبه، كما قال تعالى: **(ولا تنسوا الفضل بينكم)**.

١٠) التوقعات المعقولة

من أجل استمرار العائلة واستقرارها لا بد من تغليب النزعة العقلانية على غيرها من الأبعاد الأخرى للحياة المشتركة، فإذا كانت التوقعات معقولة من الزوجين وليست شديدة المثالية، كلما كان الزوجان أكثر توافقًا وانسجامًا.

فالحب الرومانسي عادة يبني توقُّعات مفترضة غير واقعية بأن الحياة الزوجية تحقِّق السعادة الكاملة، وأنه لن يكون هناك روتين يومي معتاد أو إرهاق ممتد، أما في الاختيارات الأكثر تقليدية عادة ما يتوقَّع الطرفان الاحترام المتبادل أكثر من توقُّعهم السعادة(١٥٠).

يؤكد الإسلام على ضرورة عقلانية التوقعات؛ أي كونها أقرب ما تكون إلى الواقعية والابتعاد عن تغليب العواطف والأوهام، كالالتفات إلى العوامل المادية والمعنوية للعائلة، والتشجيع على الثواب الأخروي. وتساهم رؤية الإسلام في الالتفات إلى المصالح الخفية للعلاقة الزوجية التي تمنع اتخاذ القرارات السريعة وغير العقلانية، وكذلك لفتت بعض الأحاديث النبوية الشريفة النظر إلى أن إصرار الزوج على تغيير أخلاق الزوجة غير الملائمة تغييرًا متعجلًا لحظيًّا أو بدون صبر وتمهُّل –والعكس صحيح– قد يحمل معه بعض الآثار السلبية في العلاقة بين الزوجين.

والخلاصة أن هذه معالم أساسية لفهم طبيعة العلاقة الزوجية والحياة الأسرية وما ينبغي أن تقوم عليه من تصورات تأسيسية وقيم حاكمة ومقاصد حافظة وسنن هادية. والآن أين هذا من الواقع الاجتماعي للحياة الزوجية المعاصرة؟

ثانيا– ثقافة الحياة الزوجية في مصر

تستمر العوامل الثقافية، وما تعكسه من تصورات ورؤى لدى أفراد المجتمع وفئاته، مؤثرة في تشكيل هذه المرحلة الجديدة والمهمة في حياة الشريكين/الزوجين. ومن ثم، فإن ما يشوب تلك التصورات والقيم والرؤى من تشوُّهات ينعكس على رؤية الأفراد لحياتهم الزوجية والأسرية وكيفية إدارتها، مما قد يُنتِج بعض المشكلات التي تعكر صفو تلك الحياة واستقرارها، بل قد تهدد استمرارها وتؤدي إلى إنهائها بالطلاق.

(١٥٠) حسين بستان: مرجع سابق، ص٢٣٩.

ومن ناحية أخرى فإن من يبحث عن زواج ناجح وحياة زوجية سعيدة ينبغي أن يبحث عن أصول النجاح ووسائله من جهة، وأن يَعِيَ واقع الأسرة في مجتمعه ومن حوله من جهة أخرى.

ونستعرض فيما يلي الأبعاد والأنماط الثقافية لبعض الأحوال الأسرية في مرحلة الزواج، وإمكانيات التعامل معها.

١) ثقافة المسئولية في الأسرة

من أبرز العناصر المؤثرة في استقرار أو توتر الحياة الزوجية مدى انتشار ثقافة المسئولية بين أطراف العلاقة وحدود إدراكهم لها، والمنابع التي تُستقى منها وتأثيراتها المختلفة على مجريات الحياة الزوجية لا سيما في الفترة الأولى من الزواج. فتصوُّر كلٍّ من الزوجين لطبيعة المسئوليات الزوجية والأسرية، ودور كلٍّ منهما فيها، وطريقة أدائها بالتعاون والتشارك أو فرادى، يمثل محورًا أساسيًّا في تشكيل الحياة بين الزوجين ووضع أسسها وقواعدها منذ بداية الزواج.

وتتراوح تصوُّرات الأفراد حول المسئوليات الزوجية والأسرية بين طرفين حدِّيَّيْن بينهما وسط معتدل يضبط العلاقة الأسرية؛ فقد يكون الانطباع الذي تكوَّن لدى أحد الزوجين أو كلاهما أن مسئوليات الزواج (من تنظيم لشئون المنزل وترتيبه، وأداء المهام الحياتية اليومية من طهي وتنظيف وشراء مستلزمات المنزل، وصيانة، وتنظيم ميزانية الأسرة الجديدة، وتربية الأبناء وتعليمهم، واتخاذ القرارات المختلفة المتعلقة بالأسرة والأبناء وغير ذلك..) تمثِّل حِمْلًا ثقيلًا وعبئًا لا يُطاق يُفرَض عليهما تحمُّله اضطرارًا باعتباره ضرورة لازمة وحال يمرُّ به الجميع ومن ثم عليهما أيضًا المرور به وتحمُّله.

ومن ثم تصبح النظرة لأداء هذه المسئوليات وكأنها واجبًا مفروضًا يؤدِّيه الزوجان وهما يشعران بالضيق والملل، ويُحَمِّل كلٌّ منهما الآخر مسئولية أي تقصير أو خطأ أو نقص في إتمام هذه المسئوليات ويتحيَّن أيَّ فرصة للفرار من مهامه ومسئولياته، بل قد يجادل كل منهما في أي من تلك المسئوليات يقع على عاتقه ويتوجَّب عليه القيام به.

وقد يكون وراء ذلك أن يتصور الزوجان –أحدهما أو كلاهما– أن الزواج انتقال من حال التعب والضيق وثِقَل الأعباء قبل الزواج إلى حال من الراحة والسكون والمتعة والخلو من المسئوليات؛ متخيلًا أن الطرف الآخر سيحمل عنه أعباء الأسرة ومسئولياتها ويتفرَّغ هو لشئونه الخاصة أو اهتماماته خارج الأسرة.

وكلا التصورين غالبًا ما يقْصر مسئوليات الزواج على الجوانب والأبعاد المادية الملموسة، ويغفل الجانب المعنوي في تلك المسئوليات، المتمثِّل في اهتمام كلِّ طرف في العلاقة بشريكه ومشاركته حياته وأهدافه وأحلامه وطموحاته، وتربية أبناء أسوياء واعين برسالتهم ودورهم في الحياة.

في المقابل، قد يغلب على أحد الزوجين حب السيطرة والهيمنة على كلِّ أمور الأسرة، فلا يرغب في تدخُّل شريكه في أيٍّ منها أو أن يكون الطرف الآخر منفِّذًا فحسْب لما يراه هو صحيحًا، فيفرض عليه

كيفية أداء ما عليه من مسئوليات ويتدخَّل في كل وأدق تفاصيلها. الأمر الذي قد ينفِّر شريكه ويُشعِره بأنه مقيد أو ناقص الكفاءة والفائدة فيدخل في صراع معه، أو قد يتواءم مع ذلك ويرتاح له فينسحب متخليًا عن مسئوليته المشتركة في إدارة الأسرة.

وينتج عن تلك التصورات الحدِّية لمعنى وماهية المسئولية الزوجية والأسرية المشتركة خلل في أحوال الأسرة وعلاقاتها يرتِّب العديد من المشكلات بين الزوجين قد تتراكم فتؤدِّي إلى ما لا يحمد عقباه.

وتتنوَّع الدراسات التحليلية التي اعتنتْ بدراسة ثقافة المسئولية والعوامل المؤثرة فيها والنتائج المترتبة عليها. فتشير إحدى الدراسات إلى أن الصراع بين الزوجين قد يرجع إلى رغبة أحد الزوجين في تغيير الأدوار المتوقَّعة من شريكه، أو انفراد الزوج بالسلطة واتخاذ القرارات داخل الأسرة، فضلا عن اختلاف الطرفين حول الأمور المتعلقة بالأبناء وتوزيع الأدوار والمسئوليات، ورفض أحد الزوجين التقسيم التقليدي للعمل بينهما، أو عدم إدراك كل منهما لأدوراه ومسئولياته تجاه الأسرة، مما يزيد من التوتر وعدم الاستقرار الأسري.

وترتبط بعض الدراسات قضية إدارك المسئولية الأسرية بين الزوجين بمتغيرات وسيطة مثل: (العمر – مدة الزواج – المستوى التعليمي – متوسط الدخل الشهري للأسرة...).

مصادر تصورات الأزواج عن مسئوليات الزواج:

تتشكَّل صورة الزواج لدى الأفراد المقبلين على الزواج والمتزوجين من مصادر وعوامل ذاتية ومحيطة بهم، تبني لديهم توجُّهات إيجابية أو سلبية نحو الزواج وتكوين الأسرة[١٥١].

أول هذه المصادر يتمثَّل في الأسرة التي ينتمي لها الفرد، وكيف ينظر كلٌّ من أبويه إلى مسئولياته تجاه أسرته وكيف يتصرف إزاءها؛ حيث تنطبع لديه تلك الصورة بوصفها ما يجب أن يكون عليه في أسرته من تحمُّل لمسئولياته داخل أسرته أو تهربه منها، أو –على العكس– قد يرى صورة سلبية أو مجحفة لأحد الطرفين فيسعى لمخالفتها في حياته وعلاقته الزوجية والأسرية. وبالطبع الأثر الأكبر للأسرة يكون من خلال تربية الأبناء وتنشئتهم على مفاهيم وقيم إيجابية أو سلبية عن قيم الزواج والأسرة الأصيلة، وعن تحمُّل المسئولية والتشارك والتعاون على وجه العموم؛ فإما أن ينشأ فرد قادر على تحمُّل المسئوليات، أو شخص مدلَّل اعتاد أن يتحمَّل الآخرون مسئولياته.

كما يشكِّل المجتمع وما يسوده من تصوُّرات يصدِّرها للأفراد حول مسئوليات الزواج وكيفية إدارتها والتعامل معها، مصدرًا مهمًّا أيضًا يستحضره الأزواج في بناء حياتهم الأسرية والتعامل مع مسئولياتها. فضلا عن الخبرات المحيطة بالأزواج وما تعكسه من صورة إيجابية أو سلبية عن الزواج وتكوين الأسرة، وما قد يكون لها من أثر كبير على الأزواج احتذاء بتلك التجارب أو تجنُّبًا لأخطائها.

١٥١ راجع على سبيل المثال: د.جاسم المطوع، ١٠ حلول لعدم تحمّل الزوج المسؤولية، ٢٠١٨/٩/٤، https://bit.ly/2S1l8pO

وبالطبع تلعب الخبرات الشخصية للفرد دورًا مهمًّا في بناء أو تغيير تصوراته حول الزواج ومسئولياته؛ سواء في اتجاه الإقبال على تحمُّل المسئولية وتقبُّلها وحسن إدارتها أو في اتجاه التنصُّل منها وإلقائها على الطرف الآخر، أو حتى في اتجاه الطرفين نحو بناء علاقة بلا مسئوليات أو أعباء لكلا الطرفين.

وقد أصبحت الدراما أيضًا عنصرًا مهمًّا في تشكيل وعي الأفراد –بل والمجتمعات– وتوجيه سلوكياتهم الاجتماعية؛ فالأعمال الدرامية تسهم في ترسيخ تصوُّرات معيَّنة لدى الناس حول الزواج والأسرة أو تغييرها، بل قد تنشيء تصورات وتخيلات مستجدة لدى المجتمع لم تكن شائعة من قبل.

٢) ثقافة توزيع الأدوار بين الزوجين

يشكِّل موضوع توزيع الأدوار بين الزوجين واحدًا من القضايا التي تواجه الأسرة المعاصرة لا سيما في بداية تكوينها؛ حيث تثور خلافات بين الزوجين حول تلك المسألة بمستوياتها المختلفة سواء المتعلقة بالشئون المنزلية أو المالية أو العائلة الممتدَّة للأطفال والأهل والأصدقاء وغيرها، وفي هذا السياق عادة ما تشكو النساء من انسحاب الرجال من تحمُّل المسئوليات المشتركة في المنزل والأولاد وغيرها، وفي بعض القطاعات تشكو النساء من انسحاب الرجال كليًّا بما في ذلك مسألة الإنفاق المالي وهو ما بات يعرف بظاهرة "**المرأة المعيلة**"؛ أي التي تتولَّى الإنفاق على أسرتها (الزوج والأولاد)، وتشير الإحصائيات إلى تزايد هذا الظاهرة بنسبة كبيرة للغاية حيث تتولَّى المرأة إعالة أكثر من ٣٠% من الأسر المصرية[١٥٢].

ويرتبط توزيع الأدوار بين الزوجين بمجموعة من الثقافات الشائعة بين أوساط الناس، بعضها مستقى من العادات والتقاليد والأعراف وبعضها مستقى من تصوُّرات دينية ومفهومات فقهية في مجال ترسيم الحدود بين الرجال والنساء عمومًا، وفي مجال الأسرة والزواج على وجه الخصوص، والبعض الآخر مستقى من ثقافات تغريبية وافدة، ونحاول هنا رصد أهم هذه الثقافات السائدة.

ذكورية وأنثوية الأدوار:

ثمة ثقافة سائدة حول أدوار الرجال والنساء في المجتمع تعتمد على تقسيم الأدوار وفقا لمعيار النوع (ذكر أو أنثى)، وفق هذا النمط الثقافي في التفكير تقتصر بعض الوظائف على الرجال بينما تقتصر أخرى على النساء، ويصبح من غير المقبول (أو العيب) مجتمعيًّا أن يتقلَّد أحدهما دور أو وظيفة الآخر، وينسحب هذا على مجال الأسرة وحدود العلاقة بين الزوجين؛ فالمرأة تختصُّ بأدوار داخلية مثل شؤون المنزل وتربية الأولاد، بينما يختصُّ الرجل بأدوار خارجية مثل اكتساب الرزق والإنفاق المالى على الزوجة والأولاد.

وقد أظهرت نتائج إحدى الدراسة الميدانية اتجاها نفسيا إيجابيا لدى المرأة نحو المسئوليات الأسرية ومشاركة الزوج فيها، بينما أظهرت اتجاها سلبيا لدى الرجل نحو مشاركته في أعمال المنزل وشؤونه، وأرجعت

١٥٢- 30 في المئة من الأسر المصرية تعتمد ماديا على النساء المعيلات، 8مارس/ آذار ٢٠١٧، HTTP://WWW.BBC.COM/ARABIC/MEDIA-39197400

الدراسة تدني مستوى مشاركة الرجال إلى الثقافة المجتمعية السائدة والموروثة والتنشئة الاجتماعية والأسرية. كما أظهرت الدراسة أن مشاركة الزوج قد تتأثر بمفهوم الرجولة وارتباطه ثقافيًّا بالإنفاق على الأسرة وما يترتَّب على ذلك من منظومة أدوار مختلفة بين الرجل والمرأة، تجعل مسئولية الرجل خارجية والمرأة داخلية، وأشارت الدراسة إلى أن هناك تصورًا سائدًا بين الرجال حول أنثوية الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال باعتبارها وظائف أنثوية، وهو اعتقاد أظهرت النتائج أن كثيرًا من الرجال يعتنقونه وإن كانوا من المساعدين في شئون الأسرة والأطفال[١٥٣].

نمط التربية وأثره على مسألة الأدوار:

ينشأ اختلال توزيع الأدوار عن أسباب مختلفة؛ من أبرزها انتشار الثقافة القائمة على تدليل الأبناء من الذكور وتربيتهم على عدم مشاركة الأهل والأخوات في مسئوليات المنزل، وأن أعمال المنزل تسمَّى بالأعمال المنزلية وتقتصر على الطبخ والغسل والنظافة وترتيب المنزل ومن ثم فهي مسئولية البنات ومن ثم الزوجات فحسْب. بل يرى البعض أن الفتيات قبل زواجهن مسئولات عن خدمة إخوانهن من البنين.

ومن ثم ينشأ غالب الرجال على نفس تلك العادات والأفكار، ويرى أن القيام ببعض الأعمال المنزلية أو المساعدة فيها ليس من شأنه، بل قد يكون انتقاصًا من رجولته. وتنشأ أيضا غالب الفتيات على أنها مسئولة عن كل الأعباء داخل المنزل وخارجه وأن الرجل مسئول فقط عن توفير المال. وتتحوَّل مسئولية الزوجة عن الأعمال المنزلية إلى مسئولية عن كل أعباء الأسرة، من تنظيم المنزل والعناية به وصيانته وإعداد الطعام وتربية الأبناء وتعليمهم... إلخ، وتصبح مسئوليات الرجل مقتصرة على العمل خارج المنزل لتوفير المال فحسب؛ وكأنه مموِّل وليس رب الأسرة والمسئول الأول عنها، بمشاركة زوجته.

اقتراح لتعديل ميزان الأدوار:

يرى البعض أن أزمة الإنسان في العصر الحديث تنبع من الحركية الهائلة المرتبطة بتزايد معدلات الاستهلاك التي تسِم إيقاع الحياة الحديثة بلا عدد ولا حصر، ومن ثم فإن الدراسة المتأنية تبين أن **مشكلة الأسرة تنبع من أن الرجل قد تمَّ "تحديثه" بشكل متطرِّف وتمَّ استيعابه في هذه الحركة الاستهلاكية العمياء** بحيث أصبحت البدائل المطروحة أمامه تفوق بكثير البدائل المطروحة أمام المرأة، وبما أن هذه النزعة الاستهلاكية المتطرِّفة هي أحد أسباب أزمة الإنسان الحديث فقد يكون من الأكثر رشدًا وعقلانية ألَّا "نطالب بتحرير المرأة"، وألَّا نحاول القذف بها هي الأخرى في عالم السوق والحركية الاستهلاكية، بل أن نطالب بتقييد حركة الرجل أو وضع قليل من الحدود عليه وعلى حركيته بحيث نبطئ من حركته فينسلخ قليلا عن عالم السوق والاستهلاك وبذلك يتناسب إيقاعه مع إيقاع المرأة والأسرة وحدود الإنسانية المشتركة.

---

١٥٣ كيان محمد البرغوثي، مشاركة الزوج في المسؤوليات الأسرية من وجهة نظر المرأة والرجل العاملين في الجامعة الأردنية، مرجع سابق.

انطلاقًا من هذا التشخيص المختلف لمشكلة المرأة والأسرة يتم طرح رؤية مغايرة لتعديل ميزان الأدوار المختل بين الرجل والمرأة في المجتمعات العربية يختلف كلِّيًا عن النماذج الصراعية التي تروِّج لها الثقافات التغريبية في البلاد الإسلامية، وتتركَّز هذه المقترحات على كيفية تحقيق تطلُّعات الرجل والمرأة مع الحفاظ على كيان الأسرة دون أن يتفكَّك، ومن أهمها:

- أن يُعاد تعليم الرجل بحيث يكتسب بعض خبرات الأبوة والعيْش داخل الأسرة والجماعة، وهي خبرات فقدها الإنسان الحديث مع تآكل الأسرة وتحركه المتطرف في رقعة الحياة العامة. وبهذا سيكون بوسْع الرجل أن يشارك في تنشئة الأطفال وأن يعرف عن قرب الجهد الذي تبذله الأمُّ في ذلك بما يعيد التأكيد على الإنسانية المشتركة.
- توقف الحديث عن "حق المرأة في العمل" بالمعنى المادي الشائع؛ أي العمل المؤدِّي إلى منتج مادي من سلع وخدمات مقابل أجر، وإعادة صياغة رؤية الناس بحيث يعاد تعريف العمل فيصبح "العمل الإنساني"؛ وهنا تصبح الأمومة أهم الأعمال المنتِجة؛ ومن ثم يقل إحساس المرأة العاملة في المنزل بالغربة وعدم الجدوى ويزداد احترام الرجل لها ويكف الجميع عن القول بأن المرأة العاملة في المنزل لا تعمل، وكأن عمل سكرتيرة في إحدى الشركات أكثر أهمية وجدوى من تنشئة الأطفال.
- دعوة المعماريين إلى إعادة اكتشاف طرق جديدة لإعادة إنتاج الأسرة الممتدة بما توفِّره للإنسان من طمأنينة داخل المدينة الحديثة ذات الطرق القاسية والإيقاع المرعب، كأن نطوِّر طُرُزًا معمارية تفعِّل الجيرة كمؤسسة وسيطة تُشبه في وظيفتها الأسرة الممتدَّة.
- دعوة الاقتصاديين إلى إعادة النظر في مفهوم "يوم العمل" بحيث يمكن تقطيعه وتقسيمه ليتناسب مع مؤسسة الأسرة ولا يتعارض مع محاولة المرأة أن تقوم بدورها كأم وزوجة، بل إنه يمكن تعديل رقعة الحياة العامة ذاتها ومكان العمل بحيث يُخلق داخله حيِّز إنساني.
- ابتكار طرق ووسائل جديدة لإحياء الاقتصاد العائلي الذي أثبت كفاءته ومقدرته في الاستمرار والإنتاج في المجتمعات الحديثة التي توصف بكونها "متقدِّمة" مثل اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، فالاقتصاد العائلي يمكن أن يمثِّل شكلًا من أشكال علاقات الإنتاج التي لا تقوِّض الأسرة ولا تفكِّكها، ويمكن للمرأة أن تشارك فيه دون أن تفقد هُويتها كأم وزوجة.
- تطوير نظم تعليمية جديدة، بحيث يمكن للمرأة أن تستمرَّ في التعلُّم دون أن تتولَّد داخلها التوتُّرات بين الرغبة المحمودة في التعلُّم والنزعة الفطرية نحو الأمومة.

إن مثل هذه الاقتراحات تهدف إلى تقليل الأعباء النفسية الناجمة عن الأمومة وتحرير المرأة بعض الشيء من الأعباء المنزلية البدنية، بحيث نخلق حيزًا خاصًّا بها يمكنها من أن تمارس فيه إنسانيَّتها دون أن

تضطرَّ إلى تحطيم الأسرة ودون أن تجعل تحقيق ذاتها مشروطًا بتخلّيها عن الأسرة وعن دورها الاجتماعي[١٥٤].

٣) ثقافات الوافد والموروث:

شخَّصت بعض الدراسات مظاهر الخلل في ثقافة الزواج المعاصرة وصراعات الأدوار المتبادلة بين الرجال والنساء إلى انتشار ثقافتين متصارعتين في المجتمعات العربية والمسلمة؛ الأولى ثقافة تغريبية نسوية علمانية صراعية تأسَّست على مفاهيم النوع "الجندر" والصراع بين الجنسين، تنطلق من مفهوم المساواة كمدخل لتغيير واقع الأدوار المتعارف عليها بين الجنسين في البلاد العربية والإسلامية؛ فمشكلة تنازع الأدوار بين الرجل والمرأة تعود –وفق هذا التصوُّر– إلى حالة التغريب والغزو الفكري للمجتمعات العربية والإسلامية من خلال انتشار مفاهيم الفردية والاستهلاك والموضة والاستقلال الذاتي والنسوية والذكورية وغيرها من المفاهيم الغربية التي دخلت البلاد الإسلامية في سياق عمليات العولمة والعلمنة والتي أَدَّتْ إلى ارتباك وتشوُّش المجتمعات الإسلامية وكذلك ارتباك النظرة إلى الأدوار والوظائف الخاصة بالرجال والنساء[١٥٥].

ومن الأدوات الفاعلة التي يُعتمد عليها في نشر تلك الثقافة: الاتفاقيات الدولية المتعلقة بالمرأة والطفل، بما تنطوي عليه من دلالات خاصة بفرض نمطٍ غربيٍّ معيَّنٍ لفكرة الأسرة وحدود العلاقة بين الجنسين وما يرتبط بها من أدوار وحقوق متبادلة؛ إذ تسعى هذه الاتفاقيات إلى ضرب رمزية الآباء والأمهات في الأسرة من خلال تضخيم حقوق الأبناء في مقابل إضعاف سلطة الأبوين لا سيما السلطة التأديبية والرقابية بما يدفع في نهاية الأمر إلى ضرب مفهوم القوامة الإسلامي للرجل في أسرته، كما تسعى هذه الاتفاقيات إلى استهداف أمومة المرأة من خلال المواثيق التي تنادي بحرية التحكُّم في الجسد وما تبعه من صيحات تتعلق بتأجير الأرحام والأمهات العازبات، الأمر الذي يصبُّ في اتجاه انفصام علاقة المرأة بالرجل ومزيد من عمليات التفكيك للقيم الإسلامية. تؤدِّي الرؤى والتصورات المتضمَّنة في تلك الاتفاقيات إلى فقدان الأسرة المسلمة وظائفها التأسيسية في الاستخلاف والعمران واستمرارية النوع البشري وتتسبَّب في آثار سلبية كارثية على المجتمع والدولة؛ حيث يؤدِّي غياب دور الأب وضرب مفهومي القوامة والأمومة إلى ارتفاع معدلات الانحلال والجريمة في المجتمع[١٥٦].

أما الثقافة الأخرى فتنطلق من منظومة ذكورية مؤسسة على تراث تقليدي وتصورات غير دقيقة لمفهوم القوامة، الذي فُسِّر بمعاني همشت فاعلية المرأة في المجتمع والمجال العام.

---

١٥٤ عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، القاهرة، نهضة مصر، 1999.
١٥٥ حبيب المفتي، تأثير الحضارة الحديثة على الأسرة المسلمة، مجلة المسلم المعاصر
١٥٦ رشا عمر الدسوقي، الأسرة المسلمة بين الاتفاقيات الدولية والمقاصد العليا للشريعة

الفصل الثاني

مقومات الاستقرار الأسري في الفترة الأولى

أول ما يقوم عليه الاستقرار الزواجي استصحاب ما سبق التمهيد به في الخِطبة بل ما قبلها من التأهل للزواج؛ وفي مقدمة هذا: الجانب الإيماني والقيمي. فمن أغرب الأحوال أن يحتفظ المرء قبل الزواج بإيمان يصله بالله الذي به يعيش وبه يتزوج (**بكلمة الله، على كتاب الله وسنة رسوله**)، ثم إذا ما دخل من باب بيته الجديد فرَّط في كثير من مقتضيات هذا الإيمان لتحقيق مقصد الزواج (**لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**)، مع أن هذا الإيمان هو المنبع للبناء والمرجع عند الاختلاف. وكذلك القيم والأخلاق التي أظهر كلٌّ منهما التحلِّي بها قبل الزواج هي اللبنة الأساسية في بناء الاستقرار ويجب أن تتجلَّى في هذه المرحلة فعلًا وتفاعلًا.

والبيت الناجح هو بيت المسئولية والنظام، كما أن البيت الفاشل هو بيت التقاعس والتهاون، والأفشل هو بيت الفوضى والعشوائية، لا سيما في زمننا هذا وفي ظلِّ ما نعرفه ونعانيه من ضغوطات. وهذا لا يعني أن الحياة الزوجية حياة عابسة أو متعبة بقدر ما أن التجربة والواقع المشهود يؤكِّدان أن الجادِّين هم السعداء والناجحون.

ومن ناحية أخرى، فإنه للوصول إلى التوافق الزواجي الذي هو قمة الاستقرار الأسري والزواجي بأشمل معانيه كما نستشعره من قوله تعالى (**يوفق الله بينهما**)، تتضمَّن مقومات الاستقرار –علاوة على عمودي القيم والحقوق السابق ذكرهما– جانبين غاية في الأهمية هما بمثابة أرضية البيت وسقفه: **تدبير الميزانية المنزلية وفنون المتعة الجنسية**.

فالمتعة الجنسية؛ هي الهدف الأبرز من الزواج، وما تلك المقومات ولا ما بعدها إلا مقدِّمات لهذه المتعة أو ثمار تنتج عنها، وما لم نتعلم كيف نحافظ عليها ونبلغ منها أفضل ما نحب فإن البيت يغطس في رمال متحركة ويتعرَّض للانهيار. ويؤازر ذلك توفير ما يحتاجه البيت (وفق النمط الأسري) من لوازم معيشية ضرروية وحاجية، وإظهار المحبة في الإنفاق، وكذلك في التدبير بلا إسراف ولا تقتير.

هذه الجوانب الأربعة (القيم – الحقوق – التدبير المالي – المتعة الجنسية) تؤسِّس لاستقرار البيت السعيد من أول يوم، فيجب الوعي والتوعية بها للزوجين على حدٍّ سواء، وأن يعرف كلٌّ منهما دوره فيها، ويجب عليهما العمل بها عن قناعة وحرص منهما على انسياب حياتهما وعلاقتهما الزوجية ونجاح بيتهما؛ في الطريق إلى التوافق الدائم والرضا والسعادة.

أولا– قاعدة الإيمان والقيم والأخلاق

الإيمان أهم العوامل المحقِّقة لثبات الأسرة واستقرارها، والثمرة الكبرى للإيمان هي الأخلاق والقيم التي هي إطار استقرار الأسرة. وقد تأكَّد من الدراسات المختلفة ما كان معروفًا بالبديهة من الارتباط الطردي القوي بين أفول الدين وضعف الرابط العائلي، فحينما كانت العلاقة وثيقة بمحل العبادة (المسجد أو الكنيسة..) كان التجانس في العلاقات الأسرية أقوى؛ لذا فإن عدم الالتفات إلى الدِّين يؤدِّي إلى اختلالات أسرية عديدة، وكثيرًا ما نبحث لها عن تعليلات أو حلول فلا نجد مثل التعاليم الدينية علَّةً أو حلًّا.

ويؤثِّر الدِّين على استقرار العائلة من خلال مسارين:

الأول– المبادئ الأخلاقية عند الشخص، ومن أهم نتائجها إيجاد عامل الضبط والرقابة الداخلية الذي يمنع الشخص من الظلم، ومن الآثار الواردة عن الحسن البصري أنه قال في تزويج الابنة: زوِّجها برجل تقيٍّ، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها[١٥٧].

الثاني– تأثير الإيمان الديني على إضفاء معنًى خاص على الحياة، وإيجاد الشعور بالرضا؛ فالإيمان بوجود الله تعالى يؤثر على الشعور بالطمأنينة والرضا والتأقلم مع مشكلات الحياة.

ومن أعظم ما يقرِّب بين الزوجين ويزيد التواصل والتفاهم بينهما أن يحرصا على أداء طاعة معًا، وذلك مهما كانت الظروف. والزوج يجب أن يحث زوجته على هذا، ولا يغفل عنه في غمرة اهتماماته. ولابد أن يكون حريصًا عليها مترفقًا بها كحرصه ورفقه بنفسه، وعليه أن يقدِّر أوقات ضعفها وتعبها، وألَّا يحملها فوق طاقتها حتى تستطيع الاستمرار في العطاء له وللأبناء[١٥٨].

صيانة الكرامة وعدم الإساءة

يجب على كل من الزوجين أن يصون كرامة صاحبه ولا يسيء إليه، ويتحقق ذلك بوسائل من أهمها: **أنه لا سباب ولا طعن ولا لعن بين الزوجين.**

فمن خلق المسلم في معاملته مع الناس أنه ليس بفاحش ولا طعان ولا بذيء. ومن ثم فمن باب أولى أن يكون هذا خلق المسلم في بيته مع زوجته، فلا يسبها أو يجرح كرامتها، وخاصة أمام أيٍّ أحد من الناس، ولا حتى أولاده.

(١٥٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، (١٧/٤).
(١٥٨)الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ٣١، ٣٢)

والمرأة الصالحة كذلك لا تسيء إلى زوجها لا بالكلام ولا بغيره احترامًا للعشرة ومحافظة على مشاعر زوجها ومقامه منها، حتى لو أبغضتْه فإنها لا تصرّح له بذلك[١٥٩]. وإن من أخطر ما يزعزع عرى المحبة ويقطع أوصالها وروابطها، الإساءة باللسان.

ومن الإيمان والخلق الحسن معا: **الاتفاق بين الزوج والزوجة وأهلها على أن يكون شرع الله هو الأساس والحاكم بينهم**؛ وهذا أصل أصيل غفل عنه الأكثرون، ولا يطبقه كثير ممن يتكلمون به فضلا عمن نسوا أنهم تزوجوا على هذا الأساس **(على كتاب الله وسنة رسوله)!!**

ومما ينصح به الزوجان ويؤكد عليه في تأسيس حياتهما الزوجين **إدامة وإكثار ذكر الله تعالى في بيتهما** سواء بتفعيل صوت قرآني في البيت وهذا أدنى الدرجات، أو بالحفاظ على الأذكار وتلاوة القرآن في البيت وفيما بينهما. ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سنّ لكل عمل في البيت –وخارجه– ذكرًا يحل به البركة ويمنع به مداخل الشياطين والحاسدين والمسيئين.

حضانة الأطفال وتربيتهم

قرَّر الإسلام مسئولية الأم عن حضانة أطفالها في العديد من آياته، ثم أكَّدت السنة المشرفة ذلك. وينبغي أن يتعاون الزوجان من أجل كمال أداء مسئولية حضانة الأولاد وتربيتهم كما جاء في الحديث: "**إن لولدك عليك حقا**"[١٦٠] وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقبِّل أولاده وأحفاده ويلاعبهم. ومن البديهي أن تمتد الرعاية إلى كثير من صور التربية والتوجيه ومعاونة الأم في هذا المجال الخطير[١٦١].

تدبير شئون البيت

لقد كانت السيدة فاطمة رضي الله عنها تعمل في بيت زوجها وتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم خادمًا، فيعتذر لحاجة أهل الصفة (فقراء المهاجرين)؛ قال الطبري عن هذا الموقف: "يؤخذ منه أن كلَّ من كانت لها طاقة من النساء على خدمة بيتها في خبز أو طحن أو غير ذلك، أن ذلك لا يلزم الزوج إذا كان معروفًا أن مثلها يلي ذلك بنفسه. ووجه الأخذ أن فاطمة لما سألت أباها صلى الله عليه وسلم الخادم لم يأمر زوجها بأن يكفيها ذلك؛ إما بإخدامها خادمًا، أو باستئجار من يقوم بذلك، أو بتعاطي ذلك بنفسه. ولو كانت كفاية ذلك إلى عليٍّ لأمره به كما أمره أن يسوق إليها صداقها قبل الدخول مع أن سوْق الصداق ليس بواجب إذا رضيت المرأة أن تؤخِّره فكيف يأمره بما ليس بواجب عليه ويترك أن يأمره بالواجب"[١٦٢].

---

(١٥٩) ينظر: الحب وأثره في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص ٥٢، وص ٨٣.
(١٦٠) سبق تخريجه.
(١٦١) ينظر تحرير المرأة في عصر الرسالة، الجزء الخامس -ص ١١٦ :١٢٥
(١٦٢) فتح الباري (٩/ ٥٠٦).

وقال ابن بطَّال: وعون المرأة زوجها في ولده ليس بواجب عليها، وإنما هو من جميل العشرة ومن شيمة صالحات النساء(١٦٣). ويقول الشيخ محمد الغزالي: "الإسلام عندما أوجب على الرجل نفقة البيت كان في الحقيقة يعطي المرأة عوضًا عن تفرُّغها لحسن تبعُّله وتنشئة أولاده، واتجاهها الكامل إلى أداء رسالتها الطبيعية. والذين يزدرون وظيفة ربة البيت جُهَّالٌ بخطورة هذا المنصب وآثاره البعيدة في حاضر الأمم ومستقبلها الأخلاقي والاجتماعي. وأعباء هذا المنصب داخل البيت تكافئ أعمال الرجل الشاقة خارجه. وقد وجَّهت الشريعة كلا الجنسين إلى ما يليق به ويتفوَّق فيه. والقدرات الخاصة لبعض النساء لا تلغي هذا التخصُّص(١٦٤).

قال ابن تيمية: "وتجب خدمة زوجها بالمعروف من مثلها لمثله ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة"(١٦٥).

مشاركة الأزواج في أعمال المنزل

يتعالَى بعض الأزواج عن مشاركة زوجاتهم في الأعمال المنزلية، كالطبخ والغسل والتنظيف، ويزعم أن هذه الأعمال هي وظيفة زوجته في البيت، وبعضهم يتصوَّر أن تلك هي الرجولة، أو أن هذا الأمر ينقص من هيبته أو مكانته في بيته، وربما تعلَّل بعضهم بأنه صاحب مهام ومسئوليات، وزوجته لا تزيد في ذلك عن عادة جميع النساء، وهذا فهم خاطئ.

فهذا سيد الخلق صلى الله عليه وسلم رغم أعبائه ومسئولياته التي لا توازيها أعباء أو مسئوليات؛ فهو النبي الذي يبلغ رسالة ربه وهذا حمل لا يقارن ثقلا كما قال تعالى: **(إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا)**؛ وهو رئيس دولة ومتولِّي تصريف شؤونها؛ وهو القاضي الذي يفصل بين الناس؛ والمفتي الذي يجيب أسئلة الناس؛ وهو الذي قضى مدَّة دعوته في جهاد دائم مع أعداء الدين والظالمين، **ومع ذلك كان يساعد زوجاته في أعمال البيت**، فكما جاء في الحديث الصحيح: "عن الأسود قال: سألت عائشة **ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟** قالت: "**كان يكون في مهنة أهله –تعني خدمة أهله– فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**"(١٦٦).

فمعونة الزوج لزوجته في عمل البيت –كلما أمكنه ذلك– من أعمال الرجولة والمروءة والعظمة والرشاد، وهي تزيد الود بينهما، وكلما زاد الود وملك الرجل قلب امرأته سهل عليها انقيادها له.

---

(١٦٣)فتح الباري (٩/ ٥١٣).
(١٦٤) قضايا المرأة للغزالي، ص ١١٦ ، ١١٧، ١١٨.
(١٦٥)الاختيارات الفقهية (مطبوع ضمن الفتاوى الكبرى المجلد الرابع): تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، ص ٥٦١. و الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ٤٦)
(١٦٦) صحيح البخاري، رقم: (٦٤٤)، (١/ ٢٣٩).

وإذا كان الشرع قد قرر مسئولية المرأة عن تدبير شئون البيت، فإن تلك المسئولية لا تعني أن تقوم بنفسها بجميع أعمال البيت؛ إنما يعني مسئوليتها عن الإشراف على كل ذلك، أما أن تقوم هي به أو يقوم به –أو ببعضه– آخرون، فهذا أمر يتوقَّف على عوامل كثيرة، مثل: القدرة المالية، ومدى الوقت المتيسِّر لبذله في أعمال البيت عند كلٍّ من الزوجة والزوج والأبناء والبنات. كذلك يتوقَّف على مدى قدرة الزوجة على إنجاز تلك الأعمال دون إرهاق، ودون تعطيل لواجبات أخرى مثل: رعاية الأطفال وتربيتهم، ومتابعة المشاركة المحمودة في نشاطات ثقافية واجتماعية تحافظ على شخصيتها وتنميتها، المهم أنه ليس هناك إلزام شرعي مطلق وعام للمرأة للقيام بكل تلك الأعمال، إنما ظروف الأسرة هي التي ترسم الطريقة الصحيحة. مع العلم أن التنظيم والتعاون بين جميع أفراد الأسرة يظلان عاملين أساسيَّين وضروريَّين في كلِّ الظروف والأحوال، وهما كفيلان بتيسير وتسهيل إنجاز أعمال البيت من ناحية، وادّخار أوقاتهم لنشاطاتهم وواجباتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية فضلًا عن الترويحية.

ثانيا– قاعدة الحقوق والواجبات المشتركة

الحق من أسماء الله تعالى، فهو الحق وكل ما يكون منه أو له سبحانه وتعالى فهو حق؛ فهو يقول الحق ويقضي بالحق ويخلق بالحق ويرزق بالحق. وثمة ثقافتان أو نظرتان في التعامل مع قضية الحقوق: ثقافة تعاقدية وأخرى تراحمية.

فالثقافة التعاقدية تفصل القيم عن الحقوق، وتعتبر الحقوق اختصاصات قانونية لا اجتماعية، وأن كلَّ واحد ملزم بأداء الحقوق شاء أم أبَى، ولا ضرورة للقيم التي تغلَّف بها المعاملات الحقوقية. وهذه ثقافة المنظور الوضعي المادي العلماني.

والمنظور الحضاري لا ينفي التعاقد لكنه يؤطِّره بثقافة تراحُمية تليق بالتعريف الإيماني للإنسان. وتقوم الثقافة التراحمية على الجمع بين العدل والفضل، وأن تؤدَّى حقوق الإنسان في إطار من الرضا والتراضي لا الجبر والقهر، فلا يكون الجبر والقهر على أداء الحقوق إلَّا حال تعمُّد إهدارها وإجبار الآخرين على ذلك. وفي هذا الإطار نتناول الحقوق الزوجية المختلفة وفي مقدِّمتها الحقوق والواجبات المشتركة بين الزوجين.

وتتعدَّد الحقوق الزوجية المشتركة، أي التي هي حقٌّ متبادلٌ لكلٍّ منهما تجاه صاحبه، ومن أهمها:

(١) الاستمتاع:

من الحقوق الشرعية المتبادلة بمقتضى عقد الزواج، حق الاستمتاع الجنسي، فهو واجب على الزوجين تجاه بعضهما. ويدخل في الاستمتاع كلَّ ما يشبع الغريزة بداية من النظرة إلى اللمس إلى الجماع ونشوته(١٦٧).

ومن النصوص التي تحضُّ المرأة على عدم التقصير في هذا الحق، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها**"(١٦٨).

وفي كل الأحوال تبقى القاعدة الجليلة التي قررها الكتاب العزيز: "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**" هي الأصل في هذا الشأن وغيره. فيجب أيضًا على الرجل أن يستجيب لزوجته في هذا الشأن إذا طلبت أو ألحت أو استشعر من نفسِه حاجتَها إلى ذلك.

وإن ممارسة الزوجين للغريزة الجنسية واستمتاع كل منهما بالآخر ليس أمرا مشروعًا فحسب ولكنه عمل يبتغي به المسلم أجرا من الله تعالى حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**وفي بضع أحدكم صدقة**"، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**"(١٦٩).

(٢) التزين والتجمل

تزيُّن وتجمُّل كلٍّ من الزوجين للآخر هو من الحقوق المتبادلة والمشتركة بين الزوجين، وليس أمرًا تطوعيًا كما قد يتوهَّم البعض، وقد مرَّ بنا أن بعض المفسِّرين من لدن الصحابة قالوا في قول الله تعالى: "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**"؛ أي "ولهن على أزواجهن من التصنُّع والمواتاة مثل الذي عليهن لهم من ذلك" فعن ابن عباس: "إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره يقول: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف"(١٧٠).

والزوجة التي تتزين لزوجها وتتعطر له تكون قد أدَّت واجبًا عليها تجاه زوجها، وكذلك الزوج يجب عليه أن يتزين لزوجته وأن يجعلها تراه كما يحب أن يراها.

والشرع يقرُّ كلَّ طريقة تحقِّق التجمُّل ما دامت تبعُد عمَّا نهى الله عنه. وعلى ذلك فكثير من صور وأدوات التجميل الحديثة، لا حرج على المسلمة إذا مارستها، وخاصة ما كان منها من الأصباغ والمساحيق،

(١٦٧) ينظر: المغني لابن قدامة (٧/ ٢٣١). الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ٣، ٤، ٥)
(١٦٨) صحيح مسلم، رقم: ٣٥٣٠ ، (٤/ ١٥٧).
(١٦٩) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٩٢، (٣/ ٨٢).
(١٧٠) سبق تخريجه.

ما لم تكن من مادة تحول دون إسباغ الوضوء ووصول الماء إلى البشرة. والمحرَّم من الزينة يظهر في قول عبد الله بن مسعود: "**لعن الله الواشمات والمستوشمات (أي فاعلات الوشم والطالبات له) والمتنمصات (أي من يقمن بإزالة شعر الحاجبين لترفيعهما أو تسويتهما) والمتفلجات (أي من يبردن أو يفرقن بين أسنانهن الأمامية للزينة وإظهار صغر السن) للحسن المغيرات خلق الله تعالى**"[١٧١]. وفي الحديث الصحيح: (**لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة**)[١٧٢].

وقد اتجه بعض الفقهاء إلى استثناء بعض طرق التزين هذه من دائرة النهي (كوصل الشعر، والنمص)، إذا كان برضا الزوج ولإدخال السرور عليه، أو كانت لعلاج عيوب بدنية تسبِّب أذًى مادِّيًّا (كمن كان لها إصبع زائدة تؤذيها أو تؤلمها) أو تسبِّب أذًى معنويًّا.

ضوابط زينة المرأة

وللزوجة أن تتزين بما شاءت من أنواع الزينة من لباس وحلي وأدوات تجميل مع مراعاة التالي:

١- عدم وجود ضرر في الزينة المستخدمة.

٢- ألا يكون فيها تغيير لخلق الله، كأن تعمل عملية جراحية لتغيير شكل الأنف أو الفم مثلاً تقليدًا لأخريات، أو لما يسمى بـ(الموضة)؛ إذ قد ورد الوعيد الشديد في ذلك، أما إذا كان لمعالجة تشوُّه في جسدها فلا مانع منه.

٣- ألا تتجمَّل بما لا يجوز كالوشم.

٤- ألا تكون زينة محرمة كما لو وصلت شعرها بشعر امرأة أخرى، أو بشعر نجس.

٥- ألا تقلِّد الفواسق من النساء المعلنات بالفسوق حتى لا تشترك في نشر قيمهن الفاسدة أو تعلي من قدرهن.

(٣) حسن المعاشرة (وعاشروهن بالمعروف)

يجب على الزوج أن يصبر على زوجته إذا رأى منها بعض ما لا يعجبه من تصرُّفاتها، ويعرف لها ضعفها بوصفها أنثى فوق نقصها كإنسان، ويعرف لها حسناتها بجانب أخطائها، ومزايها إلى جوار عيوبها. لقوله تعالى: (**وعاشروهن بالمعروف**)، ويجب على الزوجة أيضًا أن تعمل على استرضاء زوجها بما عندها من قدرة وسحر[١٧٣]، والمعاشرة بالمعروف واجبة بنص الآية، إذ الأمر يقتضي الوجوب، وقد دَلَّت السنة على ذلك أيضًا، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء خيرًا"[١٧٤].

---

(١٧١) صحيح البخاري، رقم: (٥٥٩٩)، (٥/٢٢١٩).
(١٧٢) صحيح البخاري، رقم: (٥٥٨٩)، (٥/٢٢١٦).
(١٧٣) الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ١٨)
(١٧٤) صحيح البخاري، رقم: (٤٨٩٠)، (٥/ ١٩٨٧). صحيح مسلم، رقم: (٣٦٣٨)، (٤/ ١٧٨).

ومن المعاشرة بالمعروف بين الزوجين: طيب القول، وحسن الأفعال والهيئات حسب المستطاع، وترك الأذى بالكلام أو الأفعال، وترك الميل والإعراض، وترك العبوس والقطوب في الوجه بغير ذنب، وما جرى مجرى ذلك.

ويحرم إلحاق الضرر بالزوجة سواء أكان الضرر ماديًّا أم معنويًّا، ومن الضرر المعنوي العبوس والقطوب في وجهها، والنظر إليها شزرًا، وتجاهل سؤالها، وغير ذلك من التصرُّفات التي فيها أذى وضرر بها بالقول أو بالإشارة أو بالنظر أو بالسخرية، أو بعد التكلم معها ونحو ذلك.

(٤) الحوار الزواجي الناجح

الحوار ركن ركين من أركان العلاقة الزوجية والحياة الأسرية، وهو من أهم ما يساعد على حسن المعاشرة بينهما، فالتوافق لا يُولَد بين عشيَّة وضحاها ولكنه يحتاج إلى معاشرة بينهما، وإلى مدة زمنية، تطول أو تقصر، وفقًا لاستعداد كلٍّ منهما، وأهم ما يملأ هذه المساحة الزمنية والحياتية هو حسن التحاور بينهما: تكلُّمًا وإصغاءً، وتقبُّلًا وإقبالًا. ولكي يكون الحوار مثمرًا، فعلى الزوجين مراعاة ما يلي[١٧٥]:

١- احتمال الخطأ والصواب

ينبغي على كلٍّ من الزوجين، ألا يتعصَّب لرأيه، فالتعصُّب للرأي خلق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبناءه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق، لا التعصُّب والانفعال، يقول الله تعالى: **(فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)**، إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفًا ولا متشنِّجًا، حادًّا في مواقفه مع الآخرين، كما قال الإمام الشافعي: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

٢- إحسان الظن والاعتذار عند الخطأ

في الحديث: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» فمن أخطأ في حق امرئ، فليحسن له الاعتذار، وهو من شروط التوبة من الذنب الذي تعلَّق بحق آدمي أن يستحلَّه منه في الدنيا، ففي الحديث: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) فإذا كان هذا بين عموم الناس، فكيف به بين الزوجين؟ فمن أخطأ منهما في حق الآخر أو أساء فليحسن الاعتذار إلى الآخر. وعلى الآخر أن يقبل منه ويصفح.

(١٧٥) ينظر: دليل الزوجين إلى الحوار الناجح، د/ رضا المصري.....

٣- تفهم نفسية الطرف الآخر وطبيعته

حينما يعتقد إنسان ما أحقية رأي ما، ويجد شريك حياته يخالفه هذا الرأي الحق، فيجب عليه أن يتفهم ظروفه وخلفية موقفه. فلعل لديه أدلة مقنعة على ما ذهب إليه، أو لعله يجهل الرأي الحق؛ لقصور في مداركه ومعلوماته، أو لعله يعيش ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق، أو لعل هناك شبهات تشوِّش على ذهنه وأفكاره.

والإنسان قد يؤمن برأى من الآراء، ويعتبره حقيقة واضحة، تصل إلى مستوى المسلمات والبديهيات، لأنه قد أشبع الأمر بحثًا، وانجذب إليه نفسيًّا، وربما عاش ضمن محيط قائم على أساس ذلك الرأي في بيت أهله، فالمسألة أمامه واضحة لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للآخرين. وإن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلَّع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون؛ لأنهم لا يملكون ما يهيِّئ لهم ذلك.

٤- قيام الحوار على الرفق والرحمة والكلمة الطيبة

حثَّت السنة النبوية على التخلُّق بالرفق في كل شئون الحياة، وبيَّنت أنه سبب كل خير، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من يُحرم الرفق، يُحرم الخير»[١٧٦]، وليعرف كل من الزوجين فضل ثواب الكلمة الطيبة، واللين في الكلام، قال صلى الله عليه وسلم قال: **إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**، قال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: **لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام**"[١٧٧]. وهذا مع عموم الناس، فكيف بالزوجين مع بعضهما؟ فحريٌّ بهما أن يتخيَّرا أطيب الكلام، وأن يمدح كلٌّ منهما ما في الآخر من خصال الخير.

٥- التواضع بالقول أو الفعل وتجنُّب العجب والغرور والكبرياء:

لا يصحُّ ولا ينبغي أثناء الحوار أن يقوم بتصرُّفات تعبِّر عن نوع من السخرية وعدم الاكتراث به، ولا يصح أن يظهر على ملامح وجهه أو حركات حاجبيه أو عينيه أو شفتيه ما يدلُّ على السخرية والاستكبار، ولا يشير بطرف عينيه إشارات تعبِّر عن السخرية والازدراء، فهذا كله من الكبر، الذي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه.

---

(١٧٦) صحيح مسلم، باب فضل الرفق. رقم: (٦٦٩٠).
(١٧٧)أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه.

٦- الإصغاء وحسن الإنصات لمن يتكلم:

ينبغي على الزوج عليه أن يقبل على حديث زوجته ولا ينصرف عنها، أو يتشاغل، وإنما يتوجَّه إليها وإلى حديثها بوجهه وقلبه، كما ينبغي على الزوجة أن تحسن الاستماع لزوجها، وليس من حسن الاستماع أن يكلِّمها وهي منشغلة عنه، وإنما ينبغي عليها أن تتوجَّه إليه بوجهها وقلبها، وتشاركه مشاعره وأحاديثه.

٧- احترام الطرف الآخر

لا يجوز أن يحتوي أي حوار على شيء من السباب أو اللعن، أو الطعن أو الفحش في القول، فقد قال النبي (ﷺ): "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، فلا حاجة إلى اللجوء إلى تبكيت الشخص الذي تخاصمه وإحراجه والسخرية منه.

ومن الاحترام والتواضع أن يقبل الزوج مشورة زوجته، وإن بدا الصواب في رأيها أن يأخذ به، ومن الخطأ ما يجري على ألسنة العامة من قولهم: "شاورهن وخالفوهن" لأنه يخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي استشار زوجاته، وأخذ برأيهن.

والرجل مسئول عن زوجته وأولاده، ومن جملة مسئولياته تجاه زوجته مسئوليته عن تعليمها، فإما أن يعلمها هو، أو أن يأذن لها في أن تلحق مجالس العلم ومعاهده.

وكثيرًا ما تتأخَّر المرأة عن التطوير العلمي لنفسها بسبب انشغالها بواجب المنزل، فإن لم يعلِّمها الزوج ما يتعلَّمه فستتَّسع الفجوة العلمية بينهما، الأمر الذي يضعف الصلة بينهما.

ومن الاحترام اعتدال الصوت أثناء الحوار، فليس من الأدب المبالغة في رفع الصوت أثناء الحوار، وليس دليلًا على قوة الحجة.

وليعلم الزوجان أن الحوار بينهما ينبغي أن يقوم على الحب والوئام، فهما شريكان في سفينة، ولن ترسو إلى برِّ الأمان بأحدهما دون الآخر، بل بهما معا.

٨- الصدق والوضوح

لا بدَّ في الحوار من الصدق والوضوح، فهما طريق التآلف وحصول البركة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب

صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابا»[١٧٨].

(٥) حق الترويح

من الحقوق المتبادلة بين الزوجين الترويح، بأن يكون هناك مجال للهو واللعب والمزاح بين الزوجين. وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى العشاءَ يَسمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، ويجمع نساءه كلَّ ليلةٍ في بيتِ التي يبيت عندها، فيأكل معهن العَشَاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كلُّ واحدةٍ إلى منزلها[١٧٩].

وقد يتعلَّل بعض الأزواج في اعتذارهم عن مثل هذا مع زوجته، بكثرة الانشغال، وزيادة الأعباء، وتعدُّد المسئوليات. فنرد عليه بالقول: لن تكون أكثر انشغالًا من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحمل رسالة الله تعالى يعلِّمها الناس ويقود الغزوات، ويؤدِّي في الوقت ذاته حقوقًا مختلفة نحو أهله وبيته.

(٦) حق الإنجاب

إن حق الإنجاب والرغبة في الولد أمر فطري عند الرجل والمرأة على السواء، كما قال الله تعالى: **(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين)** وسمَّاهم الله زينة الحياة الدنيا فقال: **(المال والبنون زينة الحياة الدنيا)**.

لكن قد يُزْهَدُ في طلب الولد لاعتبار ما في زمن ما، وعندها ينبغي على الزاهد منهما أن يراعي حق صاحبه، ويستجيب لرغبته، وبخاصة إذا كان الدافع إلى الزهد مجرد مصلحة تحسينية (أي كمالية) لا ضرورية ولا حاجية. على أنه كما ينبغي على كلٍّ من الزوجين رعاية حقِّ صاحبه في طلب الولد، ينبغي كذلك أن يراعي حقَّ صاحبه في تنظيم الإنجاب.

ثالثا– قاعدة الحقوق والواجبات لكل زوج على الآخر

وتنقسم إلى اتجاهين: حقوق الزوجة على زوجها، وحقوق الزوج على زوجته.

أ) حقوق الزوجة على زوجها

من الحقوق الخالصة للمرأة على زوجها، ما يلي:

(١٧٨) سبق تخريجه
(١٧٩) تفسير ابن كثير (٢١٢/٢).

١- المهر والنفقة:

لقوله تعالى (**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة**) [النساء: ٢٤]، والمهر واجب في كل عقد نكاح على الزوج لزوجته بمجرد العقد الصحيح، فلا يملك الزوجان نفيه، إذ إن في المهر حقًّا لله تعالى(١٨٠).

والنفقة هي توفير ما تحتاج إليه الزوجة من طعام، ومسكن، وخدمة، ودواء، وإن كانت غنية. وهي "واجبة بالكتاب، والسنة، والإجماع.

٢- تعليم الزوجة:

من الحقوق المهمَّة جدًّا للزوجة على الزوج تعليمها فرائض دينها، وهذا الواجب كثيرًا ما يغفل الناس عنه فيقْصرون حقوق الزوجة على الماديات فقط دون المعنويات والدينيات مع أن هذه الأخيرة أهم.

وإن لم يقم بواجب التعليم والسؤال فلا يجوز له بحال أن يمنع زوجته أن تتعلَّم فرائض دينها بسؤال العلماء أو حضور دروس العلم وبتطور وسائل التعليم اليوم أصبح التعلم وسؤال أهل الذكر أسهل بكثير من ذي قبل(١٨١).

٣- العدل بين الزوجات:

المقصود بالعدل بين الزوجات "التسوية في الحقوق الزوجية فيما تكون المساواة فيه" فيساوي بينهن في المعاملة، وحسن المعاشرة، وعدم الميل إلى إحداهن.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من عدم العدل بين الزوجات، فقد صحَّ في السنة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة يجرُّ أحدَ شقَّيْه ساقطًا أو مائلًا"(١٨٢).

وهذا فيما يملكه الإنسان، أما ما لا يملكه كالمحبة فلا يجب على الزوج التسوية فيه بينهن عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه، فيعدل، ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» أراد به الحب وميل القلب.

ب) حقوق الزوج على زوجته:

للرجل على زوجته حقوق من أهمها:

---

(١٨٠)الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ١٨، ١٩)
(١٨١)الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ٤٠)
(١٨٢) مسند الإمام أحمد، رقم: (٨٠٥١)، (٤/ ٤٧)

١- الطاعة بالمعروف

يقصد بطاعة الزوجة لزوجها بالمعروف أن تأتمر بأمره، فلا تخرج عنه ولا تعصيه، ما دامت أوامره في دائرة الشرع والمعروف وفي حدود قدرتها دون إرهاق لها أو إعسار.

ويجب أن تكون الطاعة في حدود المعروف لا تتعدَّاه، فلا طاعة له فيما يعد معصية لله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: "**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**"(١٨٣) وقال: "**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**"(١٨٤).

كما أن الطاعة الواجبة عليها، لا تكون إلَّا في حدود استطاعتها؛ ولا يجوز أن يكون في أمر الرجل لزوجته مشقة زائدة عليها. فهناك بعض الرجال يستخدم حقَّه في طاعة زوجته له بأن يكلِّفها بما يشقُّ عليها، أو لا يراعي الوقت الذي تكون فيه متعبة أو مريضة، فيرهقها بما يأمرها به، ثم يهدِّدها ويتوعَّدها بغضب الله عليها ولعنته إن لم تطعْه، وهذا الرجل وأشباهه يجري عليهم دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي يروى عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم ، فارفق به**"(١٨٥)

٢- القرار في البيت

الأصل في حق الزوج في قرار زوجته في بيته قوله تعالى: **(وقرن في بيوتكن)**. وهذا لا يعني أنها لا تخرج أبدًا بل يجوز لها الخروج لمصلحة مأمورة بها كما لو خرجت للحج والعمرة أو خرجت مع زوجها في سفر أو أذن لها زوجها في الخروج.

أما إذا لم يأذن فلا يجوز لها الخروج، لأن حق الزوج واجب فلا يجوز تركه بما ليس بواجب.

وممَّا يبيِّن حدود حقِّ المنع والإذن ما ذكره العلماء من أن الزوج يأذن لزوجته بالخروج من البيت إذا كان هناك مبرِّر شرعي أو عذر شرعي لخروجها، كما في خروجها لخدمة أبيها المريض المحتاج إلى خدمتها، ولا يحقُّ لزوجها أن يمنعها في هذه الحالة من الخروج، وإذا منعها كان لها أن تعصيه وتخرج لتقوم بواجبها نحو أبيها.

---

(١٨٣) صحيح مسل، رقم: (٤٧٩٣)، (٦/ ١٥).
(١٨٤) صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٧٥٢٠)، (٢/ ١٢٥٠).
(١٨٥) صحيح مسلم، رقم: (٤٧٤٩)، (٦/ ٧).

ولا يجوز للزوج منعها من الخروج حيث يجب عليها كخروجها للحج مع المحرم، وينبغي للزوج أن يأذن لزوجته حضور مجالس العلم لتتفقَّه في الدين، على أن يكون خروجها لمجالس العلم لا يتعارض مع واجباتها نحو زوجها ونحو بيتها. وأن يكون منظَّمًا محقِّقًا غرضه، ولا يترتَّب عليه محظور شرعي.

ويجوز للزوجة الخروج لقضاء حوائجها للضرورة إذا لم يقم الزوج بحوائجها، وللزوجة أن تزور والديها في الحين بعد الحين بالقدر المتعارف عليه، بحيث يتحقَّق فيه صلة الرحم وبر الوالدين، وعلى الزوج ألا يتعسَّف في استعمال سلطته على زوجته فيمنعها من زيارة والديها حيث تجب هذه الزيارة قيامًا بواجب برِّ الوالدين أو لحاجتهما كما لو كانا مريضين ولا يخدمهما أحدٌ سواها، فلا يجوز للزوج منعها من ذلك إلا لمبرِّر شرعي، وإذا منعها دون مسوِّغ شرعي جاز للزوجة عصيانه(١٨٦).

٣- ألا تأذن الزوجة لأحد دخول البيت إلا بإذن زوجها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه"، ويدخل في هذا أقارب الزوج غير المحارم للزوجة كأخي الزوج. وليس للزوج منع أبويها وولدها من غيره وسائر محارمها من زيارتها في بيته إلا لمبرِّر شرعي كخوفه من إفساد هؤلاء أو أحدهم زوجته.

٤- حفظ مال الزوج

لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم: "والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها". فـ "المرأة راعية في بيت زوجها بحسن تدبيرها في المعيشة والنصح له، والشفقة عليه، والأمانة في ماله، وحفظ عياله وأضيافه ونفسها"(١٨٧).

(١٨٦)الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، (ص: ٤٣، ٤٤، ٤٥)
(١٨٧)الحقوق الزوجية: فهد عبد الله، المكتبة الإسلامية الشاملة، (ص: ٤٥)

رابعا– ميزان الميزانية الأسرية

إن امتلاك الحد الأدنى من المقومات المالية من أهم الأسباب التي تساعد في استقرار البناء الأسري وإن كانت وحدها لا تضمن استمراره وسعادته، فلا بد من توافر الاحتياجات المعنوية قبلها ومعها. فالأسر الغنية كالأسر الفقيرة في الاحتياجات المعنوية لا يمكن لأيها الاستغناء عنها. وتعين قاعدة هرم الاحتياجات الإنسانية من توفير المعيشة من المأكل والمأوى وما فوقها من الضروريات والحاجيات وما استطاعت الأسرة من تكميليات وتجميليات على تأسيس الاستقرار الأسري والتدرُّج به نحو التوافق والرضا المعيشي.

ولا تختلف الطبقات في أصل المستوى التأسيسي من المعايش المادية؛ ولكنها تختلف في كمياته ونوعياته، أما الاختلاف الحقيقي فهو في توفر ما بعد المستوى التأسيسي من مستويات؛ حيث تعيش الأسر الفقيرة على ذلك المستوى وتتأرجح حوله صعودًا وهبوطًا بمسافات محدودة، بينما تجد الأسر الغنية نفسها مطالبة بأسباب أخرى من تحسين المعايش وكمالياتها.

ولعل من أول ما تحتاجه الأسرة في سنواتها الأولى أن تفكر في ثلاثة عناصر: إدارة دخلها المالي أيًّا كان حجمه، وإدراك أثر العوامل الاقتصادية المحيطة على مسار الأسرة من باب الاحتياط والإعذار، وأخيرًا رعاية الجانب المستقبلي وما يتطلَّبه من ترشيد واعتدال وادخار وخاصة لاحتياجات الأبناء المنتظرة مع نموهم.

إدارة الدخل المالي

يجب الأخذ بالاعتبار عند الحديث عن إدارة الدخل المالي التباين الواضح بين فئات الأسر المختلفة في موضوع إدارة الدخل المالي للأسرة؛ ويرجع ذلك إلى الاختلافات الثقافية، ودرجة التعليم، والتزايد المطَّرد في نسبة الزوجات العاملات في فئات الوظائف المختلفة، حيث يصبح من البديهي مشاركة الزوجة براتبها في نفقات المنزل، هذا بالإضافة إلى تفاوت حجم الدخول بين الأسر المختلفة.

مراحل إدارة الدخل المالي:

الأدوات والآليات المالية المستخدمة في إدارة الدخل المالي واحدة، ولكن تختلف الأهداف من أسرة إلى أخرى، فربما تسعى أسرة إلى تحسين مستوى الرفاهية لديها، وتسعى أخرى لسداد ديون متراكمة لديها؛ لذلك فالخطوة الأولي في إدارة الدخل المالي هي تحديد الأهداف الراهنة للأسرة؛ هذا أول واجب على الزوجين، قبل اتخاذ خطوات إيجابية نحو هذه الأهداف، والتخطيط للدخل المالي، ورسم مسارٍ للعمل، ومحاولة تحقيق التوازن بين الدخل والإنفاق. ويتم هذا عبر المشاركة من الزوجين من باب مبدأ الشورى المنزلية الذي جرى إرساؤه من قبل والذي يجمع عقلين أو أكثر في التخطيط ويَدَيْنِ إلى يَدَيْنِ في التنفيذ، وذلك بخلاف ما إذا قام بذلك أحد الزوجين بمفرده فإنه عرضة لمشكلات تشتُّت التركيز أو تكاثُر الضغوط

والمتغيرات أو الانكفاء داخل رؤيته الخاصة، ولكن بالمشاركة سيكون التركيز على المصلحة العامة للأسرة، مع محاولة التوفيق بينها وبين الأهداف الخاصة.

وتحديد الأهداف هو الأساس الذي تُبْنَى عليه باقي مراحل عملية إدارة ميزانية الأسرة، فبدون هدف محدَّد واضح فإنه لا وجود لمرحلة التخطيط القادمة من الوجهة العلمية. وبناء على ذلك يتم تحديد الأهداف على مستويين: المستوى البعيد، على سبيل المثال شراء شيء للمنزل مثل ثلاجة أو ما شابه أو تجديدها، والمستوى القريب، مثلا تسديد دين، وبناء على ذلك يتم ترتيب تلك الأهداف حسب الأهمية، وبعد ذلك يتم وضع خطة لتحقيق تلك الأهداف من خلال الآتي: سياسة الادخار المتَّبعة، والعمل الإضافي المطلوب، والأسعار، وما هو نوع الشيء المرغوب، ثم بعد ذلك يتم تقسيم تلك الخطوات إلى خطوات سنوية، وشهرية.

وقبل الشروع في الخطوات لتحقيق الهدف يجب أن يتم تقييم ذلك الهدف بالعديد من المؤشرات منها: مدى أولوية ذلك الهدف بالنسبة للأسرة ككل، هل يتَّفق ذلك الهدف مع الأهداف الأخرى، ومدى مساهمته في تحقيق مصلحة البيت... إلخ.

ثم يبدأ تنفيذ الأهداف الموضوعة، والتنفيذ هو وضع القرار موضع التطبيق بإلزام ربّ الأسرة نفسه ومن معه بأداء مهام محدَّدة في وقت معين ولفترة زمنية محدَّدة باستخدام إمكانيات محدَّدة، مع وضع تصورات عن المعوقات التي يمكن أن تحدث أثناء سير تنفيذ القرار وإمكانيات حلِّها[١٨٨].

الخطوة الثانية في إدارة الدخل المالي هي التخطيط (وضع الميزانية):

للدلالة على تخطيط الدخل المالي للفرد أو الأسرة في فترة زمنية محددة، يتم استخدم كلمة الميزانية فهي " **كل تخطيط من شأنه توزيع الموارد المحدودة على الحاجات المتعددة**" وبما أن الميزانية هي تخطيط لتحديد طريقة استعمال الدخل المالي لفرد أو لأسرة في فترة زمنية محددة، إذًا على واضع الميزانية مراعاة سبل التخطيط السلمية، وكذلك الأسس العامة لوضع الميزانيات، وعند تخطيط الميزانيات يجب مراعاة الآتي: مقدار الدخل، وعدد أفراد الأسرة، وطبيعة العمل للزوجين، ومكان سكن الأسرة. فكل تلك عوامل تتداخل لتحدد أبواب الصرف وأهميتها.

وتوضع الميزانيات لفترة محدَّدة قد تكون أسبوعًا وقد تكون شهرًا وقد تمتدُّ لأكثر من سنة، ويتوقَّف ذلك على طبيعة دخل الأسرة وأهدافها، ويستحسن وضع أهداف سنوية ويتم تجزئتها لميزانيات شهرية وأسبوعية[١٨٩].

---

١٨٨ محمد فتحي، إدارة البيوت والأزمات المنزلية،(مؤسسة أقرا للنشر والتوزيع والترجمه)، ص ص ٢١-٥٠

١٨٩ كوثر حسين كوجك، مرجع سبق ذكره، صص ١٣١- ١٣٥.

وبعد تخطيط الميزانية يأتي التنفيذ والتقييم، وعملية التقييم من أهم العلميات التي يجب الاهتمام بها لأنها توضِّح مدى جودة اتباع التخطيط السابق وما هي التعديلات المطلوبة عليه في الميزانيات القادمة[١٩٠]، ويتم التقييم من خلال الإجابة على الأسئلة التالية، ما مدى العجز المالي في تلك الميزانية ولماذا؟ هل لغلاء الأسعار على سبيل المثال؟ أم ظهور احتياجات غير متوقَّعة؟ أم ظهور طوارئ لم تكن مأخوذة في الاعتبار؟ هل ضعف الدخل هو السبب؟ لذلك فلا بد من مراجعتها ثم اللجوء إلى ترشيد الاستهلاك، وضبط النفقات والاستهلاك لا يقتصر فقط على ضبط عملية الشراء ولكن يتعدَّى إلى حسن الاقتصاد والترشيد في النفقات الأخري.

إن أهم ما يقود الأسرة إلى النجاح المالي هو الموازنة بين إمكانياتها المادية ومتطلباتها، مع تحميل جميع أفراد الأسرة المسئولية المالية بدرجات كل حسب ترتيبه في الأسرة[١٩١].

خامسا– جماع الإمتاع والاستمتاع (العلاقة الحميمية)

الإشباع الجنسي هو من أهم غايات الزواج و تشكيل الأسرة، وهو من الوظائف الرئيسة لمنظومة الزواج، لذا يؤثِّر أي اختلال يحصل فيه في مسار العلاقة الزوجية، فثمة علاقة وثيقة بين تحقُّق هذا الإشباع واستقرار الأسرة.

ويشتمل هذا المحور على أربعة فروع:

١– تقرير الشريعة لضعف الإنسان أمام شهوة الميل إلى الجنس الآخر

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وركَّب في فطرته الميل إلى الشهوات. ومن أقوى تلك الشهوات حب الجنس الآخر والميل إليه. وقد أقرَّ القرآن الكريم والسنة النبوية قوة هذا الدافع، ومن ذلك: قول الله تعالى: **(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب)**، وقوله تعالى: **(يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)**، فهذه الآية تقرِّر ضعف الإنسان وشدة معاناته من قوة الدافع الجنسي، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء" [(١٩٢)].

٢– فنون الاستمتاع الحلال وأساليبه

النصوص الواردة في شأن المتعة الجنسية وفنونها لم تحصر تلك الفنون والأساليب، ذلك أن تلك الأساليب والفنون من طبيعتها أن يظل الإنسان يكتشفها بفطرته، كما أنها ممَّا يختلف الناس في تذوُّقه، ثم هي قبل

---

١٩٠ محمد فتحي، مرجع سبق ذكره، ص٥٣-٧١.
١٩١ - محمد فتحي، إدارة البيوت والأزمات المنزلية،(مؤسسة أقرا للنشر والتوزيع والترجمه)
(١٩٢) صحيح البخاري، رقم: ٤٨٠٨ ، (٥/ ١٩٥٩) . صحيح مسلم، رقم: ٧٠٤٦، (٨٩/٨).

ذلك وبعده ممَّا يحتفظ به الإنسان سرًّا بينه وبين زوجه. وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذَّر من أسلوبين اثنين فحسب، فأمر باجتناب الدُّبر أبدًا واجتناب القُبُلِ في فترة الحيض، ومن ثم فما عدا هذين الأمرين يظل الباب مفتوحًا لكلِّ مسلم ومسلمة في تلمُّس ما يمتعه ويمتع الطرف الآخر.

وننبه هنا على سنة من سنن الإسلام وضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية القويمة، وهي الاعتدال في تناول المباحات. قال الله تعالى: **(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)**(١٩٣).

٣- من أساليب الإشباع الغريزي في الشرع

يستحب للزوج أن يلاعب زوجته ويلاطفها قبل الجماع؛ وذلك رأفة ورحمة بها حتى تتهيَّأ للجماع نفسيًّا وعضويًّا، فتنال منه من اللذة والمتعة مثل ما ينال الرجل، وحتى لا يصيبها أي ضرر بدني أو نفسي من جرَّاء الجماع مباشرة دون تمهيد، والذي يقع فيه بعض الأزواج لفرط أنانيتهم أو لجهلهم بأمر دينهم والذوق العام. فإن فرغَ الزوج قبل زوجته كُرِهَ له الانتهاء حتى تحصِّل شهوتها؛ لأن في ذلك ضررًا عليها ومنعا لها من قضاء شهوتها، فالتودُّد والملاعبة والملامسة الرقيقة الحانية بعد انقضاء اللحظة كلها وسائل للمتعة تمهل المرأة حتى يهبط منحنى متعتها في هدوء دون أن يتم كسره فجأة فتشعر بانقطاع اللذة الحاد والخواء فيفسد ذلك عليها مشاعر الاستمتاع، كما أن تبادل اللمسات والكلمات في فترة الخدر التي يمر بها الرجل بعد الإنزال يكون متعة صافية تحقق له سعادة هادئة لا عجلة فيها ولا فورة، بل رقة وتدليل وبث لمشاعر الحب الدافئة بالأنامل وبالكلمة شديدة الخصوصية والإسرار والسكينة.

٤- *محاذير ينبغي تجنبها والحذر منها*

حتى لا يعكر صفو الاستمتاع أو يفسد طبيعته:

هناك عدد من المحاذير التي إذا تسلَّلت إلى وقت المتعة الجنسية أفسدته أو عكَّرت صفوه؛ وذلك على النحو التالي:

- مساحة الجنس مساحة خاصة مليئة بالإفضاء للطرف الآخر جسديًّا ونفسيًّا لا ينبغي أن تناقش فيها أي أمور مادية أو أسرية أو هموم العمل، فهي مساحة بين الزوجين يجب أن نحفظها من أية موضوعات خارجة عنهما في تلك اللحظات الخاصَّة جدًّا.
- يجب أن يرسل كل طرف رسالة للطرف الآخر أنه لا شيء يهم في هذه اللحظات سواه، فلا يليق أن يقفز الرجل لكي يغتسل بعد أن يقضي وطره ثم يسارع بارتداء ملابسه والخروج لسهرة أو موعد، ولا يليق أن تفتح الزوجة التلفاز بعد أن يقوم عنها الزوج وكأن شيئًا لم يكن، فهناك سلوكيات قد تحمل رسالة سلبية للطرف الآخر، ومن المهم أن يكون هذا الوقت عطاءً صافيًا.

(١٩٣) تحرير المرأة في عصر الرسالة ج٦.....

- يجب أن يأمن ويستيقن كل طرف أن الطرف الآخر لا يشي بأسرار العلاقة لأية أطراف أخرى حتى يكون على طبيعته تمامًا، وكلما زادت السرية في العلاقة كلما زادت الخصوصية وزاد الارتباط بالطرف الآخر الذي يكون هو النصف الآخر الذي لا يكتمل الكيان إلَّا به، ولا تتحقَّق المتعة إلَّا به وله.
- الإفضاء للآخر في العلاقة الزوجية ليس وقته الساعات المتأخرة فقط، فقد يلتمس الزوجان ساعة مع مطلع اليوم وهما في كامل النشاط لكي يعطي كل منهما للآخر في اكتمال انتباهه وتركيزه صافي مشاعره وكامل طاقته.
- لا بدَّ أن ننبِّه هنا على شيء هام وهو أن **بعض الرجال يحاول أن يستثير غرائز زوجته بمشاهدة الأفلام الجنسية عبر الفضائيات أو مواقع الإنترنت، وهذه الأشياء محرم مشاهدتها بيقين، وليس المجال هنا إثبات تحريمها**، ولكن ننبه على نقطة هامة هي أن مشاهدة هذه الأفلام تؤثر سلبًا على الناحية الجنسية عند الرجل، بل إن إدمان مشاهدة هذه الأشياء قد تقتل الجنس عند الرجل، وحقيقة لقد أكدت الدراسات حالات كثيرة تشكو فيها الزوجات من هذا الأمر ووصل بعضها إلى الطلاق.

ومن يشاهد تلك القبائح آثم إثما عظيما، فإذا كان الله قد أمر المؤمنين بغض البصر عن عموم العورات المخففة، كالشعر والرقبة وأسفل الساقين، بل وحرَّم النظر إلى الوجه إذا كان على وجه الشهوة والاستمتاع، بقوله تعالى: **(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن)**، فكيف بالنظر إلى ما أوجب الشرع على المرء أن لا يُبديه، وندب ألَّا ينظر إلى عورة نفسه حتى ولو بمفرده، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وصحَّحه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إلاّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مما مَلَكَتْ يَمِينُكَ**"، **فَقَالَ:-أي الراوي- الرّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرّجُلِ؟ قالَ: "إن اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ"، قلت: فالرّجُلُ يَكُونُ خَالِياً، قالَ: "فَالله أَحقّ أَنْ يستحيا مِنْهُ"**. فكيف بالنظر إلى عورة لا يُستحب للمرء أن يراها من نفسه، فضلًا عن تحريم رؤيتها للغير عدا الزوجين؟

إن الجنس نعمة ينطبق عليها القانون الإلهي في شأن النعم، قال تعالى: **(لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)** وشكر النعمة باستعمالها فيما أُحِلَّتْ له، أما استعمالها في الحرام فإن من أعطى النعمة قادرٌ على أن يسلبها من صاحبها جزاء عمله(١٩٤).

(١٩٤) الحب وأثرة في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص ٦٤ إلى ٦٦.

٥- عوامل مساعدة على كمال الاستمتاع[١٩٥]

١. الاستفتاح بالدعاء وتسمية الله تعالى:

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قل بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد لم يضره"[١٩٦].

٢. تزيُّن وتجمُّل كل من الزوجين لصاحبه:

إن التجمُّل بمختلف وسائل الزينة يزيد من الجمال الخلقي، ويعوِّض كثيرًا من نقصه، فالله سبحانه وتعالى الذي وهب الجمال الخلقي، خلق ويسَّر وسائل التجمل القديمة والحديثة، وعلى المسلمة والمسلم أن يسخِّرا ما يسَّره الله من تلك الوسائل لتحقيق الاستمتاع الطيِّب الحلال.

٣. إزالة الشعر الداخلي (أي الاستحداد)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط" [١٩٧].

٤. رعاية الأجزاء الحساسة عند كل من الرجل والمرأة

بالنسبة للرجل: الختان يثمر مزيدًا من الاستمتاع، إذ الحشفة (وهي مقدم الذكر) بطبيعتها شديدة الحساسية وتحقق مزيدا من الاستمتاع عند الملامسة. وبالنسبة للمرأة: الختان يثمر نقصًا في الاستمتاع.

والأجزاء الحسَّاسة في المرأة يمكن مراجعة أهل الطب بشأنها، كما يمكن ملاحظتها من المرأة نفسها، ويمكن للزوج معرفتها بسؤالها أيضًا عن أماكن استمتاعها بعد كل مرة، فقد تختلف من امرأة لأخرى.

٥. الغسل أو الوضوء لمن أراد العود

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود، فليتوضأ". وفي رواية: "فإنه أنشط للعود"[١٩٨].

٦. التفاعل والتكامل بين عاطفة "الحب" وبين فنون المتعة الجنسية

الحب في الزواج جزء من كل، فإذا كان الزواج معناه تبادل الحب، فالحب يتبعه الوفاء والصحبة الطيبة، والمشاركة الحياتية الكاملة، والامتداد الحي في الأبناء زهرات الحياة. وهذه المعاني كلها تجمعها كلمة واحدة هي: "السكن" ذلك التعبير القرآني الرائع. والمتعة الجنسية —وهي إحدى ثمرات الزواج- تشملها

---

(١٩٥) تحرير المرأة في عصر الرسالة ج٦.....

(١٩٦) صحيح البخاري، رقم: ١٤١، (١/ ٦٥).

(١٩٧) صحيح البخاري، رقم: ٥٥٥٢ ، (٥/ ٢٢٠٩)

(١٩٨) صحيح مسلم، باب من أتى أهله ثأراد أن يعود، رقم: ٦٣٣-، (١/ ١٧١) صحيح ابن حبان، رقم: ١٢١١، (٤/ ١٢).

كل هذه المعاني، وتسمو وتزكو وتحلو بفضلها، ثم إن هذه المعاني تتوثَّق وتتأكَّد بفضل المتعة الجنسية، وهكذا يكون التفاعل الإيجابي المثمر، بين الجزء والكل، بين الفرع والأصل.

٦- هل يجوز تعاطي المنشطات الجنسية؟

يجوز تعاطي الزوج لتلك الأدوية والعقاقير المنشطة للجنس بشروط وضوابط؛ هي:

١- أن تكون هناك حاجة إلى تناولها –كتناولها لعلاج العِنَّة أو الضعف الجنسي- فلا يتناولها الزوج بدون حاجة. والمرجع في تقرير الحاجة هو الطبيب، وليس مجرد الإحساس، فقد لا يكون هناك حاجة طبية لذلك، ولكن صاحب الشأن يتوهم الأمر.

٢- أن يستصحب تناولها نية صالحة، وهو إعفاف نفسه وزوجته، والحصول على الذرية الصالحة.

٣- ألا يؤدِّي به إلى محرم، كحصول إثارة جنسية زائدة تؤدِّي إلى إيذاء زوجته بكثرة جماعها، أو البحث عن طريق آخر لقضاء هذه الشهوة باستمناء، أو زنا، أو نحو ذلك.

٤- ألا تحتوي هذه الأدوية على عناصر محرمة في مكوِّناتها.

٥- ألا يترتَّب على استعمالها ضرر لصحة الزوج، أو إيذاء للزوجة.

٦- أن يكون ذلك بعد استشارة طبيب عدل ثقة.

الفصل الثالث

مقومات التوافق والسعادة الزوجية

مقدمة:

الأسرة كائن متحرك بل حي، لا يكفي أن يحقق الاستقرار ولا أن تؤدَّى فيه المسئوليات والواجبات على النحو المذكور في الفصل السابق، أو تقام فيه الضروريات المادية والحقوق الجسدية فقط، فلا بد بعد أن تتجذَّر في الأسرة منظومة القيم والمعاني الحاكمة للعلاقة الزوجية، لا بد من مناخ صحي أشمل وتفريع لمعاني الرضا وصولًا إلى السعادة وحالة الجسد الواحد؛ بحيث ينمو فيها التوافق بين الزوجين حتى يبلغ الزوجان درجة التمازج والتلاحم، ويدركا معنى الرضا عن حياتهما الواحدة ويذوقا طعم السعادة الحقيقية.

ويأتي مفهوم التوافق الزواجي ضمن شبكة من مفاهيم والتواصل الزواجي والحوار الإيجابي والتي ترتقي بالاستقرار إلى الرضا والسعادة الزوجية؛ وتتردَّد هذه المفاهيم ومضامينها ما بين علم النفس الإيجابي وعلم النفس الاجتماعي وبين المنظور الحضاري الإسلامي عن الحياة الطيبة في مقابل المعيشة الضنك كما سبقت الإشارة إليه.

وفيما يلي نستعرض أهم عوامل استدامة الأسرة وانسجام أمورها بداية من مفهوم ومكونات التوافق الزواجي، فالتواصل وفي قلبه الحوار، وصولا إلى الرضا والسعادة الأسرية من المداخل التي قام عليها الدليل: الاجتماعي والنفسي والشرعي والثقافي والاقتصادي.

أولًا – التوافق الزوجي

يمثل التوافق الزواجي المظهر السلوكي الظاهري للأسرة الناجة، حيث تقوم الحياة الزوجية على التعاون والتضحية والقبول من قبل الزوجين.

ويعرف التوافق الزواجي على أنه **حالة وجدانية تشير إلى مدى تقبُّل العلاقة الزوجية، وتعدُّ محصِّلة لطبيعة التفاعلات المتبادلة بين الزوجين في جوانب متنوِّعة؛ منها التعبير عن المشاعر للطرف الآخر واحترامه هو وأسرته والثقة فيه، ومقدار التشابه أو التقارب في القيم والأفكار، ومدى الاتفاق حول أساليب تنشئة الأطفال والاتفاق على ميزانية الأسرة، بالإضافة إلى الشعور بالإشباع الجنسي للعلاقة.**

والتوافق الزواجي –من ناحية أخرى– هو نتاج للتفاعل بين شخصيتي الزوجين، ولا يوجد نمط مُعين من أنماط الشخصية يُمكن الحكم عليه بأنه من ذاته نمط ناجح زواجيًّا أو فاشل زواجيًّا، إلَّا أن طبيعة التفاعل بين شخصيتي الزوجين هي التي تُحدِّد النجاح أو الفشل[١٩٩]. ومن ثَم يُعرف التوافق الزواجي بأنه "الاتفاق النسبي، وتكافؤ الزوجين، وتقارب العادات والميول والاهتمامات، وتبادل العواطف، والقدرة

١٩٩ - مريم أرشيد، بلال عادل، هناء خالد، وحنان عبد الحميد، ٢٠١٢.

على تحمُّل مسئوليات الحياة الزوجية، وحلِّ مشكلاتها (مادية – اجتماعية – صحية) وتحقيق أقصى قدر معقول من السعادة والرضا"[٢٠٠].

ويكون التوافق الزواجي –باعتباره شكلًا من أشكال التوافق الاجتماعي حيث يتطلَّب وجود الآخر– متضمَّنًا في **الاختيار المُناسب للزواج والاستعداد للحياة الزوجية. وهو وجود شخصين متزوجين ولديهما ميل لتجنُّب المشكلات أو حلِّ تلك المشكلات، وتقبُّل المشاعر المتبادلة، والمشاركة في المهام والأنشطة المألوفة، وتحقيق التوقعات الزوجية لكلٍّ منهما.**

وحدَّدت بعض الدراسات عوامل رئيسية مُهمَّة للتوافق الزواجي وهي:

١– الحفاظ على الحب أثناء التفاعل اليومي، وحرص الزوجين على سلامة العلاقة الزوجية.
٢– القدرة على تطوير سُبل التواصل الجيِّد والفعَّال بين الزوجين من خلال الفهم، والحوار والنقاش، واختيار الوقت المناسب، وتجنُّب استخدام الألفاظ المثيرة لعصبية الآخر.
٣– تكيُّف كلٍّ منهما مع الآخر من خلال فهم شخصية الآخر، وطباعه، ورغباته[٢٠١].
٤– تطوير أهداف وخبرات ونشاطات ومشاريع مشتركة بين الطرفين.

العوامل المؤثرة على التوافق الزواجي:

في كل الأحوال يتوقَّف تحقيق التوافق الزواجي على عددٍ من العوامل التي ينبغي العناية بها والتي تبدأ مما قبل الزواج، ويمكن الإشارة إلى هذه العوامل على النحو الآتي:

١– خبرات طفولة الزوجين:

تؤثِّر خبرات الطفولة لكلٍّ من الزوجين على توافقهما الزواجي سلبًا وإيجابًا، فالجو النفسي للأُسرة الذي عاش فيه كل من الزوجين قبل الزواج يعتبر من العوامل المؤثرة في سعادتهما وتوافقهما. كما أن الطريقة التي تم اتباعها في تربية كلٍّ من الزوجين في طفولتهما من والديهما، ومدى تعرُّضهما للثواب أو العقاب، ومدى إشباع أو عدم تلبية الحاجات الأساسية لهما من الحاجة للطعام والشراب، والحاجة للتقبُّل والانتماء، والحاجة إلى الأمن النفسي، وكذلك علاقة الوالدين ببعضهما البعض وعلاقتهما بالآخرين...، كلُّ هذه المظاهر ضرورية لمعرفة توافق الزوجين أو عدم توافقهما.

فلا شك أن الزوج القادم من تجربة أو حياة أسرية توافقية هو أقرب إلى تحقيق التوافق مع شريك حياته بعد الزواج، والعكس صحيح. بل إن كثيرًا من الشباب الذين عانوا من خبرات أسرية مليئة بالخلافات

٢٠٠ - حنان ثابت مدبولي، ٢٠٠٢
٢٠١ - يوسف ضامن، ٢٠١٥

والصراعات أعربوا عن مخاوفهم تجاه أسرة المستقبل وشكوكهم في إمكان أو سهولة تحقُّق التوافق الزواجي بمعناه المشار إليه.

ورغم أن نمط الزواج الهروبي يبدو أقرب إلى تحقيق توافق سلبي بمعنى التكيف مع الواقع والاستسلام لخصائص الحياة الزوجية المهروب بها أو إليها، إلا أن التجارب المهروب منها تظلُّ مؤثِّرة على قدرات الطرف الهارب على تحقيق هذا التوافق. ومن ثم كان مهمًّا تحليل أنماط الزواج وبيان عوار أمثال النمط الهروبي والمصلحي المادي فضلا عن العشوائي، فإن هذه الأنماط إمَّا أن تفشل في تحقيق التوافق أو تزيِّفه وتصنع نوعًا من التوافق الظاهري غير العميق ولا المأمون.

٢- السن عند الزواج:

إن تناسب الزوجين في سن الزواج يعتبر من العوامل المؤدِّية إلى توافقهما في الزواج، فلا تكون الزوجة شابة وزوجها مسنًّا فتصبح نظرة الزوجة إلى الزوج نظرة أبوية، أما الزوج فغالبًا ما تكون لديه توقعات واحتياجات أخرى لهذه العلاقة.

٣- العوامل الاقتصادية:

كثيرًا ما يكون سبب الخلافات والمشكلات بين الزوجين بسبب العجز المادي والنقص في الموارد الاقتصادية ممَّا يجعل عدم القدرة على تلبية احتياجات الأسرة الأساسية، ومن جهة أخرى قد تكون زيادة الموارد الاقتصادية كما في حالة الأسر الثرية مصدرًا للخلافات الزوجية إذا أُسيء استخدامها أو إذا كانت السبب في انشغال أحد الزوجين أو كلاهما بتجميع المال وإهمال الآخر وربما الأبناء أيضًا.

٤- سمات الشخصية:

يشتمل هذا النوع من التجانس أو التوافق على مساحة واسعة من الخصائص النفسية، فتؤكِّد نظريات علم النفس الاجتماعي على أن الأزواج الذين يمتلكون خصائص شخصية متقاربة أكثر قدرة على إقامة علاقات أكثر متانة، بينما أصحاب السمات الشخصية المتنافرة لديهم استعداد أكبر للاختلاف، بالطبع توجد مساحة لتقبُّل الفروق والتمايز بين الشخصيات ولكن التنافر المعاكس يؤدِّي إلى خلافات، ولكن إذا كانت الفروق في مساحة مقبولة -كأن يكون أحدهما يميل للانطواء والآخر للانفتاح أو يميل أحدهما للإعالة والآخر للتبعية- قد يساعد في بعض الحالات على تكامل الأدوار بينهما.

ومن أهم السمات ذات التأثير الإيجابي على التوافق الزواجي: **النضج الانفعالي** والقدرة على مواجهة المشكلات بصورة فعالة، وكذلك **القدرة على إدراك وتفهم المشاعر والأفكار**. ومن السمات

الشخصية الأخرى التي تؤثر –إيجابا– على التوافق بين الزوجين: التبصر، والثقة بالنفس، والمحافظة، وقوة التكوين العاطفي نحو الذات، والحساسية تجاه احتياج الآخر، والدفء والتعبير العاطفي...

وقد أوضحت الدراسات العديدة أن الإحساس بعدم التفاؤل والشعور بالتعاسة والبؤس والإحساس بعدم الثقة وسرعة الغضب وعدم الاتزان الانفعالي كانت سمات مُميزة لغير المتوافقين زواجيًّا وخاصَّة الزوجات. فالتوافق الزواجي يرتبط –سلبيًّا– مع بعض سمات الشخصية الأخرى؛ مثل: التسلُّط، والعصبية، والعدوان، وعدم الاتزان العاطفي، وحب السيطرة، وعدم الجدية، والانعزال، والخجل، وصعوبة التعبير، والشك، والشعور بالاضطهاد، والاعتمادية، والسذاجة.

٥– المستوى التعليمي للزوجين:

إن التباين في المستوى التعليمي والثقافي بين الزوجين من شأنه أن يجعل الحياة أكثر فتورًا، ويصيبها قصورٌ في التفاعل أو يغلب عليها التفاعل السلبي؛ ممَّا قد يصل بالأمر إلى الانفصال؛ وعليه فالتقارب الفكري والثقافي والتعليمي يعدُّ عاملًا مساعدًا في نجاح الحياة الزواجية والتوافق الزواجي.

٦– تغير الأدوار الاجتماعية وصراع الأدوار:

يزداد التوافق والتآلف بين الزوجين كلما كان هناك وضوح في أدوار أفراد الأُسرة، وكلما كان هناك اتفاق في توقُّعات كلٍّ من الزوجين بالنسبة إلى الطرف الآخر. فلا بد أن يعدَّ كلٌّ منهما نفسه بعد الزواج لنمط جديد للعلاقة الزوجية، مع ما تشمله من اتجاهات وأدوار جديدة للزوج والزوجة. وعدم وضوح هذه الأدوار من شأنه أن يخلق صراعًا وتنافسًا شديدًا[٢٠٢].

ويشمل ذلك أداء الدور الاجتماعي للشخصية الحياة الأسرية والعلاقة الزوجية وما يصاحبها من واجبات وأدوار حياتية، حيث يتطلَّب الزواج أداء أدوار جديدة، ويمثل دور تربية الأطفال والعمل المنزلي معظم الخلاف حول أداء الأدوار حيث تتوقَّع الزوجة مشاركة زوجها في هذه الأمور، في حين يراها الزوج من مسئوليات الزوجة بمفردها.

وعليه، فمن العوامل الأساسية المؤدِّية إلى التوافق الزواجي والرضا عن الحياة الزوجية وما ينتج عنهم من الشعور بالسعادة الزوجية هو معرفة كل من الزوجين بواجباته وأدواره في الحياة الزوجية، وأن يكون عليهم القيام بهذه الأدوار على نحو كفء ومرن في نفس الوقت، وكذلك قدرتهم على التواصل الإيجابي المباشر وغير المباشر.

٢٠٢- حنان ثابت مدبولي، ٢٠٠٢؛ سراي مهدي، ٢٠١٢.

٧- التوافق الجنسي:

يعتبر التوافق الجنسي من أهم أركان الزواج السعيد، فنجاح العلاقة الجنسية يُعد مؤشِّرًا للعلاقة الزوجية؛ تارةً لذاته، وتارةً لأنه يعكس النجاح في علاقات أخرى مثل العلاقات الاجتماعية والعاطفية والتوافق العقلي والثقافي والرضا المادي.

والتوافق الجنسي قد يحدث مع بداية الزواج، وقد يتأخَّر بعض الوقت بعدَّة شهور وأحيانًا أقل يتأخَّر لسنوات؛ وهو يعني **الانسجام بين الطرفين وقدرة كلٍّ منهما على إشباع وتلبية احتياجات الطرف الآخر فيكونان متوافقين في زمن الممارسة ومعدَّلها وراضيين بكل ذلك**[٢٠٣].

٨- الجانب العاطفي:

رغبة الإنسان أن يكون محبوبًا من الآخرين فطرة أوجدها الله، وطرفا الحياة الزوجية هم الأكثر حاجة لإشباع هذا الجانب، فعندما يشعر الشريكان بوجود الحب فيكونان أكثر حرصًا على استمرار العلاقة وتقديم التضحيات من أجلها.

٩- الجانب الاجتماعي:

تعدُّ العلاقة بين الزوجين ومجموعة الأقارب، بما فيهم أهل الزوج والزوجة، من الجوانب المهمة في عملية التوافق، ويكون لها تأثير إيجابي أو سلبي؛ وذلك يتوقَّف على طبيعة الظروف النفسية والاجتماعية التي تكتنف الموقف.

فالجانب السلبي يتمثل في خضوع الابن أو الابنة للوالدين؛ ممَّا يسمح للوالدين للتدخُّل في شئونهما وتوجيههما بما يتَّفق مع المفاهيم المعتقدات التي يؤمن الوالدان بها، ولذا فمن أهم نقاط التوافق احترام وتقدير عائلة كل شريك والاهتمام بها دون إفراط ولا تفريط.

١٠- الجانب الفكري والثقافي:

يلعب التوافق (التجانس/التقارب) الثقافي والفكري بين الزوجين دورًا رئيسيًا في نجاح الحياة الزوجية، ويعتبر باعثًا مهمًّا على ثبات الأسرة واستقرارها، ويمكن الادعاء بأن الخلافات الزوجية في عصرنا الراهن تنبع من الاختلافات في المكونات الثقافية الجزئية؛ لذا فأحيانًا درجة التقارب في الفهم والالتزام الديني بين الزوجين يزيد من التوافق الضروري لاستمرار الحياة والتواصل الفعال فيما بينهما.

---

٢٠٣ - خلود محمد علي، ٢٠١٥.

ويقصد بهذا الجانب: **مدى التكيُّف والانسجام الفكري**، ويشتمل على الاشتراك في اللغة والدين والقومية والاعتقادات والمنظومة القيمية (العادات والتقاليد) والتعليم. وفقدان الأرضية الثقافية المشتركة يعيق العلاقات الزوجية ويجعل الأزواج منعزلين في جزر مستقلة.

ثانيا– التواصل الزواجي (الحوار)

يُعرف التواصل الزواجي بأنه مشاركة متبادلة بين الزوجين في كثير من الأمور وهي:

- **المشاركة القيمية** والتي تتضمَّن التمسُّك بنظام القيم والمثل والأخلاقيات المتوارثة عبر الأجيال والسائدة في المجتمع.
- و**المشاركة الوجدانية** التي تتضمَّن الإحساس المتبادل بينهما في كلِّ أمر من أمورهما؛ سواء كانت هذه الأمور تتَّسم بالبهجة والسعادة أو تتَّصف بالحزن والكآبة؛ حيث يحاول كلٌّ منهما أن يشارك الآخر أفراحه وأحزانه على حدٍّ سواء.
- و**المشاركة الفكرية** التي تتضمَّن تبادل الأفكار والآراء ووجهات النظر والمناقشة الموضوعية حول أي أمر دون تعصُّب ولا تطرُّف يؤدِّي إلى جرح مشاعر الآخر.
- وأخيرًا **المشاركة الاجتماعية** التي تتضمَّن المسئولية الكاملة فيما يتعلَّق بوظائف كلٍّ منهما وأدواره في نطاق الأسرة بحيث تكون حقوقهما وواجباتهما معروفة وواضحة لهما[٢٠٤].

وللتواصل أوجه كثيرة منها السلوكي (الأفعال) ومنها الحواري (تبادل الحديث)، وكلاهما يتم بكثافة في ظلال الحياة الزوجية، ويشغلان معظم التفاعل الزواجي ويصبغان العلاقة بين الزوجين.

أ) أنماط التواصل الزوجي بين الإيجابي والسلبي

تتضمَّن ممارسات التواصل الفعَّال –وهو أعم من الحوار– أنماطا رئيسية منها الإيجابي ومنها السلبي، ويمكن ملاحظة أن الفروق بينها بسيطة وتتعلق بالنظرة الأساسية للأمور ما بين الإيجابي التعاطفي التشاركي العملي، وما بين السلبي الأناني الانفرادي التوهمي. ومن أنماط التواصل الإيجابي الرئيسية بشكل مجمل:

١– **أنا مسئول أو المسئول**: تواصل قائم على إظهار الشخص لشريكه رغبته في تحمل مسئوليته (مثال: استخدام أحدهما لضمير "أنا" خلال الموقف المشكل بدلًا من أن يلوم شريكه "هو").

٢– **أنا معك وأقف وراءك**: تواصل قائم على تدعيم وجود الآخر، مثل: استخدام الاتصال البصري للتعبير عن استماعه واهتمامه بالآخر.

٢٠٤ - نجوى عبد الجليل عارف، ٢٠٠٢.

٣- **لنكن إيجابيين وعمليين فلكلِّ مشكلة حل:** تواصل قائم على التركيز على إيجاد حل جيد للمشكلة؛ مثل: التركيز حول كيف سيكون الوضع بالمستقبل بدلًا من ترديد كيف أن علاقتهما أصبحت فاشلة[٢٠٥].

وبالمثل ثمة أنماط رئيسية للتواصل السلبي في العلاقة الزوجية يجب تفاديها والوعي لما تؤدِّي إليه من فجوة تواصلية وجفوة أسرية:

١- الاسترضاء الاستسلامي:

ويتَّسم هذا النمط بأنه يقوم بالبحث والسعي الدائم لإرضاء الطرف الآخر فقط، حتى في الخلافات الزواجية دائمًا ما يستسلم؛ ولهذا السبب يشعر الذي يعيش معه بالضيق لأن حياته خالية من التحدِّي أو التفاعل الحقيقي.

٢- اللوم والهجوم على الآخر:

وهو في الظاهر يقابل النمط السابق لكن الحقيقة أن مآلهما واحد، وهو: تحميل الطرف الآخر المسئولية وحده سواء بسلبية الاسترضاء أو باللوم والتقريع الدائم. ومن خصال هذا النمط أنه يعتقد دائمًا أنه على صواب، ويتميَّز بالرغبة في التحكُّم في الآخرين، ويكون الطرف الذي يعيش معه هو الذي يتعرَّض للنقد الدائم. ومآل هذا اللون الاتصالي إما غرس بذور النفور والكراهية أو اختيار سبيل السلبية واللامبالاة أمام مسئوليات الحياة الزوجية.

٣- المنطقية الزائدة:

من خصال هؤلاء أنهم يركزون على أن يكونوا أفضل وأقوى منطقيًّا من الآخرين بطريقة مستمرة تجعل الطرف الآخر يشعر أنهم دائمًا الأذكى والأفضل أو المتذاكون المعجبون بأنفسهم. وهؤلاء المنطقيون المغالون في حساب كل شيء عادة لا يهتمُّون بالمشاعر ويفتقرون إلى التعاطف؛ ومن ثم قد يصلحون لعقد الصفقات أو إدارة تفاوضات أو تساومات لكنهم يسيئون فهم العلاقة الزوجية ويقيسونها على ما يختلف عنها. وهذا يقع من الذكور والإناث على حدٍّ سواء ويتعلق أحيانا بالمستوى التعليمي والثقافي ونوعيته. وعادة ما يتسبب في الشعور بالضيق والتضييق من قبل الطرف الآخر حيث يوحي إليه أنه لا يفهم ولن يفوز من أي حوار من بدايته إلَّا بالتخطئة والانهزام.

٤- اللاعقلانية والخروج عن الموضوع:

٢٠٥ - وردة بلحسيني، وقدور نوبيات، ٢٠١٣.

وهذا النمط أيضًا يقابل ويضاد سابقه ظاهريًّا ولكن مآلاتهما النفسية والتواصلية واحدة أو متقاربة؛ حيث يركز هؤلاء اللاعقلانيون على نيل الاهتمام الشخصي وفقط أثناء الحواء مهما كان الثمن وبغض النظر عن موضوع الحوار، ويهتمون بحاجاتهم فقط ولا يعيرون رأي أو حاجات الطرف الآخر اهتمامًا معقولًا، وهم يردّدون آراءهم ولا يبالون بإسنادها بحجَّة عقلية أو شاهد واقعي أو مصلحة عملية. وتؤدّي هذه الطريقة في التواصل الزواجي إلى إشعار شريك الحياة لهذا الشخص بعدم القيمة الشخصية من جهة وعدم أهمية الحوار نفسه من الجهة الأخرى[٢٠٦]. وقد يلجأ بعض الأزواج إلى اصطناع هذه الطريقة من أجل الهروب من مواجهة أخطائه أو تقصيره، فيتكلم بأي شيء في أي شيء.

ب) ثقافة (الحوار) الزوجي

كثيرٌ من المشكلات التي تواجه الزوجين يكون أحد أسبابها افتقادهم ثقافة الحوار، والحوار يعني "تبادل وجهات النظر بين المتحدثين بشرط أن يستمع كل شخص للآخر جيدًا بنية أن يفهم أولًا لا أن يردَّ أو يفسِّر أو يعلِّق أو يقدِّم حلولًا قبل الاستماع.

ندرك من هذا التعريف أن الحوار يشكِّل الحل الأساسي للعديد من المشكلات التي يكون سببها الرئيسي هو سوء التفاهم، وأن عدم الحوار الدائم يؤدّي إلى عدم أو سوء فهم الزوج/الزوجة لنوايا شريكه وأفكاره، فيتمُّ تأويل تصرُّفاته بشكلٍ خاطئ ما يؤدّي إلى مشكلات وصدامات وراء بعضها البعض وربما كان من الممكن تجنُّبها بحوارٍ بسيط.

وينقسم الحوار بين الزوجين بالأساس إلى نوعين[٢٠٧]:

أ) **الحوار الإيجابي الفعال**: وهو الذي يساعد على دعم الروابط بين الزوجين وينمّي لغة التفاهم بينهما، ويتطلَّب مهارةً في عنصري: الإنصات، والتعبير اللفظي. فتتميَّز الأسرة الأكثر نجاحًا في الحوار بقدرتها على تبادل رسائل واضحة ومباشرة، وبالاستماع الفعَّال، والتعبير اللفظي عن طريق النقاش أو النظر.

ويتطلب الحوار الناجح مجموعةً من المقومات أبرزها:

١- **تجنُّب الانفعال**: فالإنسان المنفعل في حواره مع شريكه يفقد جزءًا من إدراكه للواقع ومن قدرته على متابعة ما يقوله أو يفعله محاوره؛ مما ينعكس سلبًا على مجرى الحوار، حيث يتكلم ولا يسمع، ويتكلم بانفعال ولا يفكر، ومن ثم فقد يتلفَّظ بألفاظ تسبِّب خلافًا شديدًا بينهما، والأخطر أنه يستبدل التوهُّم بالوعي بالواقع، فيتوهَّم مثلا قول شريكه لألفاظٍ لم يقُلْها، أو أنه نظر إليه نظرة ازدراء أو ما إليه. فأول واجبات الحوار تجنُّب الانفعال، فإذا حدث انفعال أو غضب أو حتى حزن شديد وجب

٢٠٦- وردة بلحسيني، قدور نويبات، ٢٠١٣.
٢٠٧ داليا نعيم شلبي، النزاعات الزواجية ومهارات الحوار الزواجي، مجلة الخدمة الاجتماعية، الجمعية المصرية للأخصائيين الاجتماعيين، مصر، ع٥٤، يونيو ٢٠١٥، ٢٣٩-٢٥٥.

إيقاف الحوار مؤقتًا حتى تهدأ الأنفس. وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: "لا تغضب"، فردَّدَ مرارًا قال: "لا تغضب".

٢- **الاستماع الجيّد لدى الشريكين:** الاستماع والإنصات هو أحد الركنين الأساسيَّيْن لاستمرار الحوار (الركن الآخر هو حسن التعبير). والإنصات علامة نفسية وموضوعية على أشياء كثيرة، منها: العناية بالآخر، وتقدير كلامه، والعناية بالحوار نفسه وسيلة للوصول إلى حلول أو قرارات، والاستعداد للتوافق والتفاهم، والعناية بالموضوع محل الحوار، وقبول أن يأتي الحل أو جزء منه من الزوج/الزوجة. والاستماع ثقافة مجتمعات وأسر وهو أمر تمَّ إهماله جدًّا في ثقافتنا حيث يميل الناس إلى التحدُّث معًا في وقت واحد، أو غلق الذهن عند بداية كلام الآخرين أو ذكرهم شيئا لا نوافق عليه. وقد قال الله تعالى: **(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)** [الأنفال: ٢١].

٣- **استخدام اللغة الواضحة:** وهذا هو الركن الثاني للحوار (حسن التعبير)؛ فإذا خلا الزوج/الزوجة من الانفعال –سواء بالغضب المغلق أو الحزن الشديد– فيجب أن يعتني بحسن التعبير عن رؤيته بكلام واضح، وغرض واضح، وأسلوب لائق، وأن يخلو من التهكُّم المحقِّر والجفاء المجفِّف للين الصلة الزوجية.

ومن محسنات ومعززات الحوار الإيجابي علاوة على هذين الركنين والشرط المسبق:

٤- تحديد موضوع الحوار وعدم خلط الأوراق.

٥- عدم الاستئثار بالحديث والحكم على الشريك دون أن يتكلم، وترك مساحةٍ له كي يعبر عن أفكاره.

٦- الحرص على التوصل لنتيجة من الحوار بدلا من إنهاء الحوار وكبت المشاعر مما يؤدي إلى تراكم وانفجار قريب.

٧- استخدام ضمير الجمع (نحن) و(أنا) بدلا من ضمير (أنت) الذي يثير حالةً دفاعية عند الشريك.

٨- تخصيص وقت دائم للحوار، وتصيد المناسبات السعيدة والأوقات المناسبة.

ب) **الحوار السلبي**: وهو عكس الحالة الإيجابية وينتج عن التواصل اللفظي الخاطئ بين الزوجين؛ مما قد يسبب حالةً من الإحباط لديهما. ويخرج الحوار السلبي في صورٍ متعددة منها:

١-**الحوار التعجيزي**: الذي لا يرى فيه الشريكان إلَّا السلبيات والأخطاء والعقبات، ويحرص كلٌّ منهما على تعجيز وهزيمة شريك حياته في الحوار.

٢-**الحوار التسلطي**: الذي يلغي كيان الشريك ويفرض عليه ضرورة الالتزام بالأوامر فحسب دون مناقشة أو تضجُّر. وهو لون غير حواري إنما حديث من طرف واحد لا يملي فقط أوامره بل يفرض أيضًا رؤيته ويعتبرها القصة الوحيدة المسموح بروايتها عن الواقع الأسري.

٣-**الحوار المغلق**: الذي يحكم عليه أحد الشريكين بالفشل من قبل أن يبدأ، فيكرر عبارات مثل "لن نتفق"، "مفيش فايدة"... إلخ.

٤-**الحوار العدواني السلبي**: الذي يلجأ فيه أحد الشريكين أو كلاهما إلى الصمت والعناد والتجاهل بهدف إثارة شريكه. وهو نوع أيضًا من اللاحوارية ويهدف إلى غلق الحوار قبل أن يبدأ، ولا يقتصر على الزوجات كما قد يتبادر إلى الأذهان، فكثير من حالات الصمت الزواجي مصدرها ميل الأزواج إلى الصمت وعدم الحوار مع الزوجة أو الأولاد. وتكثر مع أزمات منتصف العمر أو الأزمات المالية أو نتيجة كثرة المشكلات ما لم تكن طبيعة. ومن المهم التنبُّه لذلك في فترات الخطبة.

٥-**حوار الطرشان**: الذي يتكلَّم فيه الزوجان بصوتٍ عالٍ وفي وقت واحد، مما يجعل الفهم والتواصل بينهما أمرًا مستحيلًا. وهو رغم كثرة الكلام فيه يفتقد إلى ركن الاستماع أولا ومن ثم يسقط منه الركن الثاني وهو حسن التعبير، فمن حُسن التعبير أن ينتظر المتكلم حتى يجد لكلامه موضعًا يُسْتَمَعُ إليه فيه.

٦-**الحوار الجامد**: وهو الذي يكون فيه أحد الطرفين غير مهتمٍ بالآخر ويتصنَّع الاستماع دون إبداء أي ردِّ فعلٍ أو تعليق.

٧-**حوار المناورة**: الذي ينشغل فيه الزوجان بالانتصار اللفظي على بعضهما البعض ولكن بطرق غير مباشرة حيث يكون التلاعب بالألفاظ أو بطريقة قصِّ الأمور أو بالانتقال الانتقائي من نقطة لأخرى قد لا تتصل بها.. وهكذا.

٨- **الحوار المبطن**: الذي يمتلئ بالتورية والإشارات والألفاظ المبهمة التي تهدف إلى إرباك الطرف الآخر، ويفتقد للشفافية والتصارح؛ إما لخوف يدفع لإخفاء الحقيقة أو لغرض مصلحي خاص بالطرف الحريص على الإبهام. ويترتَّب عليه ضعف الثقة بين الزوجين وتحول الحياة الزوجية إلى مباراة غير ودِّية.

٩-**الحوار الانزلاقي التدريجي**: الذي ينحدر أو يتراجع فيه الحوار بصورة سلبية من الهدوء والتواصل الجيد إلى الصدام والعصبية والانفعال ثم الشجار والخصام.

ج) معوقات الحوار الزوجي

تتمثَّل أهم معوقات الحوار بين الزوجين في عددٍ من الفروق الحقيقية بين الرجل والمرأة والتي قد لا يدركها أو يستوعبها كلٌّ منهما أو أحدهما، وبالمثل في الموروثات الثقافية لدى كلٍّ منها التي تتعلَّق بالحوار كسمة حياة وتفاعل معيشي، بالإضافة إلى أن التجارب الأولى للحوار تؤثِّر على مساره وتكراره فيما بعد[٢٠٨]:

٢٠٨- عصام زيدان، المعوقات الخمسة للحوار الزواجي الناجح، مقال على موقع طريق الإسلام، ٢٠٠٨. وانظر: المخ ذكر أم أنثى؟.

١. اختلاف لغة التواصل بين الرجل والمرأة: "يختلف الرجل عن المرأة في طريقة استخدام اللغة، فعندما يتكلم الرجل يمتاز حديثه بالموضوعية، والترتيب ويبتعد عن استخدام العاطفة، بينما المرأة عندما تتحدث لا تجيد غالبًا إلَّا لغة العاطفة في كلامها، وتطلق أحكامًا عامة لا تقصدها لذاتها إنما لتبالغ في التعبير عما تشعر به".

٢. تعارض أهداف الحوار لدى كلا الزوجين: إذ "تلجأ المرأة للحوار لتعبِّر عن معاناتها ومشاكلها، أو ما يفرحها ويسبِّب سعادتها فهي تفكر بصوت عالٍ، وتوجِّه الحديث إلى زوجها؛ لأنها تحتاج إلى دعمه العاطفي والمعنوي، ولتعبِّر عمَّا يجول في خاطرها من أفكار، وعمَّا يختلج في صدرها من مشاعر في كل الأحوال... أما الرجل فإن الحوار عنده كالكلام كلاهما وسيلة لكسب صديق جديد أو انتهاز فرصة مناسبة في العمل أو غير ذلك، فالحوار من أجل ما وراءه وليس هدفًا في حدِّ ذاته، ويعتبر أنه المسئول عن حلِّ مشاكله بنفسه، ولا يُحِبُّ أن يشاركه أحدٌ في هذا التفكير حتى زوجته".

٣. سيطرة الفردانية والاهتمام بالذات فقط: "فالمنزل بالنسبة للرجل هو المكان المخصَّص للراحة، والتي تتمثَّل في مخيلته في الابتعاد عن الجو المشحون والمنافسات والمناقشات الطويلة، والخلوص إلى النفس بعد طول معاناة في العمل، فهو لا يريده إلَّا وفق ما يحب ويهوى. أما الزوجة فإن المنزل هو المكان الأمثل الذي تشعر فيه بحرية الكلام، فالحوار والتواصل بالنسبة لها حاجة ضرورية وملحَّة، ولا يمكن أن تشعر بقيمتها الذاتية إلَّا من خلال إشباع حاجة الحوار مع زوجها، ومن ثم تحب أن يكون بيتها ساحة للحوار والكلام".

٤. المفاهيم الموروثة الخاطئة: والتي تترسَّب لدى الزوجين عبر مسيرة التربية الطويلة أو من وسائل الإعلام والتعليم المحيطة وغير ذلك. من بين تلك المفاهيم تصور الزوج بأن المرأة لا يحقُّ لها التدخُّل في أيِّ شيء، وفي المقابل تتصوَّر الزوجة ضرورة إحكام الخناق حول الزوج وملاحقته بالطلبات كي لا يفرَّ منها إلى امرأة أخرى.

٥. الذكريات المؤلمة لدى كليهما عن الحوارات السابقة: التي انتهت بشجار أو بكلمة مهينة أو بتسفيه من أحدهما لرأي الآخر، والتي تصدُّهما عن محاولة تكرار الحوار كي لا تتكرر نفس النتيجة.

ثالثا – الرضا والسعادة الزوجية

يعتبر الرضا الزواجي من الأسس المهمَّة للحياة الزوجية لأنه أساس الاستقرار الأسري، كما أنه يعبِّر عن الحب المتبادل بين الزوجين في علاقتهما الزوجية ما يساعدهما على التغلُّب على ما يُمكن أن يعترض طريق سعادتهما طيلة زواجهما. ويمكن استعراض مضمون الرضا بين الزوجين بتعريف المفهوم نفسه والإلماح إلى عوامل تحقيقه، وبيان أنماطه في الحياة الزوجية، والعوامل التي يمكن أن تؤثِّر عليه سلبًا.

أ) مفهوم الرضا الزواجي وعوامل تحقيقه:

يُعرف البعض الرضا الزواجي بأنه شعور بالاتساق وتحقيق الغايات الذاتية في العيش المشترك، مع ما يكتنف ذلك من التواصل العاطفي والوجداني بين الزوجين، وسيادة التفاهم بينهما، والقدرة على حلِّ الخلافات القائمة بينهما بأسلوب سلِس، مع الوصول إلى: الرضا/الإشباع الجنسي، والشِّبَع العاطفي، والميل إلى مشاركة أنشطة وقت الفراغ معًا وتوظيف القدرات للقيام بالأدوار المنوطة بهما داخل الأُسرة[٢٠٩].

ومن العوامل التي من شأنها تحقيق الرضا الزواجي بين الزوجين: **الذكاء الوجداني**.

والذكاء الوجداني هو فَهم كل من الزوجين لانفعالات الآخر وتفسيره للاستجابات الانفعالية التي يمُر بها، وهذا يُسَمَّى بـ"الذكاء الوجداني"[٢١٠]. وتتمثَّل قدرات الذكاء الوجداني في: إدراك الانفعالات أو العواطف، وتيسيرها للتفكير، وتنظيم العاطفة مع الذات والآخرين. وتُسهم إدارتها في زيادة الرضا الزواجي. كما تُشير بعض النتائج إلى ارتباط الذكاء الوجداني بتحسين الأوضاع في العلاقات الاجتماعية؛ فزيادة الذكاء الوجداني تؤثِّر على زيادة الصحة النفسية والعقلية إيجابيًّا[٢١١].

وارتفاع قدرة كلٍّ من الزوجين على إدراك مشاعر الآخر وانفعالاته، وقدرتهما على قراءة هذه المشاعر، سواء بطريقة لفظية أو غير لفظية، وقدرتهما على التعبير الإيجابي عن مشاعرهما لبعضهما البعض (مثل التعبير عن مشاعر السعادة أو الفرح أو التفاؤل أو الحب أو التعاطف) من شأنها أن تُعَزِّزَ معاني عميقة بين الزوجين تزيد من درجة رضاهما الزواجي.

ب) أنماط الرضا الزواجي:

المنظور الحضاري للحياة الطيبة يربط الرضا الزواجي بالأصول والقيم التي تنبني عليها الأسرة وأخلاق التفاعل الزواجي ثم تأتي عوامل الزمن والمستوى المادي والتعليمي. ومن ثم فيمكن تصنيف أنماط الأزواج من حيث الرضا الزواجي بمؤشرات الحياة الطيبة ومن خلال المشاهدات الواقعية، على النحو الآتي:

١- **نمط الأزواج القِيميّين**: وهؤلاء يتحقَّق رضاهم الزواجي من طريقين وبدرجتين: توفر القيم التي يؤمنون بها في العلاقة الزوجية والتفاعل الزواجي ونجاحهم في تأسيس حياتهم الزوجية على تلك القيم، أو أن تسهم قيمهم في تقليل حدَّة المشكلات والخلافات وتعديل الأوضاع المختلَّة بحيث يتحقَّق قدرٌ لا بأس به من رضاهم عن حياتهم الأسرية، طالما الزوجان محتفظان بالقدر الأساسي من الأخلاقية التي قام عليها زواجهما.

---

٢٠٩ - منى أحمد عبد المنعم، ٢٠١٦.

2) Emotional Intelligence.

٢١١- أميرة فايق، ٢٠١٢

٢- **نمط الأزواج المجتمعيّين**: أي أبناء المجتمع الذين ينقلون الأعراف والعادات إلى علاقاتهم الأسرية تفاعلهم الزواجي؛ ويجدون فيها أساسًا للرضا عن أفكارهم وسلوكياتهم. وهؤلاء يتعرَّضون للاضطراب حال انتقالهم إلى بيئة أخرى، أو كونهما من بيئتين أو طبقتين مختلفتين، ويتأثَّرون جدًّا بالتغيرات الاجتماعية والثقافية في المجتمع؛ كما يتأثرون بالتقلبات الاقتصادية داخل الأسرة وحولها. ويسهم الإنجاب ووجود الأولاد في ترسيخ العلاقة الزوجية وخلق نوع من الرضا الزواجي أو الأسري العام لا يلزم أن يرتبط بالعلاقة الخاصة بين الزوجين. ويخلط هذا النموذج العادات بالتدين والقيم الدينية. ويحسن هذا النمط غالبًا التعامل مع التدخلات أو التقاطعات مع الأهلين والأقارب والجيران.

٣- **نمط الأزواج التعاقديّين**: وهو نمط تصنيع الرضا من أول الزواج وربما مما قبله بناء على إبرام تعاقد عام أو تعاقدات تفصيلية على كيفية إدارة التفاعلات بينهما وطريقة التعامل مع الاحتياجات والموارد الأسرية، ومواجهة التحديات والمشكلات والمستجدات. ويتحقَّق الرضا الزواجي بالقدر الذي يلتزم فيه الطرفان بالإطار التعاقدي، ويزداد كلما أضيف إليه ذكاء وجداني وسلوكيات تعاطفية، ويتضاءل الرضا الزواجي مع الضغوط التي قد تضطر أحدهما أو كلاهما إلى انتهاك العقد الأسري. وغالبا ما يترسخ هذا الرضا بوجود الأولاد مع عدم زيادة العدد، ويتأثر هذا النمط جدًّا بالتدخُّلات الخارجية. ويزداد الرضا الزواجي على حساب السخط على فوضوية المجتمع خارج الأسرة فيجد كل واحد من الزوجين راحته في منظومة بيتهما.

٤- **نمط الأزواج الذاتيّين الهوائيّين**: وهو نمط مزاجي متقلب ما بين السخط الزواجي والرضا؛ بحسب الأحوال التي يمرُّ بها، ليس للزوجين فيه معايير يستندان إليها لما يُرْضيهما وما لا يرضيهما. ويعتمد رضاهما الزواجي على نظرة كل منهما إلى شخصية الآخر بغضِّ النظر عما يجري في المنزل من مجريات، ويتأثَّران جدًّا بالحالة الوجدانية والحالة المادية وتدخُّل الأهْلين.

٥- **نمط الأزواج السلبيّين**: وهم الذين يتأثَّرون جدًّا بما حولهم، ويكون رضاهم وسخطهم تابعًا للعوامل الخارجية؛ فإن كانت موائمة أو رأوها حسنة رضي أحدهما عن الآخر، وإلَّا حوَّلوا سخطهم ممَّا حولهم إلى ما بينهم. ويفتقد هذا النمط للميزان بين الذات والمحيط، وبين البيت والمجتمع، ولا يحاول أن يغيِّر أو يقاوم التحديات التي تواجهه بقدر ما يفتح لها مَصَبًّا في حياته الأسرية.

وهذه الأنماط مهما عبَّرت عن نماذج حياتية واقعية، إلَّا أن تفاصيل الواقع تبقى أثْرى وأغْزر. ويبدو من هذه الأنماط أن الزوجين متجانسان أو متكاملان، فإذا افترضنا عدم تجانسهما أو توافقهما فإن باب

الرضا الزواجي مغلق أو شبه مغلق. والواقع يشهد أن أكثر الأزواج يحتاجون إلى فترة كبيرة لكي يحقِّقوا التوافق والانسجام فيما بينهم ومن ثم يأتي الرضا الزواجي —على نحو ما استنتجت بعض الدراسات– مع الزمن والعشرة وتساقط الأوهام المتبادلة عن شخصية كلٍّ منهما وعن احتياجات الحياة الطيبة.

ومن المهم أن نستفيد من هذه الأنماط معرفة العوامل التي تقف وراء الرضا الزواجي والأخرى التي تعوقه، والأهم هو كيف يتحقَّق الرضا في ظلِّ ضغوط الحياة الواقعية.

رابعا – مقوِّمات دوام المحبة والتماسك الأسري:

قد يحقِّق الزوجان درجة معقولة ومقبولة من التوافق الزواجي ويحسنان التواصل والحوار فيما بينهما، وقد يشعران بالرضا عن حياتهما الأسرية بل بالسعادة والإقبال على الحياة نتيجة لما يلمسانه من جواهر ومظاهر الحياة الطيبة، ولكن ثمة عاملًا غاية في الأهمية ينبغي ضرب كل هذه المتغيرات فيه؛ ألا وهو الزمن. فالنجاح الزواجي يتعرَّض مع الزمن لتحديات ينبغي تجاوزها من أجل دوام المحبة والتماسك الأسري.

وفي هذا الإطار تكتمل مقومات السعادة الزوجية بوسائل وأساليب تبدأ بالتسامح وتتكلَّل بالوفاء وحفظ العهد وما بينهما من مشاركة عملية ووجدانية وإعلان المحبة والمؤانسة والملاطفة والحرص على حلِّ الخلافات في أسرع وقت مع الحرص على كتمان أسرار البيت.

أ) الحب الزوجي:

الحب والمودة المتبادلة بين الزوجين من أهم عوامل التفاهم واستقرار الأسرة بل السعادة والرضا، فالحب غريزة يمكنها القضاء على أنواع الاختلافات والتعارضات، وتحلها إلى نوع من الألفة والتعاون، فالحب أساس وجود واستمرار هذه العلاقة.

والحب المقصود هنا ليس مجرد نزوة عابرة سرعان ما تخبو، بل شعور راسخ عميق الجذور، طويل العمر، ولا يعني ذلك أنه يشترط وجوده قبل الزواج. فكم من زواج بدأ بحياد عاطفي لكن سرعان ما نبتت مشاعر الحب بين الزوجين نتيجة العشرة الطيبة وأخلاق الوفاء والعطاء، ونمت ترعرعت تلك المشاعر حتى كوَّنت جنانًا وارفة ينعم في ظلها الزوجان بحياة طيبة هنيئة(٢١٢).

لذا من الضروري إعادة تحديد مفهوم الحب، فهو ليس مجرد انفعالات صبيانية وأحلام خادعة، وفي هذه الحالة يمكن للحب أن يقلل الآثار السلبية لعوامل الاضطراب والاختلال. ويُشير **الحب** بين الزوجين بأنه "الامتزاج" بين شخصين، ومن خصائصه:

أ) أنه ينشأ من مواقف عديدة وليس من موقف واحد مفاجئ.

(٢١٢) ينظر: تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج٥، ص ١٤٤ بتصرف

ب) فيه تقدير شامل لكامل جوانب شخصية الآخر وليس لبعض صفاته.

ج) فيه شعور بالأمن والثقة مع فهم شخصية المحبوب بمحاسنها ومساوئها[٢١٣].

ب) التسامح الزوجي:

في ظل المودة والرحمة يتراحم الزوجان ويتسامحان "وقد لحظ المصطفى عليه الصلاة والسلام أن هناك بعض المنغِّصات ربما تحدث بين الزوجين، فنبه على ذلك ليسد باب البغض، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر، أو قال: غيره**[٢١٤]. فلا وجود للبغض بل حب وتسامح من قبل الزوجين، ولا داعي لوجود المنغصات، فإن وجد شيء منها لا بدَّ من إزالته، وذلك بالرجوع إلى العهد الذي بينهما: عهد المودة والرحمة، عهد المحبة والاستقرار"[٢١٥].

ويُشير كثير من الاختصاصيين النفسيين والباحثين إلى أن التسامح يُمثل حجر الأساس في الزواج الناجح؛ حيث يرتبط التسامح بعدَّة جوانب رئيسية في المجال الزواجي بما في ذلك: حل الصراعات بين الزوجين[٢١٦].

ويتحدَّث البعض عن إشكالية التسامح إزاء الخيانة الزوجية بشكل خاص لا سيما من المنظور الغربي الذي يعد الخيانة الزوجية خطأً قريبًا لا خطيئة بعيدة. وفي هذا الشأن فإن غاية الأمر عندنا أننا لا نسمِّيها خيانة زوجية، بل زنا محرَّم، يتم الستر عليه لا التستر، فالستر شيمة النبلاء لكن التستر دياثة وسفول في الأخلاق. ومن ثم فالزنا ليس مجالًا للتسامح إذ هو خطيئة في حق الله تعالى بخلاف المنظور العلماني الذي يجعله مجرَّد خطأ في حق الزوج/الزوجة.

وسائل لدوام المحبة الزوجية:

حب الزوجين لبعضها البعض والتأليف بين قلبيهما رزق من الله تعالى، كما قال الله تعالى: **(وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)** وإن وردت فيما هو أوسع من العلاقة الزوجية فيما يتعلق بأخوة الإيمان، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن السيدة خديجة رضي الله عنها: "**إني قد رزقت حبها**"[٢١٧]. ولكن تأليف المشاعر ودفئها واستمالة القلوب وكسبها، له سبل ووسائل تعمل على إيجادها، كما تعمل على توطيدها عند وجودها وحمايتها من الاهتزاز أو التصدع عند تعرضها لذلك. ومن تلك الوسائل ما يلي:

٢١٣- نجلاء راضي فرج، ٢٠١٧.

(٢١٤) صحيح مسلم، باب لا يبغض مؤمن مؤمنة، رقم: (٣٦٣٩)، (٤/ ١٧٨).

(٢١٥) ينظر: الحب وأثرة في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص ٧ إلى ٩.

216 - Fincham & Beach, In Press: 5

(٢١٧) صحيح مسلم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم: (٦٣٥٩)، (٧/ ١٣٤).

أ) إظهار المشاعر واحترامها

يكتفي بعض الأزواج بمعاملته الحسنة لأزواجهم وقضاء مصالح البيت، دون بوح بمشاعر المحبة القلبية للآخر. وهذا خطأ يجب تداركه تأليفًا وتطييبًا لقلب زوجه؛ وأكبر من هذا الخطأ أن يظهر أحد الزوجين مشاعر المحبة والمودة فلا يبادله الطرف الآخر بمثلها أو أحسن منها، بل ربما استخفَّ منها. والقرآن الكريم وجَّه المؤمنين إلى أن يكون ردُّ الحُسن بمثله أو أحسن منه، قال تعالى: **(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها)**.

ولهذا فإن إظهار المشـــاعر بين الزوجين واحترامها من الأمور التي ينبغي أن يحرص الزوجان عليها، وتتعدَّد صورها، على النحو التالي:

ومنها: إعلان المحبة والمودة ولو أمام الآخرين

فنحن مدعوون إلى إعلان الآخرين بمحبتنا لهم، كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه أحبه"**، فمن باب أولى إعلام كل من الزوجين الآخر بمحبته ومودته وتقديره.

ومن الخطأ الذي يقع فيه بعض الرجال أنهم يخجلون من التعبير عن حبهم لزوجاتهم أمامهن أو أمام غيرهن، وهدي النبي صـــلى الله عليه وســـلم على خلاف ذلك، فقد ســـأله عمرو بن العاص قائلا: **"يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال:** «**عائشة**» قال: قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها إذًا». فصرح صلى الله عليه وسلم **باسمها**، ولو شاء لكنَّى أو أشار، **كما نسب الصديق إليها مع أنها ابنته**، ولم يصرّح باسمه، وفي هذا كله إعلان لمحبتها وإجلاله وإكرامه لها.

ب) الغزل والإطراء وإظهار الامتنان

كل من الزوجين له فضل على الآخر، وهذه نعمة يجب أن يشكرا الله تعالى عليها؛ ﴿**وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٣٧]. كما يجب أن يشكر كل من الزوجين صاحبه على فضله عليه. ومن أدب الإسلام الذي أدَّب به أتباعه تقديم الشكر للناس لما يقدِّمونه من صنيع، ومن أولى من يقدم له الشكر: الوالدان والزوجان(٢١٨).

وكلمات الشـــكر في الحياة الزوجية دليل على دماثة الخلق وجمال الطبع، الذي يعمل على تدفئة المشاعر بين الزوجين، ولو أننا نظرنا إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه لرأينا أنها مثال

(٢١٨) ينظر: الحب وأثرة في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص٤٠ وما بعدها.

للملاطفة والمؤانسة، فلقد كان يؤانسهن ويمازحهن ويعمِّر نفوسهن بالكلمة الحلوة، والنظرة الحانية، والتصرُّف الودود، ويحتمل منهن أخطاءهن.

ج) تقديم الهدايا

للهدايا في تأليف القلوب وبذر بذور المحبة أثرها الذي لا ينكر؛ ولهذا فقد حثنا النبي صلى الله عليه وسلم على الإهداء فقال: "تهادوا تحابوا"(٢١٩).

وقد تُحدث هدية بثمن زهيد، كوردة مثلًا، يهديها أحد الزوجين لصاحبه أثرًا عميقًا في ترطيب المشاعر وإرْواء العواطف، أو تكون سببًا في زوال خصام شديد وقع بين الزوجين. فليحرص الزوجان بين الفينة والأخرى على أن يهادي أحدهما الآخر هدية ولو بسيطة حتى وإن كانا متزوجين من سنوات عدَّة(٢٢٠).

د) كتمان الخلاف داخل نطاق الأسرة

الزوج والزوجة كلاهما نسيج واحد وروح واحدة، لهما عالمهما الخاص، كل منهما يرى من الآخر ما لا يطلع عليه الآباء والأمهات، وهما يتقاسمان حلو الحياة ومرها، وإذا ما هبَّت رياح على الأسرة وجب عليهما أن يقفا ضدَّ هذه الرياح معًا، حفظًا للسفينة من الغرق. وإنه يكاد لا يخلو بيت من منازعات ومشاجرات بسبب سوء تصرُّف أحد الزوجين أو كلاهما، ولم يعرف حتى الآن زوجان عاشا حياتهما دون حدوث خلافات، غير أن الزوجة الذكية هي التي تحرص أن يكون نقاشها مع زوجها ضمن حدود التفاهم والتشاور، وأن تكون أسرار أسرتها بمنأى عن الآخرين حتى ولو كانت أمها، فلا يصح أن تشرك أمها في كل صغيرة وكبيرة في شئون المنزل. وهذا يعتبر سببًا من الأسباب التي تؤدِّي إلى فشل العلاقة بين الزوج والزوجة. إن الخلاف بين الزوجين يجب أن يبقى داخل نطاقهما؛ لأن الخلاف إذا خرج خارج بيت الزوجية تورم وانتفخ(٢٢١).

هـ) الوفاء

من الوفاء إحسان العشرة بينهما، وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأزواج بمقتضى عقد الزواج. ومن الوفاء الصبر على بذل ما اشترطه المرء على نفسه تجاه زوجته، أو اشترط في عقد الزواج، فلا شك أن بين الزوجين من العطاء والإكرام ما لا يعلمه بعد الله إلا الزوجان أنفسهما. لكن في ظلِّ معترك الحياة قد يسيء أحدهما إلى الآخر أو يقصر معه، فهنا من الوفاء لعطائه السابق وما قدَّمه ألا يكون ذلك

---

(٢١٩) سبق تخريجه
(٢٢٠) ينظر: الحب وأثرة في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص ٤٤. وينظر: الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، ص ١٨٢.
(٢٢١) الحب وأثرة في استقرار الأسرة: د/ أحمد ربيع، ص ١٠٢ وما بعدها.

الخطأ أو التقصير هو سبب لمحو ما سبق من فضل، ولا يكون هو السبب للفراق والقطيعة أو حرمان الفضل والعطاء من الجانب الآخر.

ومن الوفاء أن يكرم الزوج أهل زوجته، وأن يحسن إلى والديها، وألَّا يسب أباها وأمها، وألَّا يسب أهلها، فليس هذا من أخلاق الإسلام، ولا من أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك يجب على الزوجة.

الباب الثاني

مشكلات الحياة الزوجية واستراتيجيات التعامل

الفصل الأول

المشكلات الأسرية: المفاهيم والواقع والأسباب

من بديهيات الحياة وحقائقها أنها ليست راحة وودًّا ووئامًا واتفاقًا كلها، ففيها الراحة وفيها التعب، وربما كانت الراحة هي عين التعب كما تقول بعض الحكم، وفيها الاتفاق حينًا والاختلاف حينًا آخر، وقد بيَّنَّا سابقًا أن الاختلاف سنة من سُنن الله في كونه التي قامت عليها الحياة الدنيا؛ ومن ثم كان من المحال وجود زوجين متطابقين بنسبة ١٠٠%، فلا بد من وجود اختلاف بين الزوجين، عظمت درجته أو قلَّت، سواء كان في التكوين الخُلقي، أم في الطباع، أم في بيئة النشأة، أم في الثقافة والتربية، أم في الأفكار والتصورات، أم في الآمال والطموحات... وهكذا.

وفي أحيان كثيرة يكون هذا الاختلاف سببًا رئيسيًّا للمشكلات الزوجية، وبجوار هذا السبب بلا شك أسباب أخرى؛ كجهل أحدهما أو كلاهما بالتوجيهات الشرعية والآداب الشرعية فيما يخصُّ علاقة الزوجين بعضهما ببعض. يضاف إلى ذلك أن اختلاف طبائع الرجال عن طبائع النساء بشكل عام، له أثر في الحياة الزوجية.

وبعد الحديث عن العوامل التي من شأنها أن تُساعد على نجاح العلاقة الزواجية والتي يُشير توافرها إلى نجاح الزواج، نُلقي الضوء على الطرف الآخر النقيض لهذه العوامل والتي من شأنها أن تؤثر على العلاقة الزواجية تأثيرًا سلبيًا.

أ) مفهوم الاختلال/الخلاف الزواجي والمشكلة الأسرية

الاختلال الزواجي هو الحال والمفهوم المقابل للاستقرار الزواجي، وقد يؤول إلى التدهور الأسري وربما تفكُّك الأسرة. هذا الاختلال يبدأ من الخلافات البسيطة لكن المعكِّرة لصفو المعيشة الواحدة والمباعدة نسبيًّا بين الزوجين، المؤهِّلة بمرور الوقت للشقاق البعيد.

وتعتبر الخلافات الزوجية (Marital Dysfunction) من الاختلالات الأكثر شيوعًا، والتي من أجلها يسعى كثير من الأزواج للحصول على مساعدة نفسية أو اجتماعية أو ثقافية أو شرعية أو قانونية أو في اقتصاديات الأسرة أو تجميعًا من هذه الجوانب؛ وذلك لما لها من تأثير جسدي ونفسي ضار على الحياة المستقرَّة.

ومع هذا المفهوم السلبي السائد عن الخلاف الزوجي فقد تنقسم الخلافات الزوجية إلى: خلافات بناءة وخلافات هدامة.

ويُقصد **بالخلافات البنَّاءة** تلك التي لا تُفسد الودَّ بين الزوجين، ولا تؤدِّي إلى الخصام والنفور؛ فهي خلافات جزئية لا يزال فيها تبادل الرأي والمشاورة بين الطرفين ولو أصرَّ كلُّ واحدٍ منهما على قناعاته ورأيه، وسُمِّيَتْ **"بناءة"** لأنها –بخلاف الظاهر– تقوِّي الروابط الزواجية وتجعل كلًّا من الزوجين يصحِّح من أساليب توافقه مع الآخر. إن جوهر الخلاف البنَّاء أنه لا يغادر النظر في الموضوع لكي يتَّهم أيُّ طرفٍ منهما الآخر بشيء شخصي.

أما **الخلافات الهدَّامة** فهي خلافات تؤدِّي إلى الخصام والعداوة والصراع والانتقام؛ لأنها خلافات ليس فيها تفاهم ولا حل وسط، وتنتقل من موضوعها إلى شخصي الزوجين، ومن ثم تخلو فيها العلاقة الزوجية من الود والرحمة، والتقدير والاحترام، وتنسى فيها العهود والمواثيق وما سبق من أفضال ومعروف بين الاثنين، وتجعل مواقف التفاعل الزواجي مواقف بغيضة إلى نفس كلٍّ من الزوجين وتدفعهما إلى التوافق السيء[٢٢٢].

إن العديد من الأزواج الذين يختارون عدم الطلاق مع استمرار الخلافات والمنازعات في البيت يعيشون وهم يعانون من كرب مُزمن نتيجة هذه الخلافات المستمرَّة. وهناك العديد من الاضطرابات التي تُصاحب الخلافات أو الصراعات الزواجية مثل: الاكتئاب، واضطرابات القلق، وعسر الوظيفة الجنسية، وربما تعاطي المخدرات. ويُمكن للصراع بين الأزواج أن يؤدِّي دورًا رئيسيًّا في تطوُّر واستمرار الاضطراب النفسي لديهم[٢٢٣].

مستويات الاختلالات الزواجية

يصنف البعض الاختلالات الزواجية إلى أربعة مستويات:

- **المستوى الأول**: ويشمل الخلافات البسيطة التي تحدث بين الزوجين ولا تستمر طويلًا، ويظهر فيها بعض الغضب والتذمُّر مؤقتًا، ويسعى كلٌّ من الزوجين إلى حلِّها دون أن –أو قبل أن– تفسد الودَّ بينهما، ولا تؤثِّر على ثقة كلٍّ منهما بالآخر. ولا تؤثِّر الاختلالات من هذا المستوى على التفاعل الزواجي، فهذه خلافات يسهل علاجها.
- **المستوى الثاني**: وفيه تشتدُّ حدَّة الخلافات بين الزوجين وتستمرُّ لمدَّة طويلة، وهي خلافات تثير الغضب والتذمُّر والقلق والنقد والتجريح والتعيير والتطاول والاتهامات والسب، ومع هذا تظلُّ قنوات الاتصال بين الزوجين مفتوحة والرغبة في التفاهم وحلِّ الخلافات قائمة، فالرغبة في استمرار الزواج عند هذا المستوى من الخلاف ما زالت قائمة.

٢٢٢ - رشا محمد عبد الستار، ٢٠١٧.
٢٢٣ - روبرت ليبهي، ٢٠٠٦

- **المستوى الثالث**: وتستمر فيه الخلافات مدة تزيد عن (ستة) شهور، وتؤدِّي إلى تغيُّر المشاعر ونمو الحقد والعداوة واتِّساع الفجوة بين الزوجين، واضطراب التواصل بينهما، وكثرة الهجر والخصام لمدة طويلة، وتصبح تفاعلاتها في شكل هجوم وهجوم مضاد، ويصعب إرجاع العلاقة الزوجية إلى ما كانت عليه؛ مما يجعل علاجها صعبًا.
- **المستوى الرابع**: وتشتدُّ فيه الخلافات الهدَّامة بين الزوجين بدرجة أكبر، ويعم النفور والحقد والرغبة فى الانتقام بالسبِّ والضرب، وتغدو الحياة الزوجية جحيمًا، ويسعى كل من الزوجين الى الهروب منها ويرفض الصلح وغالبًا ما يرفع أمر الخلاف إلى القضاء أو ينتهي بالطلاق[٢٢٤].

مفهوم المشكلة الأسرية:

يمكن تعريف المشكلة الأسرية بأنها حالة من الاختلال الداخلي والخارجي التي تترتَّب على عدم إشباع حاجة معيَّنة عند فرد أو أكثر من أفراد الأسرة، يترتب عليها نمط سلوكيات يتنافى مع الأهداف التي بُنيت لأجلها الأسرة وأقيمت العلاقة الزوجية بين شريكي الحياة.

مشكلات المتزوجين حديثًا:

من أبرز المشكلات التي يتعرض لها المتزوجون حديثًا:

١- سوء التواصل:

إذا كانت أساليب التواصل جيدة؛ فسوف يكون هناك تفاهُم بين الزوجين، أما إذا كانت أساليب التواصل رديئة ومشوشة؛ فسوف يحدث سوء التفاهم الذي قد يُنفر كلًّا منهما من الآخر، وقد يؤدِّي الأمر إلى الطلاق المبكر خاصَّة إذا كانا الطرفان غير ناضجين من ناحية كيفية التعامل مع هذه الأمور وتهدئتها[٢٢٥].

٢- العامل الديني والالتزام الخلقي

في كثير من الأحيان قد يرجع السبب الجوهري في انتشار سوء التوافق الزواجي بين الأزواج والزوجات، إلى عدم الفهم الصحيح للدين وعدم التمثُّل لأوامره فيما يتعلق بأمور خاصة بالزوجة أو الزوج أو بصدد العلاقة بينهما، فالطرفان في بداية الزواج لم يكونا على علم بمدى امتثال كل منهما وفهمه وتطبيقه للجوانب

٢٢٤- صفاء إسماعيل، ٢٠٠٨.
٢٢٥ شيماء يوسف السيد، ٢٠١٥.

الدينية المهمة في الزواج. فإذا فَهم كل شريك دوره تجاه الآخر من منطلقات دينية؛ فسوف يؤدِّي هذا إلى تقليل المشاحنات بينهما وتُعم المودة والرحمة التي تُمثل أساس العلاقة بين الزوجين[٢٢٦].

٣- العامل النفسي

يُمثل العامل النفسي واحدًا من أهمِّ ما يؤدِّي إلى كثير من المشكلات لدى الزوجين، حيث إن سرعة انفعال الزوجين ومن ثم تكاثر المشكلات لأسباب تافهة، وما يصحب ذلك من شعور بالاكتئاب من ضغوط الحياة الزواجية؛ هذه جميعها عوامل من شأنها أن تؤدِّي إلى سوء التوافق في العلاقة الزواجية، خاصَّة حينما يتفاجأ كل من الزوجين بهذا، على عكس ما كانا يتوقَّعانه من هدوء نفسي واتزان انفعالي عندما يتم الزواج وجمع الشمل[٢٢٧].

٤- العامل الجنسي

التوافق الجنسي عامل أساسي في توجُّه التفاعل الزواجي إلى التعاون والتفاهم، في حين يعتبر عدم التوافق الجنسي مؤشِّرًا دالًّا على توجُّه العلاقة الزوجية إلى الشقاق، والنزاع والصراع. ويشير علماء النفس إلى أن عدم الانسجام الجنسي بين الزوجين قد يتوقف على عوامل كثيرة منها:

- التربية الجنسية التي يتزود بها كل من الزوجين قبل الزواج.
- مدى خبرة كل من الزوج والزوجة بالنشاط الجنسي.
- درجة الإشباع أو الرضا التي يبلغانها في علاقتهما الزوجية.
- مدى ارتباط الدافع الجنسي عند كلٍّ منهما بعدد مرات وأسلوب الاستجابة المتبادل خاصَّة في السنوات الأولى من الزواج[٢٢٨].

٥- العامل الاقتصادي

من المهم الجمع بين العوامل السابقة والعامل الاقتصادي الذي يبدو على السطح كثيرًا وكأنه هو السبب الأساس إن لم يكن الوحيد للمشكلات الأسرية، والحقيقة أنه مظهر لجوهر تمثِّله العوامل السابقة. وبالنسبة إلى المتزوجين حديثًا فقد يضطر الزوجان إلى قضاء فترة ضاغطة لتسديد الديون التي تقع على عاتقهما في بداية حياتهما الزواجية بعد تكاليف الزواج.

٢٢٦ شيماء يوسف السيد، ٢٠١٥.
٢٢٧ رندا يوسف محمد، ٢٠١٧.
٢٢٨ شيماء يوسف السيد، ٢٠١٥.

٦- التداخل مع الأهل والأقارب

من الأسباب التي تؤدِّي إلى الضيق في العلاقة الزوجية وإحداث خلافات كثيرة بين الزوجين: عدم ضبطهما للمسافة الاجتماعية المناسبة مع الأهل والأقارب والأصدقاء، حتى لا يتحول القُرب إلى تدخُّل وتداخل. وكذلك ميل الأزواج والزوجات إلى إقامة مقارنات بين الزوج/الزوجة وأهله؛ (هم يحبونني أكثر منك - أمي خايفة علي - أبي يعمل لمصـــلحتي - أنت لا تحب/لا تحبين أهلي إذن أنت لا تحبني/لا تحبينني... إلخ).

إن أخطر ما يهدِّد الحياة الزوجية، ويؤثِّر على استقرارها هو انتقال مشكلات الزوجين خارج أسوار المنـزل، وخاصة إلى الأهل، فكل طرف سيتحيَّز لابنه أو ابنته، ويتحول الموضوع من خلاف بين الزوجين إلى صراع عائلي لا يمكن احتواؤه، أو السيطرة عليه.

لكن هناك ما يمكن وصـفه بالتدخُّل الإيجابي لمسـاعدة الزوجين على الاسـتقرار، وينتج من خوف الأهل على أبنائهم؛ وفي حال عجز الزوجين عن التفاهم في حلِّ مشـكلاتهم، فيحدث اسـتدعاء لأحد العقلاء ليتم تحجيم المشكلة في نطاق الأهل، ثم معالجتها.

ج) مظاهر الاختلال الزواجي

تتعدَّد مظاهر الاختلال الزواجي العام، بين الزوجين لا سـيما بعد الفترة الأولى من الزواج، وتتجلَّى في عدد من المشـكلات التي تتفاوت في درجة خطورتها وأسـبابها والظروف التي تسـاعد على تفجُّرها أو حدوثها. ومن هذه المظاهر ما يلي:

١) الصمت أو الخرس الزواجي

الصمت الدائم أو الخرس الزواجي إحدى المشكلات التي تمُرُّ على الحياة الزوجية في فترة ما؛ حيث يواجه كثير من الأزواج مشكلة الخرس الزواجي بعد مُضِيِّ فترة على زواجهم؛ وهذا يعني أن هذه المشكلة لا تكون في بدء الزواج مباشرة، وإنما عندما يتحرَّك بهما استمرار المشكلات وبالأخص عدم القدرة على التفاهم والتواصل إلى إيثار الصمت[٢٢٩].

وأشارت الدراسات النفسية إلى أنه بينما قد لا تؤدِّي المشكلات الزواجية إلى الطلاق الرسمي، فإنه قد يَحدث هذا الصمت أو الخرس الزواجي كمرحلة من مراحل هذا الطريق؛ بمعنى استمرار مؤسسة الزواج لأسباب مختلفة؛ مثل: احتياج أحد الزوجين للمال الذي يوفِّره له الآخر، أو بسبب الاستسلام للقدر بحكم العادة، أو اليأس من احتمال النجاح في زواج آخر، أو بسبب وجود الأبناء وغيرها من الأسباب، ولكن

٢٢٩ - مها محمد عطا الله، ٢٠١٥.

مع شعور كلٍّ من الزوجين بالتعاسة فهذا الشعور الحزين بدروه يؤدِّي إلى مزيد من سوء توافق الزوجين الذي قد يؤدِّي إلى الإصابة ببعض الأعراض العصابية مثل القلق والاكتئاب وغيرها من الأعراض[٢٣٠].

٢) الانفصال العاطفي:

يُعَدُّ الانفصال العاطفي قرينًا للصمت الزواجي، فغالبًا لا يكون هذا الصمت بغير تغيُّر أو تراجُع عاطفي، وبالمقابل فإن تدهور العلاقة العاطفية بين الزوجين واحد من أبرز أسباب الدخول في الصمت الزواجي، لكن الانفصال العاطفي نذير بما هو أبعد وأكبر من مجرد الصمت.

ومرحلة الانفصال العاطفي تسبقها مرحلة من الانفصال الفكري؛ حين يجد كل من الزوجين أنه يُفكر بطريقة منفصلة ومختلفة عن الآخر وأن كلًّا منهما له رأيه الخاص المخالف والمنفصل عن رأي شريك حياته فيندفع كلٌّ منهما إلى ممارسة سلوكيات غير مرغوبة وغير مقبولة من الطرف الآخر في نطاق الأسرة؛ وبالتالي فإن مشاعرهما وأحاسيسهما وعواطفهما تتأثَّر بلا شك نتيجة لذلك، ويُصاب ارتباطهما الوجداني بشرخ كبير يصعب ترميمه.

مراحل الانفصال العاطفي والنفسي:

يمُرّ الانفصال العاطفي (الطلاق العاطفي) عادة بخمس مراحل، وقد يستغرق الأمر حتى يصل إلى الطلاق القانوني ثلاث سنوات في المتوسط على ما تقرِّر عديد من الدراسات. ولكن يمكن قطع الطريق على الطلاق الفعلي في واحدة من هذه المراحل لا سيما الأوليات منها. ويكون ثمة دور للمرشد الزواجي في كل مرحلة.

المرحلة الأولى– إلقاء اللوم والشعور بخيبة الأمل

يبدأ الزوجان في هذه المرحلة بإلقاء اللوم أحدهما على الآخر فيما يتعلَّق بمشكلات الماضي والحاضر وحتى المستقبل. ويبدأ الشخص المبادر بالانفصال العاطفي في تكوين صورة سلبية، وتكوين مشاعر غامضة من عدم الرضا، والشعور بالغُربة والقلق والضيق والذنب، وانخفاض مستوى الطاقة والدافعية والرغبة في التغيير. وعلاوة على ذلك يبدأ هذا الشخص بالشعور بالاكتئاب، والعند الشديد، والخوف من المجهول.

وفي هذه المرحلة يجب على المعالج النفسي الزواجي أن يكون قادرًا على وضع إطار حاكم لحياة هذين الزوجين، وأن يُساعدهم على تحييد مشاعر خوفهم من تطور عملية الانفصال العاطفي، ومناقشة قراراتهم المتعلقة بهذا الانفصال، وأن يساعد الطرفين في تحسين مهارات الأبوة والأمومة لتدعيم العلاقات، وتنمية أساليب الدعم الجيدة لمشاعر الزوجية.

٢٣٠- إيناس محمود لطفي، ٢٠١٤.

المرحلة الثانية– الحزن على الخسارة والتعبير عن مشاعر عدم الرضا

في هذه المرحلة يكون الشعور بالحُزن واليأس شديدًا، وتبدو الحياة بدون معنى، ويكون هناك حساسية شديدة لأي تعليقات، مع صعوبة التركيز في المهام، وفقدان دور الأبوة أو الأمومة على وجه الخصوص كسلوك تعويضي عن الفراغ الزواجي أو الخسارة الزواجية.

ويكون دور المرشد الزواجي في هذه المرحلة إعطاء الزوجين مهامَّ قصيرة المدى، وتتم متابعتها، مع إعادة توجيه موقف الزوجين ومشاعرهم، وتعديل الأفكار السلبية، وأن يجد أساسًا مشتركًا يشترك فيه كل من الزوجين؛ لتخطِّي هذه المرحلة.

المرحلة الثالثة– الغضب والاستياء

وفي هذه المرحلة يكون الشعور المتملك هو الغضب، والشعور بالخيانة من الطرف الآخر. ويكمن وراء الشعور بالغضب العديد من المخاوف والشكوك حول المستقبل، وحول الجانب المالي أيضًا، مع احتمال التفكير بالبحث عن شريك آخر يمكنه الاستيعاب والفهم.

ويكون دور المرشد الزواجي في هذه المرحلة أن يُحَيِّدَ مشاعر الغضب لدى الزوجين، ويساعدهم على تحسين قدراتهم في اتخاذ القرارات، وتزويد الزوجين بمهارات حل المشكلات على المدى القصير وطويل المدى، ومحاولة وضع الزوجين في اختبار الواقع.

المرحلة الرابعة– أن يكون عازبًا ويُقرر الطلاق

في هذه المرحلة يشعر الزوجان بالتحرُّر من القيود، وتتخلَّق مسافة من البُعد العاطفي مع شريك الحياة مع احتمال الرغبة في تجربة علاقة جديدة، وتجربة أنشطة جديدة، واتخاذ قرارات خاصَّة، ومحاولة زيادة الثقة بالنفس، وتحسين صورة الذات.

ويحاول المرشد الزواجي في هذه المرحلة تحسين مهارات التواصل المباشر بين الزوجين، وزيادة مهارات التعاون والمشاركة فيما يتعلَّق بجانب الأبوة والأمومة، واستعادة تفاعلات العلاقة بينهما، ومساعدة الزوجين في التخطيط طويل المدى، والمساعدة على تهئية مرحلة عاطفية جديدة جيدة نسبيًّا.

المرحلة الخامسة– بدايات جديدة والعمل على اتخاذ قرار الانفصال التام

وتُمثل هذه المرحلة قرار الانفصال الجسدي والعاطفي، والتوجه والاستقرار الذاتي، ووضع خطط والتزامات طويلة المدى بشأن الانفصال، وقبول نهاية الزواج، والاتفاق بين الطرفين على هذا بشكلٍ نهائي.

ويكون دور المعالج هنا التركيز على مستقبل الأسرة بدلًا من التركيز على ماضيها، ويُشجِّع الأزواج على خوض تجربة وحياة جديدة طالما سيكون هذا هو الأفضل بالنسبة لكلِّ طرف، وكذلك بالنسبة للأبناء، وهذا يتم لمجرد وصولهم إلى هذه المرحلة المتقدِّمة من الانفصال.

٣) الطلاق الصامت:

الطلاق الصامت مرحلة أبعد من الصمت الزواجي والانفصال العاطفي، وتشملهما، وزيادة قطع الصلات قطعًا شبه تام. فهو طلاق لم يُدَوَّنْ بعدُ على الأوراق أو يعلن رسميًّا للمجتمع.

الطلاق هو انفصال بين زوجين تشاركا في كل شيء. الزواج والأطفال ليسا هما الرابطة الوحيدة التي قد تجعل من العلاقة الزوجية علاقة صحية ناجحة قوية، وإن كان يبدو أن العديد من النساء، خاصة في منطقتنا العربية، يستمررن في العلاقة الزوجية لعديد من الأسباب دونًا عن أهم الأسباب؛ وهي: الرغبة في هذه العلاقة ذاتها والرضا بهذه المشاركة في الحياة وفي مشوار العمر مع الرجل الذي تحبه وتختاره. وقد ينطبق الأمر نفسه على قطاع متزايد من الرجال.

قد تُبقي المرأة على علاقتها الزوجية من أجل أطفالها راغبةً في تنشئتهم في أسرة صحيَّة، لكنها تنسى أن التوتر في البيت أشبه ببركان خامد، وأن الحياة ستبدو كما لو كانت حربًا باردة، وربما يشعر الأطفال أن باب الجحيم قد ينفتح في أي لحظة، في بعض الأحيان فإن مواجهة الطلاق يمكن أن يكون أفضل من المضِيّ في زواج لا يستحق الاستمرار.

وكثير من الرجال يعيشون كالأشباح في بيوتهم بعدما انقطعت أحبال الصلة الزوجية الكاملة مع أزواجهم، ويبدون وقد أحيلوا إلى استيداع "معاش" مبكر ولا عمل أسريًّا محددًا لهم، وفي هذه الحال ما يرسل إلى الأبناء أكثر الرسائل السلبية.

وبالنسبة لحالات الطلاق الصامت فقد أوضحت أبحاث ودراسات نفسية واجتماعية عديدة بأنه أخطر بكثير من حالات الطلاق الفعلي؛ لأنه حسب ما انتهت إليه الدراسات بأنه "**إعدام على قيد الحياة**"، علاقة زوجية منتهية الصلاحية لا تعرف سبيلًا للخروج منها أو إنهائها بأي طريقة حفاظًا على البرتوكولات والمظاهر الاجتماعية من ناحية، ومن أجل الأطفال وخوفًا على مستقبلهم من ناحية أخرى.

فتجد الزوجين أمام العائلة والأصدقاء أكثر من حبيبين هيامًا واتصالا ببعضهما، ولكن في خلوتهما يخلعان قناع العائلة ويعودان إلى وجه العزلة والنفور.

ويُعتبر الطلاق الصامت من الأمراض المزمنة التي تلازم الإنسان طوال حياته مما يؤدِّي إلى إرهاقه نفسيًّا وجسديًّا، وقد انتشر هذا النوع من الأمراض كثيرًا في بلادنا العربية.

وقد أثبتت أكثر الدراسات المشار إليها أن الطلاق العاطفي أو الصامت يؤثر بشكل سلبي على **الأبناء** بصورة أقوى من الطلاق الفعلي؛ حيث إنهم يتشرَّبون المشاعر السلبية ويصبحون أكثر عُرضة للأمراض النفسية. وفي نظرات العيون وفلتات اللسان بين الزوجين وفي اختلاف التربية والتذبذُب في الرأي، إلى جانب القلق الذي يسود الأسرة والهموم، ما يؤثر على بناء شخصية الأبناء. وسيُعاني هؤلاء الأبناء من الاكتئاب بدايةً، ثم مشكلات المراهقة التي قد ينحرف فيها الأبناء في علاقاتهم الخاصة للبحث عن الهناء الذي فقدوه بين أبويهم والاستقرار العاطفي الذي سُلِبَ منهم.

أعراض الطلاق الصامت:

الطلاق الصامت هو مرض خبيث يغزو مفاصل الحياة الزوجية، وربما لا يكتشف الزوجان المرض لكنهما بالتأكيد يلاحظان أعراضه، ولذا ينبغي أن يكون الزوجان على حذر ووعي به في زواجهما:

أ. يمكن أن يبدو الزوجان أمام المجتمع في صورة جيدة بل ربما ظهرا في صورة جيدة، لا يتجادلان، ويظهران مشاعرهما كل منهما للآخر بصورة قوية وواضحة، لكنهما يتجنَّبان إظهار واقع حالهما.

ب. يقضي كلٌ منهما المزيد من الوقت مع الأصدقاء (ولو هاتفيًّا) بعيدًا عن بعضهما البعض، ويبدو الأمر وكأن كلًا منهما يمنح الآخر مساحة من الحرية، لكنهما في الحقيقة يتجنَّبان بعضهما البعض ويتجنَّبان المواجهة.

ج. غياب الشفافية؛ إذ يسعى كلٌ منهما إلى إخفاء الكثير والكثير عن الآخر؛ وهو أمر غير طبيعي في الزواج، فهذا يعني أنهما لم يعودا شريكين ولا صديقين.

د. قد لا يؤدِّي الطلاق الصامت بالضرورة إلى الطلاق القانوني. وقد لا يشعر الأطفال بما يجري حولهما لأن الأبوين يبدوان ظاهريًّا سعيدين، لكنهما يعيشان في الواقع حياة منفصلة، وهذا لا يعطي نموذجًا جيدًا للزواج الصحي والمثالي للأطفال في حياتهم المستقبلية.

ومن الأسباب الأساسية للطلاق الصامت:

أ. **فقدان الاحترام**: ليس من السهل التعامل مع شخص لا تكنُّ له أي احترام، فما بالك لو كان هذا هو الزوج؟ إن فقدان احترام المرأة لزوجها لا يجعلها تتعامل معه بتهذب ولا بتبعُّل بل قد تهمله وتزدريه، وربما يبدأ الزوجان في لوم بعضهما البعض والحط من شأن بعضهما البعض بدلًا من تقديم الدعم والمساندة، وهو ما يقوِّض دعائم الزواج ويهدمه ويحوِّله إلى أنقاض.

ب. **عدم التقدير**: عندما تكفُّ المرأة عن رؤية كل الأشياء الجيدة في زوجها أو بالعكس، فإن هذا قد يقود الزواج لحافة نهاية الحياة الزوجية.

ت. **تراجع المودة:** يمكن أن تكون نتاجًا لتراكم تصرفات بسيطة يومًا بعد يوم، فتتراجع المودة والحب. وفي صمت يبدأ شكل العلاقة في التغيُّر لتكتشف المرأة فجأة أنه ليس الزوج الذي أحبته واختارت العيش معه، وكذلك الزوج.

د) المشكلات الزوجية: مصادر وأسباب ومخارج

إن العلاقة الزوجية من شأنها أن تُقدِّم فوائد رائعة تُساعد على الشعور بطيب الحياة والرضا عنها وإدارة الضغوط، ولكن لا يوجد شيء يخلو من المشكلات والتحديات فهي جزء من طبيعة الحياة في كل مجال. فلا توجد حياة زوجية تخلو من المشكلات ولكن هذه المشكلات يُمكن أن تعمل على تقوية الروابط بين الزوجين أو إضعافها؛ وذلك يكون اعتمادًا على كيفية التعامل مع التحديات التي يتم مواجهتها.

يُمكن أن يكون حل المشكلات الزوجية أمرًا صعبًا للغاية وخاصَّة إذا كانت الضغوط تأتي من مصادر مختلفة ومتعددة، وفيما يلي يمكن توضيح مصادر المشكلات الأكثر شيوعًا لحدوث الضغوط والمشكلات الزوجية:

١) **مصادر مالية**، خاصة بجمع الأموال وتوفيرها، وكيفية صرفها في الأمور المهمة، وعدم كفايتها.
٢) **مصادر تتعلق بالأطفال**، وذلك فيما يتعلق بالتربية وأساليب التنشئة، ومستلزماتهم المتواصلة.
٣) **مصادر ضغوطات الحياة اليومية**.
٤) **مصادر العادات السيئة**، والتي تكون مكتسبة مثل الاستيقاظ متُأخرًا، أو التدخين، أو إكتساب عادات غذائية سيئة مثل تناول الأطعمة خارج المنزل ومن ثم يترتب عليها زيادة الوزن، وغيرها من العادات الأخرى السلبية[٢٣١].

٥) ومن الأسباب التي قد ترجع إليها المشكلات الزواجية **العلاقة الحميمية المضطربة**، حيث تُعد العلاقة الحميمية بين الزوجين من أهم العلاقات التي تجمع بينهما وتؤثر تأثيرًا بالغًا وأساسيًا في حياتهما الزوجية فإما أن تؤدي بهما إلى التوافق الزواجي أو تكون سببًا في المزيد من المشكلات الزواجية.

وعلى الرغم من أهمية هذه العلاقة إلا أن مناقشتها بين الزوجين تعتبر مُحرمة لدى الكثير منهم في مجتمعنا الشرقي؛ لذلك تظهر المشكلات الزواجية بسبب الخلافات المالية، وصراع الأدوار بين الزوجين، والسلطة الزوجية، والخلاف حول تربية الأطفال، كتعبير غير مُباشر عن اضطراب العلاقة الحميمية بين الزوجين[٢٣٢].

) 231(Scott, 2018.

٢٣٢ ريناد عبد المنعم موسى، ٢٠٠٧.

وقد ترجع المشكلات الزوجية إلى أحد الزوجين؛ فثمة **مشكلات تتعلق بالزوج**: ومن هذه المشكلات إهانة وعدم احترام الزوجة، والتسلط، والخيانة لزوجته، وإهمال اهتمامات الزوجة وميولها ورغباتها واحتياجاتها. وثمة **مشكلات تتعلق بالزوجة مثل**: عدم طاعة الزوج، والشكوى المستمرة لأتفه الأسباب وإثارة المشكلات، عدم احترام الزوج، والرغبة في السيطرة على الزوج، الشعور باللامبالاة، والعناد[٢٣٣].

بعض أهم آثار المشكلات الزوجية

١) تأثير المشكلات الزوجية على الصحة النفسية للزوجين:

إن الصراع الزواجي أو الخلاف بين الزوجين يؤثر على الصحة النفسية والإصابة بالاكتئاب لديهما، فقد توصَّلت الدراسات إلى أن الصراع الزواجي يؤدِّي مباشرةً إلى وجود مستويات مرتفعة من الاكتئاب والضعف الوظيفي في أداء المهام والأدوار المتوقَّعة من كل طرف[٢٣٤].

فالصراع أو الخلاف الزواجي من شأنه أن يفقد الحياة معناها وقيمتها بالنسبة للزوجين، ويزيد شعور كل منهما بالتشاؤم، ومن ثَمَّ زيادة الشعور بالضغوط النفسية؛ الأمر الذي قد يترتب عليه كثير من الأمراض الجسدية والنفسية المزمنة، وعدم اللجوء لطلب المساعدة العلاجية والدعم من الآخرين للتخلص من هذه الاضطرابات؛ وذلك نتيجة للشعور بانخفاض الدافعية لتلقى الرعاية الوقائية.

إن الزواج عملية اجتماعية تتطلَّب توافر بعض القدرات العقلية والنفسية والاجتماعية السوية حتى تكون ناجحة. ولذا نجد معدلات أعلى من الصراع الزواجي والطلاق عند إصابة الزوجين أو أحدهما قبل الزواج بالاضطرابات العقلية أو النفسية، فذلك من شأنه أن يُدمِّر شروط وأُسس عملية الزواج، ما لم يكن هناك وعي بأهمية معالجة هذه الأمراض والاضطرابات ومتابعة المعالج المختص.

٢) تأثير المشكلات الزواجية على الأبناء:

العامل الحاسم في تنشئة الأطفال وفي اتجاهاتهم نحو النمو السليم هو وجود علاقة والدية تتَّسم بالنُّضج والاستقرار النفسي والزواجي، فالعلاقة الزواجية المستقرَّة هي شرط أساسي لقيام الوالدين بمهمَّة الوفاء بالاحتياجات الارتقائية لأبنائهم. فلا يُولد الطفل بشخصيته التي هو عليها، ولكنه يكتسبها من خلال علاقته بوالديه وامتثاله لهما، فهو يرى نفسه في عيونهما ويكتسب إحساسًا نحو نفسه بناءً على هذه الصورة.

---

٢٣٣ ريناد عبد المنعم موسى، ٢٠٠٧.
٢٣٤ المصدر السابق.

وفي ظلِّ علاقات زواجية يسودها عدم التوافق والخلافات المستمرَّة يفشل الوالدان في القيام بهذه المهمة الحيوية، ويتأثر الأبناء بعدم الاستقرار بين الوالدين دون أن يتمكَّنوا من معرفة السبب في ذلك؛ الأمر الذي يترتَّب عليه انخفاض تقدير الذات، والثقة فيها لدى الأبناء ممَّا يخلق شخصية مُذبذبة ضعيفة[٢٣٥].

وقد تبين أن الأطفال في هذه الأُسر المضطربة زواجيًّا يعانون من ظروف اجتماعية ونفسية وتربوية صعبة، تُعرضهم للإحباط والحرمان والصراع، وتعوق نموَّهم الجسمي والنفسي وتُعرقل نضجهم الاجتماعي والانفعالي، وتجعلهم مُهيَّئين للأمراض النفسجسمية والانحرافات السلوكية والاضطرابات النفسية[٢٣٦].

حيث ينتج عن الخلافات والصراعات الدائمة بين الوالدين قلَّة المشاعر التي لا يبقى منها إلَّا قدرٌ ضئيلٌ يُوَجَّهُ للطفل، فضلًا عن إسقاط الانفعالات المختلفة التي تثور في نفس الأبوين على الطفل، فقد يعبِّر كثير من الوالدين عن المشكلات والخلافات التي تتم بينهم من خلال تجاهلهما لأبنائهما أو إظهار القسوة في التعامل معهم. ونتيجة لذلك يفقد الأبناء انتماءهم للأسرة، فيلجأون إلى أقرانهم حتى يجدوا ما يشبع رغباتهم في الانتماء، وقد يكون هؤلاء الأقران ذوي خُلق سيئ ممَّا يؤدِّي إلى الانحراف الذي يكون مرجعه الأساسي سوء التوافق الأُسري وضعف العلاقات والروابط الأُسرية الناتجة عن الخلافات والصراعات الأُسرية[٢٣٧].

٢٣٥ أحمد كامل الحوراني، ٢٠١٨.
٢٣٦ صفاء إسماعيل مُرسي، ٢٠٠٨.
٢٣٧ حاتم يونس محمود، ٢٠١٠.

الفصل الثاني

استراتيجيات حل المشكلات الزواجية

قواعد عامة لحل الخلاف الأسري والمشكلات الزواجية

أ) درجات الخلاف وطرق التعامل مع كل منها

درجات الخلاف الأسري يمكن تقسيمها إلى ثلاث درجات، لكلٍّ منها وسيلته وآليته التي يتغلب بواسطتها على هذا الخلاف(٢٣٨):

الدرجة الأولى من الخلاف الأسري

وهذه لا تخلو منها حياة زوجية، فالضعف البشري لا بد أن يُثمر بعض الأخطاء الصغيرة المتكرِّرة أو الكبيرة العارضة، ثم إن الطبائع البشرية قد خلقها الله تعالى متفاوتة، ولا بد أن يختلف الزوجان اختلافًا ما في التفكير أو في المزاج أو في الذوق، وهذا مما يولِّد خلافًا ونزاعًا.

إن هذا النوع من الخلافات الصغيرة المتكرِّرة بين حين وآخر هو للأسرة كالملح للطعام، ولكن الملح قد يزيد أحيانًا، وعندها لا بد من الحكمة والكياسة في معالجة هذه الزيادة، **ويتفاوت العلاج ما بين التسامح وغض الطرف وبين الموعظة وبين المغاضبة والهجر اللطيف.**

الدرجة الثانية من الخلاف الأسري

أن يكون الخلاف حول أمر جوهري يصعب التسامح فيه، وفي هذه الحالة يمكن اللجوء إلى طرق العلاج الاتية:

١- الاستشفاع بقريب أو صديق

فعن جابر بن عبد الله، قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتني النفقة، فقمت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: **هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة**، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، **فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا أبدًا ليس عنده.**

(٢٣٨) تحرير المرأة في عصر الرسالة .....

على أننا نحسب أن ما بين الزوجين ينبغي أن يظلَّ سرًّا مصونًا، وأن يُعالِجا خلافاتهما فيما بينهما دون تدخُّل من أحد مهما كان قريبًا من الطرفين، إلا أن يعجزا حقيقة وليس توهُّمًا للعجز.

٢- التنازل عن بعض الحقوق

في قوله تعالى: **(فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا)** إشارة إلى إمكانية عقد صلح أو اتفاق بين الزوجين، يحافظ على عقد الزوجية ويحقِّق مصلحةً ما للطرفين، ولكن بشروط خاصة فيها تنازل عن بعض الحقوق من قبل هذا الطرف أو ذاك، فكما يمكن أن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها يمكن أن يتنازل الرجل عن بعض حقوقه.

٣- الهجر الطويل

ومن أمثلة ذلك ما حدث بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه من خلاف حول موضوع النفقة، ولجوء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى هجر زوجاته شهرًا كاملًا، وذلك بعد أن لجأ إلى الاستشفاع بأبي بكر وعمر دون جدوى(٢٣٩).

فمن يقرأ واقعة الهجر تلك في كتب السُّنة يأخذ منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صبر كثيرًا على موقف أزواجه، وإصرارهن على سؤاله مزيدًا من النفقة، وأنه أخذ يعالج الأمر بالرفق والملاينة. ومنها أنه رغم إنكاره عليهن موقفهن من مسألة خطيرة تتصل بمستوى السلوك الرفيع، الذي ينبغي أن يتصف به صاحب الرسالة، رغم هذا الإنكار فإنه ظل راغبا في صحبتهن إذ كان يعرف لهن فضلهن في جوانب كثيرة.

٤- التحكيم

عند اشتداد الخلاف وعجز كل الطرق السابقة في العلاج، عندها يلجأ الزوجان أو يلجأ بعض الأولياء إلى طلب التحكيم؛ وهو ما ورد في قوله تعالى: **(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما)**.

الدرجة الثالثة من الخلاف الأسري

وهي أشد الدرجات، ومن أمثلتها:

١- وقوع كراهية بالغة من أحد الطرفين، وبغض شديد ونفور لا تطاق معه العشرة.

٢- اكتشاف أحد الطرفين وجود ضعف خَلقي عميق الجذور لدى الطرف الآخر، ضعف يسم عامة تصرفاته دون اعتراف بأنه منقصة.

(٢٣٩) صحيح البخاري، رقم: ٤٨٩٥ ، (٥/ ١٩٩١)

٣- خيانة أحد الزوجين لصاحبه –أو بالأصح خيانته لله تعالى- بارتكاب جريمة الزنا.

وعند بلوغ الخلاف بين الزوجين هذه الدرجة، فإنه لا مناص من المفارقة ووقوع الطلاق أو الخلع[٢٤٠].

ب) قواعد عامة للتغلب على المشكلات والخلافات الزوجية

(١) أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين زوجك

إذا رأى أحد الزوجين في بيته مشكلة جديدة فليفزع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة، فلعله ترك عملًا صالحًا كان يعمله، أو لعله اقترف ذنبًا.

(٢) ليست المشكلات الزوجية شرا كلها، بل ربما كان فيها خير

قال الله تعالى مخاطبا الأزواج، وآمرا لهم بحسن معاشرة الزوجات، حتى ولو بلغ الحال إلى بُغضهن، فقال تعالى: "وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا". فقد يتضجر بعض الأزواج أو الزوجات من مشكلة ما في البيت، ولكن الله تعالى يهيئ لهما من هذه المشكلة خيرا كبيرا، ومن ثم فلا يصحُّ أن يُكثر أحد الزوجين أو كلاهما التذمُّر من مشكلة تطرأ في البيت.

(٣) في حال حدوث مشكلة لا يصح اللجوء إلى سبعة أمور

الهجر وترك البيت – إدخال الأبناء في الخلاف – طلب الطلاق أو التهديد به – الدعاء بالهلاك – التهديد بالزوجة الثانية – الضرب والسب واللعن – السحر والشعوذة.

(٤) يجب مواجهة المشكلات بجلسة نقاش

إذا كان هناك مشكلة بين الزوجين فلا بد أن تواجه بجلسة نقاش بينهما، ولكن بشروط:

- أن يكون هذا النقاش على انفراد، دون تدخل الأولاد والجوار والأهل.
- حسن الاستماع، فلا بد أن يتكلم الزوجان ويستمع أحدهما للآخر.
- أن يكون الحوار بعيدًا عن الغضب.
- لا تذكر الخلافات الماضية.

(٢٤٠) تحرير المرأة في عصر الرسالة .....

(٥) الوقت كفيل بحل بعض المشكلات

ليس من الضروري أن تحل المشكلة الآن، بل نضع حلولا مقترحة عاجلة أو آجلة، إذ غالبًا ما يتغيَّر رأي أحد الزوجين، أو تتغيَّر فكرتهما عن المشكلة إذا تعاملا معها بهدوء ورويَّة. لندع الوقت يأخذ دوره، ونبيِّن وجهة نظرنا، ونسمع وجهة نظر الآخر. فلا ينبغي ولا يصح أن يضع الزوجان الخيارات الصعبة الفاصلة مبكرًا، ويُلزم أحدهما بها الآخر، لكن يجب عليهما أن يبحثا عن خيارات وحلول وسيطة، وهذا بناء على ما سبق تفصيله من أن الأصل في الزواج السكن والمودة والرحمة. والزواج من الزوجية التي تعني المشاركة.

(٦) التعايش مع المشكلة أحد أنواع الحل

في بعض الأحيان تكون المشكلة مستحيلة الحل، فهنا لا ينبغي أن يلجأ الطرفان إلى الطلاق أو الخلع؛ ولكن يوطِّن المرء نفسه للتعايش مع المشكلة، والصبر على مقدور الله تعالى، وليعلم الفاعل أنه مأجور عند الله تعالى.

(٧) استشر ثقة بعيدًا

استشر من تثق بدينه وعلمه وأخلاقه وبخوفه من الله وبخبرته الحياتية. ومن المهم أن يكون بعيدا عن أسرتك، فلا يُنصح الزوج أن يستشير والده أو والدته في حل مشكلة بينه وبين زوجته، لأن العاطفة ستتدخل، وكذلك الزوجة.

(٨) الخلاف على درجات، ولكل درجة منه طريق للحل والتغلُّب عليه

النزاعات الأسرية متنوِّعة ومتفاوتة في الدرجة والتأثير، ولا ينبغي أن يعالج كل منها بنفس الوسيلة، وإنما علَّمنا الله جل وعلا في قوله تعالى ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن**﴾ أن نتدرَّج في حلِّ المشكلة وعلاجها حسب حجمها وجسامتها، وأن نختار ما يلائم طبيعتها وحالها في حدود الشرع الحنيف.

مشكلة الغضب والعصبية

ربما تجدر بنا الإشارة إلى كيفية التعامل مع الغضب والعصبية في هذا السياق، فالمودة والرحمة والحب أساس البيت الناجح الذي يبني المجتمع الصحيح، والرابطة الزوجية تبدأ من نزول الزوج والزوجة إلى بحر الحياة، فإمَّا أن يقسِّما الأدوار، ويبدأ كلٌّ منهما في القيام بمهامه، موحِّدين الهدف نحو النجاة والأمان، وإمَّا أن يدع كلٌّ منهما وظيفته ويتفرَّغ للآخر؛ لينقِّب عن عيبه وعصبيَّته، وبذلك تسير السفينة بلا ربان فتتلاطم الأمواج فلا تدري في أي مكان ترسو.

- **بداية نوبات الغضب**

١. يجب أن يعرف كل طرف الحالة النفسية جيّدًا ويُراعيها.

٢. يجب معرفة دلالات تعبير الوجه وفهمها جيّدًا، فإذا شعر أي طرف أن ملامح الآخر فيها غضب أو شدة فليعرف أنه على وشك الانفجار في لحظة غضب أثناء الحوار معه، فليكن لبقًا معه ومحترمًا له ولا يستفزه بالإصرار على رأي ما أو معارضته بحدَّة، أو الاستهزاء به أو بكلامه.

٣. الإنسان العصبي في حاجة إلى التقدير والاحترام، فإذا أُعطي التقدير اللازم لن يثور على من يحاوره، وينبغي أن يدرك كل طرف أن شريكه هو حالة دائمة في المنزل فهو ليس ضيفًا سوف ينصرف، فهل نضع الحياة الزوجية في كفة مهدَّدة بالخطر أم نحاول أن نحتويها.

٤. يجب التعامل مع الشخص العصبي بحذرٍ شديدٍ، فعندما يبدأ في مرحلة الغضب فليكن الطرف الآخر هادئًا ومتماسكًا ومنتبهًا لتصرفاته جيّدًا، وفي الوقت ذاته لا يقف أمامه بخنوع وعجز وليستمع له جيدًا، ويشعره بالاهتمام بعبارات مناسبة مثل: (لماذا أنت غاضب/غاضبة؟)، أو (هذا لا يستحق الغضب)، ولا يطلب منه الهدوء بقوله: (اهدأ) أو (هذا خطر على أعصابك)، فبالتأكيد يعلم الشخص الغاضب العصبي كل ذلك، ولكن هذه الكلمات تشيطه غضبًا، ولكن يمكن أن تستبدل بعبارات مثل: (أنت على حق) أو (لنفكِّر سويًّا في حلٍّ كي لا يتكرَّر الأمر ثانية)، (أعدك بأني سأعمل على تحقيق المطلوب)، وليكن الحرص ليس للنقاش إنما للتهدئة فقط.

قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه لأم الدَّرداء: "إذا غضبتُ فرضِّيني، وإذا غضبتِ رضَّيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق"(٢٤١).

(٢٤١) رواه ابن حبان، روضة العقلاء، ص٧٢.

القسم الثالث

مرحلة الاستدامة أو التسريح بإحسان

هنا وقفة مفاهيمية وتأسيسية أولًا عن قضية التفكُّك الأسري التي تشغل حياتنا الراهنة، قبل أن ننتقل إلى تحليل قضية الطلاق، ونحاول الوقوف على أهم العوامل المؤدية إليه، والآثار المترتبة عليه، وكيفية وقاية الأسرة منها.

الباب الأول

تحليل إشكالية الطلاق

الفصل الأول

مفاهيم الطلاق ومراحله

يتناول هذا الفصل تمهيدًا مفاهيميًّا وواقعيًّا للأزمة الأسرية المنذرة بالطلاق ولمفهوم الطلاق نفسه وما يحيط به من ظواهر مشابهة بداية من المفهوم الأوسع للتفكُّك الأسري وأشكاله والهجر والطلاق، قبل أن نطلَّ على الواقع المزري والمخيف له في مجتمعنا.

مفاهيم الطلاق

تتعدَّد المفاهيم المعبرة عن ظاهرة الطلاق، بداية من تعرُّض الأسرة للتفكُّك ومرورًا بالانفصال العاطفي وما يسمَّى بالطلاق الصامت، ويقوم الهجر الطويل مقام الطلاق، لكن يظلُّ قرار الطلاق هو قرار إسدال الستار على قصة الأسرة التي تعبنا في التأسيس لها وبنائها.

١) التفكك الأسري

التفكُّك الأسري أحد المسارات المركَّبة والأساسية لإعلان فشل الزواج في تحقيق أهدافه التي هي عبارة عن بناء أسرة أو وحدة اجتماعية تتيح لأفرادها فرصًا سويَّة للنمو المتكامل؛ بما يمكِّن الفرد من التوافق النفسي والاجتماعي، ومن العطاء والقيام بأدواره الاجتماعية على أكمل وجه، ولذا قلنا إن الأسرة هي نواة بناء المجتمع والأمة والإنسانية. ومن ثم فالتفكُّك الأسري قضية أمن إنساني بكلِّ معاني الكلمة.

التفكك الأسرى يُعرف بأنه انهيار الوحدة الأسرية وتحلل أو تمزق نسيج الأدوار الاجتماعية، وإخفاق أفراد الأسرة في القيام بأدوارهم ووظائفهم بشكل جيد، واستبدال التصارع والنزاع بدلا من التعاون فيما بينهم.

وتأخذ الأسرة المفكَّكة[٢٤٢] أو المتصدعة أشكالًا وأنماطًا مختلفة منها: هجر الزوج زوجته وأولاده، وتركهم مفتقدين لرعايته وحمايته، أو تكون بوفاة أحد الزوجين وعدم قدرة الآخر من بعده على لم شمل الأسرة، أو ترك الزوجة بيت الزوجية (غضبًا)؛ سواء أخذت أبناءها معها أو تركتهم مع أبيهم، ويضاف إلى هذه الصور أحيانًا الأسرة التي يهاجر فيها الزوج من أجل توفير المال اللازم لأسرته وتحمُّل المرأة أعباء الأسرة كاملة بمفردها، فهي معرَّضة لنوعٍ من هذا التفكُّك.

---

٢٤٢ انظر حول التفكك الأسري وأبعاده وآثاره:
- مجموعة من المؤلفين: التفكك الأسري الأسباب ..والحلول المقترحة، كتاب الأمة، عدد (٨٣) قطر، أغسطس ٢٠٠١.
- مجموعة من المؤلفين: التفكك الأسري..دعوة للمراجعة، كتاب الأمة، عدد (٨٥) ديسمبر ٢٠٠١.

وثمة نوعان من التفكك أو التصدع الأسري: التصدع المادي للأسرة هو الذي يغيب فيه أحد الوالدين أو كلاهما لأي سبب من الأسباب، والتصدُّع المعنوي الذي يعني حالة اضطراب تسود العلاقة بين أفراد الأسرة، أو خلافات بين الوالدين تؤثر على الأبناء بلا شك.

تؤثر حالة التفكُّك سواء المادي أو المعنوي على مسار النمو الطبيعي لشخصية الطفل، فالبيت المفكَّك هو البيت الذي يعاني أفراده من انعدام التكيُّف. وقد أثبتت عدَّة دراسات أن المراهقين الذين كانوا يعيشون في بيوت مفكَّكة أكثرهم يعاني من المشكلات العاطفية والسلوكية والصحية والاجتماعية بدرجة تفوق أقرانهم الذين كانوا يعيشون في بيوت متَّزنة ومتعاونة. فتزداد نسب التسرُّب من التعليم بين أبناء البيوت المفكَّكة، كذلك اتَّضح أن الأطفال الذين انفصل أبواهم يصبحون أكثر ميلًا لممارسة العنف أو الانطواء، ولا يشعرون بالقبول في دوائرهم الاجتماعية المختلفة.

ومن أسباب التفكك الأسري بصورة عامة:

١. الاختيار الخاطئ لشـــريك الحياة من البداية. ومنها: غلبة المظاهر على الحقائق عند الاختيار، وغلبة العاطفة على العقل عند الاختيار.

٢. تعمُّد تجريد شريك المستقبل عن بيئته (التاريخ الأسري والبيئي والاجتماعي).

٣. تهافت نظرية "التغيير بعد الزواج".

٤. الفقر الاجتماعي، وقلة الخبرة الاجتماعية، والعزلة.

٥. تراجع المناخ الاجتماعي الخاص بقيم الأسرة ووحدتها وتماسكها.

٢) الهجر

يُقصد بالهجر ترك الحياة الزوجية والتفكير في إنهائها أو التهرُّب من مسؤولياتها من خلال البُعد أو الرحيل عنها، وقد يحدث الهجر كبديل للطلاق حين يرفضه أحد الزوجين أو حين يجد الزوج نفسه مُثْقَلًا بالنفقات المتمثِّلة في مؤخَّر الصداق أو مصاريف الأبناء (النفقة) في حالة الطلاق أو حين تجد الزوجة نفسها مُعَرَّضة للضياع بعد الطلاق بسبب نظرة المجتمع لها باعتبارها مُطلقة[٢٤٣].

ومن الملاحظ أن ظاهرة الهجر تختلف باختلاف الطبقات، وبشكل عام تُشير الإحصائيات الحديثة إلى أن هناك زيادة في حالات الهجر في السنوات الأولى من الزوج خاصةً في حالة عدم وجود الأولاد الذين يدعمون حياة الأُسرة بين الأب والأم.

٢٤٣- عبد اللطيف عبد القوي، ٢٠١٠.

وللهجر آثار سلبية في الأسرة بشكل عام –وعلى الزوجة أو الأم بشكل خاص– حيث يترتَّب على ذلك العديد من المشكلات العاطفية والأخلاقية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية[٢٤٤]. فيعتبر هجر الزوج لزوجته من المشكلات العميقة التي تتعرَّض لها الزوجة، حيث تشعُر بالحرمان من الرعاية وعدم وجود سند لها في الحياة من شأنه أن يدفعها للعزلة والاكتئاب والوحدة والشعور باليأس والقلق والقهر بالإضافة إلى شعورها بالضغوط الشديدة لكونها تتحمَّل المسؤولية كاملًا بمفردها في تربية أبنائها بعد أن كانت تتقاسم المسؤوليات مع شريك حياتها حتى وإن كانت المشاركة من خلاله بقدر ضئيل.

وتتعدَّد أسباب هجر الزوج لزوجته، فيمكن توضيحها كالآتي على سبيل المثال:

١) عدم مقدرة الزوج على أن يُنفق في المنزل، أو يلبي احتياجات أُسرته الأساسية.
٢) أن تكون متطلَّبات الأُسرة مُبالغًا فيها بما يفوق قدرات الأب؛ ممَّا يجعله حائرًا من أمره فلا يجد أمامه سوى الانسحاب والهروب والهجر تاركًا زوجته وأبناءه يواجهون مشقَّة الحياة بمفردهم.
٣) انشغال الزوجة الدائم وإعطاء كل وقتها لعملها وأبنائها دون تقديم أي اهتمام للزوج، وعدم تلبية احتياجاته الأساسية والجنسية منها، وإنه إذا تم الأمر فيكون كعمل روتيني أو لإشباع شهوة غريزية دون أي مشاعر.
٤) كثرة الخلافات الزوجية بين الطرفين، وعدم القدرة على حلِّها، ومن ثم يأخذ الطريق الأسهل باعتباره حلًّا جذريًّا وهو الهجر.

ولكن كيف يمكن التعامل مع الهجر؟

من المعروف أنه لكي يتم التعامل مع أي مشكلة فلا بد من معرفة سببها أولًا، أي لماذا حدثت، ما السوابق التي بدأتْ قبلها وأدَّتْ إليها ومن هنا يأتي نصف الحل، فلا بد على الزوجة أن تعرف سبب عزوف وهجر الزوج للمنزل، فربما يكون السبب تقصيرًا منها أو إفراطًا في لومها وعتابها الشديد له أو طلباتها القاسية المبالغة عليه، وغير ذلك من عوامل كفيلة أن تؤدِّي به إلى الرحيل والهجرة للبحث عن السعادة في مكان آخر ومع أشخاص آخرين. وبالمثل يفعل الرجل في حال كانت زوجته هي من تركت البيت أو هجرت فراشه أو بدأت تسير في مسار الانفصال عنه، عليه أن يسأل وأن يجتهد في الإجابة الواقعية العملية الحقيقية عن السبب.

٣) الطلاق العاطفي

مع تكرار المشكلات التي تواجه الأسرة يصل الحال بالزوجين إلى ما يسمِّيه البعض الطلاق العاطفي؛ أي إن العلاقة الزوجية رسميًّا تستمر فيتعايشان في الوقت الذي تنعدم أو تضعف فيه العلاقة العاطفية بين

٢٤٤ - أحمد محمد مبارك، ١٩٩٢.

الطرفين؛ فيصيران وكأنهما ليسا زوجين أو كأنهما شخصان عاديان لا تربطهما علاقة حب ومودة ورحمة وسكن.

ويعرف البعض الطلاق العاطفي بأنه "حالة من الانعزال وفقدان التواصل بين الزوجين، وهو يظهر غالبًا عند انعدام الحب والاهتمام المتبادل، والذي يدخِل العلاقة الزوجية في عالم النفور والموت السريري، فيعم الصمت بينهما. ويبدأ ميثاق الحياة الزوجية يضعف ويتعرَّض للارتخاءات شيئًا فشيئًا، حتى تتلف المشاعر والأحاسيس، وتنعدم لغة التواصل والحوار في العلاقة الزوجية. ويعد الطلاق العاطفي أسوأ أنواع الطلاق وأكثرها إيلامًا، نظرًا لتداعياته السلبية على الأسرة والأبناء[٢٤٥]، وغالبًا ما يكون مؤدِّيًا إلى الطلاق الفعلي.

وجمعًا بين إشكاليتي الهجر (بترك البيت) والانفصال (بترك العيش المشترك أو الواحد)، تشير التقديرات منذ عقد من الزمان إلى أن المحاكم المصرية بها زهاء ١٥ ألف قضية تطالب فيها الزوجات بالتطليق نظرًا لهجر الأزواج لهن وعدم رعايتهم للأسرة. ولا تشمل هذه التقديرات آلاف الحالات الأخرى التي فضَّلت فيها الزوجات البعد عن المحاكم والاستمرار في حالة (الانفصال مع الإهمال) من طرف الزوج[٢٤٦].

ويسهم في الوصول لمرحلة الانفصال غير الرسمي: **النظرة السلبية للمجتمع عن الطلاق؛ حيث** ينظر المجتمع إلى الطلاق نظرة سلبية فيها شك وريبة تدفع المرأة للشعور بالذنب والفشل والإحباط. ويؤدِّي هذا الواقع إلى تفضيل كثير من المتزوجين وخاصة الزوجات الاستمرار في العلاقة الزوجية ولو كانت فاشلة أو لو كانت تعيش حياة أشبه بالمطلقات؛ حتى لا تسبِّب الضيق لأهلها الذين رأوا زوجها سترًا لها.

وتزداد احتمالات استمرار العلاقة الزوجية (شبه المنفصلة) إذا كانت أسرة الزوجة فقيرة حتى لا تزيد الأعباء المالية على أهلها خاصة إذا كانت ذات أطفال بشكل قد يدفع الأهل أنفسهم لرفض استقبالهم[٢٤٧].

العوامل المادية المؤدية للانفصال:

من المهم ضمن هذا المحور الإجابة عن سؤال: كيف يسهم العامل المادي في الوصول لمرحلة الطلاق العاطفي؟ يمكن في هذا الصدد الإشارة لمجموعة من العوامل أبرزها:

١. ضغوط الحياة المهنية:

٢٤٥- عائشة الجناحي، الطلاق العاطفي، متاح على: https://www.albayan.ae/opinions/by-the-way/2019-05-21-1.3565598، ٢٠١٩/٥/٢١.

٢٤٦- الغد، الزوجة المعلقة: مطلقات مع إيقاف التنفيذ، متاح على: https:///alghad.com/الزوجة-المعلقة-مطلقات-مع-إيقاف-التنفي/، ٢٠١١/٧/٢٥.

٢٤٧- عادل عامر، مصدر سابق، ص ص ١٢-١٥.

يسهم عدم التوازن بين متطلبات الحياة المهنية واحتياجات الرعاية الأسرية في الوصول لمرحلة الطلاق العاطفي خاصة لدى الأشخاص الذين تستنزف أعمالهم المهنية منهم الكثير من الوقت والجهد على حساب أسرتهم على نحو يجعلهم يعانون من الإرهاق والضغوط النفسية والمشاعر السلبية؛ بما قد يخلق صراعات مع البيئة المحيطة بهم من الزملاء إلى الأسرة والزوجة والأبناء؛ الأمر الذي ينبغي معالجته من خلال التوازن بين المهام المختلفة وتوزيع الوقت والاهتمام بين العمل والأسرة والنفس والأهل[٢٤٨]؛ بحيث يوفِّي الزوج حقَّ زوجته من الرعاية والاهتمام منعًا لتفاقم المشكلات والوصول لمرحلة الانفصال غير الرسمي بين الطرفين.

٢. تداعيات عمل المرأة وتغذية الانفصال:

رغم ضرورات خروج المرأة إلى ميدان العمل كموظفة مقابل أجر(معظم الأعمال من ٩ صباحًا إلى ٥ مساءً)؛ فلهذه الظاهرة تداعياتها السلبية المغذية لما يعرف بظاهرة الطلاق العاطفي أو الانفصال بين الزوجين رغم استمرار عقد الزواج الرسمي؛ ففي كثير من الأسر ذات الزوجين العاملين؛ بات طبيعيًّا وجود الزوج في غالب النهار بمقرِّ عمله وكذلك الزوجة ليدفعا بالأولاد إلى الحضانات والمدارس أو إلى خادمة تتولى رعايتهم؛ ربما طوال اليوم لحين عودة الزوجين؛ ليعودا لمنزلهما ربما في مواعيد مختلفة ربما تؤدِّي إلى أن يتناول أي منهما طعامه منفردًا وقد يكون ذلك خارج المنزل ليفقدا جزءًا من الحياة المشتركة و الاهتمام المشترك في المنزل.

وتزداد المشكلة بالنظر إلى حاجتهما للخلود إلى الراحة والهدوء بعد العودة مرهقين من العمل ليفقدا مزيدًا من فرص البقاء لبعض الوقت معًا ليتبادلا أطراف الحديث والهموم المشتركة؛ على نحو يعمِّق الفجوة بينهما ويسبِّب الفتور العاطفي ويدفع بهما إلى العيش كغريبين في المنزل؛ إلا إذا تمَّ تدارك الأمر عبر ترتيبات مشتركة.

٣. ارتفاع الأعباء المالية على الأسرة وكثرة مشكلاتها:

مع تقدُّم عمر الأسرة فإن أعباءها المالية تتزايد بسبب وجود بنود جديدة للنفقات خاصة ما يتعلق بتعليم الأبناء فضلًا عن الرعاية الصحية التي تتزايد مخصَّصاتها بالنظر إلى تقدُّم السنِّ بالوالدين ورعاية الأبناء. يضاف إلى ذلك الأعباء الناتجة عن بلوغ الأولاد سن الزواج ما يحمِّل الأسرة أعباء جديدة ترتبط بتجهيزات والتزامات ذلك الزواج وغيرها على نحو يذكِّر بما مَرَّتْ به الأسرة الأولى عند إنشائها، وعلى نحو يفرض ضرورة إيجاد أنماط جديدة للنظر إلى الأبعاد المادية للزواج بحيث لا يتسبَّب في مشكلات كبيرة للمقبلين عليه وعلى أسرهم.

٢٤٨- عائشة الجناحي، الاحتراق النفسي والمهني، متاح على: https://www.albayan.ae/opinions/by-the-way/2019-06-04-1.3576417، ٢٠١٩/٦/٤.

٤. فقدان القدرة المالية:

يُعتبر فقدان القدرة المالية سببًا للمشكلات التي قد يواجهها الزوجان بحيث يعيشان في حالة انفصال أشبه بالطلاق لكنها ليست طلاقًا صريحًا. ولفقدان القدرة المالية أكثر من نمط أو حالة، أوَّلها عدم قدرة الزوج على تدبير نفقات الطلاق بما يتضمنه من مؤخر الصداق و مستحقات الزوجة من أجهزة وأثاث وذهب كما هو متعارف عليه في المجتمع المصري. وفي هذه الحالة يصرُّ الزوج على عدم الطلاق إلا إذا تنازلت له الزوجة.

ومن جهة الزوجة؛ يلعب فقدان القدرة المالية دورًا في استمرار العلاقة الرسمية رغم عدم الرغبة في ذلك، أما إذا كان للزوجة قدرة مالية وتتمتَّع بنوع من الاستقلال المالي فإنها تكون قادرة على الإنفاق على نفسها بعد الطلاق بحيث لا تشكِّل عبئًا على أهلها خاصة في حالة عدم قدرة الزوج أو عدم رغبته في دفع النفقة المستحقة لها ولأولادها.

٥. المساومة المالية على الطلاق:

في حالة وصول العلاقة الزوجية إلى طريق مسدود؛ يلجأ بعض الأزواج لمساومة الزوجة ماليًّا على حقوقها لتتنازل عن مستحقاتها مثل مؤخر الصداق أو قيمة الذهب أو تجهيزات المنزل أو غيرها، وربما يصل الأمر لأكثر من ذلك من خلال طلب مبالغ مالية إضافية لتطليق الزوجة، وهو ما قد يدفعها في حالة العجز عن الدفع أو في حالة الحاجة إلى حقوقها المالية إلى الاستمرار في العلاقة الزوجية رغم أنها وصلت لمرحلة الانفصال العاطفي.

٦. المغالاة في المهور ونفقات الزواج البديل:

في حالة وصول العلاقة الزوجية إلى طريق مسدود؛ يكون الطلاق ربما هو الحل الأمثل لإنهاء هذه العلاقة غير السوية؛ وقد يرفض الزوج إتمام إجراءات الطلاق رسميًّا حتى لا يتحمل تبعات هذه الخطوة من دفع مؤخر الصداق وغيرها.

وفي هذه الحالة؛ يكون الخلع هو الطريق الأمثل أمام الزوجة لإنهاء هذه العلاقة؛ لكن يحول بينها وبين هذا الإجراء المغالاة في المهور في كثير من الزيجات؛ ومن ثم في حالة طلبها الخلع تكون مطالبة بدفع المهر المدوَّن بعقد الزواج؛ حتى ولو لم تحصل عليه؛ ومن ثم تبتعد عن هذه الخطوة لتستمرَّ في حالة أشبه بالانفصام فلا هي تعيش حياة الزوجة ولا هي تتمتَّع بحقوق المطلَّقة.

٧. عيوب صحية ونفسية:

قد تنتج حالة الانفصال مع الاستمرار الرسمي للعلاقة الزوجية عن ظهور عيوب صحية أو نفسية لدى أحد الزوجين؛ قد يلجأ على إثرها البعض إلى الطلاق الرسمي في حين يفضِّل آخرون استمرار العلاقة بفتور سواء حرصًا على الأولاد أو لمصلحة.

٤) الطلاق النهائي

الطلاق هو انفصال الزوجين انفصالا ينهي صفة الزوجية. ويُعد بصفة عامة –والطلاق المبكر بصفة خاصة– من أهم الظواهر الاجتماعية التي يجب تناولها؛ حيث يؤدّي الطلاق إلى انهيار الحياة الأُسرية التي تُمثل نواة المجتمع وأساس اكتساب المعايير والتقاليد لأفرادها؛ مما يترتب عليه مشكلات كثيرة ذات أبعاد خطيرة مثل التشرد الأُسري، والانحراف الاجتماعي، وغيرها من المشكلات المدمِّرة.

والطلاق هو النتيجة الحتمية للزواج الفاشل، وهو إن كان نهاية مؤلمة للزوجين إلا إنه وسيلة جيدة لإنهاء الزواج الذي خلا من المودة والرحمة ولم يبقَ فيه إلَّا التوتُّر والصراع والعداوة والبغضاء؛ وذلك لأن انفصال الزوجين بالطلاق أفضل بكثير من الحياة الزواجية التعيسة التي يعيشانها معًا[٢٤٩].

ويبدو أن الخلافات والنزاعات التي تسبق الطلاق وليس الطلاق في حدِّ ذاته، هو الذي يؤثِّر على الأبناء والأطفال منهم على وجه الخصوص ويؤدِّي إلى المشكلات النفسية والسلوكية والمعرفية والاجتماعية خاصَّة إذا اقترنت هذه المنازعات المزمنة بانتقاص الحب الوالدي للأبناء مما يكون له أكبر الضرر عليهم[٢٥٠].

ويجب الإشارة إلى أن الطلاق استثناء لحل مشكلات الزواج وليس قاعدة، ولا يتم اللجوء إليه إلَّا بعد استنفاد كل وسائل الإصلاح (وهو مثل عملية جراحية لبتر جزء من الجسم) وعلى الأزواج تجنُّب ذلك بقدر الإمكان، إلَّا أن هذا البتر أحيانًا يكون ضروريًّا لاستمرار حياة الإنسان.

والطلاق من أصعب المشكلات الأُسرية، وأكثرها تأثيرًا على الزوجين، وباقي أعضاء الأُسرة، حيث يكون الطلاق بمثابة صدمة تؤثِّر على الصحة النفسية والجسدية لكلٍّ من الزوجين المطلقين، حيث تغيِّر مكانتهما الاجتماعية من متزوجين إلى مُطلقين. بالإضافة إلى نظرة المجتمع السلبية للمُطلقين، وفقدان الأصدقاء، وفقدان الصلة بين أسرتي الزوجين، وحالة الصراع التي يُعاني فيها الزوجان من الإحساس بالفشل في حياتهما، والحرمان من إشباع احتياجاتهما، فضلًا عن تَبِعَاتِ الطلاق المادية التي يلتزم بها الزوج، وأكثر ما في الطلاق ضررًا هو الأذى النفسي الذي يلحق بالأولاد، والصراع بين أُسرتي الزوجين[٢٥١].

٢٤٩- صفاء إسماعيل، ٢٠٠٨.
٢٥٠- نيفين محمد إبراهيم، ٢٠١٣.
٢٥١- عبد الله يوسف، ٢٠١٦.

الفصل الثاني

تفسير وقوع الطلاق وآثاره

تتبارى الدراسات والمنظورات المختلفة في تفسير وقوع الطلاق وزيادة معدلاته في الحقبة المعاصرة، ويعتمد هذا الدليل التفسير التكاملي الذي يجمع أكبر قدر من زوايا النظر والمتغيرات المؤثرة في حدوث الطلاق إن بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإن بصفة عامة أو لدى فئات مخصوصة دون غيرها.

كما تكتمل الصورة بالنظر في الآثار التي تترتب على وقوع الطلاق سواء بالنسبة إلى الزوجين، مع تباين أوضاعهما، أو بالنسبة إلى الأبناء، أو للأهل من الطرفين، أو أثرها على المجتمع ككل ودرجة تماسكه.

وفيما يلي نعرض بشيء من الإجمال لهذين الجانبين.

أولا– التفسير التكاملي لوقوع الطلاق

يقوم التفسير التكاملي في هذا الدليل على الجمع بين قدر من العناصر المفسرة لظاهرة الطلاق، مثل بُعد القيم والتصورات المؤثرة في الثقافة الاجتماعية السائدة والبُعد الاجتماعي، والبُعد النفسي، والبُعد الثقافي، والبُعد الاقتصادي.

قيم وتصورات حول الطلاق: الواقع والمثال

تمرُّ الأسرة والعلاقة الزوجية في العصر الحديث بالعديد من الصعوبات التي تعوق استمرارها وتحكم عليها بالفشل. ويكون هذا الفشل إمَّا فشلًا كاملًا بإنهاء العلاقة بالطلاق، أو فشلًا مقنَّعًا باستمرار ظاهرِ العلاقة دون جوهرها. ولهاتين الصورتين العديد من الأبعاد الثقافية فيما يمكن تسميته بثقافة الطلاق السائدة في المجتمع والتي نتعرَّض لها في إطار النقاط التالية:

- التصورات الثقافية المسبِّبة للطلاق الفعلي.
- التصورات الثقافية الحاجزة عن الطلاق الفعلي، والدافعة للطلاق الصامت.
- الطلاق وقيمه الحاكمة بين الواقع والمثال.

التصورات الثقافية المسببة للطلاق:

يقع الطلاق غالبًا نتيجة تضافر العديد من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويكون لأحد الأسباب الغلبة في اتخاذ الطرفين أو أحدهما قرار إنهاء العلاقة الزوجية. وهناك العديد من الأسباب الثقافية التي تدفع الطرفين أو أحدهما إلى إنهاء العلاقة؛ من أبرزها الثقافةُ المادية الاستهلاكية السائدة في المجتمعات المعاصرة، وتصورات الزوجين وأهليهما عن دور كلٍّ منهم في العلاقة الزوجية، وتصورات الطرفين عن المرأة

ودورها في المجتمع والمساواة بينها وبين الرجل (وليس التكامل)، وتضارب التوقعات والاحتياجات وبالذات في العلاقة الحميمية، وتضارب الرؤى حول وضع الخصوصية الزوجية، وغير ذلك من الأسباب.

فبالنسبة إلى *الثقافة المادية الاستهلاكية*، تتَّسم المجتمعات المعاصرة بسيطرة النزعة المادية الاستهلاكية على كل جوانب الحياة على حساب القيم. فقد أصبح الحساب المادي هو أساس في حساب كل القيم، داخل مؤسَّسة الزواج وخارجها. ففي العلاقة الزوجية، تقيس العديد من الزوجات اهتمام زوجها وحنانه عليها بمقدار ما قدَّمه لها عند الزواج وما يُهاديها به بعده، ويثبتُ إخلاصُه للأسرة بمقدار الدخل الذي يُدِرُّهُ على المنزل ومقدار ما يسدُّه من احتياجات ومتطلبات أفرادها حتى لو كانت كماليات.

وفي المقابل، تسيطر أيضًا النزعة المادية على الرجال في نظرهم لزوجاتهم ولعلاقتهم الزوجية. فالرجل يريد من زوجته كي يرضى عن علاقته بها أن تشبه عارضات الأزياء والممثِّلات ممن تُنفَق عليهن آلاف الدولارات لحفظ صورتهن المصطنعة؛ ويضعها دومًا في مقارنات ظالمة، يكون حسابه الوحيد فيها هو الحساب المادي الجنسي، دون أي نظر إلى ما تقدِّمه من تضحيات أو ما تبذله من جهود معه ومع أولاده.

وفقد أو قلة مستوى هذا المعيار المادي الاستهلاكي يدفع بكثير من الأزواج إلى الطلاق.

تصورات الزوجين وأهليهما عن دورهم العلاقة الزوجية

تتَّسم المجتمعات العربية بارتفاع معدلات الطلاق الناشئة عن تدخُّل الأهل في الحياة الزوجية. ويتراوح هذا التدخل بين التدخل أثناء المشكلات الكبرى لحلِّها، وبين أمر الأهل أحد الزوجين بإنهاء العلاقة الزوجية. وهناك العديد من الصور بين هذين الحدَّيْن. وتتنوع الأسباب الدافعة إلى هذا التدخل بين أسبابٍ قريبة كالغيرة والأمور المالية والخدمة المنزلية وشئون الأحفاد والتدخل لإصلاح خلل مفترَض، وأسبابٍ بعيدة كضعف الوازع الديني والفقر وتوثُّق العلاقة الأسرية في المجتمعات العربية وصراع الأجيال وأسلوب التنشئة الاجتماعية[٢٥٢]. لكن من أبرز الأسباب الدافعة إلى التدخُّل والمتحكمة فيه نوعية الأفكار والتصورات السائدة لدى جميع الأطراف.

تصورات الزوجين عن المرأة ودورها في المجتمع والمساواة مع الرجل

يُعَدُّ اختلال أدوار الأسرة من أبرز الأسباب التي تؤدِّي إلى الطلاق في المجتمعات العربية مؤخَّرًا. فالنموذج المعتاد من زوج ينفق على البيت وله الأمر فيه، وزوجة ترعى البيت والأولاد وفقًا لما يراه الزوج بتشاورٍ معها أو بغير تشاور؛ أصبح هذا النموذج نادر الوجود في المجتمع المعاصر. ونتج هذا التغيُّر عن العديد من العوامل من بينها الضغوط الاقتصادية التي جعلت الرجل غير قادرٍ على تحمُّل أعباء الإنفاق وحده، ودفعت المرأة للعمل. لكن أبرز هذه العوامل هي مجموعة الأفكار والتصورات الحديثة الخاصة بموضع المرأة في المجتمع وإعادة بناء مفهوم المساواة (وليس التكامل) بين المرأة والرجل.

---

٢٥٢ أيمن صالح، تدخل الأهل في حياة الزوجين وأثر ذلك في حدوث الطلاق، الأردن: مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، مج٦، ع٢، ٢٠٠٤، ص ص ١-٣٦.

أصبح من المعتاد أن نسمع من قطاع متزايد من الفتيات تحقيرًا لفكرة أن تكون المرأة "ربة منزل". فتصورها عن موضعها في المجتمع الحديث يتمركز حول أن يكون لها مسار مهني خاص وقدرة مستقلَّة عن زوجها على الإنفاق وحول عدم السماح له (أو لأي رجل) بالسيطرة عليها والتحكُّم فيها. وعليه، تتغيَّر أولوياتها من رعاية البيت وتربية الأولاد إلى اكتساب المهارات التي تؤهِّلها لمنافسة الرجال في ميدان العمل. وفي المقابل، لا نجد تغيرًا في نظرة الرجل لنفسه، فينشأ عن ذلك تضارب في الرؤى حول دور المرأة في المجتمع المعاصر مما يثير العديد من المشكلات، ويؤدِّي هذا التصور إلى شعور المرأة بحالة من الندية مع الرجل، وأنها ترى نفسها لا تقل عن الرجل في شيء، وعليه؛ لا يحق له أن يأمرها أوينهاها، وبذلك أصبح النزاع حول مفهوم القوامة غير المقبول من تلك الوجهة هو جوهر العديد من المشكلات الزوجية في مجتمعنا المعاصر.

وتشتبك هذه التصورات مع التصورات الخاصة بدور الأهل في العلاقة بين الزوجين فيما يخص خدمة الزوجة لأهل زوجها ومساعدتها لهم في مهامهم الشخصية. ففي حين ظل الأمر لفترةٍ طويلة في غالب العائلات المصرية على جواز –وأحيانًا إلزامية– خدمة المرأة لأم زوجها أو أبيه إن احتاجا لذلك، تغيَّر هذا الأمر في المجتمع المعاصر عند العديد من الفتيات. فكثيرٌ منهن الآن يرى أنه لا تلزمهن هذه الخدمة أو المساعدة، وأنهن إن فعلن ذلك فهو محض تفضُّلٍ منهن. يصطدم هذا التصور بتصور عددٍ كبيرٍ من الرجال ممَّن لا زالوا ينتظرون من زوجاتهم هذا الأمر بصورته القديمة؛ أن تكون زوجته معه في خدمة والديه إذا احتاجا ذلك أحدهما أو كلاهما (كأن يصبح أحدهما أرمل بعد وفاة شريك حياته).

وفي هذا الإطار أيضًا نجد أن تصورات العديد من الرجال عن المرأة يسبب العديد من المشكلات التي قد تفضي إلى الطلاق وفسخ العلاقة الزوجية. فبعض الرجال لا يرى في النساء إلا موضعًا لمتعته الجنسية، فتجده لايقيم وزنًا وربما يحقِّر من احتياجاتها النفسية والعاطفية، ممَّا يثير فيها شعورًا بالانتقاص ويدفعها نحو الطلاق.

تصورات ثقافية حاجزة عن الطلاق الفعلي دافعة للطلاق الصامت:

على كثرة هذه التصورات التي قد تدفع العديد من الرجال والنساء إلى اختيار الطلاق حلًّا لمشكلاتهم، هناك العديد من التصورات الأخرى المقابلة التي تحجز كثيرين عن الطلاق الفعلي، ويؤدِّي الصدام بين هذه التصورات جميعها إلى حالة من الطلاق تسمَّى بالطلاق الصامت أو الطلاق العاطفي؛ إذ ينفصل الزوجان انفصالًا عاطفيًّا كاملًا وهما يعيشان تحت سقف بيتٍ واحد. فالطلاق العاطفي أو الصامت هو "الطلاق غير المعلن على الملأ بين الزوجين، بل يكون أحيانًا من طرفٍ واحد ويكون الطرف الآخر جاهلًا به كليًّا"[٢٥٣].

٢٥٣ أمنية جودة مصطفى، الضغوط الأسرية وعلاقتها بالطلاق العاطفي لدى المتزوجين، بورسعيد: مجلة كلية التربية ببورسعيد، مصر، ع٢٠، ٢٠١٦م، ص٤٧٧.

تتنوَّع هذه التصورات الحاجزة بين تصورات حقيقية ناشئة عن الآثار الجانبية الضرورية للطلاق وعن التعامل الفعلي للمجتمع العربي –والمصري خصوصًا– مع الطلاق، وتصورات أخرى متخيلة نتيجة ما رسَّخته القنوات الثقافية كوسائل الإعلام والدعاية والإبداع الفني. لكن لا يفصل بين هذين النوعين خطٌّ واضح يمكن الإمساك به؛ فتختلط التصورات الحقيقية عن الطلاق مع المتخيل منها. فالطلاق قد شُرِع ابتداءً لأجل فتح باب إنهاء الحياة الزوجية غير ممكنة الاستمرار، لكن مع هذه التصورات أصبح الطلاق هاوية الجحيم بالنسبة للعديد من النساء وعلامةً على الضعف والفشل وضعف القوامة بالنسبة للعديد من الرجال.

نظرة المجتمع للزوجين بعد الطلاق

يندرج تصور المجتمع للمرأة المطلقة على رأس التصورات التي تحجز أي امرأة عن طلب الطلاق أو مجرد التفكير فيه. فقطاعات كبيرة من المجتمع المصري ترى المرأة المطلقة باعتبارها امرأة فاقدة الصلاحية، وأنها بالتأكيد لا تصلح للزواج وأنها لا غيرها السببُ في الطلاق. فالمرأة المطلقة هي امرأة لم تستطع تحمُّل مشاقِّ الزواج وما يشتمل عليه بناء أسرةٍ وعائلة، وعليه لا يمكن الاعتماد عليها. وذلك دون الاعتبار بأي تفسيرات دفعتْها للطلاق.

ولا يقتصر أثر هذا التصور على مجرد التعامل الفردي مع المطلقة، بل قد يصبح تعيين امرأة مطلقة في أي وظيفة أمرًا صعبًا، ويصبح التنمُّر عليها والتهامس حولها أمرًا معتادًا تقابله المطلَّقة في أي تفاعل مجتمعي، وكذلك تصبح إمكانية زواجها مرةً أخرى أكثر صعوبة، إذ لا يطلبها للزواج إلَّا من ينقصه شيء ما، متعلِّلًا بأنها مطلَّقة ولا تستحقُّ ما تستحقُّه البِكْر.

بل إن كثيرا من النساء حولها، حتى من المقربات لها من العائلة أو الصديقات، ينظرن لها باعتبارها "خطافة رجالة"، وأنها قد ترضى بأن تكون زوجة ثانية أو رابعة أو حتى بزواج عرفي لتلبية احتياجاتها المادية والمعنوية. واستكمالا لهذه النظرة يرى كثير من الرجال المرأة المطلقة (وكذلك الأرملة أو من كَبُرَ سنُّها دون زواج) "صيدًا سهلًا" وأنها قد ترضى بأي وضع وإن كان مخالفًا للشرع لتلبية احتياجاتها. ومن ناحية أخرى يحكم المجتمع على المرأة المطلَّقة بأنها حصلتْ على نصيبها من الزواج مرة، فلا حقَّ لها في خوض التجربة مرة أخرى، وإنما عليها أن تعتكف على تربية أبنائها وتعتزل الرجال والزواج، بل حتى وإن لم يكن لديها أبناء من زواجها الأول[٢٥٤].

لكن من أكثر ما يحجز المرأة هو انتشار هذا التصور حتى بين أهلها، إذ ترى الكثير من العائلات أن وجود ابنةٍ لهم مطلَّقة يعوق زواج غيرها من بنات الأسرة، وأنه أمر مُشين للعائلة كلها.

---

٢٥٤ انظر على سبيل المثال عرضا لبعض المشكلات والتصورات المجتمعية التي تواجه المرأة المطلقة خاصة والتي تعيش دون زوج عامة في: مها سامي، الهانم Divorced، القاهرة، الرواق للنشر والتوثيق، ط٢، ٢٠١٨، ص ٢٩ – ٤٣.

في المقابل، نجد أن نظرة المجتمع للرجل المطلِّق أقلَّ حدَّة، لكنها تظلُّ حاجزةً له عن الطلاق. فالرجل المطلِّق في نظر بعض قطاعات المجتمع هو رجل فشل في حفظ بيته والإبقاء عليه. وبالتالي، تصبح فرص قبوله زوجًا مرةً أخرى أمرًا صعبًا إلى حدٍّ ما. إذ تفضل العديد من العائلات تزويج بناتهم لرجالٍ لم يسبق لهم الزواج قبلًا. لكن عادةً ما يصيب هذه التصورات بعضُ المبالغات، فتصبح حاجزة عن الطلاق بغير مبرِّر حقيقي. فيتصوَّر الزوجان أن طلاقهما يعني نهاية الحياة بالنسبة إليهما، فيختاران الإبقاء على حياتهما بما فيها من عنت.

تصور الزوجين عن أثر الطلاق

يحجز الزوجين عن الطلاق الفعلي أيضًا تصورُهما إياه باعتباره نهاية الحياة لكليهما وللأولاد. فالطلاق يعني القضاء على البيئة الأسرية التي تُعَدُّ موطن السكينة للزوج وموطن الأمان للزوجة ومحضن الأبناء الأول. إذ يتصوَّر الزوجان صعوبة بناء علاقات سوية بعد الطلاق بين الزوجين تسمح بتربية الأبناء بشكلٍ جيد.

نشأتْ هذه التصورات عن العديد من التجارب الفعلية التي تنتشر في المجتمع وتؤكد صعوبة تعايش الزوجين مع المجتمع بعد الطلاق كما أسلفنا، وكذلك صعوبة اندماج الأبناء في المجتمع. "فالطلاق من أكثر الأزمات خطورة على الصحة النفسية للأبناء، وأكثرها تعقيدًا"[٢٥٥]، وينشأ هذا التأثير السلبي نتيجة تعرُّضهم للكثير من المآسي وصور الضياع لعدم اهتمام الوالدين برعايتهم وعدم كفاية المؤسسات المجتمعية التي ترعاهم. فالانقطاع بين الزوجين في حالة الصراع العائلي هو انقطاع داخل نفسية الأبناء "لأنهما يختلفان من خلال الأبناء وبواسطتهم... إذ يعيش الأبناءُ تناقضَ الروايات العائلية، فيسرد كلُّ طرفٍ عليه رؤيته الخاصَّة للخلاف التي تخدم مصلحته، وكثيرًا ما يسعى أحد الطرفين إلى إبعاد الأبناء عن الطرف الآخر حتى لا يؤثر فيه وكلما ازداد العداء بين الوالدين ازداد معه التوظيف الأداتي للأبناء دون اعتبار لحساسية مرحلة النمو التي يمرُّون بها"[٢٥٦]. وبذلك يصبح الأبناء طرفًا فاعلًا في الصراع بين أبويه لكن دون أن يكون قادرًا على حسم تناقض أحاسيسه وتمزُّقه بينهما ممَّا يؤثِّر في نمو شخصيته وهُويَّته الفردية.

الطلاق وقيمه الحاكمة بين الواقع والمثال:

على الرغم من ارتفاع معدَّلات هذا الطلاق العاطفي الصامت في المجتمع المصري، إلَّا أن معدَّلات الطلاق الفعلي أيضًا في اطِّراد. فكثرة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يمرُّ بها المجتمع تمثِّل عاملًا ضاغطًا إلى حدٍّ كبيرٍ على الحياة الأسرية. وبذلك أصبح الطلاق من أكثر الظواهر انتشارًا في المجتمع. وكأي ظاهرة، تتنوَّع تمثُّلات الطلاق وأنماط التعامل معه بين فئة وأخرى. فنجد في المجتمع المصري أنماطًا

٢٥٥ منارة شحاتة أمين، فعالية برنامج إرشادي في مفهوم الذات لدى أطفال الوالدين المنفصلين بالطلاق من ٤-٦ سنوات، بورسعيد - مصر: مجلة كلية التربية، ع١٢، ٢٠١٢م، ص٧٥٥.

٢٥٦ نائلة الزغلامي، الطفل وثقافة الطلاق في تونس، تونس: مجلة كراسات الطفولة، المعهد العالي لإطارات الطفولة، ع١٩-٢٠، ٢٠٠٩م، ص ٧٣.

متعدِّدة في إدارة عملية الطلاق بين أنماطٍ تقترب من الصورة المثالية للطلاق التي أقرَّها الدين والعُرف، وأنماطٍ أخرى تناقض تمامًا غايتَه الأساسية.

يمثِّل نمط الطلاق الصحي القائم على الإحسان بين زوجين راقيين محترمين اتفقا على الطلاق لأجل مصلحة جميع الأطراف ورتَّبا تفاصيله بالفضل والمعروف، وتعاملا مع زواجهما السابق باعتباره مرحلةً عابرة، نمطًا نادرًا في المجتمع المصري هذه الأيام؛ نظرًا لتضاؤل الوازع الديني والخُلقي بين أفراد المجتمع إجمالًا.

ثانيا– آثار الطلاق:

أ) التحولات النفسية التي تحدُث في الطلاق

الطلاق عملية تطورية وهو يمرُّ بسلسلة من المراحل، تبدأ بظهور الأسباب، والعوامل ذات الصلة، ثم تستمر العملية إلى ما بعد الطلاق. ولكل مرحلة خصائصها المميزة ومتطلبات للتكيف وللتوافق معها، وهناك **خمسة تحولات في الطلاق** وهي:

١) الوعي الفردي

هناك بطء في إدراك معظم الأزواج أن العلاقة الزوجية هي سبب البؤس والتعاسة في الأسرة. ونجدهم يبحثون عن أسباب أقل تهديدًا مثل (الحاجة إلى بيت جديد، أو حتى إلى طفل آخر) فينكر كل من الزوجين وجود مشكلات زوجية، ويستخدمان أسلوب اللوم، لعلهما يستريحان من وضع يفهم أنه لا يُطاق، ويتصاعد الخلاف، ويصبح عنصرًا ضاغطًا، خصوصًا على الأطفال الذين يمثلون الرهائن في الصراع الزوجي، بعد ذلك يلجأ أحد الزوجين أو كلاهما إلى تحديد مصدر الضغط، وهو العلاقة الزوجية بحدِّ ذاتها والتي يتطلَّب الوضع إنهاؤها وقد يسعى الزوجان لإيجاد مجموعة من الحلول، ويعتمد ذلك على تاريخ الزوجين في أسلوب التكيُّف.

وفي هذه الحلول قد يقوم الزوجان باتخاذ قرار زائف، مثل العمل على تأجيل الطلاق، والبقاء متزوجين حتى يكبر الأولاد، ويحدُث الطلاق العاطفي في هذه المرحلة بعد فشل العديد من سلوكيات التكيُّف. وفي هذا التحوُّل تتمُّ المحافظة على التوازن رغم وجود عدم الاستقرار، ويظهر الضغط الداخلي في الأسرة بتقديم أحد أفراد الأسرة ككبش فداء.

٢) مرحلة الوعي بالمعرفة لدى الأسرة

وهي مرحلة عدم الاتِّزان حيث يتم تبادل المعلومات بشكل منفتح داخل الأسرة، وفي هذا التحول يحدث الانفصال الجسدي بعد إدراك حقيقة المشكلة التي تشير بأن الزواج هو مصدر للمشكلات، ويبدأ التحضير لهذه النتيجة، رغم استمرارية الروابط العاطفية ما بين الزوجين، وفي هذه الفترة تختفي القواعد و

الأدوار القديمة، وعدم وجود قواعد جديدة، فالمستقبل يصبح غامضًا، وتصير المشاعر متأرجحة ومتضاربة من الحب والكره، والفرح والحزن[٢٥٧].

٣) انفصال النسق الأُسري

هنا تميل الأزمة في الأسرة إلى التفاقم ويصبح الانفصال بين الزوجين في جميع أحواله هو الحل للمشكلة، ويشترك الزوجان في تحولات طويلة الأمد من الانفصال والمصالحة عدَّة مرات لشعورهم بالذنب حول كآبة وتوتُّر الأطفال في الأُسر المطلقة، وتبقى الأم والأطفال كوحدة واحدة، حيث تتحمَّل مسؤولية إدارة البيت بمواجهة مشكلة إعادة التنظيم، وأداء أدوار جديدة حيال الغياب الجسدي، ويقوم الزوجان هنا بمناقشة انفصالهما الزوجي مع الأسرة الممتدَّة، والأصدقاء، وأفراد المجتمع، ويحتاج هذا إلى الشجاعة للتوافق مع هذه الاحتياجات.

٤) إعادة تنظيم النسق الأُسري

يعمل غياب الحدود الواضحة بين الزوجين على حدوث الضغط النفسي، بشأن تحديد متى وكيف على الوالدين التعامل والتواصل مع الأبناء عند حدوث الطلاق ورحيل أحد الوالدين. وتسمَّى هذه الأسرة : "أسرة ذات والد أعزب أو والدة عزباء"، كوصف للأُسر المطلقة، فتصبح الأمهات الوصيات أكثر إحباطًا وكآبة، بسبب المسؤوليات الناتجة من التحمُّل الزائد للدور الذي يقمن به. كما يعاني الأطفال نتيجة لعدم تواصل الأطفال مع آبائهم من الكآبة بشكل حاد، أو بقاء التواصل بشكل محدود.

٥) إعادة تعريف أدوار الأسرة

كيفية تعريف الأسرة المطلقة لنفسها وللمجتمع وللأصدقاء أمر حاسم، وهذا التعريف ما هو إلَّا إعادة ترتيب طبيعة العلاقة في الأسرة المطلقة ما بين الوالدين، فكلما كانت العلاقات مستمرة، وتعاونية، وداعمة بشكل مشترك ما بين الوالدين المطلقين؛ أدَّى ذلك إلى التقليل من احتمالية حدوث الأزمة المرافقة للطلاق. أما أهم محور لعملية إعادة التعريف لدور الأسرة، فهو مقدرة الآباء في المحافظة على علاقة محورها الأبناء[٢٥٨].

وهناك تصور آخر لمراحل التحول أو التغير النفسي بعد الطلاق، فيُمكننا تصور وجود عدَّة مراحل متتابعة لعملية الطلاق، وبالرغم من تداخلها، فإنه يمكن تمييز بعضها عن بعض، ويُمكن توضيحها كالآتي:

- **المرحلة الحادة:**

٢٥٧- سعاد منصور غيث، ٢٠١٤.
٢٥٨- سعاد منصور غيث، ٢٠١٤.

تحدث هذه المرحلة فجأة نتيجة للانفصال الحاسم بين الزوجين وتكون مصحوبة في العادة بالخطوة القانونية للترتيب لإنهاء الزواج، ورحيل أحد الوالدين عن المنزل، وتتراوح مدة هذه المرحلة من عدَّة شهور إلى أكثر من سنة من بداية تلك العملية القانونية.

- **المرحلة الانتقالية:**

ويقوم الوالدان المطلقان والأبناء في هذه الفترة بأدوار غير مألوفة وعلاقات جديدة داخل تركيب الأُسرة الجديد، وفي الغالب تقوم وحدة الأُسرة الجديدة بتغيير محل إقامتها ويُمكن أن تتعرَّض الأم والأبناء إلى انخفاض مستوى المعيشة وأسلوب حياة جديدة حيث تتحمَّل الأم جزءًا أكبر من المسؤولية الاقتصادية، ويحتمل أن تتغيَّر علاقة الوالد بالأبناء تغيُّرًا جذريًّا، وهذه التغيُّرات الجذريَّة تتطلَّب عمليات توافق مُعقَّدة ومؤلمة.

- **مرحلة الاستقرار:**

وتتأسَّس في هذه المرحلة أسرة ما بعد الطلاق كوحدة مُستقرَّة تؤدِّي وظائفها. وفي هذه المرحلة قد يلجأ فيها أحد الطرفين أو طرف منهما إلى الزواج مرة أخرى للشعور بالاستقرار من جديد. ويكون لكلِّ طرفٍ من الطرفين المطلقين أدوار ثابتة مُحدَّدة مُتفق عليها[٢٥٩].

ب) التأثيرات النفسية للطلاق على الزوجين

تناول الباحثون ردود الفعل الأولية لخبرة الطلاق، فمن **الناحية الانفعالية** يخبر المطلقين ببعض المشاعر السلبية مثل الحزن، والشعور بضعف العزيمة والهمَّة، والاكتئاب، والرغبة المفاجئة في البكاء، والغضب، والإحباط، والشعور بالذنب؛ لعدم التمكُّن من منع الطلاق، والشعور بالصدمة، وعدم التصديق، خصوصًا إذا كان الطلاق مفاجئًا، وغير متوقَّع، والشعور بالإرهاق والإعياء، وبالحزن، والشعور بالتشويش، واختلاط الأمور[٢٦٠]، فضلًا عن بعض الآثار الصحية والجسديَّة.

وعلى المستوى المعرفي، فبعد المرور بخبرة الطلاق قد تراود المطلقين مجموعة من الأفكار منها: عدم التصديق، وعدم التركيز، والاستغراق في التفكير في الطلاق دون سواه، واستدعاء الذكريات الماضية، والتظاهر بالعودة إلى الماضي، و تخيُّل أن شريكه الذي طلَّقه ما زال موجودًا معه... إلخ.

أما على **المستوى السلوكي**، فقد تحدث اضطرابات في النوم، واضطرابات الأكل فبعض الأشخاص يزيد أكله ووزنه، وآخرون يجدون صعوبة في الأكل، ويفقدون شهيتهم للطعام، كما يظهر الانسحاب الاجتماعي، بجانب تغيُّرات في مستوى النشاط، فقد يجد المطلق نفسه خاملًا أو قلقًا، أو كثير الحركة[٢٦١].

٢٥٩ - نيفين محمد ابراهيم، ٢٠١٣
٢٦٠ - سعاد منصور غيث، ٢٠١٤
٢٦١- سعاد منصور غيث، ٢٠١٤،

١) التأثير النفسي للطلاق على الأبناء:

يعتمد التأثير النفسي للطلاق على الأبناء على ثلاثة عوامل، وهي نوعية العلاقات الأُسرية، وشدة الصراع الأُسري ومُدَّته، ومدى تلبية احتياجات الأبناء بعد الطلاق[٢٦٢].

إن الأبناء الذين يمرُّون بخبرة طلاق والديهم يعانون من صعوبات وضغوط أكثر من أبناء الأُسر المستقرَّة. حيث يرتبط الطلاق –على المدى القصير– بانخفاض التحصيل الدراسي لدى الأبناء، وانخفاض تقدير الذات، وحدوث مشكلات خاصة بالتوافق الاجتماعي. ويُسبِّب الطلاق أيضًا بعض المشكلات الخطيرة على المدى الطويل –لدى بعض الأبناء– مثل مشكلات الصحة النفسية، وتعاطي المخدرات، والجنوح، والسلوك الإجرامي وغيرها من المشكلات، فالطلاق لا يكون تأثيره السلبي على الزوجين وحدهما ولكن من خلال هذه التجربة الأليمة يمرُّ الأبناء أيضًا بمشاعر مضطربة ذات تأثير سلبي على حياتهم النفسية والجسدية الأكاديمية والاجتماعية[٢٦٣].

ومن الآثار السلبية التي تترتَّب أيضًا على الأبناء نتيجة طلاق الوالدين "الصراع العاطفي" بين حبهم لكلٍّ من الوالدين، وعدم قدرتهم على الانحياز لجانب دون الآخر، ومعاناة الأطفال لإحساسٍ عميقٍ بالتهديد والخوف؛ نتيجة لما يصاحب الطلاق من اضطراب كبير في أوضاع الأسرة المختلفة، واستغلال الأبناء للانتقام والإيذاء المتبادل بين الزوجين، وبناءً عليه يقوم الأبناء بالنظر إلى المجتمع من خلال أُسرتهم، ومن تجاربهم فيها تترسَّب في أنفسهم الكثير من الانطباعات التي يتَّخذون منها أحكامًا عامة تؤثر في سلوكهم[٢٦٤].

ج) التقاضي للطلاق في مصر من منظور اقتصادي

تعاني الأسرة في السياق الحاضر العديد من الإشكاليات التي تشكل تهديدًا على وجودها واستمرارها بما يؤدِّي في النهاية إلى الطلاق، وليست الأزمة في الطلاق في حدِّ ذاته ولكن في تزايد معدَّلاته إلى حدٍّ مفزع ممَّا يبرهن على أن الأسرة المصرية في خطر شديد خاصة مع تناقص نسب الزواج في مقابل ارتفاع معدَّلات الطلاق.

وللطلاق في مصر العديد من الإشكاليات المالية، ليس فقط فيما بعد الطلاق والانفصال وكيفية البدء في حياة جديدة بالنسبة للطرفين، ولكن أيضًا أثناءه خاصة إذا تمَّ الطلاق عن طريق القضاء ومحاكم الأسرة.

قضايا الأسرة التي تتعلق بالنفقة:

262 - Al - ubaidi, 2017
263 -Emery, 2011.

٢٦٤ - أحمد محمد مبارك، ١٩٩٢.

هناك العديد من قضايا النفقة التي يمكن للمرأة إقامتها ضد زوجها أو ضد طليقها، ومن تلك القضايا التي يمكن رفعها ضد زوجها دون طلاق هي:

(١) زوج يرفض العمل: وتقام تلك القضية عندما تجد الزوجة زوجها لا يعمل ويتحجَّج بعدم العمل لعدم تحمُّل المسئولية ولا ينفق عليها وعلى أبنائه فعليها إقامة دعوى نفقة زوجية، وستقوم المحكمة بحفظ جميع حقوقها كأم وطلب تحريات حول دخله الشهري (إن وجد) وتخصيص جزء منه للإنفاق عليها وعلى أبنائها.

(٢) نفقة صغار: يمكن للمرأة حال عدم رغبتها إقامة دعوى طلاق، وامتناع زوجها عن دفع نفقة معيشة لأطفاله، مقاضاة زوجها بدعوى نفقة صغار، عملا بالمادة ١٨ مكرر ثانيًا من قانون الأحوال الشخصية رقم ١٠٠ لسنة ١٩٨٥، وهي وجوب نفقة الصغير على أبيه الذي لا مال له.

(٣) بيع أو تبديد الأثاث بدون علمها: وذلك في حالة نقص أو بيع أي شيء من أثاث المنزل من قبل الزوج دون موافقة زوجته وإخبارها، فيحقُّ لها رفع جنحة تبديد منقولات لأن المنقولات الزوجية تعتبر على سبيل الأمانة بالنسبة للزوج (وفقًا لقائمة المنقولات).

(٤) دعوى مصاريف مدارس: وذلك في حالة إهمال الزوج مصروفات أطفاله بالمدارس، فيحق للزوجة رفع دعوى مصاريف مدارس.

(٥) الزوج البخيل: وفي حالة بخل الزوج وعدم تحمُّله نفقات العلاج وشراء الأدوية أو رفضه أن يتكلف مصروفات عمليات ضرورية للزوجة وللأبناء، فيكفل القانون للزوجة أن ترفع على زوجها دعوى مصاريف علاج ليكون القضاء حكمًا بينهما[٢٦٥].

وهناك دعاوى عديدة يتم إقامتها من أجل الطلاق أو بعده، وأهمها:

- دعوى الطلاق للضرر لعدم النفقة، فعدم إنفاق الزوج على زوجته يعتبر من قبيل الضرر الذي يبيح لها أن تطلب من المحكمة تطليقها بسببه، سواء تعسُّفًا أو لقلَّة دخله، ولم يكن له مال ظاهر يمكن الحجز عليه لأخذ النفقة منه، وفشل في إثبات عجزه عن سداد النفقات الزوجية، فإنه يحق للزوجة رفع دعوى طلاق لعدم الإنفاق[٢٦٦]، والطلاق لعدم الإنفاق لا يسقط حق الزوجة في "المتعة، والمؤخَّر، والعدَّة، فضلًا عن أن قائمة المنقولات تكون من حقِّ الزوجة في جميع الأحوال والظروف حتى في حالة التطليق خلعًا"[٢٦٧].

---

٢٦٥ قضايا نفقة يمكن للمرأة إقامتها ضد زوجها دون طلاق، موقع فيتو، بتاريخ ٢٥ أغسطس ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: http://cutt.us/rHoqE

٢٦٦ سمر إبراهيم، إجراءات إقامة دعوى "طلاق للضرر" وأنواعها وصيغتها الكاملة، موقع البوابة نيوز، بتاريخ ٢٢ سبتمبر ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: http://cutt.us/O8BCg

٢٦٧ انظر الآتي:

- وهناك اختلاف كبير بين الطلاق للضرر لعدم النفقة والخلع، ففي الحالة الأولى يقع على الزوجة عبء الإثبات ويقع على الزوج عبء النفي بكافة طرق الإثبات الممنوحة للزوجة والفيصل بينهما قرار المحكمة، وعند حصول الطلاق للضرر من المحكمة فللزوجة الحصول على كافَّة حقوقها الشرعية من مؤخَّر صداق ومتعة ونفقة عدَّة وقائمة منقولاتها الزوجية.

- وبالنسبة للخلع، فللزوجة الحق في رفع دعوى قضائية للانفصال عن الزوج والطلاق منه فقط كونها تخشى ألَّا تستطيع أن تقيم حدود الله، وليس عليها إثبات وقوع ضرر من الزوج ويبقى لها وعليها عدَّة أمور، وهي: "رد مقدَّم الصداق، والتنازل عن المؤخَّر، وليس لها متعة، وليس لها نفقة عدَّة، ومن حقِّها الحصول على قائمة منقولاتها، وليس للخلع علاقة بحقوق الأطفال، وحكم الخلع نهائي ليس له استئناف"[٢٦٨].

- نيرة عبد العزيز، ٩ شروط لإقامة دعوى الطلاق لعدم الإنفاق، موقع فيتو، ٦ أكتوبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: http://cutt.us/XddUP
- ريهام طاهر، محامي: ٦ أسباب تدفع الزوجة لطلب تطليقها للضرر، موقع صدي البلد، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي http://cutt.us/sfsdz :

٢٦٨ للمزيد انظر:

- محمد فاروق -أحمد رجب، ما بين الطلاق للضرر والخلع.. تعرف على الحقوق القانونية لـ«الرجل والمرأة»، موقع بوابة أخبار اليوم، بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: http://cutt.us/V48kX
- علاء رضوان، ٧ فروق بين الطلاق للضرر والخلع، موقع صوت الأمة، ٦نوفمبر ٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: http://cutt.us/BdkdZ

الباب الثاني

من إدارة الأزمة إلى الطلاق بإحسان

الفصل الأول

نحو استراتيجية لإنقاذ الأسرة

مقدمة: نحو وقاية للأُسرة من الطلاق أو الانفصال

يجب تقديم تعليم أو تثقيف نفسي لكلٍّ من المقبلين على الزواج والمتزوجين عن التأثيرات السلبية والعواقب الوخيمة للطلاق، وأنهم يُمكن أن يؤدُّوا دورًا رئيسيًّا في تحقيق التوافق لدى الأُسرة، ذلك التوافق الذي من شأنه أن يُلَبِّي ويُحقِّق احتياجات الأبناء وتوافقهم في جميع الأعمار، ولكي يتم تحقيق ذلك، يُمكن اتباع الآتي:

١) نشر الوعي المجتمعي بعواقب الطلاق، وما يترتَّب عليه من تأثيرات سلبية على الأبناء والأُسرة بشكل عام.

٢) تقديم النُّصح والإرشاد وتقديم محاضرات توعية للمُقبلين على الزواج بحُسن اختيار شريك الحياة من عددٍ من الجوانب، وأن يدركوا أن الحياة الزوجية بها حقوق وواجبات ومسؤوليات يجب أن يتمَّ وضعها في الاعتبار لبناء حياة أُسرية سعيدة.

٣) اهتمام الشاب المقبِل على الزواج بالتعرُّف على أساليب تنشئة وتعاملات وسلوكيات أُسرة الفتاة التي سوف يرتبط بها، والأمر كذلك بالنسبة للفتاة؛ لأن كلَّ إناءٍ سوف ينضح بما فيه وحتى لم يتم الوقوع في مشكلة الطلاق بسبب التسرُّع.

٤) أن يكون الوالدان عطوفين تجاه أبنائهم، وتوجيه مشاعر الحبِّ والود غير المشروط لهم باستمرار.

٥) التدريب على كيفية التعامل مع النزاعات والخلافات الزواجية، والحفاظ على وجود علاقات دافئة مع الأبناء، وتحديد أولويات احتياجاتهم.

٦) الحفاظ على توفير قدر من الشعور بالأمان للأبناء.

٧) ممارسة المشاركة الأبوية الفعالة (أي العمل كفريق واحد بدلًا من النزاعات)، في حالة وجود تعارضات شديدة بين الوالدين، حيث يُمكن للوالدين في لحظة النزاعات أن يقلِّلوا من التفاعل والاتصال فيما بينهم لوقت محدود؛ حتى لا يظهر الأمر ويتطور أمام الأبناء.

٨) التشجيع على التواصل المستمر والمفتوح لكلِّ أعضاء الأُسرة عند القيام بالأنشطة اليومية. ويجب على الآباء أن يُنصتوا بفاعلية ويعترفوا بمشاعر أبنائهم عند التواصل معهم دون إصدار أيِّ حكم عليهم.

٩) عند اتخاذ الوالدين لقرار الانفصال عليهما أن يستغرقا بعض الوقت قبل الانخراط في علاقات جديدة ربما يكون هدفها مُجرد تغيير الوضع.

وبما أن مشكلة الطلاق تمثِّل أهمَّ الأزمات التي تتعرَّض لها الأسرة، وأكثرها تأثيرًا على مسارها واستدامتها وتأديتها لوظائفها ومهامها المجتمعية، كما أنها لا تحدق فجأة ولكنها تمرُّ بمجموعة من المراحل (وهي تراكم المشكلات الداخلية للأسرة) فنقترح في هذا الصدد استراتيجية مكونة من عدد من البرامج والمقترحات لإدارة الأزمات الأسرية، والتي تجنب الأسرة الوصول إلى المرحلة العليا لتلك الأزمة.

وهذه الاستراتيجية تعتمد على إدارة الأزمة من جانبين: **داخلي** وهو الأوْلى اعتبارًا وتقديمًا، والأكثر نفعًا لحلِّ الأزمات الأسرية –لا سيما الممهِّدة لمرحلة الطلاق– والجانب الثاني هو الجانب **الخارجي** لإدارة الأزمة، جانب (إصلاح ذات البين) من خلال طرف خارجي.

ونتناول بعض برامج هذه الاستراتيجية على النحو الآتي فيما يلي:

المقترح الأول

برنامج إدارة الأزمات الأسرية:

الإدارة الذاتية للأزمة (داخليًّا)

أولى هذه الخطوات في هذا البرنامج: الاعتراف بوجود أزمة أسرية، وذلك من أجل التصدِّي لها في مهدها "فترة الولادة"، وفي هذه الخطوة ينبغي إدراك وتحديد ما يلي:

أ. روافد الأزمة.

ب. المصادر التي تغذِّي الأزمة.

ج. حصر الأزمة من حيث الموضوع وأطرافها الرئيسية.

د. تحديد مسؤولية الأزمة سواء الزوج أو الزوجة أو كليهما.

هـ. إبعاد بقية أعضاء الأسرة (الأبناء) عن الأزمة.

و. الاستماع حول وجهة نظر في الأزمة من الطرفين الرئيسيَّين فيها (الزوج والزوجة)، وهو ما يجب أن يتضمَّن الاتفاق على:

- سرية النقاش والحوار.
- استهداف النقاش الوصول إلى حلٍّ للأزمة (جذري – مؤقت – متوسط المدى).
- وضع غاية الأسرة ووظيفتها نحو بقية (الأعضاء) كمقصد رئيسي لحلِّ الأزمة.

ز. تغليب العقل على العاطفة في التعامل مع الأزمة.

ح. تدخل طرف ثالث لإصلاح ذات البين لقوله تعالى: (**إن يريدا إصلاحًا**).

ويشترط –حال الاحتكام إلى طرف ثالث– حال التوتُّر الشديد لأحد أطراف الأزمة أن يتَّصف هذا الطرف بـ:

- الأمانة.
- الثقة من الزوجين.
- ألا يكون ضمن الروافد المغذية للأزمة حالًا أو مستقبلًا.
- الخبرة بامتلاكه الحكمة لحل مثل هذه الأزمات وليس العكس.

المقترح الثاني

بناء برنامج تدريبي لإدارة الأزمات الأسرية

ويتضمَّن ما يلي:

١. تصميم خارطة لإدارة الأزمات الأسرية ويتطلب هذا التصميم[٢٦٩]:

أ. التشـخيص الدقيق للأزمة: نوعها – جوانبها – امتداداتها الحالية – أطرافها – الظروف التي نشـأت فيها.

ب. تاريخ الأزمة ونشأتها، أي نقطة البدء، وتطورها حتى الوقت الحالي.

ج. العوامل المؤثرة في الأزمة، والقوى التي صنعتها.

د. تقدير موقف للأزمة بغرض تحليلها، وتقدير حجمها، ومخاطرها.

هـ. محاولة السيطرة على التداعيات الآنية اللازمة لحين الانتهاء من حلِّها أو الوصول إلى نتيجة فيها.

و. محاولة السيطرة على مغذِّيات الأزمة سواء كانت داخلية أو خارجية.

٢. الوعي بالمحاذير في إدارة الأزمة الأسرية، وأهم هذه المحاذير هي:

أ. إنكار وجود الأزمة: فهذا الإنكار يتيح للأزمة مناخًا للنمو حتى الانفجار، كما يسـمح للمغذِّيات الخارجية والداخلية بأن تمارس تغذيتها لموقف الأزمة.

ب. الحلول المؤقتة للمشـكلات الكبرى: وذلك لعدم الرغبة في تقديم حلٍّ جذري ونهائي سـواء لتكلفته النفسية أو الثقافية.

ج. كبت الأزمة: وهنا لا يعني إنكار الأزمة أو عدم الاعتراف بها، بل يعني محاولة تأجيلها والسـعي إلى تأخير ظهورها بقدر الإمكان، وتبدو خطورة هذا الموقف في حالة أن الأزمة لم تنته بتأجيل الظهور أو السـعي نحو التأخير، ويمكن أن يصـبح الكبت قوة كامنة نحو الانفجار والعنف في البحث عن حل.

د. بخس الأزمة أو التقليل منها ومن نتائجها ومخاطرها: واعتبار أنها (عارض غير خطر) سـرعان ما يزول بأسـهل الطرق وأقل التكاليف، وهذا النوع من اللامبالاة في النظر إلى التماسـك الاجتماعي للأسرة ومهدِّداته من أهمِّ مغذِّيات الأزمة الأسرية.

---

(٢٦٩) انظر حول إدارة الأزمات الأسرية:
- عقاب بن غازي بن عميرة: إدارة الأزمات التربوية، الرياض ١٤٣٠هـ، نسخة إلكترونية.
- محسن أحمد الخضيري: إدارة الأزمات، القاهرة، مكتبة مدبولي ١٩٩٠م.

هـ. عدم الاعتبار للمدى الزمني للتعامل مع الأزمة: وهو ما يشكِّل خطورة كبيرة على نتائج التعامل، فعامل السرعة له تأثير حاسم على سير الأزمة وعلى قوة دافعيَّتها، وكلما كان صاحب القرار (الذي هو في الغالب الزوج) يحسن ويهتم بعنصر السرعة ومعرفة مدى تأثيره على التعامل مع الأزمة والتصدِّي لها كلَّما كانت قدرته أكثر فعالية في التعامل مع الأزمة ووقف اندفاعها.

٣. إدراك مراحل الأزمة

يمرُّ التفكك الأسري (الطلاق) بعدَّة مراحل قبل أن يصل إلى قمتها وهي حالة (الطلاق)؛ وهذه المراحل هي:

أ. **مرحلة الكمون:** وهي فترة محدودة وربما تكون قصيرة جدًّا بشكل يجعلها غير ملحوظة، والخلافات فيها سواء كانت صغيرة أو كبيرة لا تتمُّ مناقشتها أو التعامل معها بواقعية.

ب. **مرحلة الاستثارة:** وفيها يشعر أحد الزوجين أو كلاهما بنوع من الارتباك، وبأنه مهدَّد وغير قانع بالإشباع الذي يحصل عليه من الطرف الآخر –أيًّا كان نوع ذلك الإشباع، لا سيما أكثرها أولوية وأهمية بالنسبة لأي من الزوجين.

ج. **مرحلة الاصطدام:** وفيها يحدث الاصطدام أو الانفجار نتيجة التراكم النفسي والانفعالي وتظهر المخزونات الانفعالية في صورة سلوك خارجي، وهذه المرحلة يُفاجأ فيها الزوجان بنموٍّ بذرة الخلافات إلى درجة يستحيل معها الإخفاء، وتبدأ العلاقات الأسرية (بين الزوجين) في طريق التشتُّت الاجتماعي والنفسي والعائلي.

د. **مرحلة انتشار النزاع:** إذا زاد التحدِّي والصراع والرغبة في الانتقام فإن الأمور تزداد حدَّة ويؤدِّي ذلك لزيادة العداء والخصومة بين الزوجين، والنقد المتبادل بينهما، ويكون هدف كلِّ طرف هو الانتصار على الطرف الآخر دون محاولة الوصول إلى التسوية، وينظر كل منهما إلى نفسه على أنه الإنسان المتكامل على حساب الطرف الآخر، ويزداد السلوك السلبي... وإذا كان السلوك السلبي يتعلَّق بناحية معينة فإنه سرعان ما ينتشر ليغطِّي النواحي الأخرى المتعدِّدة، وهذه المرحلة بمثابة إعلان "المعركة" الأسرية التي يحاول كلُّ طرف فيها الانتصار على الآخر.

هـ. **مرحلة البحث عن حُلفاء:** إذا لم يستطع الزوجان حلَّ المشكلة بمفردهما فإنهما يبحثان عمَّن يساعدهما في تحقيق ذلك من الأهل والأقارب والأصدقاء، وإذا استمرَّ النزاع لفترة طويلة، فإن القيم والمعايير التي تُحْكِمُ بناء الأسرة تصبح مهدَّدة، وهنا قد يلجأ أحد الطرفين أو كلاهما للحصول على الإشباع من مصادر أخرى (ليس شرطًا أن تكون منحرفة)، وأسوأ ما في هذه المرحلة هو انتقال النزاع إلى خارج الأسرة بكل ما فيه من أسرار وخصوصية، وكذلك فإن مرحلة

الانتقال بالنزاعات الأسرية إلى الخارج هو تجاوز لقيم الأسرة التي طالما تفضِّل الكتمان/الإخفاء لمشاكلها حتى يتمَّ تسويتها داخليًّا.

وتبدأ هنا مرحلة التحلُّل في الإعلان عن نفسها، خصوصًا إذا لم يكن الأهل والأصدقاء والأقارب الذين يتم اللجوء إليها يريدون إصلاحًا.

و. **مرحلة إنهاء الزواج**: وتصـــل الأســـرة إلى هذه المرحلة عندما يكون لدى الزوجين على الأقل الدافعية والرغبة لتحمُّل مسـؤولية القرار المتعلِّق بالانفصـال، وهذه المرحلة تعني عدم التفكير في العودة مرة أخرى للحياة الزوجية، وتبدأ مع هذه المرحلة معاناة نواتج الأســـرة من نوع جديد (الأبناء).

المقترح الثالث

بناء برنامج لاستشراف الأنماط السلوكية المؤدِّية للطلاق

يرصد هذا البرنامج مجموعة من الأنماط السلوكية التي من شأنها أن تؤدِّي إلى النزاع السري الدائم المؤدي بدوره إلى الطلاق، ومن أهم هذه الأنماط السلوكية:

١. السخط الدائم بين الزوجين:

هذه إحدى علامات الطلاق، حيث يكون هناك شقاق ويكون هناك عدم تآلف وعدم محبَّة قد تصل إلى كراهية الحياة مع الطرف الآخر في الزواج، وبالتالي يحاول كل منهما أن يبرِّر لنفسه هذه الكراهية بأن أفعاله جميعها مثيرة للاستفزاز، وبمرور الوقت تجد أنك بالفعل لا تطيق حتى أفعاله العادية؛ مثل طريقة أكله للطعام، وطريقته لقول الأشياء، وحتى صوته نفسه تكرهه، وهذا خطأ، فلا ينبغي أن يعيش اثنان في غلاف من الكراهية، بينما يجب أن تقوم الحياة الزوجية على المحبة والمودة الخالصة.

٢. شعور الزوجين أنهما يعيشان في حرب لا في منزل زوجية

إحدى علامات الطلاق أنك شعور الزوجين أنهما في حرب لا في حياة زوجية مستقرة وسعيدة، وبالتالي يسعى كل طرف منهما لكسب هذه الحرب بدلًا من أن يقوم بالتعاون مع الطرف الآخر لتسيير أوضاع منزل الزوجية والعبور بشئونه إلى برِّ الأمان، وإعطاء كلِّ شخص للآخر الحب والحنان والاحتواء والذي هو غاية الزواج وثمرته.

٣. مقارنة كلٍّ منهما بأزواج وزوجات آخرين

المقارنة دائمًا تدلُّ على عدم رضا، وتدلُّ على سخط تجاه شريك الحياة الزوجية، والندم على الاختيار، وهي إحدى علامات الطلاق، وبالتالي، لا ينبغي عقد هذه المقارنات أبدًا.

٤. تبادل الاتهامات

الذين يحبون بعضهم البعض والحريصون على إبقاء حياتهم الزوجية مستمرة، تجدهم دومًا يجلسون ويتناقشون ويرون أين الخلاف ويحاولون حلَّه بعقلانية ولا يعدم هذا بعض التنازلات من أحد الطرفين أو من كليهما، أما في حالة تبادل الاتهامات وإلقاء كل شخص مسئولية الأخطاء جميعها على الآخر وكل ما يكترث به هو تبرئة نفسه، فإن الأمور تسوء لدرجة قد لا يمكن تداركها.

٥. إفشاء الأسرار الزوجية بهدف الشكوى

للحياة الزوجية خصوصية لا بد من الحفاظ عليها وعدم إفشاء أسرارها مهما حدث ومهما كانت الخلافات، بل ينبغي رسم صورة الحياة السعيدة أمام الناس حتى وإن كانوا أقرب الأقربين، أما في حالة إفشاء الأسرار والشكوى لكلِّ شخص من الزوج أو الزوجة، فإن هذا يعني عدم وجود شيء يبكي

عليه طرفا هذه الأسرة، ومن الأفضل ألَّا تصبح سيرتكما على كلِّ الألسنة، لذلك من الأفضل عدم إفشاء الأسرار الزوجية حتى لا يتَّسع نطاق المشكلة.

٦. الخرس الزوجي المبكر

من أبرز ما يتعرَّض إليه الزوجان ويعدُّ علامة من علامات الطلاق أن يصيبهما خرس زوجي مبكر أي أنه بعد سنوات قليلة من الزواج يجدان أنفسهما لا يتحدثان في شيء سوى الضروريات بحيث إنهما قد يظلان يومًا كاملًا لا يقولا كلمة واحدة، وهذه حالة قد تصيب المسنين وكبار السن خصوصًا ممَّن وصلوا لسن الشيخوخة، لكن أن تصيب متزوجين لا زالوا في سن الشباب فهذه إحدى علامات الطلاق ودليل على أن هذه الزيجة في الغالب سوف تنتهي إن آجلًا أو عاجلًا حيث يدلُّ هذا على عدم وجود أي نقاط اتفاق بينهما وعدم وجود أي أشياء مشتركة يتحدَّثون فيها، ويدلُّ أيضًا على عدم وجود أي مودة أو عشرة طيبة؛ لأن ذلك قد يخلق حديثًا من اللاشيء ووضع زوجي سيء.

٧. عدم الشعور بأن هناك تفهُّمًا من الطرف الآخر

لعلَّ أبرز علامات الطلاق هي شعور كل طرف من أطراف الحياة الزوجية أنه ليس هناك تفهُّم أو شعور به من الطرف الآخر، وأي شيء سيُقال لن يتمَّ فهمه أو إدراكه أو حتى الاهتمام به، ومن المفترض أن هذا هو شريك الحياة، أي أنه أكثر شخص يجب أن يكون على وعي وتفهُّم وإدراك به وبهمومه، ومعنى أنه لا يفهم أو لا يدرك المشكلات أو الأزمات أو حتى الرغبات للطرف الآخر فهذا يعني أن هذه العلاقة في طريقها للطلاق.

٨. الحديث بين الزوج والزوجة بحدَّة

حين يكون حديث أحد الزوجين مع الجميع هو حديث لطيف وودود ولا ينطوي على نبرة حادة إلا عند الضرورة، ثم يصل الحديث بين الزوجين إلى مستوًى من الحدَّة في الحديث العادي، فإن هذا يعني أن هذين الزوجين في شقاق كبير، وأن حياتهما سويًّا بهذا الوضع قد تشكِّل خطرًا بالغًا، وأن هذه النبرة العنيفة للحديث والتي تعدُّ من أبرز علامات الطلاق لا تدلُّ إلَّا على شحن داخلي سلبي بينهما.

١٠. وجود خلافات جوهرية في التفكير

لا بدَّ أن الخلافات الجوهرية في التفكير هي إحدى أهم العلامات التي تهدِّد استقرار الحياة الزوجية، إذ لا يستطيع الجميع العيش مع التوجُّهات الفكرية المختلفة لرفيق الحياة؛ خصوصًا إن كانت هذه الخلافات جوهرية وغير قابلة للتعايش معها، أو التأقلم بأي شكل، والخلافات الفكرية والأخلاقية في الغالب هي ما تسبِّب الانفصال بين شخصين؛ لأنها تحتِّم تبنِّي سلوكيات معينة قد لا تتماشى مع الطرف الآخر أو لا تناسب مبادئه وأخلاقياته في الحياة.

١١. عدم الاكتراث بمشكلات الطرف الآخر

ينتاب الإنسان الشعور بالغربة عندما يجد أقرب الناس إليه أو من يُفترض به أن يكون كذلك لا يكترث به وبمشكلاته، وكأن هذه المشكلات تحدث لأشخاص آخرين لا صلة بينه وبينهم، أو يدخل أحد الطرفين البيت فيجد شريك حياته يجلس وتظهر عليه علامات الهمّ والاكتئاب ولا يفكِّر أن يسأله عمَّا به، هنا يكتشف الفجوة، وأنه يعيش مع شخص غريب في بيت واحد، وبالتالي يكتشف أن الحياة الزوجية غير موجودة بالأساس، وهذه إحدى العلامات التي تهدِّد استقرار الأسرة.

الفصل الثاني

الطلاق بإحسان أو إحسان الطلاق

الأصل في الزواج في ظل الإسلام أنه عقد أبدي، وقد جاء التوجيه الرباني: **(وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)** وقوله صلى الله عليه وسلم: "**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر**"، والتوجيه هنا للرجال لأنهم من بيدهم حلُّ الزواج. ولكن عموم هذا الخطاب يشمل النساء أيضًا. كما يدل على ذلك أيضا خلق الوفاء الذي ينبغي أن يتخلَّق به الزوجان، ذلك الخلق الذي حثَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**إن حسن العهد من الإيمان**»[٢٧٠] فحسن العهد الذي هو أحد صور الوفاء يقتضي أن يعفو العشير عن أخطاء صاحبه وينساها وأن يتحمَّل منه ما يكرهه. ومن ثم فلا عجب أن يجيء البيان النبوي أن: ""أبغض الحلال إلى الله الطلاق"[٢٧١].

ولكن قد تستحيل العشرة بالمعروف بين الزوجين، وهنا يكون الطلاق علاجًا لإصلاح خلل كبير أصاب الحياة الزوجية، وأحال العشرة بالمعروف بينهما، فيكون كالكي علاجا لبعض المرض. فالباعث على الطلاق هو اليأس من إمكان العشرة بالمعروف، وهذا يعني استنفاذ كل وسائل الصُّلح الممكنة، فالمصد الشرعي في الطلاق هو "ارتكاب أخف الضرر عند تعسُّر استقامة المعاشرة، وخوف ارتباك حالة الزوجين، وتسرُّب ذلك إلى ارتباك حالة العائلة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: **(إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله)**.

ومن ثم يكون الطلاق تشريعا استثنائيا وحلًّا لحالات خاصَّة جدًّا. فلا يجوز أن يُتَّخَذَ الطلاقُ وسيلةً للانتقام، أو التشفِّي، أو إظهار الرجولة أو الكبرياء، ولا يصحُّ أن يُتَّخَذَ سبيلًا للهروب من مسئوليات الزواج وتبعاته[٢٧٢]. ويعصي الله جلَّ وعلا مَنْ يطلِّق لغير سبب شرعي ومَنْ تختلع مِنْ غير مبرِّرٍ شرعي[٢٧٣].

وتتطلَّب إدارة أزمة الطلاق وعيا وحرصا من الطرفين على ما يلي[٢٧٤]:

- مصارحة الطرف الآخر باستحالة الاستمرار أو صعوبته دون الإساءة إلى شخصه.

---

(٢٧٠) المستدرك للحاكم، رقم: ٤٠، (١/ ١٥). وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٢٠٥٦، (١/ ٤١٣).
(٢٧١) سنن ابن ماجة، أبواب الطلاق، رقم ٢٠١٨، (٣/ ١٨٠). السنن الكبرى للبيهقي، باب ما جاء في كراهية الطلاق، رقم ١٤٨٩٤، (٧/ ٥٢٧). ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم: (٤٤)، ص ٨.
(٢٧٢) الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، ص ٢٥٥ وما بعدها.
(٢٧٣) ينظر: تفسير المنار (٢/ ٣١٠).
٢٧٤ د.محمد المهدي، الطلاق المتحضر، المنصورة، دار اليقين للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٥٩، ٦٠.

- الحديث عن الآثار المترتبة على القرار بالنسبة للزوجين وبالنسبة للعائلتين الكبيرتين وبالنسبة للأبناء، وكيفية مواجهة هذه الآثار بشكلٍ يقلِّل من ضررها على الجميع.
- وجود قناة تواصل جيدة تسمح بالتفاهم حول ما يستجدُّ من مشكلات.
- ضمان بقاء الرعاية الوالدية المتوازنة قدر الإمكان للأبناء بعد الطلاق.
- التفاهم في الحقوق والواجبات المادية على قاعدة التعامل بالفضل وليس بالعدل.
- الاتفاق على حفظ الأسرار والخصوصيات بين الطرفين وعدم استخدامها كوسيلة ضغط حين الغضب.
- الانتباه لعدم استخدام الأبناء كوسائل ضغط في أي ظرف من الظروف.
- عدم اللجوء لتشويه صورة الطرف الآخر وأن يكون الحديث أثناء إجراءات الطلاق عن موضوعات وليس عن أشخاص.

يقوم الطلاق بإحسان على ثلاثة أعمدة:

- وازعٍ ديني أو عرفي راسخ.
- الاحترام المتبادل بين الزوجين
- إدراك عميق لأسباب الخلاف.

تُمَثِّلُ أحكامُ الشرع أو حدود العرف أو كليهما في التصوُّر المثالي مرشدًا لكلِّ تصرُّفات الإنسان في المجتمع. فعند اتخاذه أيَّ قرار تمثِّل هذه الأحكام والحدود الإطار الذي يتحرَّك فيه الفرد، فلا يختار ما يصطدم معها. وفي أمر الطلاق، أقرَّ الشرعُ الإسلامي انفصال الزوجين عند استحالة الحياة، وسمح للطرفين باتخاذ قرار إنهاء الحياة الزوجية إن شعرا كلاهما –أو أحدهما– بعدم القدرة على تحقيق الغاية من الزواج، فأقرَّ الطلاق والخلع، وحذَّر من الإمساك المضِرِّ أو إبقاء واستمرار الزواج عنوة إذلالًا للمرأة أو رغبة في بخس حقوقها. وفي الوقت نفسه، جعل الشرع محدَّدات وقيود للطلاق حتى لا يكون أمرًا يستسهله الناس فيترتب عليه تفكُّك المجتمع وفساد أعضائه. ووضع أحكامًا تضمن حفظ حقوق الطرفين دون ظلم أحدهما، كالنفقة والرؤية والتمكين من المسكن وأجر الحضانة والرضاعة وغيرها من الحقوق.

وكذلك وضع العرفُ في معظم مناطق المجتمع المصري حدودًا لضبط شئون الطلاق. فلا يقرُّ العرف السوي –على سبيل المثال– إمساك المرأة ضرارًا، ويعتبر ذلك منقصةً في حق الرجل (وقلة أصل)، وكذلك لا يقر ابتزازها لأجل تطليقها مع التنازل عن حقوقها المنصوص عليها شرعًا والمتفق عليها عرفًا. ويُعَدُّ التفلُّت من هذه الأحكام والحدود السبب الرئيسي في أنماط الطلاق المنحرفة عن الطلاق المثالي.

ويعد أيضًا وجود الاحترام المتبادل بين الزوجين سببًا رئيسيًا في حفظ الود والعشرة فيما بينهما عند الطلاق وبعده. فلا يعتبر الرجل طليقته امرأةً سيئة فيُعادِيها ويمنع عنها أولادها، ولا ترى المرأة في مطلِّقها

وحشًا كاسرًا سرق منها زهرة شبابها هدرًا. وعليه يكون التعامل بينهما تعاملًا هادئًا منصفًا، فلا يأكل حقوقها ولا تتعنَّت معه. والزوج والزوجة الناضجان يدركان احتياجات أبنائهما "ويحاولان بعد الطلاق الإبقاء على مساحة من التفاهم والتواصل تسمح بإبقاء حالة الاستقرار والأمان المادي والمعنوي لهم، وهما يوصلان رسالة بأن هناك اختلافات في الطباع جعلت من الصعب استمرار العلاقة الصحية بينهما، ولذلك قرَّرا أن ينفصلا فانتفت بينهما صفة الزوجية ولم تنتفِ عنهما صفة الأبوة، فهما يمارسان أبوتهما لأطفالهما بشكل ناضج ومسؤول.

وكذلك، للإدراك العميق لأسباب الخلاف دورٌ كبير في تيسير عملية الطلاق والابتعاد عن أنماطه السلبية من ابتزاز وإمساك وقهر وعسف؛ حيث يدرك الطرفان أن الخلاف متبادل وأن لائمة عدم التوافق تقع على كليهما لا على أحدهما.

الطلاق بإحسان من الناحية النفسية

إن تحقيق "الطلاق الناجح" يتطلَّب البحث عن الوسائل التي من شأنها أن تحقِّق هدف الطلاق بين الطرفين بدون الوقوع في المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنه، ومن هنا تظهر قيمة الإفصاح عن هذا أمام الأبناء –دون الدخول في تفاصيل المشكلة– بشكل هادئ مع مراعاة أعمارهم ومدى استيعابهم لذلك؛ وهذا بهدف تهيئتهم للحياة الجديدة التي سوف يعيشونها والأمور الحديثة التي ستطرأ على حياتهم، ومعرفتهم لأسباب الانفصال بشكل سطحي ومُقنع، ومساعدة الأبناء على فهم الطلاق بأنه وسيلة سوف تمنح أبويهم فرصة أكبر للاهتمام بهم وفهم احتياجاتهم بدون الخلافات والنزاعات التي كانت تعتري الحياة الزوجية.

بعض التوصيات النفسية بعد المرور بخبرة الطلاق

هناك بعض التوصيات التي يجب تقديمها للمُطلقين بعد المرور بهذه الخبرة التي يتوقع كثير منهم أنها بداية لحياة أليمة، ومن هذه التوصيات:

١) يجب أن نعلم جيدًا أنه ليس بالضرورة أن كل زواج فاشل يؤدِّي إلى طلاق فاشل، فكما ذكرنا سابقًا فإن هناك طلاقًا ناجحًا يمنع كل ما يتعرَّض له الطرفين من مشكلات ومنغصات شاقة.

٢) يتوقَّف الحُكم على نجاح الطلاق من عدمه على حجم الصراع وإداركه وكيفية التعامل معه قبل الطلاق وبعده.

٣) يجب التخطيط والترتيب للطلاق كما كان الحال في الزواج، بل إن الترتيب في الطلاق أهم، وذلك لنفس السبب وهو الأبناء، فعليهم أن يُرتِّبوا أين سيكون الأبناء؟ وماذا عن مصاريفهم؟ وماذا عن دراستهم؟ وغير ذلك من أمور.

٤) بعد الطلاق يجب على الزوج أن ينتقل من مفهوم "أنا زوج" إلى مفهوم "أنا أب" والزوجة تنقل إلى "أنا أم"، وعليهم أن يعلموا جيدًا إن كانت العلاقة انتهت بينهم كزوجين فهي لم تنتهِ كشريكين للأبناء.

٥) على الطرفين أن يؤمنا بأنه وإن فشل الزوج والزوجة كزوجين فليس بالضروة أن يفشلا كأب وأم.

٦) على الزوج والزوجة إن كان أحدهما ناضجًا –أكثر من الآخر– من الناحية الفكرية أن يساعد الآخر من أجل إنجاح الطلاق وذلك من أجل الأبناء أو عليهم أن يستشيرا أهل التخصُّص في ذلك.